٦٨

الحروب الصليبية

الجزء الثالث

تأليف : وليم الصورى

ترجمة : د. حسن حبشى

الحروب الصليبية

الجزء الثالث

تأليف : وليم الصوري

ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

مقـــدمة

ترجمة الجزء الثالث

اما بعد ، فهذا هو الجزء الثالث من تقسيمنا للترجمة العربية لكتاب الحروب الصليبية • لوليم الصورى رئيس أساقفة صـــور ومستشار الملك « عمورى » ملك بيت المقدس الصليبى صاحب الحملة المعروفة ، على مصر وقريع صلاح الدين ، وذلك فى اخريات القرن الثانى عشر الميلادى •

واذا كنا قد اخترنا لهذا الكتاب عنوانا هو «الحروب الصليبية» فان العنوان الذى وضعه له مؤلفه فى نسخته الأصلية منذ ثمانيـــة قرون وعقد من الزمان هو : « الأعمال التى تم انجازها فيما وراء البحر » ، يقصد بذلك بلاد الشام ومصر وشمال العراق ، لاسيما امارة الرها الصليبية •

* * *

ان هذا الكتاب يستمد أهميته الخاصية من ان مؤلفه شـــاهد عيان لفترة مهمة وغير قصيرة من أحداث كتابه ، وهى احداث تركت

بصمتها فى تاريخ العلاقات بين الشـــرق والغرب ، من جهة ، لكما كانت لها آثارها السلبية والايجابية ـ فى مجريات الأمور فى العالمين الاسلامى والمسيحى ، والأخير بشقيه الأرثوذكسى والرومانى • كما أن وليم الصورى هذا ساهم بنفسه فى بعض هذه الأحداث مساهمة جدية سهلتها عليه ـ حينا أو فرضت بعضها عليه أحيانا أخـرى ـ مكانته التى كان يتبوؤها فى المجتمع الصليبى والمسيحى الشرقى من الناحيتين السياسية والدينية ، وما كان له من علاقات ذاتية بكثير من أقطاب العالم البيزنطى والصليبى والبابوى الرومانى •

* * *

وليس لنا من تعليق على هذا الجزء الثالث من الترجمة العربية سوى أننا حاولنا تفسير بعض الأحداث بنتف قصيرة من المصادر العربية والغربية على السواء ، كما اجتهدنا فى رد ما أمكن رده ـ وهو غير قليل ـ من المدن والأماكن التى وردت فى الكتاب كما وضعه صاحبه ـ الى مرادفاتها فى الكتب والمصادر الجغرافية والتاريخية العربية ، وأرجعنا اقتباساته الدينية الى أصولها من الكتاب المقدس فى التوراة والانجيل ، محتفظين بالنص كما ورد فى الترجمة العربية لهذا الكتاب عن الأصل من اللغات الأصلية •

كما اعتمدنا على بعض المصادر العربية لأحداث هذا الجزء ، ولكنا لم نشأ أن نثقل الترجمة العربية بالحواشى وبالتعليقات اذ أن اهتمامى ـ كعربى اللسان ـ فى هذا الكتاب وغيره مما ترجمت وما عندى من المصادر الأولى هو ترجمة ونقل الأصـول الاولى عن الحروب الصليبية الى القارىء العربى ليقف على كل أو بعض ما كتبه معاصروها الغربيون والمسيحيون الشرقيون من بيزنطيين وسريان وأرمن ومن شاركوا فيها مشاركة كلية أو جزئيـــة ، حتى تكتمل الصورة عن هذه الحروب بما يتيسر له من مطالعة هذه الأصـول حتى يتسنى له أن يقارن ذلك بما جاء في المصادر العربية الخاصة

بتلك الفترة ، ويصدر حكمه عليها ولاشك أنه سيكون اذ ذاك حكما أقرب الى الحقيقة والصواب ٠

* * *

ونعود مرة أخرى لنقول ان المراجع والفهـــارس الأبجدية المفصلة والمرادفات الفرنجية للأعــلام والأمــاكن التى وردت فى الكتاب ستكون فى ختام الجزء الرابع الذى يكتمل به كتاب وليـم الصورى فى ترجمته العربية ٠

ومن الله التوفيق ٠

أ ٠ د / حسن حبشى ٠

فصول الكتـــاب الثالث عشر

١ ـ القول فى قدم صور وشهرتها ٠

٢ ـ البقاع الشامية ومساحاتها ٠

٣ ـ القول فيما حول صور ومزاياها ٠

٤ ـ القول فى انجاز حصار صور وتعدد مرات حصارها ٠

٥ ـ صفة مدينة صور وبيان أحوال أهلها ٠

٦ ـ انجاز الحصار وتخصيص موضع لكل زعيم صـــليبى ٠ محاصرة المدينة والهجوم عليها ٠

٧ ـ الدماشقة المقيمون بصور يستبسلون فى الدفاع عنهـــا ٠ لكن سكانها كانوا متكاسلين بعض الشىء ٠

٨ ـ العسقلانيون يزحفون على القدس لمهاجمتها ، غير أنهـــم يصادفون معاملة قاسية من أهلها أثناء رجوعهم ٠

٩ ــ وصول « طغتكين » ملك الدماشقة لرفع الحصـــار ولكن الصليبيين يزحفون ضده فيحمله خوفه من استيلائهم عليها على العودة من حيث جاء ·

١٠ ــ سكان البلد يشعلون النار فى معداتنا الحربية القتـالية · شدة مقاومة رجالنا · الزعماء يرسلون الى أنطاكية فى طلب أحد المهرة فى الرمى بالقذائف ·

١١ ــ « بلك » يلقى مصرعه فى « منبج » مما يسبب فرحة عارمة تعم كافة رجال الجيش الصليبى · وصول امدادات جديدة لهم ومتابعة حصار المدينة ·

١٢ ــ العسقلانيون يعاودون الاغارة على الأصقاع التى حـــول بيت المقدس فى الوقت الذى لايزال فيه الجيش الصليبى يتابع الحصار ·

١٣ ــ أهل صور يكابدون مجاعة فاتكة ولكنهم يصمدون لها · وان أخذوا فى التأهب للاستسلام ، غير أن « طغتكين » يعود الى مساعدتهم لكن من غير جدوى · اســـتسلام البلد للجيش الصليبى ·

١٤ ــ أهالى صور يمضون ــ بعد تســـليمهم المدينة ــ الى زيارة المعسكر الصليبى · الصـــليبيون يتمون اســـتيلاءهم على المدينـــة ·

١٥ ــ فك أسر الملك وحصاره لمدينة حلب · الملك يضطر الى رفع الحصار عن البلد بعد اشتباكه فى القتال مع العدو ·

١٦ ـ الأمير « برسق » التركى يدمر أرجاء أنطاكية فيزحف الملك ضده · حدوث معركة بين الطرفين تنتهى بهزيمة العدو ·

١٧ ـ الملك الصليبى ينزل الهزيمة بالعسقلانيين والمصريين الذين قدموا للمساعدة ·

١٨ ـ الملك يغير على أرض الدماشقة فيزحف « طغتكين » لصده · شبوب المعركة وعودة رجالنا منتصرين ·

١٩ ـ « بونس » كونت طرابلس يستولى على مدينة « رفنية » · موت هنرى امبراطور الرومان ·

٢٠ ـ « البرسقى » يعاود غزو نواحى أنطاكية · رجاله يطعنونه ويقتلونه · وصول الأسطول المصرى الى الشام وهزيمته وارتداده من غير انجاز حملته ·

٢١ ـ بوهيموند الصغير يصل الى أنطاكية · الملك يعيد اليه النواحى التى آلت اليه شرعا بالوراثة ويزوجه ابنته ·

٢٢ ـ النزاع الخطير بين بوهيموند الصغير وبين جوسلين كونت الرها · مبادرة الملك الى الذهاب الى هناك وفضه هذا النزاع · المغاربة يشنون هجوما قاسيا على « سيراكيوز » الصقلية ·

٢٣ ـ تعيين أول رئيس أساقفة لصور ·

٢٤ ـ مجىء كونت أنجو « بناء على الدعوة التى وجهها اليه الملك وزواجه من « مليزند » كبرى بنات الملك » ·

٢٥ ـ وفاة « جورموند » بطرك بيت المقدس واستخلاف «ستيفن» مكانه · ظهور الخلافات بينه وبين الملك ·

٢٦ ـ ملك بيت المقدس يصاحب أمير انطـاكية وكونت طرابلس وكونت الرها في الاغارة على نواحي دمشق • اضطرار الملك الى التراجع بعد هلاك قسم من جيشه • موت « ستيفن » البطرك واختيار وليم(١) مكانه •

٢٧ ـ مصرع بوهيموند امير انطاكية في كيليكية قرب «المصيصة» • اسراع الملك بالذهاب الى انطاكية • أرملة بوهيموند «أليس» تحاول منع ابيها الملك من دخوله البلد الذى يأبى الأهالى الا أن يسلموه هو ذاته المدينة •

٢٨ ـ عودة الملك الى بيت المقدس • اصابته بمرض خطير يودى بحياته • دفنه مع غيره من الملوك فى كنيسة القبر الطاهر •

***

هنــا يبــدأ

الكتاب الثالث عشــر

الاستيلاء على صور وبسط السلطان المملوكى على اقاليم لاتينية اخرى

(١)

اذا اخذنا برواية القانونى الفذ « اولبيان » المولود فى صور فصور مدينة موغلة فى القدم لأنه يقول فى « وجيزه » تحت عنوان « الاختصاص » انه من الأمور الثابتة التى لا يرقى اليها الشك هو انه «كان لبعض المستعمرات حقوق ايطالية ، وقد أتاح موقع صور (التى ولدت بها والتى هى احدى المستعمرات الجليلة) لمدينة صــور ان تتســنم ذروة القيادة ، كما أن ظهورها منذ زمن بعيد ومنعتهــا الشديدة جعلاها ترتبط ارتباطا وثيقا باتفاقية مع الرومان ، فضلاً عن تمتعها بالحقوق الايطالية التى منحها لها امبراطورنا المقدس

« ساويرس » مكافأة لها على صدق عهودها مع جمهورية رومة وامبراطوريتها ٠

ويتجلى لنا من مطالعة الأخبار القديمة أن الملك « أجنور » وأولاده الثلاثة : « أوربة » ، و « كادموس » و « فونكس » اتخذوها دار اقامة لهم ٠

واذا أخذنا بما يقوله الفينيقيون فان اسم الناحية بأجمعها منظور فيه الى « فونكس » ومستمد منه ٠

أما ابنه الآخر « كادموس ، فهو الذى أنشأ مدينة « طيبة » الى جانب استنباطه حروف الهجاء اليونانية ، فكان ذلك عملا أضفى على ذريته من بعده مجدا تليدا ٠

أما الابنة « أوربة » فقد خلعت اسمها على القسم الثالث من العالم المعروف بأوربة ٠

* * *

ولقد اشتهر أهل صور فى التاريخ بالذكاء الألمعى وخفة الروح، ونسبت اليهم أول محاولة لتسمية عناصر الكلام بأحرف تتلاءم ومنطوقها ، وفضلا عن ذلك فانهم يتباهون بأنهم أول أهل الأرض فى تشييد بيوت لحفظ الأموال ٠

كما ساهموا فى الرفاهية عن طريق رموز الفكر الحية ، أولا وهى معرفة الكتابة ، وهذا أمر لاجدال فيه ، وهو وارد فى تواريخ العصور القديمة ، فيشير اليه « لوكارنو » ، مؤرخ الحروب الأهلية

اذ يقول أنه من الحق أن الفينيقيين هم أول من أقدموا على تحديد طول النغمات بعلامات بدائية · هذا اذا صدقنا ما تقوله الأخبار ·

كما اشتهرت مدينة صور أيضا بأنها كانت أول من قدمت للناس اللون القرمزى وعرفتهم به ، وهو ذلك اللون الرائع المستخرج من مسحوق الأصداف ومن سمك الأرجوان الغالى ، ومن ثم عرف هذا اللون منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا باسم « اللون الصورى » نسبة الى مدينة صور ذاتها ·

* * *

وتقول الروايات فيما تقول ان « سيشاريوس » وزوجتـه « الياريدو » قدما من صور الى ولاية افريقية وتم على أيديهمـا تأسيس مدينة « قرطاجة » التى بلغت من القوة مبلغا نافست بـه الامبراطورية الرومانية منافسة أدت الى تسميتها بالملكة البونيـة (أى الفينيقية) نسبة الى الناحية التى جاءا منها ، وهكذا اعتز القرطاجيون بأصلهم اعتزازا تمثل فى تسمية انفسهم بالصوريين ·

ونطالع فى الكتاب الأول « لمارو » أنه كانت هناك « مدينة قديمة استعمرها الرجال القادمون من صور » ، كما نقرأ قول القائل : «سوف لا أفرق فى معاملتى بين القرطاجيين والصوريين ، ولن أخص أحد الفريقين بميزات أحرم منها الآخر » ·

* * *

وكان لصور فى البداية اسمان أحدهما « عبرى » وهو Sur سير ، والآخر Tyre « تير » وهو الذى تعرف به حاليا ، والذى يرجع أنه يونانى الأصل ، وتفسيره « انجوسينا » Angousina أو المضايق » ، ولاجدال فى أنه مشتق من اسم مؤسسها « تيراس »

سابع أبناء يافث بن نوح الذى نهج فى تسميتها النهج الذى كان متبعا اذ ذاك فأطلق عليها اسمه هو ذاته ·

ويتضح وضوحا تاما ما كانت تتمتع به هذه المدينة من الشهرة وذيوع الصيت مما جاء فى حزقيال(٢). اذ يقول له الرب « وأنت يا ابن آدم فارفع مرثاة لصور وقل لصور : أيتها الساكنة عند مداخل البحر ، تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة ، ياصور أنت قلت : أنا كاملة الجمال ··· تخومك فى قلب البحور ·· بناؤوك تمموا جمالك ··· عملوا كل ألواحك من سرو سنير ··· أخذو أرزا من لبنان ليصنعوه لك سوارى ··· صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك ·· صنعوا مقاعدك من عاج مطعم فى البقس من جزائر كتيم ···· ·· كتان مطرز من مصر هو شراعك ليكون لك راية ·· الأسمانجونى والأرجوان من جزائر اليشة كانا غطاءك » · كما نطالع فى سفر اشعيا(٣) قوله عن مدينة صور :

« اعبروا الى ترشيش ·· ولولوا ياسكان السواحل ·· أهذه لكم المفتخرة التى منذ الأيام القديمة قدمها تنقلها رجلاها بعيدا للتغرب ··· من قضى بهذا على صور المتوجة التى تجارها رؤساء ومتسببوها موقرو الأرض » ·

❋ ❋ ❋

وكان « حيرام » الذى عاون سليمان فى بناء هيكل السيد ملكا على صور ، وكذلك كان « أبولونيوس » الذى ذاعت شهرة أعماله فطبقت الآفاق ·

كما ينتمى الى هذه المدينة أيضا « ابديموس بن ابديمون » وهو الذى حل ببراعته العجيبة المعميات التى كانت تنطوى عليها

الأحاجى والألغاز الكثيرة التى اعتاد سليمان أن يرســـلها الى « حيرام » ملك صور ٠

ويطالع المرء فى الكتاب الثامن للمؤرخ « يوسيفوس » قوله : « ان ميناندر الذى ترجم آثار الصوريين القديمة من الفينيقية الى اللاتينية يذكر هو الآخر هذين الملكين فيقول انه لما مات « أبيبالو » خلفه على العرش ولده حيرام الذى عاش ثلاثا وخمسين سنة ، حكم منها أربعة وثلاثين عاما ، وكان « أبديموس بن أبديمون » سجينا فى ذلك الوقت ، وهو الذى اعتاد أن يفك الألغاز والأحاجى التى كان يرسلها اليه ملك بيت المقدس ٠

كما نقرأ ما قاله بعدئذ « وبالاضافة الى ذلك فان سليمان ملك بيت المقدس كان قد أرسل الى حيرام ملك صور ألغازا يرجوه أن يحلها ، فان عجز عن حلها التزم بدفع مبلغ معين من المال كغرامة ، فلما أيقن « حيرام » أنه لن يستطيع لها حلا وأنه موشك على خسارة قدر كبير من المال عهد بحلها الى شخص آخر غيره من صور يدعى « أبديموس » فقام هذا الشخص بالتالى بوضع ألغاز أخرى قدمها لسليمان مشيرا عليه أن يغرم لحيرام قدرا كبيرا من المال ان عجز هو ذاته عن حلها » ٠

ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل هو الذى تسميه القصص الشعبية والأساطير بمارمولوق الذى يقال انه كان من عادته حل معميات سليمان ثم يضع أخرى تماثلها صـــعوبة ، ثم يقترح على الملك حلهـــا ٠

* * *

ولا تزال هذه المدينة تحتفظ بجثة « أوريجن » كما تدل على ذلك شهادة « جيروم » اذ رآها بعينى رأسه ، فقد كتب الى «باماخيوس »

ى « أوخيانوس » رسالة يقول فى مســـتهلها : « انه مر حتى الآن مايقرب من مائة وخمسين عاما منذ أن مات « أوريجن » فى صور »٠

فاذا رجعنا الى ما ورد عنها فى التاريخ المقدس وجدنا أن هذه المدينة هى موطن المرأة الكنعانية العظيمة التى تجلى ايمانها على أقوى صورة حين راحت تتوسل الى المخلص ليدفع عن ابنتها الضر الذى لحقها من الأرواح الشريرة ، فامتدحها السيد وأثنى عليها بقوله لها : « يا امرأة ٠٠ عظيم ايمانك ، ليكن لك ما تريدين » ٠

وقد تركت هذه المرأة من بعدها لبنات جنسها صورة من صور الايمان والصبر المحمود ، اذ كانت أول من علمتهن التوسل الى المسيح المخلص بتوسلات تضمنت الايمان والاحساس والأمل تبعـا لقول النبى(٤) « وبنت صـــور ، أغنى الشـــعوب تترضى وجهك بهدية » ٠

وصور هى قصبة كل فينيقيا التى احتفظت بالصدارة لنفسها بين جميع ولايات الشام بسبب النعم العديدة التى انفردت بها الى جانب ازدحامها بالسكان ٠

(٢)

من الأمور الجديرة بالالتفات ان اسم « سورية » يستعمل فى بعض الأحيان استعمالا واسعا حتى ليطلق على الاقليم كله ، وقد يضيق أحيانا أخرى فيقتصر على قسم واحد منه ، كما كان يضاف فى بعض العصور الى كلمة أخرى فيدل على ولاية معينة بالذات ، وهكذا فان سورية الكبرى تضم ضمن حدودها ولايات متعددة ، وهى تمتد من نهر الفرات حتى مصر ومن كيليكية حتى البحر الأحمر ، وتسمى الولاية الأولى من ولايات الجزء الادنى منها (وهو الواقع

بين دجلة والفرات) باسم « ميسوبوتيميا » أى ما بين النهرين ، وقد أطلق هذا الاسم عليها لوقوعه بين النهرين (بين دجلة والفرات) ولما كان النهر فى اليونانية يعرف باسم « بوتاموس » وفى اللاتينية باسم « فلوفيوس » ، ولما كانت هذه المنطقة جزءا من سورية فطالما وردت فى الكتب المقدسة باسم « ميسوبوتيميا » الشام ٠

أما الولاية الثانية الكبرى من سورية والتى تلى أرض ما بين النهرين فتشتمل فيما تشتمل عليه على مدينة أنطاكية العظيمة وجميع ما يتبعها من البلدان ٠ أما الكيليكيتان اللتان هما جزء من سورية فتقعان شمال هذه الولاية المطلة جنوبا على فينيقيا ، ولها التقدمة على سائر أقسام سورية ، ولقد ظل هذا القطر أعواما طويلة وهو ولاية واحدة ، أما الآن فقد صار قسمين أحدهمـــا هو « فينيقيـــة البحرية » وقصبتها صور التى نتحدث عنها الآن والتى تتبعها أربع عشرة مدينة ، وهى تمتد من نهر فالينا « الذى يجرى على مقربـــة من حصن المرقب حتى الصخرة الناتئـــة المعروفـــة الآن باســـم « ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ وهى قريبة كل القرب من نفس المدينة القديمة التى كانت تسمى بصور القديمة ٠

وأما المدن التى تقع فى نطاق هذه الولاية فهى كما يلى :

أولاها من ناحية الجنوب مدينة « بورفيريون » المعروفة أيضا بحيفا ، والمسماة فى اللغة الدارجة بكيفاس ٠

وأما الثانية فبطليموسة المعروفة أيضا بعكا ٠

وأما الثالثة فتقع الى الشرق وتعرف ببانياس التى هى قيصرية فيليبى

وأما الرابعة من ناحية الشمال فهى « سارينا أو صرفند » ٠

وأما الخامسة فصيداء ·

وأما السادسة فبيروت ·

وأما السابعة فجبيل ·

وأما الثامنة فبترون ·

وأما التاسعة فطرابلس ·

وأما العاشرة فأرتوريا ·

وأما الحادية عشرة فعرقة ·

وأما الثانية عشرة فأرواد ·

وأما الثالثة عشرة فطرطوس ·

وأما الرابعة عشرة فمرقية ·

أما فينيقية الثانية (الصغرى) فتعرف بفينيقيـــة اللبنانية ، وعاصمتها دمشق وتسمى أيضا بسورية ، فيقال على سبيل المثـــال « دمشق رأس سورية »(٥) ·

ولقد قسمت سورية هذه فيما بعد الى قسمين أحدهما يعرف بفينيقية دمشق ، والآخر يعرف بفينيقية حمص ·

وأما المنطقتان العربيتان فهما جزء أيضا من سورية ، وعاصمة أولاهما بصرى ، أما الثانية فتعرف بتدمر الصحراوية ·

وهناك أيضا سورية سوبال وعاصمتها « سوبال » والتى هى الأخرى جزء من سورية الكبرى ·

كذلك فان المناطق الفلسطينية الثلاث تؤلف هى أيضا جزءا من سورية ، وينفرد أولها باسم « يهوذا » وعاصمته القدس ، وأما

عاصمة الثانى فقيصرية البحرية ، وأما قصبة الثالثة فهى « سيزيوبوليس » المسماه أيضا ببيسان ، ومركزها الآن مدينة الناصرة ٠

وأما آخر ولاية من ولايات سورية الكبرى فهى ولاية « أدوم » وتتجه نحو مصر ٠

(٣)

لم يقتصر الأمر فى صور ــ كما ذكرنا ــ على مناعة تحصينها ، بل كانت تشتهر الى جانب ذلك بتفردها بجمال الموقع وخصب التربة ٠ وعلى الرغم من وقوعها فى البحر ذاته واحاطة الأمواج بها من كل جانب حتى لتبدو وكأنها جزيرة الا أنه يمتد أمام أبوابها حقول فسيحة تصلح كلها للزراعة ، على حين ينبسط أمام المدينة ذاتها سهل خصب التربة غزير الانتاج يوفر للأهالى فى صور كميات هائلة من المواد الغذائية ٠

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة قد تبدو صغيرة للعيان اذا ما قورنت بغيرها من المناطق الأخرى الا أن انتاجها الغزير يقوم بديلا عن ضيق رقعتها ، وتعادل ما تغله غلة فدادين شاسعة من الأراضى الخصبة ، ثم انها ليست منطقة مغلقة ، اذ تمتد من ناحية الجنوب صوب عكا وتصل الى المكان المعروف الآن باسم «سكندليوم» الواقع على بعد اربعة او خمسة أميال من صور ، على حين انها تمتد نفس المسافة تقريبا من الاتجاه الآخر صوب كل من صرفند وصيدا ٠

أما من الناحية الأخرى فتمتد قرابة ميلين ، وقد تصل الى ثلاثة أميال ، وتكثر فى هذا السهل العيون المائية التى تتدفق منها

ينابيع المياة الصافية الصحية ، وتقوم مياهها الباردة بالترويح عن الناس فى الجو الحار ٠

والمعتقد أن أشهر هذه العيون ذكرا فى العالم هو النبع الذى يتكلم عنه سليمان فى نشيد الأنشاد(٦) اذ يقول « ينبوع جنات بئر ، مياه حية ، وسيول من لبنان »، وتتفجر هذه المياه من أسفل جــزء من السهل ولا تصعد فى الجبال كما هو الحال فى كثير من غــيرها من الينابيع ، وتبدو وكأنها تنبع من أعمق أعماق الجحيم ، ومع ذلك فقد استطاع الانسان بجهده ومهارته أن يرفعها صناعيا الى المناطق العليا ، فتدفقت بغزارة لتروى جميع الاقليم المحيط بها ، وجعلت السهل صالحا لكثير من الأغراض بفضل مســيرتها الخيرة ، كما أمكن رفع المياه الى ارتفاع عشرة أقدام ، وذلك بتشييد بناء حجرى يضاهى الحديد فى صلابته ، ومن ثم فان النبع الذى كان قليــل الجدوى بسبب انخفاض مستواه الطبيعى أصبح بوســائل الرفع الصناعية التى تحدت الطبيعة مصدر خير عميم لكل الاقليم المحيط به ، وأصبح يصب الماء الغزير فتجود الأرض بالمحاصيل الزراعية ٠

وحين يقترب المرء ليتفحص هذا العمل المدهش فانه يرى بوضوح البرج الخارجى وان لم ير شيئا من الماء ، أما اذا بلغ الشخص القمة فانه يشاهد مخزونا ضخما من المياه جيء بها الى هنا ثــم توزع على الحقول المتاخمة فى قنوات متساوية الارتفاع هائلة البناء ، ونظرا لكثرة الراغبين فى الصعود الى قمة البرج فقد تم تجهيز هذا البرج بسلم من الحجر الصوان يتدرج فى الانحدار بصورة تجعل من اليسير على الفارس أن يظل ممتطيا جواده حتى يبلغ القمة من غير أن يلقى عنتا ولا مشقة ٠

ويستفيد كل الأقليم الذى حول هذه الناحية فوائد جمة من هذه المياه التى لا تقف عندحد رى الحدائق والبساتين اليانعة الحـافلة بأشجار الفاكهة بل تتعداها الى رى حقول القصب الذى يستخرج منه السكر والذى يكون محصوله ثمينا للغاية ولازما تماما للاستعمال ولصحة الانسان ، كما يحمله التجار الى أقصى بقاع الأرض ·

كذلك يصنع هنا من الرمال الموجودة فى هذا السهل نفســه نوع من الزجاج النفيس الذى يحمل الى أقصى الأماكن وأبعدها ، وهو زجاج فريد فى نوعه وفى جودته ، كما تصلح هذه الرمال لصنع أجمل الزهريات المشهورة برقتها حتى لترى العين ما وراءها ·

هكذا شاعت شهرة هذه المدينة فى الخارج بين غيرها من الأمم الأجنبية ، وتزايدت أرباح التجار أضعافا مضاعفة ·

لم تقتصر صور على أن تكون لها لكل هذه الدخول الكبيرة ، بل زادت أهميتها بفضل ما تتمتع به من تحصينات لا تجاريها فيهـا سواها ، وهى ما سنتكلم عنه فى الصفحات التالية ·

وترتب على هذه المزايا الجمة والتحصينات المنيعة أن أصبحت صور أحب وأغلى ما يحافظ عليه خليفة مصر الذى هو فى الواقع أقوى حكام الشرق قاطبة ، والذى يسيطر على كل البلاد الممتدة من اللاذقية فى سورية حتى الصحراء الليبية ، كما انه يعتبر مدينة صور خط الدفاع الأول عن مملكته وقصبة امبراطوريته ، ولذلك كان معنيا بتزويدها بالذخيرة والسلاح ، وتجهيزها بالمحاربين الأشداء ، ايمانا منه بسلامة الجسم كله ان سلمت الرأس ·

(٤)

ولما كان اليوم السادس عشر من فبراير ـ كما أشرنا من قبل ـ بلغ جيشانا مدينة صور وحاصراها كأشد ما يكون الحصار ،

ولكنها كانت كما قال حزقيال(٧) « ياصور انت الساكنة عند مداخل البحر » ·

وهى محاطة بالمياه من كل النواحى باستثناء شريط ضيق من الأرض لا يزيد عن رمية سهم ، ويقول الكتاب القدماء انها لم تكن فى الماضى تعدو أن تكون جزيرة منفصلة تمام الانفصال عن الأرض الرئيسية ، ويؤكدون أن الأمير الاشورى القوى « نابخدانصر » طمع وقت محاصرته اياها أن يوصلها بالأرض ، لكنه لم ينجز هذا العمل ·

ويشير النبى حزقيال(٨) الى هذا الحصار فى قوله « قال الرب هأنا أجلب على صور نابخدانصر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيل وبمركبات وبفرسان وجماعة وشعب كبير،فيقتل بناتك فى الحقل بالسيف ، ويبنى عليك معاقل ، ويبنى عليك برجا ، ويقيم عليك مترسة ، ويرفع عليك ترسا » ·

كما يشير يوسيفوس الى هذا الحصار فى الكتاب العاشر من تاريخه فيقول « ان ديوكليز ذكر هو الآخر هذا الملك فى كتابه الثانى : « المستعمرات » ، كما أن فيلوستراتس قال فيما دونه عن فينيقية والهند « أن هذا الملك ظل يحاصر مدينة صور على مدى ثلاث سنوات وعشرة شهور وقت أن كانت تحت حكم « جوتابيل » ، فلما جاء الأسكندر الأكبر المقدونى بعده وصل صور بالارض ثم استولى بالحرب على المدينة » ·

ويتكلم يوسيفوس أيضا عن هذا الحصار فى الكتاب الحادى عشر من مؤلفه فى التاريخ القديم فيقول « لقد جاء الاسكندر الى سورية واحتل دمشق ثم حاصر مدينة صور بعد فتحه صيداء » ، ثم يتابع كلامه فيقول انه « استولى على تلك المدينة بسبب دأبه العنيف

على حصارها ، فلما ملكها تابع زحفه الى مدينة جرش » ، ويقول أيضا « لقد مات San Ballat سانبلات بعد أن حاصر صور سبعة أشهر ، وحاصر جرش مدة شهرين » ٠

كذلك حاصرها « شلمانصر » ، قبل ذلك الحين وفتح جميع فينيقية ٠

كذلك يتكلم يوسيفوس عنه أيضا فى الكتاب التاسع من مؤلفه فى التاريخ القديم فيقول انه قام بحملة ضد صور فى عهد « ايبللوس » كما أن « مانيادار » الذى كتب تاريخ هذه الأزمنة وترجم الى اليونانية آثار صور يقول ان ايبللوس حكمها ستا وثلاثين سنة ، فلما ثار عليه « الاسكيثيون »(٩) ركب البحر اليهم فأخضعهم لأمره ، الا أن سالاماندار ملك الأشوريين تحرك ضدهم ثانية وغزا كل فينيقية ، ثم عاد بعد أن عقد الصلح معهم جميعا ، فتخلت مدن صيداء وعرقة وصور القديمة وغيرها عن صور واستسلمت لنفس هذا الملك الأشورى ، ولما لم تكن صور من المدن التى خضعت للملك فقد عاود الزحف عليها ، وأمده الفينيقيون بستين سفينة وثمانين قرقورة بمجاديفها ، فخرج أهل صور ضد العدو فى اثنتى عشرة سفينة ومزقوا شمل أسطوله شر ممزق ، وأسروا خمسمائة من رجاله فارتفعت بذلك هيبة صور ارتفاعا كبيرا ، غير أن ملك أشور عاد من جديد وأقام حراسا على النهر وعلى قنوات المدينة ، وبذلك حال بين أهل صور وبين الحصول على الماء ، واستمر الوضع على هذا الحال خمس سنوات اضطروا خلالها للشرب من الآبار التى حفروها ٠ وقد وردت هذه الأخبار فى سجلات صور المتعلقة بسلاماندار ملك أشور » ٠

(٥)

ومدينة صور هذه أشبه ما تكون بجزيرة لوجودها فى بحر لجى الأمواج ، شديد الخطورة بسبب الصـــخور ذات الارتفاعات المختلفة التى لاتراها العين المجردة ، ومن هنا كان شرها لا يؤمن على الحجاج وغيرهم ممن لا دراية لهم بالمـــكان ان هم حـــاولوا الاقتراب من المدينة من ناحية البحر ، ولم يكن لمثل هؤلاء أن يصلوا اليها دون أن تتعرض سفنهم للعطب على الصخور ، وما لم يكن معهم مرشد ملم بالبحر المحيط بهم ، عارف به فيجنبهم الغرق ·

وكانت صور محاطة من ناحية البحر بسور مزدوج ذى أبراج شاهقة ، يفصل الواحد منها عن الآخر مسافة مثل التى بينه وبين الذى يليه ، وكان لها من ناحية الشرق (حيث يمكن الوصول اليهـا برا) سور ثلاثى الشكل بعض الشىء ، وأبراج بالغة الضخامـة قد تقارب بعضها من بعض تقاربا شديدا كاد أن يجعلها متلاصقة · كما يوجد رصيف بحرى يتيسر للأهالىأن يبلغوا البحر عبره من كلا جانبيه ·

أما من الناحية الشمالية فيقوم على حراسة مدخلها برجان ويحرسان أيضا الميناء الواقعة داخل أسوارها ، وتصطدم الأمـواج أول ما تصطدم عند انكسارها بساحل الجزيرة الخارجى الذى يضعف من عنف البحر العاصف ، ومن ثم نشأ مرسى صالح للسفن يصل بين الجزيرة والبر ، وهو آمن للغاية من كل الأمواج الا ما يجىء من ناحية الشمال ·

وكانت الأوامر قد صدرت للأسطول بالتوجه الى هذا المرفأ ، فتوجه وأرسى فى مكان آمن ·

أما الجيش فقد احتل البساتين القريبة من المدينة ، وضـرب معسكره على شكل دائرة تلتف حولها ، فحال هذا الوضع بيـن

الأهالى وبين الدخول اليها أو الخروج منها ، مما اضطرهم للبقاء وراء الأسوار على كره منهم ٠

وكانت المدينة تخضع لسيدين أحدهمـــا هو خليفة مصـــر (الفاطمى) الذى يملك ثلثيها باعتباره المالك الأعلى لها ، أما الثلث الباقى فكان فى يد سلطان دمشق لقربه منها ، وكان اعتقاد الخليفة أن الأخير لن يعرض لها بسوء بل على العكس لابد أن يســاعد الأهالى ان ألمت بهم شدة ٠

وكانت صور آهلة بكثير من علية القوم الذين أصابوا حظـــا كبيرا من الجاه والثروة بفضل رحلاتهم التجارية المستمرة الى معظم البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، فجنوا من وراء ذلـك ثروات ضخمة وعادوا بكميات هائلة من السلع الأجنبية التى زادت فى موارد المدينة المالية ، يضاف الى ذلك أن أعدادا كبيرة من أعيان وأثرياء قيصرية وعكا وصيداء وجبيل وطرابلس وغيرها من المـدن الساحلية التى وقعت فى أيدينا فروا الى صور يلتمسون الحمايـة وراء تحصيناتها ، كما ابتاعوا لهم فيها الدور الغالية ، ولم يجر قط فى حسبانهم أن تقع مدينـــة حصـــينة كهذه المدينة فى أيـدى المسيحيين تحت أى ظرف من الظروف ، وكان الحامل لهم على هذا التقدير أنهم كانوا يعدونها عرينا يستحيل اقتحامه ، وحصنا منيعا يستحيل التغلب عليه ، وانها فريدة لا يوجد لها ضريب فى كافة أرجاء الاقليم ٠

(٦)

بعد ان رتب الصليبيون متاعهم وفرغوا من جميع التنظيمات الأخرى على أحسن وجه استطاعوه سحبوا كل سفنهم الى البر حتى صارت قـرب الميناء ، ولم يتركوا منها ســوى مركب واحدة فقط ، جعلوها على أتم أهبة لمواجهة أى طارىء يعرض لهم ، ثم حفروا خندقا

عميقا يمتد من البحر حتى يبلغ الخندق الداخلى فاحتمى به الجيش كله ، ثم جاؤوا الى الميناء بكل ما يلزم لبناء السفن من المواد التى كان البنادقة قد جلبوا منها معهم كميـــات كبيرة ، كما بعثوا فى استقدام العمال لصنع شتى أنواع الآلات الحربية ٠

وعمد البطرك وأشراف المملكة الذين كانوا يقومون بتصريف الأمور حينذاك بدلا من الملك الى استدعاء النجـــارين والبنائين الحاذقين وزودوهم بكل ما يلزم من المواد ، وكلفوهم ببناء برج شاهق الارتفاع يستطيع المقاتلون ـ ان كانوا أعلاه ـ أن يشتبكوا عن قرب فى محاربة المدافعين عن المدينة الموجودين بالأبراج التى على الأسوار كما يتمكنون من كشف المدينة كلها ٠

ثم صدرت الأوامر ببناء آلات حربية قادرة على قذف الأحجار الضخمة لتدك الاسوار والأبراج،وتبث الفزع فى قلوب المقيمين داخل المدينة ٠

وفعل دوج البندقية وجماعته ما فعلته جماعة الملك ، فقاموا ببناء آلات مشابهة لهذه الآلات ونصبوها فى أماكن استراتيجية مهمة، ودأبوا على العمل بهمة لايتطرق اليها الكلل ، وشدة لايتســـرب اليها الوهن ، وأطبقوا على الأهالى شيئا فشيئا وزادوا من مضايقتهم لهم دون أن تتوقف آلات الحصار لحظة عن رمى المكان رميا يلحق به الدمار ، كما أن غارات الصليبيين المتتالية وهجماتهم المســـتمرة التى لا انقطاع لها لم تتح للمدافعين الذين كانوا يبذلون غاية جهدهم لحماية أنفسهم فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم ، ويحاولون فى الوقت ذاته صد هجمات أعدائهم المسيحيين وتكبيدهم المضرة ، فبنوا هـــم أيضا ـ داخل المدينة ـ آلات تقذف صخورا ضخمة راحت تتساقط بلا انقطاع على أبراجنا ، وكان لهذا الخوف الذى أوقعته الأحجار المتساقطة أثره فى رجحان كفة أعدائنا ، حتى صارت لهم اليـــد

العليا لاسيما فى هذه الناحية التى لم يعد أحد من الصليبيين قادرا على البقاء فيها ، حتى ان الذين شاء قدرهم أن يقوموا بحراسة الآلات كانوا لايجرؤون على الاقتراب منها ، فان هم حاولوا ذلك خافوا وولوا على أعقابهم ولم يستطيعوا البقاء داخل هذه الآلات ، لأنهم ان فعلوا ذلك تعرضوا لأشد أنواع المهالك ، كل هذا والعدو مرابط فى أماكنه بالأبراج العليا وقد تسلح بالأقواس والسهام يواصل قذفهم بوابل من الرماح والنشاب ، وبسيل جارف من الصخور الضخمة التى لم ينقطع رميها من داخل المدينة مما ضيق الخناق على الصليبيين الذين لم يعودوا قادرين على أى شىء حتى ولو كان ذلك اخراج أيديهم ، ومع ذلك فقد تمكنت جماعتنا الموجودة فى أبراج الحصار أن ترد الضربة العنيفة ينزلها بها العدو بضربة تماثلها عنفا ، وأن تواجه القوة بقوة تعادلها بطشا ، مما حمل المدافعين الذين كانوا على الأسوار فى الأبراج على مجابهة هذه المحاولات الضارية ، الا أن الضعف تسرب اليهم فوهن عزمهم ، وأصابهم الكلل فتراخوا عن تحمل أعباء القتال ، وان لم يمنع ذلك الأمر الموكلين بادارة الآلات من الاستمرار فى استرشادهم بالخبراء فى قذف الصواريخ ورمى الأحجار الضخمة ، فحدث مايشبه الانهيار التام فى الأبراج والاسوار لشدة الرمى وكثرة التراب الذى تثيره الأحجار المتساقطة ، فانعقدت من عثيره سحب أضعفت بأس الآلات ، وأقامت ساترا ترابيا فصل بين المحاربين من الجانبين حتى أصبح من الصعب على المدافعين الموجودين فوق الأبراج أن يروا الصليبيين كما أن جميع الصواريخ الطائرة المارة وراء الأبراج والتحصينات راحت تتساقط بعنف فى داخل المدينة فتدمر العمائر الضخمة وتفتتها وتهلك سكانها .

أما فى خارج البلد حيث الريف فقد قاتل الفرسان والمشاة قتالا بطوليا فذا ، واشتبكوا فى غارات ومعارك كادت أن تكون يومية

ضد العدو الذى كان يخرج خلسة من المدينـــة ، وكثيرا ماحدث لرجالنا أن راحوا يتحدون من بداخـــل المدينة كى يخرجوا اليهم ويبرزوا لقتالهم ، وكان المواطنون هم الذين أخذوا مرة أخرى بزمام المبادرة فى مهاجمة محاصريهم ·

(٧)

ومرت الأيام بعضها فى اثر بعض والقوم يقاتل بعضهم بعضا قتالا لا يدرك أحد خاتمته ، وحاول كل من الصليبيين وأهل البلد اختبار صمود الجانب الآخر ، يفعلون ذلك بالهجوم تارة بالآلات الحربية وتارة بالقتال من وراء الأبـــواب ، ذلك لأن كل فريق كان يبذل غاية جهده للتضييق على الآخر ما استطاع الى ذلك سبيلا · لكن حدث فى هذه اللحظة الحرجة أن اســـتجاب « بونس » كونت طرابلس لاستدعاء أمراء المملكة له ، فجاء فى طائفة من النبلاء مما ضاعف من بأس الصليبيين وأحيا ما وهى من عزائمهم ، ولكن أثره فى نفوس الأعداء كان على العكس من ذلك اذ أحسوا ألا جدوى ترتجى من وراء صمودهم ·

وكان فى المدينة سبعمائة فارس من فرسان دمشق ، شـــدت فعالهم أزر سكان البلد الذين وان كانوا سراة القوم وأشرافهم الا أنهم كانوا ضعافا قد ركنوا منذ زمن بعيد الى الدعة واســـتناموا للترف ولم يعتادوا القتال ، وحاول هؤلاء الدماشقة أن يكونوا بما يعملون قدوة يحتذيها سكان البلد فيصمدون فى وجه الخصم فيمدهم هؤلاء الفرسان اذ ذاك بالمعونة التى يحتاجونها ، لكنهم ما لبثوا أن نفضوا أيديهم مما هم فيه اذ رأوا أنهم لايستطيعون القيام وحدهم بأعباء الحرب ، لاسيما لما كانوا يشاهدونه من تزايد بأسنا ونجاح محاولاتنا يوما بعد يوم ، على حين أخذت قوات المحصورين فى التضاؤل وعسكرهم فى النقصان نقصانا ينذر بالخطر ·

وعلى الرغم من ان هؤلاء الفرسان الدماشقة لم يشيروا على مواطنى المدينة بالتسليم الا أنهم فى الوقت ذاته لم يطمعوهم فى الاعتماد كثيرا عليهم ·

* * *

لم يكن هناك ـ كما هو الحال الآن ـ سوى مدخل واحد الى المدينة وبوابة واحدة ، وكانت المدينة بأجمعها ـ كما قلنا ـ اشبه ما تكون بجزيرة تحوطها المياه من كل نواحيها ، الا من جهـة واحدة ضيقة تؤدى بالداخل الى البوابة ، ولكانت المصادمات المختلفة فى هذه الناحية من جانب كل الفرسان والمشاة مستمرة لا تنقطع كما هو الحال فى مثل هذه الظروف ·

(٨)

على هذه الصورة كان الوضع فى صور ·

وأدرك العسقلانيون فى هذا الوقت أن المملكة فارغة من عسكرها وأن جميع قوة البلد مشغولة بحصار صور ، فبادروا فى الحال الى انتهاز هذه الفرصة واجتـازوا السـهل الفاصـل بكل قواتهم ، وأسرعوا شطر الجبال المبنية عليها بيت المقدس ، وكانوا يتوقعون أن يجدوا المدينة الطاهرة خالية ، ويطمعون أن يأسروا من يصادفونه من سكانها ممن يجرؤون على الخروج دون أن يأخذوا حذرهم ، ولم يكن أحد من هؤلاء السكان يتوقع قدوم هؤلاء العسقلانيين الذيـن تمكنوا من قتل ثمانية منهم اذ باغتوهم فى حقولهم وبساتين كرومهم ·

وعلى الرغم من قلة عدد الصليبيين الا انهم كانوا يفيضون ايمانا ويتقدون غيرة صادقة على بلدهم ونسائهم وأبنائهم ، فهرعوا الى السلاح يحملونه ، وانطلقوا من المدينة صوب العدو ولايسـيطر عليهم سوى هدف واحد ، ووقفت قوات كلا الجـانبين المتعاديين

ترقب الواحدة منهما الأخرى على مدى ثلاث ساعات ، لم يجرؤ الصليبيون أثناءها على مهاجمة خصومهم لاقتصار جندهـــم على المشاة فقط ، بينما كان العسقلانيون قد أدركوا أنه من المستحيل عليهم أن يظلوا طويلا على هذه الصورة دون خطر كبير يتهددهم ، هذا بالاضافة الى أنهم لم يطمئنوا ـ وهم على هذا القرب الشديد من المدينة ـ الى مقاتلة قوم عديدين شجعان لا تلين لهم قناة ، قـد أجمعوا العزم على المقاومة حتى النهاية ، ومن ثم تأهبوا للارتداد على جناح السرعة من حيث جاؤوا ، فقص الصليبيون أثرهم فى حذر لمسافة قصيرة ، ونجحوا فى قتل اثنين وأربعين رجلا منهـــم كما أسروا أربعة من فرسانهم ، واستولوا على سبعة عشر جوادا من جيادهم ، فلما نجحوا فى انجاز هدفهم عـادوا الى بيت المقدس سالمين ٠

(٩)

فى هذه الأثناء كانت نفوس أهل صور قد كلت ، وأنهكهـــم ما يلاقونه من الهجمات المتكررة والغارات المستمرة والأهوال التى لا حصر لها ، فتراخوا فى خروجهم للقتال ، وتضاءلت حماستهم فى القيام بواجباتهم المفروضة عليهم ، وتملكهم مزيد من الدهشة من أن مدينة كهذه المدينة يتوافد اليها الناس زرافات كل يوم برا وبحرا ، وتكتظ غاية الاكتظاظ بشتى أنواع المتاجر التى تأتيهـــا عبر هذين الطريقين أقول تملكتهم الدهشة أن تبلى هذه المدينة بمثل هذه البلايا حتى ليعجز المواطنون والأغراب عن الدخول اليها أو مغادرتها ، زد على ذلك أن الأطعمة بها أخذت فى التناقص حتى كادت أن تعدم ، وحينذاك تشاوروا فيما بينهم عما يصنعون ، وانتهى بهم الرأى الى أن يكتبوا الى خليفة مصر والى سلطان دمشق يخبرونهما بالوضع البالغ السوء الذى يعيشون فيه ، وسألوهما وألحوا فى السؤال

ان يبادرا الى نجدتهم ، فقد بلغ السيل الزبى فى صور ، وآلت الأمور الى اليأس ، وأوضحوا لهما مدى جلد العدو وصبره ، وقوة شكيمته ، وازدياد بأسه يوما بعد يوم ، كما وصفوا لهما ما ابتلوا به من الضعف ونقص الطعام ، وفصلوا لهما موقفهم الذى لا قدرة لأحد على احتماله ٠

أدت هذه الخطوة التى قاموا بها الى رفع روحهم المعنوية بعض الشىء ، وأخذوا ــ وهم فى انتظار النجدة المرجوة ــ فى تشجيع بعضهم بعضا على الصمود ، حتى ان الكثيرين منهم الذين اثخنتهم جراحهم فعجزوا عن القتال أخذوا يحثون الآخرين ليستمروا فى الصمود ٠

ثم جاءهم من يخبرهم بأن ملك الدماشقة « طغتكين » قد حركته كتب المحصورين ورسائلهم ، فغادر دمشق على رأس عسكر من الترك لا يحصيهم العد ، وأن معه فى ركابه عددا كبيرا من الفرسان ، وقد عسكر بهم الآن على مقربة من صور على شاطىء نهر يبعد عنها بما يقرب من أربعة أميال ، كما راجت الشائعة أنه سيصل اليهم فى مدى ثلاثة أيام أسطول مصرى أكبر مما جرت به العادة ومعه الامدادات من الرجال والميرة اللازمة لأهل صور ، الذين قيل لهم أيضا ان صاحب (١٠) دمشق ينتظر امدادات أخرى ، وأنه من أجل هذا السبب قد تعمد تأجيل عبور النهر عن قصد ، وانه غير مهاجم الصليبيين حتى يفد الأسطول ليتيسر للقوة البحرية ــ أثناء محاربتها لنا ــ حرية الدخول الى المدينة من غير عائق ٠

فلما علم قادتنا بهذه الأخبار اجتمعوا للتشاور فما بينهم وتدبروا الأمر مليا من شتى وجوهه ، ثم قر قرارهم على تقسيم الجيش الى ثلاثة أقسام ، فتخرج قوات الفرسان بأجمعها والمشاة

المرتزقة تحتقيادة كل من كونت طرابلس ووليم بيورى كونستابل الملك ومدبر أمور المملكة ، فان كانت ثمة ضـــرورة تتطلب محاربة الدماشقة حاربهم هذا القسم بمعونة الرب ٠

كذلك تقرر أن يبحر الدوق وقواته فى الشـــوانى ، فاذا قدر لهم مصادفة أسطول المصريين فعليهم قتالهم ومحاولة القضـــاء عليهم بحد السيف لكونهم من المحاربين البسلاء ٠

أما القسم الثالث فكان مؤلفا من عامة الناس الذين توافدوا من شتى مدن المملكة للمشاركة فى الحصار الى جانب القسم الكبير من البنادقة ، كما نيطت بهذا القسم حراسة الآلات الحربية والأبراج المتحركة ومراقبة التزام المحاربين الموجودين فى آلات الحصار بأداء ما كلفوا به والتأكد من استمرار آلات الرمى فى ما هو موكول اليها عادة ، وعدم انقطاع القتال أمام الباب ٠

واستصوب الجميع هذه الخطة ورأوها ملائمة بحيث ينبغى عليهم تطبيقها فى الحال ، ومن ثم بادر كونت طرابلس ووليـــم بيورى كونستابل الملك الى الخروج من المعسكر بجميع من معهما من الفرسان لصد العدو ، وتقدموا مسافة ميلين دون أن يجرؤ الأعداء على البروز لهم ، ومع ذلك فقد اتضح أن « طغتكين » كان قـــد ضرب معسكره فى الأصل عند النهر وهو مجمع العزم على عبوره ، لكن لما وافته الأخبار بنبأ هذه الخطة الحكيمة التى اتبعها جيشنا ٠ (فى تقسيمه نفسه ثلاثة أقسام) أدرك أن محاربته رجالا شجعانا أذكياء كهؤلاء الرجال انما هى مغامرة خطيرة تنطوى على البوار ، ومن ثم أمر بدق الطبول ليخرج رجاله ، ثم أصدر أمره اليهم بالعودة الى ديارهم ٠

أما الدوق فكان قد أعد أسطوله للقتال وأبحر الى «الاسكندرونة» التى تبعد عن صور ستة أميال تقريبا ، وتعرف هذه المدينة اليوم باسم « اسكند اليوم » ، فلما بلغها علم بعودة ملك دمشق الى بلده، ولما لم يكن هناك أى دليل على مجىء الأسطول المصرى الذى كان الدوق يترقبه فقد سحب الشوانى مرة ثانية الى الشاطىء ، وعاد الجميع الى المعسكر ليضاعفوا حصارهم شدة عن ذى قبل ٠

(١٠)

وحدث فى أحد الأيام أن اجتمع نفر من شباب صور وتعاهدوا عهدا وثيقا أن يتسللوا خلسة الى معسكرنا لحرق آلاتنا وأبراجنا المتحركة ، مؤملين من وراء ذلك الى اكتساب تقدير بنى جلدتهم وذهابهم بشهرة لا تبلى جدتها فى عيون الذراوى ، فغادروا المدينة سرا من أجل تنفيذ هذه الخطة ونجحوا فى اضرام النار فى آلة كانت شديدة النفع لنا ، فلما رأى الصليبيون ذلك الحريق هبوا فى لحظتهم الى انتضاء أسلحتهم وحاولوا اطفاء اللهب بالماء يصبونه عليه ، فكان ما قاموا به عملا جليلا قمينا بالتسجيل ، ثم قام من بينهم شاب تفرد بالخلق والشجاعة الفذة فارتقى سطح الآلة والنار ممسكة بها وراح يصب عليها الماء كلما جاءه القوم منه بشىء ، وأبصره اذ ذاك المدافعون المرابطون فى الأبراج وهم متنكبون أقواسهم وبأيديهم المجانيق ، ومن ثم وجهوا كل جهدهم ضده ، وعلى الرغم من أنه كان فى ناحية تجعله هدفا لسهامهم الا أنهم فشلوا فى محاولتهم هذه ، وانقضى اليوم لم يمس فيه بجرح ٠ أما عسكرنا فقد أمسكوا بالشباب الذين أضرموا النار وقتلوهم بالسيف عن آخرهم على مرأى من رفاقهم ٠

* * *

ولاحظ الصليبيون أن احدى الآلات الموجودة داخل المدينة

كانت ترمى بمهارة فائقة أبراجنا التى أعددناها للحصار ، وتقذفها بحجارة ضخمة أصابتها اصابات مباشرة ، ولما لم يكن فى المعسكر كله من رجل ماهر خبير فى تصويب القذائف القوية فقد أرسلوا الى انطاكية فى طلب رجل أرمنى اسمه « هافديك » Havedic قيل أنه من أبرع الناس فى هذا الفن ، فجاء فى الحال وأبدى مهارة فائقة فى توجيه الآلات الحربية ، وانطلق يرمى كل ما يراه بالكتل الصخرية الضخمة ويجعله هدفا له فيدمره فى الحال من غير مشقة ، ولم يكد هذا الرجل يصل الى الجيش حتى أجروا عليه راتبا مجزيا من الخزانة العامة ليعيل نفسه على الصورة التى يحب ويهوى ، فبذل قصارى جهده فى العمل الذى استدعى من أجله وأبدى براعة عظيمة حتى لقد بدت المعركة وكأنها تجرى بقوة متجددة ، والحق انها كانت فى نظر أهل صور حربا جديدة ، فقد تضاعفت مصائبهم بقدوم هذا الرجل ٠

(١١)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى صور كان « بلك » الوالى التركى القوى الذى لايزال الملك فى أسره يحاصر المدينة « منبج »(١١) Hierapolis فأرسل الى واليها وهو قائم على حصارها ويتودد اليه بكلماته المعسولة المخادعة ويسترضيه ، فصدق الرجل ما سمعته أذناه منه لأنه كان ساذجا طيب القلب يؤمن بما يسمع وأسرع فى الحال الى « بلك » الذى ما كاد يراه بين يديه حتى أمر بضرب عنقه ، فضرب ٠

ولما سمع « جوسلين » الكبير كونت الرها بأن « بلك » محاصر لاحدى المدن الواقعة فى بعض الأقاليم المجاورة له استولى عليه الفزع من أنه اذا تم خلع واليها الحالى الذى لا يلقى منه ما يؤرق

باله فلربما حل مكانه آخر يكون أشد خطرا منه عليه ، ومن ثم انطلق فجمع قوة كبيرة من امارة أنطاكية ومن أملاكه الخاصة وأسرع لصد جيش الوالى (بلك) فلما عرف أين يقف العدو ورتب صفوفه للقتال أغار عليه فجأة فهزمه ففر بلك على وجهه فصادفه جوسلين فاخترط سيفه وطرحه أرضا وقط رأسه وهو لا يعرف أن الذى أمامه انما هو قائد الجيش العام ٠ وكان هذا مصداق حلم « بلك » بأن الذى يقطع رأس آخر ويسمل عينيه ويفقده حياته يقال له انه أخرج عينيه(١٢) ٠

كان جوسلين رجلا حازما كبير الخبرة ، ومن ثم عهد برأس الأمير (بلك) فى الحال الى شاب كلفه بحملها الى الجيش الصليبى لتعم الفرحة بهذا الخبر السعيد ، كما أوصى الرسول بأن يعوج فى طريقه على انطاكية حتى يعلم أهل البلد والعسكر جميعا بهذا النصر القشيب ، فأثلج قدوم هذا الشاب أفئدة الجميع ، وزاد من سعادة المسيحيين فكانت سعادة طافحة ٠

❊ ❊ ❊

كان « بونس » كونت طرابلس حاضرا فى المعسكر بمن معه ، وكان شديد الطاعة للبطرك ولغيره من القواد حتى لقد كان معهم وكأنه أقل الخدم ، كما كان يظهر على الدوام حماسة من أجل الصالح العام ، فأراد أن يفصح عن تقديره للكونت « جوسلين » الذى كان قد بعث اليه الرسول ، كما أراد أن يدلل على أهمية الخبر الذى جاءه به فرفع الشاب الى مرتبة الفرسان وخلع عليه أسلحة هذه الطبقة ، فلما علم الذين معنا فى الحملة بهذا العمل رفعوا أكفهم الى السماء شكرا لله ، وتمجيدا لمن « فعله مرهب نحو بنى آدم(١٣) »

بهذا ازدادت حمية عسكرنا وتجدد ما رث من شجاعتهم وتضاعف بأسهم ، واستمروا فيما بأيديهم من العمل وهم أمضى

عزيمة ، وتابعوا غاراتهم ولم يتيحوا للمدينة التى يهاجمونها لحظة من الراحـة ٠

أما الأهالى فكانوا من ناحية أخرى يكابدون أفظع الشدة من الجوع الذى عضهم بنابه حتى كاد أن يفنيهم ، ونفد ما كان عندهم من الطعام ، وتلاشى كل أمل لهم فى أى نجدة تأتيهم ، وتسرب الوهن منهم الى عملهم فتوانوا وتراخت هممهم ٠

على أنه حدث فى يوم من الأيام أمر ذو بال ، ذلك أن رهطا من شباب المدينة وسباحيها المهرة غامروا بالخروج من مينائهـــا الداخلى وتسللوا الى الميناء الخارجى ونجحوا فى الوصول الى السفينة(١٤) التى ذكرنا من قبل أنها كانت ترسو على الدوام فى البحر لمجابهة أى طارىء لا يكون فى الحسبان ، وجاؤوا معهم بحبل شدوه شدا متينا الى السفينة ثم قطعوا رباطها وسحبوها خلفهم متجهين الى المدينة ، لكن أبصرهم العسس القائم بحراسة الأبراج فنبهوا أصحابهم ، فهب رجالنا على صيحات الانذار وأسرعوا نحو الشاطىء لكن قبل أن يقرروا ما يفعلون كان الشباب قد أدخلوا القارب الميناء ، وكان بالسفينة خمسة رجال مكلفون بالحفاظ عليها ، فلقى أحدهم مصرعه ، وأما الأربعة الآخرون فقد وثبوا فى الماء وسبحوا حتى بلغوا الشاطىء سالمين ٠

(١٢)

كان العسقلانيون كالفراشة التى لا يقر لها قرار ، اذ كانوا يتربصون بالصليبيين الدوائر يصيبونهم فيها بالضرر ، ثم جاءهم الخبر بانشغال زهرة الجيش الصليبى بحصار صور حصارا يجعلها عاجزة عن الصمود أمام غارات العدو ، ومن ثم جمعوا قواتهم ثانية

وصعدوا الى اقليم « يهوذا » الجبلى وباغتوا موضعا يعرف باسم « بيلين »(١٥) على بعد خمسة أو ستة أميال شمالى القدس ، وهو يسمى اليوم بمدينة « المحمرة » ، فاستولوا عليه قسرا وحكموا السيف فى رقاب سكانه الذين هلكوا عن بكرة أبيهم ، ولم يستثن من القتل سوى الشيوخ والنساء والأطفال اذا كانوا قد لجئوا الى البرج فقيضت لهم الحياة ٠

وانتشر العسقلانيون فى كل النواحى المجاورة دون أن يجدوا عائقا يعوقهم أو أحدا يصدهم ، وما صادفهم أحد الا قتلوه أو أسروه فانطلقوا فى سيرهم الجنونى يرتكبون ماشاءوا ضد جميع من ينزلون تلك الضاحية ٠

(١٣)

كان أهل صور فى تلك الأثناء يلاقون الأمرين من وطأة المجاعة الفظيعة ، ويكابدون ما لاطاقة لأحد به ، مما حملهم على التفكير فى طرق أخرى ، فتجمعوا زمرا يتناقشون كيف يضعون نهاية لهذه المصائب المحيقة بهم ، فرأوا أن خير ما يفعلونه هو أن يسلموا المدينة للعدو ، وبذلك يبقون على حياتهم ويذهبون الى مدن بنى جلدتهم الأخرى ، وأدركوا أن هذا أجدى عليهم من الموت جوعا وأنظارهم شاخصة الى نسائهم وأطفالهم يسقطون صرعى أمام أعينهم وهم لا يملكون لهم نفعا ولا يستطيعون مساعدتهم ٠

بعد أن فرغت جماعاتهم هذه من مناقشة الموقف الذى هم فيه اجمعوا الرأى على عرض الأمر على شيوخهم وأولى الرأى فيهم وعلى الناس كافة ، فالتام شمل رجال المدينة كلهم فى اجتماع عام حيث بسطت امامهم الحقائق وراحوا يتدبرونها فى دقة ، فاتفقوا بلا

استثناء على وجوب وضع حد تلك الظروف الشديدة السوء ، وأن يجنحوا الى السلم مهما كلفهم هذا السلم من ثمن ، ومهما كبدتهم شروطه من مشقة ٠

وعلم ملك دمشق فى الوقت ذاته بالأهوال والمصـــائب التى يعانى منها أهل صور ، فحركته بلواهم المفجعة فاستدعى حلفاءه من شتى النواحى وزحف بهم صوب البحر حيث كان قد نزل من قبل ، وعسكر مرة أخرى قرب النهر المتاخم لصور ، فلما سمع الصليبيون بذلك خافوا ــ وحق لهم أن يخافوا ــ من الغــــرض الكامن وراء حضور صاحب دمشق ، فرتبوا صفوفهم ثانية للحرب توقعا منهــم لنشوب معركة أمام أبوابها ، دون أن يصرفهم ذلك عما هم آخذون به أنفسهم من الاستمرار فى تشديد الحصار بلا انقطاع ، واذ ذاك بعث ملك دمشق من لدنه رجالا أهل فطنة وعقل ليكونوا رسله الى زعماء جيشنا وهم البطرك ودوج البندقية وكونت طرابلس ووليم‌بيورى وغيرهم من علية القوم فى المملكة ، وكانوا يحملون مقترحات سلام صيغت فى لهجة استرضائية ، وطال الأخذ والرد بين الطرفين حتى انتهوا أخيرا الى عقد موادعة بينهما تنص على أن تستسلم المدينة الى الصليبيين ، على أن يسمح أن يغادرها من أهلها من شـــاء مغادرتها من تلقاء أنفسهم من غير اكراه لهـــم فى ذلك الخروج ولا تعنت ، وان يكونوا سالمين فى أنفسهم ونسائهم وأبنائهم وكل متاعهم(١٦) ٠ أما الذين يؤثرون البقاء فى صور فلهم ما أرادوا وتعود اليهم دورهم وممتلكاتهم ٠

لكن ما أن علم العامة وأهل الطبقة الدنيا من الصليبيين بطبيعة المفاوضات التى كان البارونات يجرونها حتى غضبوا أشد الغضب ، وكرهوا أن يكون تسليم المدينة على هذه الصورة وتلك الشروط ، لأنهم رأوا فى هذا الوضع حرمانا لهم من الغنائم والأسلاب التى

كان لابد لهم من الحصول عليها لو أنهم دخلوا المدينة حربا واستولوا عليها قسرا ، ومن ثم فقد اصروا على التمسك بما تتيحه لهم جهودهم الحربية ، غير أن الغلبة فى النهاية كانت لحكمة الرجال المحنكين فتسلموا المدينة ، وأذنوا لأهل البلد بالخروج منه دون عائق حسبما نصت الموادعة المبرمة بينهم ٠

ثم رفع بيرق الملك على البرج الموجود فوق باب المدينة رمزا للنصر الذى أحرزه الصليبيون كما نصبت راية دوج البندقية على البرج المسمى بالبرج الأخضر بينما خفقت أعلام كونت طرابلس على برج « ترانارايا » ٠

* * *

كان جزء كبير من أبرشية صور قد آل الى أيدى الصليبيين منذ زمن طويل قبل استيلائهم على المدينة بل وقبل حصارها ، ذلك أن كل الأقليم الجبلى القريب منها والممتد تقريبا الى لبنان كان قد انتقل بكل حصونه ومزارعه فى هدوء الى يد رجل شريف بالغ السطوة اتخذ الجبال له مقاما واصطفاها سكنا ، ذلك هو «همفرى» صاحب « تورون » ، وهو والد همفرى الصغير الذى كان قد صار الكونستابل الملكى ، اذ تم له الاستيلاء من غير مقاومة على جميع الأراضى التى تمتد من صور مسافة أربع أو خمس مراحل ، وكان له فى هذه الجبال ذاتها قلعة شديدة المناعة بفضل موقعها وما أقامه بها من الحصون التى كان يشن منها غاراته ضد أهالى صور على غير استعداد منهم لها ٠

كما كان فى هذه الجبال أيضا لصاحب طبرية «وليم دى بيورى» الكونستابل الملكى وسلفه جوسلين لكونت الرها الذى كان أميرا قبله على طبرية كثير من الممتلكات الفسيحة ، وكثيرا ما كانا يباغتان منها « صور » بغارات فجائية لا تتوقعها المدينة ٠

وكان الملك بلدوين (الأول) الطيب الذكر سلف بلدوين الثانى قد اختار بقعة ساحلية تقع على بعد ستة أميال أو سبعة الى الجنوب من صور ، وهذه البقعة قريبة من نبع ماء صاف عذب وشيد حصنا عرف بحصن « سكنداليوم »(١٧) ٠

ولقد ظلت صور زمنا طويلا وهى تقاسى وطأة الهجمات المستمرة عليها من تلك النواحى مما ادى الى تدهور مقاومتها الحربية امام هجمات الحجاج الصليبيين عليها ٠

ويقال ان الموقر « أودو ODO » مات فى أثناء هذه الحملة بعد ترسيمه مطرانا لكنيسة بصور حين كانت المدينة لاتزال فى قبضة الأعداء ، ويقال ان ترسيمه هذا تم على يد بطرك القدس وأنه باركه ٠

(١٤)

ولما اشتد الضجر بأهل البلد من طول الحصار خرجوا من المدينة ميممين فى عجل شطر معسكرنا وكانوا متلهفين على التخلص مما هم فيه من الشقاء ، ومشتاقين لمعرفة أى نوع من الرجال يكون هؤلاء الصليبيون الذين كان الناس يتخيلونهم قد قدوا من الحديد لصبرهم الطويل على تحمل المشاق والشدائد ، وكفاءتهم فى استعمال السلاح حتى استطاعوا فى شهور قلائل أن ينزلوا بصور الى الدرك الأسفل من الفقر ، وأن يرغموا هذه المدينة الرائعة ذات التحصينات العظيمة على الخضوع لأقسى الشروط ، ووجد الاهالى متعة كبرى فى التعرف على شكل آلاتهم ، وذهلوا لارتفاع أبراجهم المتحركة وتنوع صنوف السلاح الذى معهم ، ولم تفت الأهالى شاردة ولا واردة الا وتقصوا خبرها غاية التقصى ، حتى تجمعت لديهم قصة دقيقة رائعة تروى للذرارى ٠

أما الصليبيون فانهم لما دخلوا المدينة تملكتهم الدهشة هم أيضا ، فقد راقتهم تحصيناتها ، ومتانة مبانيها ، وضخامة أسوارها، وارتفاع ابراجها ، وعظمة مينائها الذى يصعب اقتحامه ، وأثنوا الثناء العاطر على شدة مقاومة أهلها الذين استطاعوا أن يؤجلوا الاستسلام زمنا طويلا رغم مكابدتهم فظاظة المجاعة وندرة الطعام ، اذ لم يجد رجالنا بعد احتلالهم المدينة سوى خمسة مكاييل من القمح •

وعلى الرغم من أن عامة الصليبيين كرهوا فى البداية أن تستسلم المدينة حسب الشروط التى ذكرناها آنفا الا انهم ما لبثوا أن رحبوا بما هو واقع وامتدحوا جهود الكبار الحكيمة وادركوا انهم قد انجزوا بدأبهم المتواصل وجهدهم المستمر عملا لايمحى أبدا من الأذهان •

حينذاك قسمت المدينة الى ثلاثة أقسام اختص الملك باثنين منها ، أما القسم الثالث فآل الى البنادقة وفق الشروط التى سبق الاتفاق عليها ، فلما فرغوا من ذلك عادوا وعاد كل الى داره تغمره الفرحة وتهزه النشوة •

وكان الاستيلاء على هذه المدينة وعودتها الى المسيحية فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو عام ١١٢٤ من مولد سيدنا ، وهى السنة السادسة من حكم بلدوين ثانى ملوك بيت المقدس •

(١٥)

ظل بلدوين ملك بيت المقدس أسيرا فى يد العدو ما يقرب من ثمانية عشر شهرا أو ما يزيد على ذلك قليلا ، فلما كان اليوم التاسع والعشرون من أغسطس من نفس السنة أطلق سراحه(١٨) بعد أن قطع العهد على نفسه بدفع قدر معين من المال وتقديم الرهائن ، فلما

ثم ذلك عاد الى أنطاكية فى رعاية الرب ، ويقال ان المبلغ الذى حدد لافتدائه كان مائة ألف قطعة ميخائيلية ، وهى نوع من العملة كان معمولا بها على وجه الخصوص فى تلك الجهات فى المعاملات التجارية فى الأسواق ويتم بها البيع والشراء ·

عاد الملك الى أنطاكية مشغول الخاطر تماما لا يدرى كيف يدبر المال اللازم لافتدائه وفك رهائنه ، لذلك استشار طائفة من رجاله الحكماء عن أحسن الطرق لانجاز هذا الأمر ، فأشاروا عليه بحصار مدينة حلب التى كانت تعانى اذ ذاك من قلة الطعام ، والتى كادت أن تكون خالية من سكانها ، وبينوا له أن ربما يكون من اليسير على أهلها ـ اذا اشتد الحصار عليهم ـ أن يردوا الرهائن عليه أو يدفعوا مبلغا من المال يكافىء المبلغ الذى قبل الملك أن يدفعه افتداء لذاته ، فاستجاب الملك لهذا الرأى ، واستدعى اليه جميع فرسانه من شتى أرجاء المملكة وأحدق بالمدينة احداقا قويا ، ثم شرع فى عمليات الحصار شروعا أعجز أهلها عن الخروج منها أو الدخول اليها لمن هو خارجها وبهذا لم يعد للحلبيين مفر من الاعتماد على القـــدر الضئيل من المعونة التى عندهم ·

وترتب على ذلك أن بعثوا بالكتب التى ترادف بعضها فى اثر بعض الى أمـراء المشرق لاسيما من كان منهم وراء الفرات يشرحون لهم حرج موقفهم ، ويبينون لهم أن المدينة لابد أن تسقط عاجلا ان تاخرت النجدة عن الوصول اليها،فقلق الأمراء غاية القلق على مدينة حليفة لهم كهذه المدينة، ثم عبروا الفرات وزحفوا سراعا لانقاذ حلب من أخطار الحصار ، وكانت هذه النجدات تتألف من سبعة آلاف فارس الى جانب القوامين بحفظ المتاع والذخيرة وسواهم من الأتباع الذين يؤدون لساداتهم الكبار ما فى عنقهم من حق الطاعة الذى قطعوا اليمين على الوفاء لهم به ، فلما تبين للملك (بلدوين) ومن معه

أن العدو قادم بمثل هذه القوات الضخمة رأوا أن الحكمة تملى عليهم الارتداد حفاظا على سلامة أنفسهم والجيش معا وأن ذلك خير من التهور والاندفاع الى معركة مع العدو وهو فى قواته التى تفوق قواتهم عددا ، فارتد الصليبيون ـ قبل أن يبلغ جيش الأعداء المدينة ـ الى قلعة من قلاعهم الحصينة تسمى « أثارب » التى تابعت منها جموعهم الزحف الى أنطاكية ، فلما بلغوها انفصل بعضهم عن بعض وعاد الملك بمن معه الى بيت المقدس حيث استقبله جميع رجال الدين والشعب استقبالا حافلا ، وفرحت نفوس كبار أهل المدينة وعامتهم على السواء برجوعه بعد غيبة طالت حتى قاربت السنتين(١٩) ٠

ومات فى هذه السنة ذاتها البابا الطيب الذكر « كاليكستوس » Calixtus فخلفه « لامبرت » أسقف « أوستيا » وكان من أهالى بولونيا والذى عرف باسم « هونوريوس » بعد أن فاز على منافسه القسيس الكردينال « ثيوبولد » الملقب بسنت « أناستاسيا » ، ولما كان الانتخاب لم يجر وفق النظـم الكنسـية المرعية فقد تنحى « هونوريوس » بعد اثنى عشر يوما وخلع بمحض ارادته وفى حضور اخوانه تاج الأسقفية ومسوحها ٠

وأمام هذه المهانة فزع الاخوان الأساقفة والقسس والكرادلة والشمامسة مما قد ينجم فى المستقبل من دخول بدع مستحدثة فى كنيسة رومة ، فعالجوا الأخطاء التى ارتكبت فى الانتخاب الأصلى ، وعادوا فاختاروا فى المرة الثانية للبابوية « هونوريوس » ثم خروا على قدميه مظهرين له الطاعة اللائقة بمكانته باعتباره بابا الجميع وراعيهم ٠

(١٦)

بينما كان الملك فى القدس جاءته الرسل تخبره أن البرسقى ـ وهو أحد الأمراء الشرقيين البارزين ـ قد عبر الفرات على رأس جيش قوى جمعه من أقطار المشـــرق ، وأنه أصبح الآن فى اقليم أنطاكية يعيث فسادا فيها حين لم يجد أحدا يعترضه ، وسار سيرة نكراء ، فاشعل النيران فى كل ما صادفه خارج المدن وفى الأماكن الحصينة ، كما اباح لجنده أن ينهبوا الاقليم كله ، ولقد قام زعماء أنطاكية بعدة محاولات لمقاومتـــه لكنها انتهت بالفشل ، فادركوا عجزهم عن عمل أى شىء ، ولما كان موكولا الى الملك رعاية شئون أنطاكية منذ أمد طويل فقد أعلموه بما هم فيه من هم مقيم ، والتمسوا منه أن يحضر لنجدتهم من غير ابطاء ، مع أنه كان يتحمل مسئولية مزدوجة هى رعاية المملكة والامارة معا ، الا أن خوفه على المملكة رغم ارتباطه القوى بها كان أقل من خوفه على امارة أنطاكية ، وذلك أنه كرس تقريبا جميع جهوده لتحسين أوضاعها على مـدى عشر سنوات كان مطالبا خلالها بمعالى الأمور ، وحدث فى اثناء انشغاله بأوضاعه هذه أن وقع فى الأسر فعانى مذلة قيد العـدو وسجنه قرابة عامين ، أما حال المملكة التى كانت ترعاهـا العناية الالهية فكان على العكس من ذلك اذ لم يصادفه فيها ما يعكر صفو باله ، لأن الرب كان يرعى من يصطفيهم فيجعلهم ملوكا لها ، كما كان الرب هاديا له على الدوام فيما فيه الخير والفلاح ، ولما كان الملك حريصا أشد الحرص على الوفاء بكل عهد قطعه على نفسه فقد جمع كل من تسنى له جمعه من القوات وأغذ الزحف بهـــم الى أنطاكية ٠

وحدث فى هذه الأثناء أن قام البرسقى ــ وكان أميرا شــديد السطوة ومسعر حرب ــ وحالف « طغتكين » ملك دمشق ، وعلم الاثنان باستدعاء أهل انطاكية للملك فقاما بحصار القلعة المعروفة بقلعة « كفرطاب » ، ودأبا على مراوحتها بكثير من الهجمات التى أرغمت المحصورين على الاستسلام نظير الابقاء على حياتهم ، واذ أراد البرسقى أن يحرز مثل هذا النصر فقد عبر سورية الصغرى وحاصر قلعة « زردنا » التى بذل أمامها جهودا مضنية استغرقت بضعة أيام ، أدرك بعدها عجزه عن أن ينال منها شيئا ، فوجه همه اذ ذاك لحصار بلدة « اعزاز » الشهيرة التى لم تكن شديدة المناعة ٠

وبينما كان البرسقى مشغولا بوضع مهماته الحربية والاستعداد للقتال والتهيؤ لتدمير المكان المحاصر اذا بالملك يصل وفى صحبته كونت طرابلس وكونت الرها ، وقد جاء ثلاثتهم بأمر الله بقوات كبيرة لمد يــد المساعدة لمن يعانون الحصار ، فلما قارب الصليبيون العدو صفوا أنفسهم ثلاثة أقسام هى الميمنة وتتألف من كبــار رجــال أنطاكية ، والميسرة بقيادة كونتى الرها وطرابلس ، وقد وقف كل منهما على رأس عسكره ، أما القســـم الثالث وهو القلب فكان عليه الملك ٠ وقد بلغ عسكرهم جميعا ألفا ومائة من الفرسان والفين من المشاة ٠

ولما أخذ الصليبيون فى الاقتراب تأكد لدى البرسقى أنهم ــ كرجال محنكين ــ قد دبروا أمرهم أحسن تدبير وتهيأوا لمعركة عاجلة ، واذ لم يكن فى استطاعة البرسقى التراجع عن القتال والا لطخ شرفه بالعار فقد أخذ من جانبه فى تنظيم قواته التى يقال انها بلغت خمسة عشر ألف وجعلها فى عشرين كتيبة ، فلما أصبح المصافان على استعداد للمعركة شد كل منهما على الآخر شدة عنيفة بل أعنف مما جرت به العادة ، فعانقت السيوف السيوف فى ضـــراوة من

الجانبين ، وحمى وطيس القتال وكثر الهلكى من الطرفين ، ذلك لأنه فى صراع له مثل هذا الطابع يكون تدنيس كل ما هو مقدس وازدراء الشرائع عاملين على بث الكراهية المريرة والعداوة السوداء • أما ان كانت الحرب بين أطراف تجمعهم شريعة واحدة وايمان واحد فانها تكون أقل عنفا مما تكون عليه بين طائفتين مختلفتين فى الآراء متباينتين فى الأعراف والتقاليد ،لأ نه اذا لم يوجد أى سبب آخر للكراهية فان عدم اعتناق المتحاربين نفس الايمان يكون سببا كافيا للنزاع الدائم والعداوة المستمرة •

وهكذا التحم الجيشان فى قتال وحشى ضار ، وكانت الغلبة أخيرا لفريقنا لأن رب الرحمة الذى يؤتى القلة الغلبة على الكثرة كان فى جانبنا ، فهو القائل(٢٠) عن شعبه المختار « يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة لولا أن صخرهم باعهم ، والرب سلمهم » •

ودارت الدائرة على العدو ، وكان نصر الصليبيين عظيما لأنه نصر حبتهم به السماء ، ويقال ان خسارة خصمهم فى ساحة هذه المعركة بلغت ألفى رجل ، على حين لم يهلك منا سوى أربعة وعشرين رجلا فقط •

واستولى الفزع والاضطراب على البرسقى اذ رأى خاتمة الحملة جاءت على غير ما كان يتوقعه ، واذ ذاك عبر الفرات ونكر راجعا الى دياره بيد أن ارتداده لم يتسم بنفس الغرور الذى اتسم به مجيؤه •

ولقد دفع الملك بلدوين فديته وكانت مبلغا كبيرا من المال ، جمع بعضه من غنائم العدو ، وبعضه مما جادت به أيدى اصدقائه واتباعه المخلصين ، فلما تم دفع الفدية ردوا عليه ابنته ذات

السنوات الخمس من العمر والتى كانت رهينة عندهم ، وحينذاك استأذن أهل أنطاكية فى الرحيل عنهم مؤقتا فترة من الوقت ، وعاد سالما الى بيت المقدس ٠

ولقد شيد فى هذه السنة ذاتها قلعة فى الجبال المشرفة على مدينة بيروت وسماها « مونت جلافيانوس » ٠

(١٧)

انصرم أجل السـلام والاتفاق المؤقت اللذين كانا بين الملك وطغتكين بشأن المبلغ المعين من المال الذى كانا قد اتفقا عليه ، فنجم عن ذلك أن قام الملك بحشد كل فرسان المملكة وأغار بهم على نواحى دمشق واجتاحها فلم يلق كيدا ولم يعترضه معترض ، فخرب بعض الاماكن الموجودة فى المزارع المحيطة بها ، واسترق طائفة من أهلها ثم عاد الى بلده سالما معافى ، قد فاضت يداه بأثمن الغنائم التى سلبها من العدو ٠

لم تكد تنقضى ثلاثة أيام على هذه العودة ـ وقبل أن يستجم العسكر ـ جاءت الأنباء بأن الجيش المصرى وصل فى أبهة عظيمة أمام مدينة عسقلان ، وكان من عادة المصريين أن يرسلوا اليهـا أربع مجموعات سنويا تحل الواحدة محل الأخرى حتى تظل قـوة العسقلانيين متجددة على الدوام ، ومن ثم يكونون قادرين دائمـا على متابعة القتال ضد الصليبيين وتكبيدهم الخسائر المتلاحقة ، وكان القادمون الجدد أشوق ما يكونون عادة ليجربوا قتال عسكرنا لأنهم كانوا يريدون أن يعجموا عودنا ويعرفوا بأسنا ، وليقدموا فى الوقت ذاته البرهان الجلى على شجاعتهم ، وكثيرا ما كان يحدث فى هذه المناوشات ان يقع البعض أسرى أو يقتلون بحد السيف ، ذلك لأن

المصريين كانوا غير عارفين بالبلد ، ولم تكن لهم خبرة كافية بفن الحرب ، أما الأهالى الذين كانوا يبذونهم معرفة بالبلاد فقد تجنبوا بحسن تدبيرهم الاصطدام برجالنا رغم أنهم كثيرا ما كانوا يتعقبونهم بلا اكتراث اذا ما أخذ الصليبيون فى الفرار ٠

***

حين ترامى الخبر الى سمع الملك تابع زحفه حتى اذا بلغ الى هنا تخير موضعا ملائما لغرضه تمام الملاءمة ، وكمن فى رهط من أقوى أتباعه وأبسلهم ، ثم قدم طائفة من الفرســـان المدججين بالأسلحة الخفيفة آمرا اياهم بالتجول هنا وهناك فى تلك الناحية تحديا لهم حتى يحملوهم على مطاردتهم ، فلما طالع الأهالى القوات الصليبية تذرع أطراف المدينة فى طمأنينة لم يستطيعوا كظم غيظهم وغضبوا من هذا التطاول الجرىء ، فاندفعوا الى ســـلاحهم غير مكترثين بما تكون عليه العاقبة ، وانطلقوا من جديد فى جماعـــات متفرقة فولاهم رجالنا ظهورهم عن قصد ، وتظاهروا بالفرار منهم ، فجازت الحيلة على العسقلانيين فمضوا فى اثرهم دون أن يأخذوا حذرهم فأوصلتهم المطاردة الى الكمين الذى كان الملك وفرســـانه المختارون يختفون فيه ، فباغتهم بلدوين وكر عليهم بمساعدة رفاقه الذين صدقوا فى معاونته كل الصدق ، وحال بين الكفار وبين التقدم قاطعا عليهم خط الرجعة الى المدينة ، فما لبث القتال أن نشب فى النواحى القريبة وهاجم الصليبيون بسيوفهم المارقين هجوما ضاريا اهلكوا فيه منهم أربعين رجلا قبـــل أن يتمكنوا من العـــودة الى المدينة ، أما بقيتهم فقد نجوا وهم لا يكادون يصدقون أنهم أصبحوا وراء أسوارها ، فتعالى نحيب القوم داخل البلد بصورة لم يسبق لها مثيل ، فكان ذلك دليلا على أن القتلى انما كانوا من أشجع الناس وأشرافهم ٠ وحينذاك أمر الملك أن تدق الطبول ، وينفخ فى الأبواق

لأستدعاء رجاله ، ثم نصب معسكره قرب المدينة وقد عرته الفرحة ، وأمضى الليلة قرير اللعين ناعم البال بما أحرزه من النصر ، ثم عاد الى بيت المقدس سالما فى روحه ، معافى فى بدنه ٠

(١٨)

فلما كان شهر يناير من العام التالى (١١٢٦) من مولد سيدنا وهو السنة الثامنة من حكم بلدوين أمر الملك وكبراؤه أن يؤذن فى الناس قاطبة بعقد اجتماع يحضره الناس صغيرهم وكبيرهم على السواء ، وبعث المنادين ينادون بهذه الأوامر فى مدن المملكة ، فما انقضت أيام معدودات الا وقد تم حشد قوة المملكة الحربية بأكملها ، وتركيزها قرب مدينة « طبرية » تأهبا لغزو أرض دمشق ٠

ما كاد العسكر يجتمعون فى المكان المحدد لهم حتى صدرت الأوامر الحربية بترتيب الأمتعة وتعبئة الصفوف للزحف ، فزحفوا واجتازوا بلاد « ديكابوليس » وأصبحوا داخل أرض العدو ، ثم عبروا من هنا واديا ضيقا يسمونه « كهف رؤاب » أوصلهم الى سهل « ميدان » ، وكان سهلا فسيحا مترامى الأطراف ، منبسطا ، ليس فيه ما يعوق السير،كما يوجد به فيما بين طبرية و«سكيتوبوليس» التى كانت تعرف سابقا باسم « بيسان » ، أقول كان يوجد به نهر « دن » وهو فى طريقه للالتحام بالأردن ٠

ويظن بعضهم ـ معتمدين فى هذا الظن على الاسم نفسه ـ أنه هو نفس النهر الذى اشتق منه المقطع الأخير من اكلمة «الأردن» ، ذلك أن المياه التى تصب فى بحر الجليل ثم تخرج الى مصب هذا النهر ذاته تعرف باسم « أر » ، ولكن حين يتحد نبعا « أر » و «دن » بعضهما ببعض فان المجرى المائى الذى يتألف منهما اذ ذاك يعرف بالأردن ٠

ومع ذلك فانه من ناحية أخرى نجد أن « بيدى » وغيره من علمائنا الذين لا يرقى الشك الى ما يقولونه يذكرون أن منبع هذين المجريين المائيين قريب من « قيصرية فيليبى » الواقعة عند سفح جبل لبنان ، وسمى أحد هذين النهرين باسم « جور » والآخر باسم « دان » ، وتتكون من اتحاد هذن الاثنين مياه الأردن حيث يصبحان مجرى واحدا يصب فى بحيرة « جينيسارت » التى هى بحر الجليل ، ومن هنا يصبحان مرة أخرى نهرا واحدا ، حتى اذا قطع مسافة تقرب من مائة ميل خلال الوادى الشهير صب ماءه فى بحيرة الأسفلت التى تعرف أيضا باسم البحر المالح (أو البحر الميت) ٠

أدى اجتياز جيشنا هذا السهل الى دخوله قرية يسمونها « سالومى » وكان جميع سكانها من النصارى كما هو شأنهم اليوم ، فكف عسكرنا أذاهم عنهم ، ثم زادوا فأحسنوا اليهم وعاملوهم معاملة الاخوة ، وأخذ رجالنا فى تنظيم كتائبهم ، ووضعوا كل فيلق فى المكان المحدد له ، حتى اذا انتهوا من ذلك أسرعوا من هناك الى مكان اسمه « مرج الصفر » الذى تقول الأخبار عنه ان شاول مضطهد كنيسة الرب ذلك الذئب الشرس سمع صوتا يقول(٢٠) له : « شاول ، شاول ، لماذا تضطهدنى » الى آخر الخبر ٠

ويبدو أن العناية الالهية هى التى جعلت جيش أهل الايمان فى الواقع يبلغ هذا الموضع يوم الاحتفال بذكرى هذا الحدث ، يوم تحول شاول من رجل يضطهد الكنيسة الى مهتد وتابع أمين للسيد ٠

ظل الجيش مقيما فى « مرج الصفر » مدة يومين كان يرى فيهما معسكر الخصم فى مواجهته وعلى مقربة منه ، حتى اذا كان اليوم الثالث التقى الجانبان فى ساحة القتال وقد استعد كل من الجانبين كل الاستعداد ، ورتب كل واحد منهما صفوفه أحسن

ترتيب ، وحمل كل منهما على الآخر حملة صدق ، ولما كانت قوى الطرفين متعادلة فقد ظلت نتيجة المعركة فترة طويلة غير معروفة(٢١) وضاعف الملك كدأبه من ضغطه على العدو وراح ينادى رجاله الأشاوس باسمه ويشجعهم على القتال بالقول ويضرب لهم المثل بنفسه ويعدهم النصر الأكيد ، فكانوا أبطالا فى قتالهم اقتداء منهم بقائدهم ، فكروا على خصمهم بقلوب تملؤها حمية الايمان ، وحاولوا أن يكفروا فى الوقت ذاته عن أخطائهم ، وينتقموا لما ارتكب فى حق السيد من ظلم ٠

* * *

أما طغتكين فمضى من ناحيته هو الآخر يثير رجاله بمثل هذه الروح من الحماسة بكلماته اليهم ويرفع من معنوياتهم القتالية بما وعدهم به ، وذكرهم أنهم يحاربون حربا عادلة من أجل حريمهم وأبنائهم ، وأنهم يجاهدون فى سبيل حريتهم وهى أنبل ما فى الحياة ، ويدافعون عن أرض أجدادهم ويدفعون عنها اللصوص ، فأثرت كلماته هذه فى نفوسهم ، فاندفعوا وكلهم حماسة لا تقل عن حماسة رجالنا ، وعزم يكافىء عزم قومنا ٠

ونهج المشاة الصليبيون نهج الملك والفرسان ، فهاجم المشاة صفوف الأعداء هجوما غاضبا وشددوا الضغط عليهم ، ولم يدعوا كافرا من الكفار قد أثخنته جراحه أو احدا منهم شاء حظه العاثر أن يصادفوه فى طريقهم الا وأجهزوا عليه بسيوفهم ، فسدوا بذلك على عسكر العدو بأجمعهم كل سبل النجاة ٠

وعمد مشاتنا الى من وهى من قومهم فسقط وراحوا يردونه الى ساحة القتال ، فمن كان مريضا بعثوا به الى قافلة الأمتعة للعناية به ٠

واستنبط البعض منهم خطة رأوا أنها تحمل الدمـــار المبرم لرجال العدو يومذاك ، قوامها أنهم ركزوا اهتمامهم على جيـــاد أعدائهم يرمونها بسهامهم فتجرحها سهامهم فيقع من عليها ويصبحون فريسة سهلة للصليبيين الذين كانوا يتعقبونهم ٠ كما أن الملك هاجم بنفسه صفوف العدو المتراصة هجمة الليث الهصور ، واقتدى به فرسانه الأشاوس العظام فسار الدمار فى ركابهم حيث ساروا ، ونجم عن ذلك مذبحة ارتاع لها الجميع حتى من كتبت لهم الغلبة ٠ ولا يوجد فى تواريخنا حتى وقتنا الحاضر ذكر لمعركة كهذه المعركة فى شراستها وعنفها ، وعلى الرغم من امتدادها من الساعة الثالثة حتى العاشرة الا أنه لم يكن من الممكن حتى الحادية عشرة أن يقرر أحد ما لمن كان النصر يومذاك حتى شاءت الرحمة الالهية أن تتدخل شفاعة معلم المهتدين الأعظم فيلوذ الكفار بأذيال الهرب فرارا ممـا نزل بهم من مذبحة هيهات أن تمحى من الأذهان ، اذ يقال انه هلك من رجالهم فى هذا اليوم أكثر من ألفى رجل ، وأحصينا من فقد منا فكانوا أربعة وعشرين فارسا وثمانين من المشاة ٠

هكذا جاء النصر من السماء للصليبيين فاعتبر الملك من عداد الفاتحين ، فشكر الرب على ما آتاه من نصره ، وقاد جيشه مغتبطا فلما كان فى طريق العودة الى وطنه صادف برجا قد لاذ به ست وتسعون من التركمان يرجون السلامة لأنفسهم فاستبسل فى الهجوم عليهم وعرضهم جميعا على السيف فأفناهم على بكرة أبيهم ، ثم استولى بعد زحف قليل على برج حصين آخر فمن بالحياة على الأتراك العشرين الذين كانوا به فقد استسلموا من غير كيد ولا مقاومة ، وكانوا قد جاءوا لحماية البرج الذى أخذ الصليبيون فى نقبه ونسفه فما لبث أن هوى كله الى الأرض مصحوبا بدوى فظيع ٠ وبعد أن أحرز العسكر عدة انتصارات مجيدة تستحق الذكر الخالد عادوا الى بلدهم وهم أسعد ما يكونون ٠

أجمع « بونس » لكونت طرابلس عزمه فى ذلك الوقت على محاصرة مدينة « رفنية » القريبة من بلاده ، لما قدره من سهولة هذا الحصار ، واذ كان يتطلع الى أن تكلل خطواته هذه بالنجاح التام فقد بعث بكثير من الكتب والرسائل الى ملك بيت المقدس يرجوه فيها القدوم لمعاونته ، ولما كان الملل لا يعرف طريقه الى الملك الذى كان على استعداد تام للمشاركة الصادقة فى كل ما يعود بالنفع على المسيحيين فقد بادر بالشخوص الى هناك فى لحظته على رأس طائفة من الحرس الأشراف ، فلما صار هناك وجد الكونت « بونس » ورجاله على أتم أهبة لخوض المعركة ، وقد استصحبوا معهم من طرابلس الآلات الحربية وكل ما يستلزمه حصار أى مدينة من المدن لاسيما الطعام الذى جاؤوا معهم منه بما يكفيهم أياما طوالا ، ورأى الملك أن « بونس » قدم المشاة أمامه واذ ذاك قاد الملك وبونس عسكريهما الى الناحية التى اقترحاها لتكون مجالا لنشاطهما ، فلما بلغا هذه الناحية فرضا عليها حصارا حال بين الأهالى وبين الدخول الى ذلك الموضع أو الخروج منه ٠

كانت « رفنية » ضعيفة المنعة بسبب موقعها الطبيعى وقلة عدد سكانها ، كما زاد من هذا الضعف توالى الغارات عليها مما انهكها انهاكا أفقدها القدرة على الصمود طويلا ، اذ كان الكونت قد شيد حصنا فى الجبال القريبة من أراضيه ، وجهزه بحامية دأب رجالها على شن الغارات العنيفة على المدينة مما كبدها الأهوال الجسام حتى ضاقت بها الأحوال أشد الضيق ، مما وجد الأهالى معه أنفسهم مضطرين للاستسلام بعد ثمانية عشر يوما من الحصار الشرس ، واذ ذاك أذن لهم بالخروج آمنين سالمين فى أنفسهم ونسائهم وأولادهم ٠

وكانت « رفنية » معدودة من المدن التابعة لولاية « أفامية »

لوقوعها فى نطاقها ، وكان الاستيلاء عليها فى آخر يوم من شهر مارس ، وحينذاك عاد الملك الى القدس حيث احتفل احتفالا دينيا رائعا بعيد الفصح ٠

وواكب هذد الفترة ، بالتقريب موت هنـــرى (الخـامس) امبراطور الرومان ، فخلفه « لوثير » دوق سكسونيا ، وكان رجلا سنى المناقب قد اربى على الأكفاء فما لبث أن مضى الى « أبوليا » على رأس جيش كبير استولى به قسرا على الاقليم كله حتى «فاروم» Farum وأرغم كونت « روجر » الذى كان قد انتزع ابوليا على الفرار الى صقلية ، وأحل (لوثير) مكانه فى غيبته رجلا عاقلا فطنا اسمه « رينو » ٠

على أن روجر ما لبث أن عاد الى « أبوليا » بعد رحيل « لوثير » عنها فحارب « رينو » فقتله واسترد الدوقية ، ثم توج بعدئذ ملكا على صقلية وجميع ولاية « أبوليا » ٠

(٢٠)

بينما كان الملك لايزال مقيما فى طرابلس اذا برسول من أنطاكية ياتيه على جناح السرعة يخبره ـ شفاها وكتابة ـ ان البرسقى الذى يضطهد ملتنا أشد الاضطهاد قد دخل البقاع على رأس قوة كبيرة من الفرسان ، ولما لم يجد معترضا يعترضه راح يغير على المـــدن ويحرق الأماكن المطلة على التخوم ، وكان يفعل ذلك حسبما تسول له نفسه ويرضاه هواه فيأسـر الرجال ويســـبى النساء ويسترق الأطفال ٠

وكان الملك لا يأمن جانب المصريين ولا يخالجه أدنى شك فى أنهم واصلون عن قريب بأسطول ضخم أعدوه من قبل ، فلما تيقن من ذلك النبأ فعل ما يفعله النطاسي الحاذق يعد أدويته حين يرى

الداء قد استشرى ، ومن ثم فان الملك نحى جانبا كل ما كان بين يديه من المهام وأسرع الى هناك يواجه هذه الضرورة الملحة ، لكن ما كاد البرسقى يعلم بهذه الحركة من جانب الملك حتى رفع الحصار الذى كان قد أحكمه حول قلعة « الأثارب » العظيمة وانكفأ راجعا الى أقصى ناحية فى أرض العدو ، لكنه كان قد تمكن قبل وصول الملك من الاستيلاء على احدى البلدان الصغيرة واسترق بعض نسائها وصغارها ، غير أن رجال هذه القرية المقهورة نجحوا فى الخلاص من يد العدو وان كلفهم ذلك مشقة ركبوا من أجلها الأهوال الخطيرة ، فقد كانوا قوما آثروا السلامة بدلا من وقوعهم هم ونساؤهم وأطفالهم فى رق الأسر .

غير أنه بعد قليل أصابت هذا البرسقى التعيس ابن الجحيم(٢٢) طعنة أوردته الحتوف على يد خدمه وأفراد من أهل بيته ، وبذلك جنى على نفسه بفعاله ما لابد أن يصيبه به مكره السيىء ، وحصد ثمار اثمه .

هكذا كان الوضع فى أرض أنطاكية .

* * *

على أنه جرت شائعة فى ذلك الوقت تقول ان أربعة وعشرين من شوانى الأسطول المصرى مبحرة على طول الشاطىء تتلمس الفرصة للاضرار ببعض مدننا ، وأنها وصلت الى بيروت وأن رجالها مستعدون لأية هجمة عليهم ، وأنهم على أهبة الخروج من مكامنهم لمباغتة وامساك أية جماعة صليبية تشاء الصدفة أن تكون سائرة سيرا عشوائيا أو تكون مقتربة من سورية .

غير أن ما كان مع المصريين من الماء نضب مما اضطرهم للنزول على مقربة من أحد الأنهار التماسا لما يبل ظمأهم ، فرآهم أهل بيروت

فانطلقوا نحوهم وساعدهم رجال من المدن فأجلوا المصريين قسرا عن هذا الجدول فحرموهم نهائيا من فرصة استعمال الماء ، كذلك أرغم أهل البلد العدو بسلاحهم على الارتداد الى سفنه فنكص على عقبيه رغم أنفه بعد أن خسر مائة وثلاثين رجلا لاقوا منيتهم أو اخترطتهم السيوف فأهلكتهم ٠

(٢١)

ولما جاء الخريف التالى تحالف بوهيموند الصغير (أمير تارانتو) وابن بوهيموند الكبير مع عمه وليم دوق أبوليا ، وعقد معه اتفاقية بشأن ولاية الحكم القائمة ، وكان من شروط هذا الاتفاق أن من يموت منهما قبل الثانى يخلفه الآخر دون معارضة ٠

ثم استعد بوهيموند الصغير للسفر فجهزت عشرة أغربة واثنتا عشرة قرقورة تصلح لنقل الأمتعة والجهاز الذى معه وكذلك السلاح والمئونة المعدة لهذا الغرض ، وسافر بوهيموند بكل هذا الى سورية وهو مطمئن كل الاطمئنان الى الملك واثق منه كل الثقة اذ كان قد قطع على نفسه العهد ألا يرده خائبا حين يحضر للمطالبة بحقه فى ميراث أبيه ٠

ولما عرف الملك أن أسطول (بوهيموند الثانى) قد بلغ نهر العاصى سالما نهض لاستقباله فى جمع ضخم من وجوه رجال البلد ، وما كاد بوهيموند يدخل مدينة أنطاكية حتى قام بلدوين بردها اليه عن طيب خاطر ، وكان بلدوين يصرف أمورها على أكمل وجه ويرعاها الرعاية الصادقة الكريمة مدة السنوات الثمانى المنصرمة (أثناء غياب بوهيموند) ٠

حين تم رد الامارة الى صاحبها قام جميع لكبار رجالاتها ووجوه

أهلها فى حضرة الملك وبتوجيه منه فقطعوا يمين الولاء والتبعية لبوهيموند فى قصره الخاص ، ثم استجاب الملك (بلدوين) لمساعى أصدقاء الطرفين فزوج ابنته الثانية « أليس » من بوهيموند ، وتمت هذه المصاهرة على الشـــروط التى ارتضـــاها كل من الملك والأمير لتزداد أواصر الصداقة والعلاقات الودية بينهما رسوخا وشدة ٠

كان بوهيموند يناهز اذ ذاك الثامنة عشرة من عمره ، وكان طويل القامة ، مديدها ، بهى الطلعة أغرها ، أصفر شعر الرأس ، جميل تقاطيع الوجه ، يوحى كل ما فيه لرائيه ــ حتى ولو لم يكن يعرفه ــ أنه حقا أمير ٠ وكان حلو الحديث مقبوله ، وسرعان ما كان يجتذب انتباه سامعيه وميلهم اليه ، كما كان مبسوط الكف سخى اليد كأبيه ٠

أما فيما يتعلق بنسبه فهو عريق النسب ، اذ أبوه بوهيموند الكبير هو ابن روبرت جيسكارد الجليل الشأن ، والذى ظل اسمه حيا الى الأبد ٠ وأما أمه فهى « كونستانس » ابنة فيليب ملك الفرنجة المعظم ، التى اذا عدت النساء الفاضلات كانت فى طليعتهن بما هى عليه من الخلق الكريم والطبع النبيل ٠

وقد أقيمت حفلات العرس وفق التقاليد السائدة ، وزفت الأميرة فى احتفال مهيب الى الأمير ، ووثق زواجها توثيقا شرعيا ، فلما فرغ القوم من هذا كله عاد الملك الى بيت المقدس سالما معافى ، وقد أحس أنه تخلص من الجانب الأكبر من العبء الذى كان ملقى على عاتقه ٠

* * *

وقام بوهيموند فى السنة الثانية بحصار قلعة « كفرطاب » التى كان العدو قد استولى عليها قبل ذلك ببضع سنوات ، فاستدعى

بوهيموند العسكر من شتى أرجاء الامارة ، وصـــدرت الأوامـر للمهندسين ببناء الآلات الحربية اللازمة للاستيلاء على أحد المعاقل ، فما لبث هذا المعقل أن سقط بعد فترة وجيزة من بدء عمليات الحصار، فلم يبق بوهيموند على أحد ممن وجدهم فيه بل فتك بهم جميعا ، ولم يلتفت الى الأموال يبذلها من حاولوا الابقاء على أرواحهم ٠

هكذا كانت أولى ثمار قوة بوهيموند الشابة ، التى قدمها هذا الأمير النبيل كبرهان على ما طبع عليه من الكفاءة ٠

(٢٢)

على أنه حدث قبل ذلك بزمن(٢٤) طويل ان شبت خصـومة عنيفة بين هذا الأمير وبين جوسلين الكبير كونت الرها ، ولانعرف ـ نحن على الأقل ـ أسباب هذه الخصومة ، ولكنها كانت بلا جدال خصومة بغيضة فى عين الرب ، ذلك لأن جوسلين كان قد استدعى لساعدته عصابات من التركمان أعداء الملة ، فكان هذا العمل من جانبه خروجا على الأعراف والشرائع الكريمة التى تجرى فى أيامنا، وكان هذا الاستدعاء من جانب « جوسلين » سابقة دميمة تلحـــق العار بذراريه بعده ، فلما جاء الترك لساعدته راح يعيث واياهم فسادا فى أرض أنطاكية مضرما النار فيها ، ومحكما السـيف فى رقاب أهلها الذين أرغمهم ـ وهم عباد المسـيح المخلصـون ـ أن يطأطئوا هاماتهم ويسلموا رقابهم لنير عبودية لم يقترفوا جرمـا يعاقبون عليه بها ٠ وكان هذا سلوكا شاذا كل الشذوذ جديرا بالزجر الالهى ، فقد وقع كما قيل أثناء أن كان بوهيموند يجاهد فى سبيل السيد أعداء السيد ، ولم يعلم بوهيموند بما كان ، وعلى ذلك فان جوسلين المذكور أهل للعنة يصبها عليه جميع من يصلهم هذا الخبر، لعنة لحمتها الكراهية ، وسداها السخط عليه ٠

ولما وصلت أخبار هذه البلوى الى سمع الملك جزع لها أشد الجزع الذى لم يتمالك معه نفسه ، وكان أخوف ما يخافه ويشغل باله على وجه الخصوص هو ان يتيح هذا الشقاق للعدو الفرصة لمضايقة الصليبيين لأنه كما قال(٢٥) السيد « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » ٠

كما كان يشغله الى جانب ذلك أيضا ارتباط طرفى النزاع بـــه بوشيجة القربى ، فأحدهما وهو جوسلين ابن اخته ، والآخر وهو بوهيموند : ختنه الذى زوجه منذ قريب بابنته ٠ لذلك ـ جـــل بالذهاب الى أنطاكية لاصــــلاح ذات البين بين الاثنين ، والتوفيق بينهما ، وحالفه النجاح فوثق أواصر العلاقات الودية بين هذيــن الرجلين الجليلين توثيقا عظيما ، ويرجع بعض الفضــــل فى ذلك التوفيق الى المعاونة الصادقة الكريمة التى بذلها « برنارد » بطرك انطاكية ٠

وكان من حسن طالع الملك أن مرض جوسلين فى تلك الآونة مرضا خطيرا أسقمه أشد السقم ، وحتى صار شبح الموت ماثلاً أمام عينيه فندم على ما كان منه من الأفعال الآثمة فعاهد الله وهو فى مرضه لئن أسبغ عليه الرب العافية ومد فى حياته ليسترضين الأمير بوهيموند ويصالحه ويرأب الصدع ويعلن ولاءه له ، وتم الأمر كله على هذه الصورة ، اذ ما كاد جوسلين ينقه من وعكته ويلبس ثوب الصحة حتى تم الصلح بينه وبين بوهيموند فى حضرة الملك والبطرك، وصفت النوايا تمام الصفاء ، وأقسم جوســلين لبوهيموند يمين الطاعة التى ظل مراعيا لها بقية أيامه ملتزما بها غاية الالتزام ٠

فلما انتهى الأمر بينهما الى هذه النهاية السعيدة عاد الملك الى بيت المقدس ٠

ويقال أنه جرى خلال هذه الأحداث أن أبحر « روجر » كونت صقلية الى افريقية بأسطول مؤلف من أربعين غرابا كان قد أمـــر بتجهيزها أحسن جهاز ، وبذل الغاية فى العناية بها ، ولكن أخباره كانت قد سبقته الى أهل تلك الولاية فأخذوا للأمر أهبته ، ودبروا أمورهم أحسن تدبير واستعدوا للكونت أكبر استعداد حتى لايجد ثغرة ينفذ منها اليهم بما يضرهم ويلحق بهم الأذى ، ثـم نشطوا نشاط روجر ذاته فسلحوا جميع سفنهم ومضوا يطاردونه مطاردة عنيفة ، مما حملت المسيحيين على الارتداد ـ رغم أنوفهم ـ على جناح السرعة ، وهكذا عاد هؤلاء النصارى من غير أن يتمكنوا من تحقيق ما كانوا يرومونه ، لأن القوم لم يكفوا عن مطـــاردتهم حتى بلغوا سواحل صقلية ، فلما وصلوا اليها فى أغربتهم الثمانين باغتوا « سيراكيوز » بالاغارة عليها ، وكانت هذه المدينة القديمة العظيمة قد نعمت دهرا طويلا بالهدوء الذى لم يعكر صفوه معكر فأوهنها الاسترخاء ، ولم تكن تتوقع أبدا فى ظل هذا الأمان المزعوم خطرا كهذا الخطر فلم تجد بدا من الاستسلام فى الحال ، وقتل الأفارقة عددا كبيرا من الأهالى لم يراعوا فيهم شيخا لكبر سنه ، ولا أنثى لضعف جنسها ، أما القلة التى نجت من الهلاك فقد فرض عليهـا الأسر الذى يهون أمامه كل صنوف الموت ، غير أن أسقف البلد ورهطا ضئيلا من رجال الدين بها تمكنوا من النجاة بأرواحهم لكن بعد صعوبة كبيرة ، فقد فروا الى الريف خارج المدينة (٢٦) ٠

(٢٣)

ولما كان الربيع التالى ـ أعنى بعد أربع سـنوات من عودة «صور» الى حظيرة المسيحية ـ عقد اجتماع بالمدينة حضره الملك والبطرك وكبار رجال المملكة لاختيار واحد يكون رئيسا لأساقفة كنيستها ٠ فتم الأمر أخيرا بترسيم وليم ـ قيم كنيسة القبر المقدس ـ

وهو أنجليزى المولد ، عاش حياة أتسمت بالمثالية البالغة ، وتمتع بالخلق الرضى السوى • على أننا حين نصل الى هذه النطقة لا نستطيع أن نكبح جماح الامنا لأن المثل يقول : « لا ترى العين الا ما تحب ، وما من ألم الا له سبب » ، وقد أثقلت هذه المسألة نفوسنا الى درجة أن الألم الذى خلفته وراءها لم يترك لقلوبنا لحظة من الراحة ، اذ على الرغم من اعجابنا بحكمة تلك الأوقات الا أن الحيرة تتملكنا فنرى فى هذه الحكمة تهورا ، وعلة ذلك أن الذين أقاموا لهم أسقفا من قبل عودة هذه المدينة الى الحرية المسيحية أهملوا تنصيب رأس لهذه الكنيسة وظلوا سادرين فى اهمالهم هذا حتى انقضت أربع سنوات تدهورت خلالها أوضاع الكنائس ، وتضاءل عدد أعضاء الكنيسة الكاتدرائية بدلا مما كان مفروضا من وجوب الاهتمام بها اهتماما يفوق ما يكون لأى كنيسة أخرى ، اذ كانت هى التى تشرف على غيرها من الكنائس وتدبر أمورها ، وهكذا كان حظها أسوأ الحظوظ جميعا حتى لكأنها شخص تطارده اللعنة ، لأنه مكتوب « ملعون من يفسد قدره بيده » ، ومع ذلك فان سلفنا وكذلك نحن الذين خلفناه فى هذه الكنيسة ذاتها قد تسنى لنا الهرب من أن تحل علينا هذه اللعنة ، وحق لهم أن يهربوا لأننا لم نكن السبب فى انهيار حظنا ، بل العكس هو الصحيح لأننا أرغمنا على الدخول فى ظروف أخذت تسير من سيىء الى أسوأ بسبب غيرنا ، فليعف السيد عن أولئك الذين أساءوا التصرف فى كنيسته وألا يسوقهم الى جهنم •

* * *

بعد أن تسلم سلفنا الطيب النكر « وليم » نعمة الترسيم من يد بطرك القدس مضى الى رومة ليتسلم براءة الكهنوتية ، وقد فعل هذا رغم المعارضة الشديدة من جانب الشخص الذى رسمه ، ورغم محاولات هذا الأخير •

وقد استقبل البابا « هونوريوس » الثانى فى رومة « وليم » استقبالا طيبا ، واستجاب لرجائه ، ورده الى محله مكرما مبجلا ، ومعه كتاب رسولى كان محتواه كالتالى :

«من هونوريس الأسقف،خادم خدام الرب الى اخوته الأساقفة الموقرين المساعدين ورجال الكهنوت والى أهل صور ، السلام لكم والبركات الرسولية :

«لقد استقبلنا بالود اللائق أخانا العزيز جدا « وليم » رئيس أساقفتكم عند حضوره الينا ، وهو الذى اختير حسب القواعد الكنسية المرعية ، ورسمه بيده أخونا المبجل جورموند بطرك القدس ٠

« وقد شرفناه بالعصى الرعوية ، أعنى منحناه السلطات الرياسية الكاملة ، وانا لمؤمنون بأن ستجنى كنيستكم الأم فى صور منه ـ برحمة الرب ـ كثيرا من النتائج الطيبة ، ولذلك رأينا الخير فى أن نرده اليكم مزودا بعطف الكنيسة الرسولية حاملا لكتابنا هذا ٠ وانا لنأمركم جميعا أن تتقبلوه القبول الحسن ، وتطيعوه الطاعة التامة ، وتظهروا له الاحترام الكبير اللائق به باعتباره مطرانكم وأسقفكم » ٠

كما أرسل البابا الى جورموند بطرك القدس الكتاب التالى :

« من هونوريوس الأسقف خادم الرب الى أخيه المبجل جورموند بطرك القدس : لكم السلام والبركات الرسولية ٠

« تلقينا كتابكم الذى يفيض بالحب الأخوى فرحبنا بأخينا « وليم » الذى رسمتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة فى صور ، ولقد حبوناه بحبنا ، كما أكرمناه بالنفحة الرسولية فخولناه ممارسة كل الصلاحيات الكنسية العليا ، وبالاضافة الى ذلك فقد أمرنا

أساقفة كنيستة بالخضوع له وطاعته وتوقيره باعتباره مطرانهم » ·
صدر فى اقليم بارى يوم ٨ يوليو (سنة ١١٢٨) ·

* * *

كذلك اختار البابا نائبا عن الكرسى البابوى هو « جيلز » أسقف « تاسكولم » ، وكان رجلا بليغا فصيحا عالما لاتزال رسائله الشهيرة الى أهل أنطاكية موجودة حتى اليوم وأرسله صحبة رئيس الأساقفة وليم هذا ·

كذلك بعث البابا مع « جيلز » رسالة الى « برنارد » بطرك أنطاكية يطالبه فيها بأن يعيد الى صاحب كنيسة صور رجـــال الكهنوت الذين كانوا تابعين لتلك الكنيسة والذين استبقاهم «برنارد » عنده ، وقال له فيما قال :

« لهذا فانا نأمرك بالكتاب الرسولى وعن طريق أخينا المبجل « جيلز » أسقف « تاسكولم » ونائب الكرسى البابوى أن تعيد الى وليم كبار رجال كنيسة صور ، فان لم يظهروا له الخضوع الواجب عليهم له فى مدى أربعين يوما من مطالعة هذه الرسالة التى بعثناها اليك فاننا نعفيهم من وظائفهم الكنسية منذ ذلك الوقت » ·

* * *

وسنقص فى الموضع المناسب فيما بعد كيف كانت هيئة ترسيم « وليم » بيد بطرك بيت المقدس ، وكيف دان له بالخضوع على الرغم مما هو ثابت من أن كنيسة صور كانت منذ أيام الحواريين حتى اليوم خاضعة لكنيسة أنطاكية ·

(٢٤)

ولما انتصف ربيع السنة التالية أرسى بعدا « فولك كونـت انجـــو » المبجـــل الذى كان الملـــك قد اســـتجاب لمشـــورة

الأمــــراء المدنيين والروحــــانيين الاجمــــاعية فاســــــتدعاه ليزوجه ابنته الكبرى السيدة مليزند ، فجاء فى كوكبة من النبلاء المبجلين ، وفى أبهة جليلة تفوق أبهة الملوك روعة وفخامة ٠

وجاء مع فولك وفى صحبته الكونستابل الملكى « وليم بيورى » الذى كان الملك (بعد اطلاق سراحه) قد أرسله مع غيره من النبلاء لدعوة الكونت ٠

فلما نهض « وليم بيورى » لأداء هذه المهمة أذنوا له أن يقسم لهم بحياة الملك وحياة أمراء المملكة على أن يتم زواج الكونت من كبرى بنات الملك فى مدى خمسين يوما من وصول الكونت سالما الى المملكة ، مع توقع اعتلائه العرش عند موت « بولدوين » الملك ، لذلك ما أن وطأت قدما الكونت فولك اليابسة حتى بادر الملك فعقد قران ابنته عليه وفاء للعهد الذى قدمه ، وكان ذلك قبل الاحتفال بعيد العنصرة المقدس الذى أوشك أن يحل ، وتم خلع الملك فى الوقت ذاته على الاثنين(٢٧) مدينتى صور وعكا لتكونا لهما طول حياة الملك ، وقد بقيت هاتان المدينتان فى أيديهما حتى مات الملك بلدوين ٠

ولقد برهن فولك على أنه رجل فطن ألمعى ، فقد أخلص فى حياة بلدوين فى أداء كل ما على الابن من الواجبات ، وكان وفيا نشيطا فى معالجة أمور المملكة ، كما دل فى توقيره للملك على أنه لم تكن تنقصه الصفات اللازمة لكسب الأصدقاء ٠

(٢٥)

كان « جورموند » بطرك القدس الغالى الذكر محاصرا فى هذه الاثناء باحدى القلاع بمنطقة صيداء وتدعى بقلعة « بلتاسم »(٢٨) التى كانت اذ ذاك فى أيدى جماعة من قطاع الطرق اذا به يســـقط

فريسة لمرض خطير اضطروا معه الى حمله الى صيدا ، لكن العلة ازدادت به سوءا وانتهت بوفاته بالدين البشرى الذى فى عنقه ، ومضى فى الطريق الذى لابد من أن يمضى فيه كل ابن أنثى ·
وكان « جورموند » هذا قد تولى أمر كنيسة القدس مدة قاربت عشر سنوات ، فاختير مكانه رجل عريق النسب وان يكن ساذجا فى معالجته الأمور الدنيوية ، ذلك هو « ستيفن » رئيس رهبان دير القديس « جون فالى » الواقع فى مدينة « شارترز » ، فقد كان من أهلها وتربطه بالملك بلدوين وشيجة القربى ، كما كان قبل انخراطه فى سلك الرهبان نائب كونت تلك المدينة ، فعاش عيشة مثالية ، ثم بدا له أخيرا أن يتجرد من الدنيا فتجرد وتنسك وانخرط فى سلك رهبان الدير كما أشرنا ، حتى اختير فى النهاية رئيسا لتلك الكنيسة، وكان اختياره هذا عن حق وجدارة نظرا لفضله وكان فى صدر شبابه قد درس الآداب دراسة عميقة ·

جاء هذا الراهب « ستيفن » الى القدس حاجا ولأداء مناسك العبادة والصلاة ، وبقى بها حتى يؤذن له بالعودة ، وذلك فى نفس الوقت الذى اجتمع فيه رجال الدين والناس بعد فراغهم من مراسم جنازة البطرك « جورموند » وأثناء انشغالهم باختيار راع جديد ، فأجمعوا كلمتهم على اختيار « ستيفن » هذا مكان « جورموند » ، فنصب بطركا مكانه ·

غير أنه بعد ترسيمه أخذ فى اثارة المشكلات العصية فى وجه الملك ، من ذلك أنه ادعى أن الشرع يقضى بتبعية مدينة « يافا » له ولكنيسة القيامة ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك ، اذ قال بعد أن تم الاستيلاء على عسقلان بأن هذه المدينة الطاهرة ذاتها يجب أن تخضع للكنيسة بنفس الطريقة ·

وكان « ستيفن » رجلا كبير الاعتداد بنفسه ، صعب المراس ، لا يعرف التراجع أبدا عن أى عمل ينهض به ، هذا الى جانب شـــدة تمسكه الى النهاية بحقوقه تمسكا قويا ·

ولقد ترتب على هذا أن دبت العداوة بينه وبين الملك ، وكانت عداوة خطيرة أفسدت ما بينهما ، غير أن وفاة « ستيفن » العـــاجلة وضعت ـ كما تقول الأخبار ـ حدا لهذه الخصومة ، فقد وافاه أجله قبل أن ينقضى عليه حولان فى البطركية ، وقال البعض انه مـــات مسموما ، ولكن ليس لدينا الدليل القاطع على هذا الزعم ، ولقد أشاع البعض ان الملك عاده وهو مسجى على فراش موته وســـأله كيف حاله فأجابه : « اننى الآن يامولاى فى الحالة التى تتمناها لى » ·

(٢٦)

فلما كانت السنة التالية عاد « هيـــج دى باينز » أول رئيس لفرسان الهيكل الى بيت المقدس مع ثلة من رجال الدين كان الملك قد أرسلهم فى جماعة من كبار رجالات المملكة الى أمراء الغرب لدعوة الناس للقدوم لمساعدتنا ، وكلفهم فوق كل شىء بمحاولة اغراء ذوى النفوذ للحضور لمعاونتنا فى حصار دمشق ، فانصاع كثير من علية الناس لهم وتأثروا بعذب كلامهم فقدموا الى المملكة ، ومن ثم فان كافة أمراء الشرق المسيحيين اعتمادا منهم على المساعدة القوية من جانب هؤلاء القادمين الجدد ـ اتفقوا على عقد اجتماع حضـــره الملك بلدوين « وفولك » كونت أنجو ، « وبونس » كونت طرابلس ، و « بوهيموند » الصغير أمير أنطاكية ، و « جوســـلين » الكبير كونت الرها · وبعد أن طرح هؤلاء القادة فيما بينهـــم ما جاءوا من أجله قرروا حشد قوات حربية من شتى الأرجاء واستدعاء حلفائهم ، ثم راحوا يتنافسون ويتحمسون للقتال استعدادا لحصار مدينة دمشق

العظيمة ذات الشــــهرة المدوية ، وكانوا يطمعون فى ارغامها على الاستسلام لهم بتضييقهم الخناق عليها ، غير أن المشـيئة الالهية قضت قضاء عادلا خفيا بفشل هذا المشروع الكبير ، واذا كان حسن الطالع قد لازمهم حتى دخلوا بهدى الرب أرض دمشق الا أنهم لم لم يكادوا يبلغون موضعا يسمونه « مرج الصفر » حتى انفصل عن الجيش رجال من ذوى الرتب الصغيرة ، فقد صدرت لهم الأوامر بالانتشار هنا وهناك لجلب كل ما يلزم الانسان والدواب من طعام وعليق ، وعهدوا الى « وليم بيورى » مع ألف من الفرسان بالاشراف على هذه الجماعات التى انقسمت ــ كما هو الحال فى مثل هذه الغارات الى شراذم صغيرة سارت كل واحدة منها فى طريق أفضى بها الى ابتعاد بعضها عن بعض ، وشرعوا فى مسح الاقليم دون أن يأخذوا حذرهم ، ورأت كل جماعة أن تأخذ لنفســـها كل ماتجده ولا تجعل لغيرها نصيبا مما وجدت ، ولما سيطر عليهم هذا القصد انهمكوا فى نهب المزارع والبيوت وقصرت كل طائفة همتها على ان تحمل الى جماعتها وحدها دون غيرها ما حصلت عليه من الأسلاب والغنائم ، كما شرعت فى السير بلا تبصر أو رويــة ، وســـرعان ما جاوزوا حدود التنظيم الحربى ٠

مالبث نبأ هذا السلوك الطائش أن بلغ ســـمع (تاج الملوك بورى(٣٠) أمير دمشق الذى كان يعرف كل المعرفة جهل هذا العسكر المطبق بالناحية التى هم فيها الآن ، فطمع فى القضاء عليهم لو أنه باغتهم بغارة يشنها عليهم وهو فى صـــفوة مختارة من محاربيه وأعظم عسكره خبرة بفنون القتال ٠

وتحقق ما كان يؤمله ٠

فبينما كان هؤلاء يهيمون على وجوههم على غير هدى بحثا عن الطعام اذا ببيورى يخرج عليهم من حيث لايحتسبون ، فتبدد شملهم

اذ كانوا مشغولين بأمور أخرى وعلى غير استعداد لمواجهة أى خطر ، وتفرقوا فى الحقول فتناوشت الكثير منهم سيوف أعدائهم الذين لم يكفوا عن مطاردتهم مطاردة ألزمت كبارهم وصغارهم وزهرة الجيش المكلفين بحراسة الخارجين فى طلب العلف والطعام، ولاقى الكثيرون من هذه الصفوة المختارة من الجند مصرعهم ٠

فلما بلغت أنباء هذه الكارثة سمع العسكر الصليبى استشاطت قلوبهم غضبا ، وتملكتهم رغبة جامحة فى محو هذا العار والانتقام من العدو ، فأسرعوا الى أسلحتهم فامتشقوها ، واستعدوا لمواجهة الخصم بعزم ثابت وشجاعة كاملة ، ولكن هيهات للانسان أن ينجز أمرا لم تقض به الارادة الالهية ، فقد أغرقتهم السماء بمطر غزير انهمر حتى كأنه السيل الجارف ، وكان مصحوبا بضباب كثيف نزل عليهم من فوقهم كسفا تلو كسف ، فاستحال السير بسبب المطر ، وبلغت العاصفة حدا من الشدة يئس معها الجميع من الخروج منها أحياء ، وكانت هناك قبل ذلك بوقت طويل نذر صريحة تدل على اقتراب العاصفة ، وقد تمثلت هذه النذر فى السحب السوداء والضباب الكثيف والرياح التى كانت تهب من كل صوب ، والرعد المستمر ، والبرق المتواصل ، غير أن العقل البشرى الذى لا يدرى من الغيب شيئا لم يأبه بالتسامح الالهى اذ ينذره قبل الجائحة ، بل جرت الأمور على العكس من ذلك اذ أبت هذه القوات الا أن تمضى قدما ضد ارادة الرب ، فكان ما أقدموا عليه أمرا مستحيلا، ثم تسنى لهم أخيرا ــ لكن بعد لأى ــ أن يدركوا أن السماء لم ترمهم بهذه العاصفة الا بسبب آثامهم فتخلوا كارهين عن مشروعهم ، وندموا ولكن لات ساعة مندم ٠

والحق أن الظروف قد تبدلت كل التبدل ، فقد كان العدو عند خروجهم فى أول الأمر يخشاهم أشد الخشية ، وترتعد فرائصه

منهم ، ويراهم تهديدا خطيرا له ، أما الآن فقد أصبح هؤلاء العسكر ذاتهم كلا على أنفسهم ذاتها حتى صاروا فى حال يرون النصر كل النصر أن يعودوا سالمين الى أماكنهم ، أما العدو فقد غدا آمن السرب ، ناعم البال ، مطمئنا الى أن يده صارت الآن هى العليا ٠

وقد حدثت هذه النكبة يوم السادس من ديسمبر عام ١١٣٠ من مولد المسيح ، وفى السنة الثانية عشرة من حكم الملك بلدوين ، وجرت تقريبا فى نفس البقعة التى كان الملك قد أحرز فيها انتصارا مؤزرا مهيبا على هذا العدو ذاته منذ أربع سنوات تقريبا ٠

فما أعظمك أيها المخلص الأبدى !!

وما أقصر ادراك البشر عن استيعاب عظمتك حين تهوى الى الدرك الأسفل بأولئك الذين غرهم الغرور ببطشهم ! ٠

لقد رميت يارب فأصميت قلوب الذين لم يؤمنوا الا بالانسان ، والا بالسلاح الذى يصنعه الانسان ، فانزلت بهم من لعنتك ما هم أهل له ، ذلك لأنك لا تطلب مساعدا ولا مشاركا لك فى مجدك ، لأنك قلت أيها الرب المبارك(٣١) «كرامتى لا أعطيها لآخر» وقلت أيضا(٣٢) « انه مكتوب لى النقمة ٠ أنا أجازى » ٠

وقلت(٣٣) : « ليس اله معى ٠ أنا أميت وأحيى ، سحقت وأنى أشفى ، وليس من يدى مخلص » ٠

أيها السيد : لقد قلت الحق اذ قلت ان أمل الملك فى الظهور على الأعداء هو أمل قوى ، مادام الملك مسلما أمره كله الى رحمتك العلوية ٠ أما حين يعتمد على كثرة ما لديه ، ويغره بأسه ، ويسكن الى بأس الرجال فانك ممسك عنه عطفك ، وتاركه وحيدا لا سند له غير

ما ملكت يداه • أما حين يضع ثقته فى عون الرب له فانك ميسر له النصر على عدوه رغم قلة جنده •• انه مضطر للارتداد خائب المسعى رغم من معه من الجموع الكثيفة •

هكذا حاربتهم السماء فى هذا الوقت ، فقد سلطت عليهم عاصفة من فوقهم أرغمتهم على الارتداد على أعقابهم ارتدادا عجزوا معه عن انجاز مشروعهم ، ولم يستطيعوا الثأر لاخوانهم الذين أهلكتهم سيوف الأعداء •

❊ ❊ ❊

بعد هذه الأحداث المفجعة تفرق قوادنا اذ أصبح واضحا لهم أن لن يكتب النجاح للعمل الذى أضطروا به ، فعادوا كلهم أدراجهم بالتالى الى ديارهم •

❊ ❊ ❊

ولقد مات فى هذا الوقت « ستيفن » بطرك القدس الطيب الذكر ، فخلفه « وليم » قيم كنيسة القبر المقدس ، وكان رجلا سلس الطبع ، مخلصا ، حسن الهيئة ، محمود الطبع نبيله ، ملما بعض الالمام بالأدب ، وكان فلمنكى المولد ومن أهل « مالينز » ، وقد لقى القبول الحسن عند الملك وأمراء المملكة والناس قاطبة •

(٢٧)

ما كاد بوهيموند أمير أنطاكية وزوج ابنة الملك يعود الى امارته من تلك الحملة حتى بادر رضوان أمير حلب بالاغارة عليها ، وكان رضوان واليا تركيا قويا ، وشيطانا مريدا من شياطينهم ، فأراد بوهيموند اذ ذاك أن يمنعه من دخول امارته فأسرع الى كيليكية محاولا صده ، هذا الى جانب أمور أخرى حملت الأمير

الشاب على الذهاب الى هناك وهى أمور تتعلق بشئونه الخاصة والعائلية • وبينما هو مخيم فى سهل فسيح يسمى بمرج(٣٤) الديباج اذا بطائفة من رجال العدو يطلعون عليه ويهاجمونه فينفض عنه أصحابه ويتلفت هو حوله فيجد نفسه وحيدا ، فأمسكه العدو وقطع رأسه •

* * *

كان بوهيموند محبوبا من الرب ، وكان المتوقع أن يغدو أميرا عظيما لو لم يعاجله الموت ويسعى اليه قدره فينتزعه من هذه الدنيا ، فكان موته خطبا فادحا نزل بأهل أنطاكية فأمضهم حزنا ، وأسفوا عليه اذ كانوا يتوقعون أن تطول أيامه فيطول حكمه وتطول سلامتهم لأنه كان لا يزال فى ريق العمر وميعة الشباب ، وكانوا يرجون أن يجنوا فى أيامه خيرا كثيرا ، وتجدد بكاؤهم عليه واشتكوا من الخطر الذى يتهددهم بوقوعهم فريسة للأعداء بعد أن لم يعد لهم أمير يلجأون اليه لو نزلت نازلة بساحتهم • ومن ثم عقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم فتقرر اللجوء الى ملك بيت المقدس فاستدعوه مرة ثانية •

حين سمع بلدوين بهذه النكبة الجديدة اشتد جزعه وتبلبل خاطره ، وتوجس خيفة أن يلم بالامارة ـ وقد حرمت من قائدها ـ خطب يهون ازاءه كل الخطوب التى نزلت بها من قبل ، ولما كان بلدوين يعتبر ما يصيب الأمراء الصليبيين كأنما قد أصابه هو ذاته فقد نحى جانبا كل مشاكله الخاصة وشرع فى تحمل متاعب الآخرين، وكان يرى أن كل شىء يستطيع القيام به لأى طائفة مسيحية انما هو أمر يستأهل عنايته ، ومن ثم أغذ السير الى أنطاكية ، لكن ما كادت ابنته « أليس » تسمع بخبر موت زوجها وتعلم بعزم أبيها على الحضور الى أنطاكية حتى تسلطت عليها روح شريرة حملتها

على تدبير خطة نكراء ، فقد حملها طمعها على أن تعمل ما من شأنه زيادة تأمين مركزها فقررت انفاذ الرسل الى زعيم تركى شـديد البطش تخيرته من بين الجميع اسمه « عماد الدين زنكى » ، راجية أن يعينها فتستبقى أنطاكية خالصة لها وحدها على الدوام ، ولقد فعلت ذلك على الرغم من معارضة كبار رجالها ومعارضة الشعب كله لها فى هذه الخطة ٠

كان بوهيموند الطيب الذكر قد خلف وراءه ابنـة لم ينجب سواها وتدعى (كونستانس) ، ويبدو أنها لم تكن تحظى بما هى جديرة به من عطف أمها « أليس » التى صممت (سواء عاشت أرملة أم تزوجت ثانية) أن تحرم ابنتها من حقها فى حكم انطاكية حتى تظل محتفظة بالامارة لنفسها لا ينازعها فيها أبدا منازع ، ومن ثم عهدت الأم الى أحد خدمها الخصوصيين فأرسلته الى ذلك العظيم (زنكى) الذى أشرنا اليه حالا ، بهدية على هيأة جواد كالثلج فى بياضه ، وكان مموها بالفضة التى صنع منها أيضا اللجام وما على السرج الذى كان قماشه الحريرى أبيض أيضا ، وبذلك كان البياض هو اللون السائد فيه ، ثم شاءت الصدفة البحتة أن يعترض أحدهم هذا الرسول فى بعض الطريق فجاء به الى حضرة الملك فاعترف بكل تفاصيل المؤامرة فقتلوه جزاء على أفعاله الشريرة ، وتفننوا فى تعذيبه عذابا منكرا ٠

ولما علم الملك بالأحداث المؤلمة التى ذكرناها حـالا فقد بادر بالذهاب الى مدينة أنطاكية ، فلما بلغها أمرت ابنته رجالها بايصاد الأبواب فى وجهه ومنعه من الدخول ، ثم خافت رد الفعل الذى قد يتخذه أبوها ، ومن ثم تخلت عن مكانها لشركائها فى الجريمة ، والى من أفسدت أموالها ضمائرهم ، وراحت تبذل كل محاولة للمقاومة حتى تمارس شهوة طغيانها كيفما شاءت ، ولكن الخاتمة كانت أبعد

ما تكون عما دبرت اذ كان فى هذه المدينة ذاتها رجال يخشون الله انفوا من تلك الوقاحة الدنسة الصادرة من امرأة رعناء ، وكان من بين هؤلاء الرجال : « بطرس لاتيناتور » أحد رهبان دير سانت « بول » و « وليم أفرسا » فاتفقا مع من كان على شاكلتهما على الاتصـــال بالملك سرا فيرسلون اليه الرسل يستدعونه للمجيء الى أنطاكية ، ورتبوا خطتهم على أن يقف « فولك كونت انجو » عند باب الدوق ، ويقف «جوسلين» عند باب سنت بول ، فوقفا وفتحـــا البابين على مصراعيهما ، ودخل الملك المدينة ٠

ما كادت الأميرة تقف على ما جرى حتى عادت على عقبيها الى القلعة ، لكنها استجابت فى النهاية لدعوات عقلاء أنطاكية ونزلت على نصيحة من هم موضع ثقتها التامة فجاءت بنفسها الى ابيها الملك حتى اذا صارت فى حضرته أعلنت بين يديه استعدادها للنزول على ارادته ٠

وعلى الرغم من أن بلدوين كان حانقا من سلوكها أشد الحنق الا أن قلبه لم يتجرد من الحنان الأبوى فاستجاب أخيراً لالتماسات الذين توسطوا عنده من أجلها ٠

وتسلم الملك أنطاكية وكان الملك قد اقطـــع (ابنته اليس) المدينتين الساحليتين : اللاذقية وجبلة ، مخافة أن تقوم فى وقت آخر بمثل هذه المحاولة ، ذلك لأن زوجها الراحل (بوهيموند الثانى) كان قد أوصى لها فى وصيته الأخيرة بهاتين المدينتين لانهما كانتا جزءا من صداقها ، وقت زواجها منه ٠

ولما فرغ الملك من تنظيم أمور انطاكية على هذه الصورة عهد بها الى رعاية سراتها ، ثم عاد الى بيت المقدس حيث كانت مشاغله الخاصة تستدعيه ، بيد أنه ألزم الجميع : صغارا وكبارا قبل مغادرته الامارة أن يقطعوا على أنفسهم اليمين الغليظة بأن يظلوا طول حكمه وبعده مخلصين فى الحفاظ على انطاكية وملحقاتها للطفلة القاصرة (لكونستانس) ابنة بوهيموند الثانى ، ذلك أنه كان يتخوف من عمل شرير ترتكبه ابنته (اليس) فتحاول ثانية حرمان ابنتها الصغيرة من ميراثها ٠

(٢٨)

عاد الملك الى بيت المقدس فوقع فريسة لمرض خطير أدرك معه أن يوم رحيله قريب ، ومن ثم نحى جانبا كل ابهته الملوكية وغـادر القصر فى أطمار متبتل ذليل للرب ، وأذن للقوم أن يحملوه الى قصر البطرك المعظم لأنه كان أقرب الأماكن الى الموضع الذى شهد قيامة السيد ، ولانه هو ذاته كان كبير الامل فى أن مولاه الذى قهر الموت فى ذلك المكان لابد وأن يجعله شريكا له فى قيامته ٠

ثم استدعى اليه ابنته وختنه والطفل بلدوين ، وكان فى الثانية من عمره ، وعهد اليهم بكل سلطات المملكة ، وذلك بحضور البطرك وكبار رجال الكنيسة وبعض الأشراف الذين كانوا موجودين هناك ساعتئذ ، فلما فرغ من ذلك نفحهم بركاته كأمير مؤمن ٠

ثم جاءوه بمسوح دينية دثروه بها كمعترف مؤمن بالمسـيح وممارس للحياة الدينية ، حتى اذا مات صعدت روحه الى مالـك الأرواح ، ورحل بأمر الرب لينعم بالنعيم مع الأمراء الآخرين ٠

وكان موته فى الحادى والعشرين من شهر أغسطس عام ١١٣١ من مولد سيدنا ، وامتد حكمه ثلاث عشرة سنة ، ودفن الى جوار أسلافه الملوك أصحاب الذكر البهى عند سفح جبل « كالفارى » أمام الموضع المسمى بالجلجثة ، وأقام شعبه مراسيم جنازته فى أبهة رائعة واحتفال ضخم يليق بعظمته كملك ٠

ولاتزال ذكراه باقية حتى الوقت الحالى موضع الاجلال من الجميع لايمانه المثالى ولأفعاله الباهرة ٠

هنا ينتهى الكتاب الثالث عشر ٠

حواشي الكتـــاب الثالث عشر

(١) هو غير وليم مؤلف كتابنا هذا ، انظر ص ٧٢ ٠

(٢) حزقيال ٢/٢٧ ـ ٧ ٠

(٣) اشعيا ٦/٢٣ ـ ٨ ٠

(٤) مزامير ١٢/٤٥ ٠

(٥) راجع اشعيا ٨/٧ ٠

(٦) راجع نشيد الانشاد ١٥/٤ ٠

(٧) حزقيال ٣/٢٧ ٠

(٨) حزقيال ٧/٢٦ ـ ٨ ٠

(٩) الاسكيثيون ، وقد يقال لهم أيضا البشناق ، وهو لفظ عام غير محدد تماما في الحوليات وكتب التاريخ ، كقولهم « الترك » و « التركمان » « والاتراك » ، وقد يقصد بهم أحيانا السلاجقة على اختلاف فروعهم ، وقد يقصد به المسلمون ، ويلاحظ أن كلا من مؤرخنا وليم الصورى ، والمؤرخة « أنا كومنينا » في كتابها « ألكسياد » الذى ترجمناه الى العربية يطلق كلمة البشناق « Petchenics » أو « Patzinaks » وكذلك كلمة

« الاسكيثيين » Schythis على مجموعة من الشعوب التركية البدوية التى كانت دائمة الاغارة على ما حولها ولاتعرف الاستقرار فى مكان واحد ، وقد تطورت بهم الأحوال حتى انخرطوا ـ و انخرط فريق منهم ـ فى الجيش الرومانى ، فنجدهم فى عسكر رومانوس ديوجين ، ثم من بعده فى جيش اسحق كومنين فميخائيل الثامن دوكاس ، كما يلاحظ أن هؤلاء البشناق أو الاسكيثيين قد تحالفوا زمن الكسيوس الأول كومنين مع البوليكان الذين سنعرف بهم فيما بعد والذين كانوا يعيشون فى شبه جزيرة البلقان وقد كلف البوشناق بيزنطة جهودا كبيرة وكبدوها خسائر جمة حتى انهم أنزلوا بها هزيمة ساحقة فى « درسترا » Dristra الواقعة على الدانوب الأسفل وذلك فى نهاية القرن التاسع للميلاد ، كما انهم هددوا أمن بيزنطة ، حتى لتشير « أنا كومنينا » فى الفصل الثامن من الكتاب الثامن من الألكسياد الى أن العاصمة القسطنطينية لم تستطع فتح أبوابها لزوار ضريح الشهيد « تيودور » ، لأن البشناق ، أو « الاسكيثيين » أصبحوا فى مرة من المرات أمـــام أبوابها ، واذا كان هـــؤلاء المتبربرون البـــدو الاوربيـــون الأسيويون يحتزون بقوتهم الا أنه كان ينقصهم حسن التدبير ودقة الخطـــة ودهاء الكسيوس كومنين الذى تمثل مكره فى ضربه المتبربرين بعضـــهم ببعض حين شجع الكومان Comans على أن يعيثوا فسادا لمضـــايقة البشناق فاستجابوا لما طلبه مما ساعده على أن يحقق غايته اذ أنزل الهزيمة الساحقة بهم بصورة لم يجدوا بعدها بدا من الاستكانة والاستقرار فى شبه جزيرة البلقان ، شرقى نهر الوردار ، ثم انخرطوا بعدئذ فى مســـلك عسكره مكونين كتيبة مستقلة ، راجع فى ذلك
Vasilier (A.A.) History of the Byzantine Empire, (324 — 1453), Lond., 1971, PP. 383 et seq

وانظر المراجع التى ذكرها بشأنهم ٠

(١٠) يمكن للقارىء أن يراجـــع فى هذا الصـــدد ما جـــاء فى ابن القلانسى : نيـــل تاريخ دمشق (نشره أمدروز) وما جـــاء فى ترجمتـــه الانجليزية والفرنسية ، Gibb : Damascus Chronicle

(١١) وتقع فى اقليم « العواصم » على مقربة من « بالس » وتسمى عند الغربيين باسم Hierapolis وقد زارها ابن جبير سنة ١١٨٥م وذلك بعد قليل من تدوين وليم الصورى لهذه الأحداث ، ووصفها فى رحلته

كما وصفها ياقوت الحموى فى معجـــم بلدانه بأنها مدينة يونانيــة كبيرة وقديمة ٠

(١٢) راجع الجزء الثانى من هذه الترجمة العربية ، الكتاب الثانـى عشر ، الفصل ١٩ ،

(١٣) عزامير ٥/٦٦ ٠

(١٤) راجع خبر هذه السفينة الوارد قبل قليل ، ص ٢٧ ٠

(١٥) وقد يقال لها « يبنى » بالألف المقصورة ، و « ابنى » مع ضـم الياء فى الألف والهمزة فى الثانية ٠ ، وهى واقعة على تل صغير ، ويذكر اليعقوبى . فى جغرافيته طبعة جينبول Juynboll ، ليدن ١٨٦١ ، ص ١١٦ . انها من بلدان فلسطين القديمة . كما يشير ياقوت فى معجمـه الذى نشره وحققه « فوستنفلد » ليدن ١٨٦٦ ، ١٠٠٧/٤ الى أن بها ـ كما يقال ـ قبر الصحابى أبى هريرة ٠ انظر فى ذلك :
Le-Strange : Palestine Under The Moslems, PP. 24, 28

(١٦) أورد ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ص ٢١١ وما بعدهـــا « انه كان قد ترامى الى سمع الصليبيين اخراج والى صور الأمير ســـيف الدين مسعود وحمله فى الاسطول الى مصر ، وأنه لما جاء الوالى الجديد أخذ « فى تطييب نفوس الأهالى ، واذ ذاك تحرك الافرنج وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا فى الجمع للنزول عليها » ، فلما علم الوالى بما دبره الأعداء أدرك انه لا طاقة له بهم ، لاسيما وأن الخليفة الفاطمى فى مصرالآمربأحكامالله أمر برد ولاية صور الى ظهير الدين أتابك ليتولى حمايتها ، فندب لذلك جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهـم ٠٠٠ وتوجه مع الافرنج وشـرعوا فى النزول والتأهب لمضايقتها ونزلوا يظاهرها فى شهر ربيع الأول من سنة ٥١٨ هـ ، وضايقوها بالقتال والحصار الى أن خلت الأقوات فيها وعدمت الميرة » ، وكانت هذه هى المرحلة الأولى من مراحل التقدم الصليبى الى صور ٠ ثـم كانت المرحلة الثانية متمثلة بداياتها فى « ضعف النفوس واشراف أهلهـا على الهلاك » واذ ذاك وقع اليأس من المعونة ، فلم يكن من الأتابك الا أن كاتب الفرنج « يداهنهم تارة ويرهبهم أخرى » ثم انتهى الأمر الى تسليم صور للصليبيين ، وجاء فى نص الاتفاق الخاص بالتسليم « أن يؤمن كل من بها ، ويخرج من أراد الخروج من العسكر والرعية بما يقدرون عليـــه

من أموالهم ، ويقيم من أراد الاقامة · ويشير نفس المصدر العربى الى أنه لم يبق فى صور بعد هذا النزوح سوى « الضعيف الذى لايطيق الخروج » وكان تفريغ صور من أهلها الأصليين يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ · ثم تلت ذلك المرحلة الثالثة والأخيرة والتى تمثلت فى اشتداد ساعد الصليبيين بهذه الخاتمة وخروجهم بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس وعيثهم فسادا فى نواحى حوران من أعمال دمشق ·

(١٧) انظر عن « سكانداليوم » «Scandalium» أى الاسكندرونة ، الجزء الثانى من هذه الترجمة العربية ، ص ٣٢٨ ·

(١٨) راجع ترجمتنا العربية ، ج ٢ ، ك ١١ ·

(١٩) لم يكن الأمر كما ذكره المؤلف فى المتن أعلاه ، اذ الثابت أن غيابه طال أكثر من ثلاث سنوات ·

(٢٠) تثنية ٣٢/٣٠ ·

(٢١) فيما يتعلق بمقدمات وقعة مرج الصفر نقول انه فى سنة ٥١٩ هـ ، وردت الأخبار بتأهب بلدوين الثالث للاغارة على حوران ، فاستعد له ظهير الدين أتابك دمشق وكاتب أمراء التركمان ومقدميهم واعيانهم يستنجد بهم ويبذل لهم الاحسان والانعام » وخرج هو ذاته فى عسكره الدمشقى فعلم بقرب الصليبيين من طبرية قاصدين مرج الصفر ، وكان جمع الاسلام كثيفا ، فيه الكثيرون « من أحداث دمشق والشباب الأغرار ورجال الغوطة والمرج والأطراف وأحداث الباطنية من حمص وقصر العين ، وتطاردت طلائع الفريقين » ، وأغارت جماعة وافرة من التركمان على أطراف الافرنج الذين رحلوا بأسرهم من منزلهم هذا ، وغر الغرور جماعة التركمان فهاجموهم وهم مولون الأدبار ، فما كان منهم الا ن عادوا وحملوا على المعسكر الاسلامى فكسروه ، راجع ذلك بالتفصيل فى ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، ص ٢١٢ ـ ٢١٤· أما فيما يتعلق بمرج الصفر الواقع فى غوطة دمشق فانظر معجم البلدان لياقوت ، مادة « مرج الصفر » ·

(٢٢) تنم عبارات وليم الصورى الواردة فى المتن عن شدة حقده على الأمير الأسفهلار سيف الدين اق سنقر البرسقى صاحب الموصل الذى كان مصرعه على يد الباطنية فى جامع الموصل ، وكانت صفة مصرعه هى أنه كان قد وثب عليه جماعة من الباطنية رغم أنه كان على غاية الحذر »

والتيقظ لهم والتحفظ منهم ، وذلك بالاستكثار من السلاحدرية والحاقدارية والسلاح الشاك ، وكان يلبس من لبـــاس الحديد ما لا تفعل فيه مواضى السيوف » ، وحوله الغلمان الأتراك والديلم والخراسانية بأنواع السلاح ، ثم جرى أن دخل البرسقى المسجد الجامع لصلاة الجمعة ، وكان فيه جماعة فى زى الصوفية يصلون ، « لم يؤبه لهم ، ولا ارتيب فيهم » فلما شرع البرسقى فى الصلاة وثب عليه هؤلاء بسكاكينهم وضربوه عدة ضربات ، لكنها لم تؤثر فى الحديد الذى عليه « وقد غفل عنه أصـــحابه » · كذلك يصف ابن القلانسى ما كان من الباطنية حين رأوا السكاكين لاتفيد فيما عليه ، فقال احدهم لرفاقه : « ويلكم اطلبوا رأسه وأعلاه » فصدعوا لما اشار بـه عليهم، فخر البرسقى صريعا · وتولى بعده ولده الأمير مسعود الذى كان مشهورا بالنجابة والذكاء وكان معروفا بالشهامة » · واذا كان وليم الصورى يصف البرسقى بألفاظ كلها كراهية حادة فان صدورها من مؤرخنا يفصح عن عظمة البرسقى ، ويتجلى هذا من أن نظرة المسلمين اليه كانت تخالف تمام المخالفة هذه النظرة الصليبية ، فقد كان الاسفهسلار « ســـديد الطريقة ، جميل الأفعال ، حميد الأخلاق ، مؤثرا للعدل والانصاف ، كثير التدين ، محمود المقاصد ، محبا للخير وأهله ، مكرما للفقهاء والصالحين » ، انظر فى ذلك ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٤ ·

(٢٣) راجع الجزء الثانى من ترجمتنا العربية هذه للحروب الصليبية ، الكتاب ١١ ، الفصل السادس ·

(٢٤) حددت النسخة الانجليزية تاريخ هذه الخصومة بينهما بصيف ١١٢٧ لكنها لم تبين المصادر التى اعتمدت عليها فى تحديد هذا التاريخ ·

(٢٥) راجع لوقا ١١ / ١٧ ·

(٢٦) اعتبر مترجما كتاب وليم الى اللغة الانجليزية هذا الخبر الذى لايمت بأى صلة الى مملكة بيت المقدس دليلا على المام وليم الصورى الماما كبيرا بأخبار جنوب ايطاليا مما أدى الى اطالة الحديث عن هذه الأخبار ، وانظر فى خبر هذا الالمام ما كتبنـــاه فى مقدمتنا بالجزء الأول من ترجمتنا لهذا الكتاب .

(٢٧) المقصود بالاثنين هنا كونت فولك ومليزند ابنة ملك بيت المقدس ·

(٢٨) الوارد فى النص الانجليزى ان اسم هذا المكان هو Belthasem ولم تستطع الاستدلال على مرادفه العربى ، وان كان لى سترانج يذكر موقعا اسمه Belthshean ويشير فى أكثر من موضع من كتابه الى « بيسان » ويقول انها تعرف فى اللسان الغربى باسم « Belthshean

(٢٩) راجع الحروب الصليبية لوليم الصورى ، ترجمة حسن حبشى ج ٢ ، ك ١٣ ، ف ٧ ٠

(٣٠) الوارد فى الترجمة الانجليزية نقــلا عن نص وليم اللاتينى « طغتكين » ، وقد تنبهت الترجمة الانجليزية الى خطأ هذه التســمية ، ولكنها أبقت « طغتكين » على ما هو عليه ٠ وبرجوعنا الى ابن القلانسى الذى عاصر هذه الأحداث وكان شاهد عيان لها نجده يشير فى ذيل تاريخه لدمشق ، ص ٢١٨ ، الى أن ظهير الدين طغتكين مات فى سنة ٥٢٢ هـ ، « فرشح مكانه ولده تاج الملوك ، وهو ما أثبتناه فى متن هذه الترجمـــة العربية أعلاه ، وكان موت طغتكين يوم السبت ٨ صفر ٥٢٢ ، ولم يكن اختيار الناس لتاج الملوك ناجما عن فراغ بل لأن أحداث الصراع الصليبى الاسلامى حينذاك كانت تتطلب رجلا يكافىء « الوقت » فكان « تاج الملوك بورى » « اذ هو المأمول لسد الثلمة » ٠

(٣١) اشعيا ١١/٤٨ ٠

(٣٢) رومية ١٢/١٩ ٠

(٣٣) تثنية ٣٢/٣٩ ـ ٤٠ ٠

(٣٤) فى الأصل « المرج » والأصح ما أثبتناه فى المتن ٠

فصول الكتاب الرابع عشر

١ ــ نسب وصفة فولك ثالث ملوك بيت المقدس ·

٢ ــ زيارة فولك المقدس فى رحلة حج قبل أن يستدعيه الملك بلدوين ، وكيف تولى العرش ·

٣ ــ خروج جوسلين الكبير كونت الرها الى العدو رغم مرضه ووضعه فى المحفة وحمله العدو على الفرار ثم موته بعد ذلك · الخبر عن ابنه جوسلين الصغير ·

٤ ــ استغاثة أهل أنطاكية بالملك فولك ، وكشف القناع عن دناءة الأميرة اليس ارملة بوهيموند الثانى ·

٥ ــ محاولة كونت طرابلس معارضة الملك حين اسراعه الى أنطاكية وفشله فى هذه المحاولة · تحسن الأحوال فى أنطاكية ·

٦ ــ استدعاء أهالى أنطاكية الملك فولك للمرة الثانية ، وفرض

زنكى الحصار على احدى القلاع الموجودة فى طرابلس ، ومبادرة الملك الى نجدة القلعة استجابة لالحاح أخته ٠

٧ ــ الملك يسرع الى أنطاكية ويرغم من تجمع بها من الكفار على الفرار ، وامتلاء أيادى الأهالى بالغنائم التى نهبوهـــا من العــدو ٠

٨ ــ بطرك القدس وأشراف المملكة يبنون قلعة كانت الحاجة ماسة اليها ويسمونها قلعة « ارنولد » ٠

٩ ــ الملك يأمر باستدعاء ريمـــوند بن كونت بواتـــو ليتــزوج « كونستانس » ابنة بوهيموند ٠

١٠ ــ موت برنارد بطرك أنطاكية واســـتخلاف « رالف » رئيس أساقفة « مامسترا » مكانه فى جو مشحون بالاضطرابات ٠

١١ ــ وفاة البابا « هونوريوس » وانتخاب أنوسنت مكانه وظهور شقاق خطير ، وموت وليم رئيس أساقفة صور ، واستخلاف « فولشر » محله ؛ وذهـــابه الى رومة وطلبه الطيلســـان وتسلمه اياه

١٢ ــ كنيسة رومة تأمر فولشر باطاعته بطرك بيت المقدس وتخبر بأنه يتسنم فى تلك الكنيسة نفس المكانة التى كانت له سابقا على شعب أنطاكية ٠

١٣ ــ البابا يصدر أمره لكبار رجال الدين التابعين لفولشر بطاعته ويرسل كثيرا من الرسائل من أجل هذا القصد ٠

١٤ ــ شرح الظروف التى أدت الى ظهور الخلاف بين البطركين ٠ وذكر دفاع كل منهما ٠

١٥ ـ اتهام كونت يافا امام الملك بمؤامرة اغتياله وحدوث اضطراب كبير فى المملكة ·

١٦ ـ وولتر صاحب قيصرية يتحدى كونت « هيج » لمبارزته ، فيلجأ الأخير الى العدو ويهجره اتباعه ·

١٧ ـ محاصرة مدينة عكا وقيام نبلاء المملكة بعقد اتفاقية بخصوص السلام ، كما يتم فى الوقت ذاته استيلاء العدو على « بانياس » ·

١٨ ـ اصابة كونت يافا بجروح خطيرة واندلاع الثورة من جديد وعبوره البحر بعد شفائه حسب الاتفاق ·

١٩ ـ عقد الهدنة مع الدماشقة واعادة من كانوا موجودين من قبل فى بانياس من الأسر ·

٢٠ ـ « ريموند بن كونت بواتو » يصل سرا الى انطاكية ويتزوج « كونستانس » ابنة بوهيموند رغم ارادة امها الأميرة « أليس » التى تبذل أقصى جهدها لمنع هذا الزواج ، وبذلك يتملك « ريموند » الامارة ·

٢١ ـ تقرير عن ريموند يتناول عاداته ومظهره والخبر عن أسلافه ونسبه ·

٢٢ ـ الملك فولك يشيد قلعة لصد غارات العسقلانيين الجريئة ويسميها قلعة « جبلين » أو « بير سبع » ·

٢٣ ـ مصرع كونت طرابلس عند تل الحجاج بواسطة مؤامرة دبرها خاصة رجاله ، واذ ذلك يخلفه ابنه ريموند الذى انتقم لهلاك ابيه ·

٢٤ ـ يوحنا امبراطور القسطنطينية يزحف على انطاكية ويحتل كيليكية •

٢٥ ـ زنكى يحاصر القلعة المسماة « مونتفرات » وحينذاك يحاول الملك الاستعانة بكونت طرابلس لرفع هذا الحصار فيفشل فى محاولته هذه وتدور الدائرة على الصليبيين ، ويقع الكونت فى الأسر ويرتد الملك الى القلعة •

٢٦ ـ زنكى يعاود مهاجمة القلعة فيستصرخ المحصورون بجيرانهم لمساعدتهم •

٢٧ ـ « بزواج » حاكم دمشق يعيث خرابا فى نابلس ويضرم النيران فيها •

٢٨ ـ قوات النجدة تهب لمساعدة الملك فولك ولكن النكبات الجسيمة لاتزال تنزل بالمحصورين •

٢٩ـ وصول النجدة ولكن الظروف تحمل الملك فولك على التسليم فيعقد اتفاقا مع الأعداء ويعود سالما الى أرضه •

٣٠ ـ الأمير يعود الى أنطاكية فيجد المدينة تحت الحصار فيقاوم مقاومة باسلة ، غير أن بعض الأشخاص يتدخلون بينه وبين الامبراطور فيتم عقد الصلح بينهما •

هنا يبدأ الكتاب الرابع عشر

فولك ملكا على بيت المقدس والاضطراب فى سورية الشمالية

(١)

لما ودع بلدوين ـ ثانى ملوك بيت المقدس اللاتين ـ هذه الدنيا خلفه على بيت المقدس « فولك كونت تورين ومين وانجو » الذى اشرنا اليه آنفا والذى زوجه الملك « بمليزند » كبرى بناته ٠

كان فولك ذا خدين متوردين اشبه بداود الذى صنعه الرب كما يهوى قلبه ، كما كان رجلا وفيا مهذب الطبع ، لين الجانب ، رؤوفا بالناس ، مواسيا لهم ، وهى خلال غير مالوفة فى رجال لهم هذه البشرة ٠ كما عرف بانه اسخى الناس كفا على اعمال البر والصدقة ، وكان اميرا قويا حتى قبل استدعائه لادارة شئون المملكة ،

ونجح كل النجاح فى حكمه لشعبه ، كما كان مسعر حرب كثير الصبر عليها ، عالما بفنون القتال ٠

وكان متوسط الطول ، متقدما فى العمر تقدما كبيرا ، اذ جاوز الستين عاما ٠

وكان من العيوب التى يشكو منها والتى ترجع الى نقص فى الخلق البشرى ضعف ذاكرته وكثرة نسيانه ، حتى انه كان قل أن يتذكر الوجوه أو الأسماء ولو كانت وجوه أهل بيته وأسماءهم فلو أن امرأ ممن تكرم عليهم منذ قريب بعطفه ومحضه صداقته ظهر أمامه فجأة راح يكثر من السؤال عمن يكون هذا الشخص مما يسبب حرجا لأولئك الذين سبقت معرفتهم له ثم جاءوه وسطاء لغيرهم ، اذ يجدون أنفسهم فى حاجة لمن يعرف بهم هم أنفسهم عنده ٠

كان الملك الجديد يسمى باسم أبيه فولك الملقب « بريخين » والذى كان يعرف بكونت تورين وأنجو ، والذى تزوج من برترادا أخت أمورى دى مونتفرات التى أنجبت له ولدين هما « فولك » موضوع كلامنا الآن ، « وجوفروى مارتل » ٠ كما رزقت بابنة هى « هرمنجارد» التى تزوجت أول ما تزوجت بوليم كونت بواتو ، فلما هجرها وطردها هربت الى كونت بريتانى الذى أحبته وعاشت معه وعاشرته معاشرة الزوجية ، فأنجبت له ولدا هو « لكونان » كونت بريتانى الذى عرف بالسمين ٠

بعد أن أنجبت « برترادا » هؤلاء الأولاد الثلاثة من زوجها الشرعى فولك الكبير هجرته وفرت الى « فيليب » ملك الفرنجة الذى نحى جانبا زوجته الشرعية ، وجعل « برترادا » تقاسمه فراشه

فشاطرته أشجانه ، وظل مبقيا اياها معه رغم أنف القانون الكنسى ورغم جميع محاولات الأساقفة وأشراف مملكته ، بل لقد انتهى به الأمر أخيرا الى أن عاملها معاملة الزوج لزوجته ، فأنجب منها ولدين هما « فلورس » وفيليب ، وابنة هى « سيسيليا »(١) التى ذكرناها من قبل والتى تزوجت أول ما تزوجت من « تانكريد » أمير انطاكية ، فلما مات اقترنت ببونس كونت طرابلس ٠

أما الابن الصغير لفولك (الكبير) فقد سمى باسمه أيضا ، ثم تزوج بعد موت أبيه من « أرمبيرج » ابنة هيلى كونت « مين » ، وقد أنجبت ولدين وابنتين ، وكانت أمه هى السبب فى هذا الزواج ٠

وكان فولك فى شبابه يعمل ساقى الشراب فى بلاط مولاه « كونت بواتو » حين جاءت الأخبار تنعى شقيقه الأكبر فبادر الكونت فى الحال الى القبض على الشاب وزج به فى السجن حتى يتمكن من أن يغتصب من فولك بالقوة بعض قلاع معينة كانت واقعة داخل ممتلكاته الخاصة التى كان والد فولك وأخوه قد ورثاها شرعا منذ أمد بعيد ، على الرغم من أنه كان من الناحية الاقطاعية تابعا لكونت بواتو ٠

وكانت أمه « برترادا » قد انفصلت عن أبيه قبل ذلك بزمن طويل وهربت الى ملك الفرنجة ، فلما علمت بحبس ولدها تحركت فيها مشاعر الأمومة فانطلقت الى الملك تستجديه وتستعطفه أن يمن على ابنها باطلاق سراحه ، وأن يرد عليه ماورثه عن أبيه ، فاستجاب الملك الى رجائها ، كما نجحت فى حمل الملك على أن ينعم على فولك بالزواج من ابنة « هيلى » الوحيدة المذكورة آنفا ، فزفت اليه بكل ما ورثته ٠ وكان لفولك من « أبيرج » كما قلنا ولدان وابنتان ، فأما

أكبر الولدين فقد خلف اباه فصار هو الكونت ، وزوجه ملك الانجليز القوى هنرى الكبير من ابنتـــه الوحيدة « ماتيلدا » أرملة هنرى (الأول) امبراطور الرومان • وقد صار لجوفرى بهذا الزواج ثلاثة ابناء هم : هنرى الذى يدير الآن شئون مملكة انجلترا ادارة حكيمة سديدة ، وأما الابن الثانى فهو « جوفرى » الملقب ببلانتا جنت ، وأما الثالث فوليم المعروف بذى السيف الطويل •

كان الابن الثانى لفولك يدعى « هيلى » باسم جده لأمه وقد زوجه « روترو كونت بيرش » ابنته الوحيدة ، فتعهد ألا يتزوج مرة أخرى ، كما تعهد أن ينقل الى « هيلى » عند موته كل الميراث لكنه لم يف بعهده هذا ولا بأى عهد من العهود الأخرى ، فتزوج أخت اللورد الانجليزى كونت « باتريشيوس » فأنجبت له عدة أطفـال ، وهكذا فقد « هيلى » ـ رغم ما كان يؤمل ـ ميراث زوجته •

أما « سبيلا » احدى بنـــات فولك فقد تزوجت النبيل العظيم « تييرى كونت فلاندرز » وتمخض هذا الزواج عن مولد فيليب الذى هو اليوم صاحب كونتية فلاندرز •

أما الابنة الثانية « ماتيلدا » فقد خطبهـــا هنـرى ابن ملك انجلترا ، الا أنه كان مبحرا الى انجلترا قبل أن يتم هذا الزواج فجنحت سفينته فمات غريقا ، فأقسمت ماتيلدا أن تظل ارملة بقية حياتها ، ودخلت دير « فونتفرولت » حيث عاشت عيشة الطهر حتى وافاها اجلها •

(٢)

كان فولك قد ذهب الى بيت المقدس بعد موت زوجته وقبل أن يستدعيه الملك ، وهناك كرس نفسه للرب فاكتسب ـ عن حق ـ عطف

الجميع ومحبة الملك ، وكانت علاقته بجميع البارونات تتسم بالمودة القوية ، اذ ظل مدة عام بأكمله يصرف من ماله الخاص وهو فى المملكة على مائة فارس ، ثم عاد بعد ذلك سالما الى بلاده حيث راح يستعد لتزويج ولديه وابنتيه ، وينظم أمور كونتيته على احسن الوجوه ، فلما رجع من القدس انقضت عليه بضع سنوات كان منصرفا فيها الى ادارة شئونه فى يقظة وحكمة حتى جاءته سفارة من ملك بيت المقدس ٠

وكان بلدوين مهتما بتدبير زوج لابنته الكبرى حتى يطمئن لانتظام الأمور من بعده فى حكم المملكة ، لذلك أجرى مشاورات طويلة نزل بعدها على نصيحة أشراف مملكته وموافقة الشعب أيضا ، فأرسل الى فولك اثنين من كبار رجاله هما « وليم دى بيورى » ، وجى دى « بريزبار » ليخطبا اليه ابنة بلدوين ويصبح وريثا للعرش ٠

ومن ثم عمد الكونت الى ترتيب أموره الخاصة ونظم شئون الكونتية ، وبارك أطفاله ، وبدأ رحلته استجابة لدعوة الملك ، وخرج وفى صحبته حاشية كبيرة من نبلائه ، فما انقضت أيام قلائل من وصوله الى المملكة حتى زف الملك اليه ابنته الكبرى (مليزند) ، وجعل صداقها مدينتين ساحليتين هما صور وعكا حيث ظل فولك محتفظا بهما لمدة ثلاث سنوات تقريبا ، واستمر يلقب بالكونت كما كان عليه من قبل ، فلما كان اليوم الحادى والعشرون من أغسطس عام ١١٣١ من مولد سيدنا لفظ الملك أنفاسه ٠ وفى اليوم الرابع عشر من سبتمبر وهو يوم تمجيد الصليب الطاهر توج الكونت فولك وزوجته مليزند تتويجا رائعا ، كما تم ترسيمهما ـ جريا على العادة ـ فى كنيسة القبر المقدس على يد وليم بطرك بيت المقدس الطيب الذكر ٠

(٣)

كان جوسلين كونت الرها فى ذلك الوقت مسجى فى فراشه وقد أنهكه المرض الطويل ، وكان يتوقع قبض روحه فى كل يوم يمر به ، وكان قد حدث فى العام المنصرم وهو فى ناحية قريبة من حلب أن وقع عليه برج مبنى بالطوب اللبن كان قد أمر بنقضه من أساسه حتى يتيسر له الاستيلاء على ذلك المكان وعلى الذين بداخله من الأعداء ، لكن « جوسلين » لم يتخذ ما ينبغى من الحيطة فتردى هو ذاته تحت الردم المباغت الذى كاد أن يدفن تحته حيا لولا أن خلصه من معه بعد صعوبة كبيرة ، فخرج من تحت الردم ولكن بعد أن أصيب بعدة كسور · وقد ظل فترة طويلة من الزمن يعانى آلام كسوره هذه وان نجح رغم ذلك فى الحفاظ على قوة روحه المعنوية التى كانت تصارع الرحيل ، ثم حدث ذات يوم أن قدم عليه رسول على عجل يخبره أن سلطان قونية حاصر « كريسون » احدى قلاعه ، فما كاد هذا الرجل القوى الروح ، الضعيف البدن ، الثابت الجأش يسمع هذا الخبر حتى أمر فى الحال باستدعاء ابنه اليه ، وأمره بالخروج فى لحظته على رأس جميع عسكر البلد لصد العدو بشجاعة بدلا منه هو لأنه أصبح عاجزا عن الحركة · غير أن الابن راح يختلق الأعذار حتى لا يخرج ، متعللا فى عدم انصياعه لأمره بأن الأخبار جاءت تفيد بأن السلطان المذكور زاحف بجيش ضخم يفوق ما مع جوسلين من العسكر اذ هم قلة قليلة ، فلم يخف الأب المرارة الشديدة من تخاذل ولده ، وعرف من رده أى رجل من الرجال سيكون هذا الابن فى مستقبل أيامه ، فأمر الأب الجيش وكافة أهـــل البـــلد بالخروج للقتال ، فلما تم ذلك أمر بتهيئة محفة له هو ذاته يسجونه عليها غير عابىء بآلامه وضعفه ، وتقدم على هذه الصورة لمواجهة العدو ، وظل مصاحبا العسكر على هذه الهيئة ساعة من الطريق حتى جاءه أحد بارونات تلك البلاد واســـمه « جوفرى » وينعت

بالراهب ، فلما مثل أمامه أنبأه أن السلطان قد رفع الحصار عن « كريسون » حين سمع بخبر زحفه وارتد سريعا على أعقابه ٠

فلما عرف الكونت (جوسلين الأب) الأمر أمر أن توضع المحفة المحمول عليها على الارض ثم رفع كفيه الى السماء وقد اغرورقت عيناه بالدموع وتنفس الصعداء أن أسبغ الله عليه فى أخريات أيامه رحمته ، وجعله ـ وهو نصف ميت وعلى حافة القبر ـ لا يزال يثير الفزع فى قلوب أعداء الملة المسيحية ، ثم فاضت روحه وهو يتمتم بعبارات الشكر ، ومات مخلفا ابنه المسمى باسمه وان كان دونــــه بكثير فى عظمته ، ولكنه كان وريثه الوحيد فى كل ما يملك ٠

***

كانت أم « جوسلين » الصغير أختا لليو الأرمنى الذى كان نفوذه بين قومه ضخما جدا ، وعلى الرغم من ضآلة هيكل جوسلين الابن الا أنه كان ممتلىء الأطراف قوى البنية ذا مرة ، شديد السـمرة ، أسود الشعر ، عريض الوجه كثير الندوب بسبب المرض المسـمى بالجدرى ، كما كان جاحظ العينين بارز الأنف ، وعلى الرغم من أنه كان على جانب من السخاء الطبيعى الا أنه كان منقادا لشهواته ، مكبا على شرب الخمر ، مقبلا كل الاقبال على الخلاعة ، لا يتورع عن أى موبقة تدنس الجسد حتى تدنت سمعته الى الحضيض ، وكان قد تزوج من « بياتريس » أرملة « وليم الساؤنى » وهى سيدة شريفة المكانة كريمة الخلق ، فانجب منها غلاما اسمه « جوسلين الثالث ، وابنة اسمها « أجنس » التى تزوجت مرتين أولاهما من « رينو » صاحب مرعش ، والثانية من « عمورى » كونت يافا الذى صار فيما بعد ملك بيت المقدس ، فأنجب هذا الزواج ولدا هو بلدوين سادس ملوك بيت المقدس ، كما انجب أختا لبلدوين هى « سبيلا » ، وسنشرح

فيما بعد كيف ان جميع البلاد التى كان يحكمها أبوه بكفاءة اضاعها جوسلين الصغير هذا بسبب تراخيه واهماله ، فكان ذلك جزاء له على خطاياه التى اقترفها ·

(٤)

ظلت مدينة أنطاكية وكل ارضها خلال السنة الأولى من عهد « فولك » بلا أمير يدبر أمورها ، لأن بوهيموند (الثانى) كان قد مات قبل وفاة الملك بلدوين غير تارك وراءه سوى طفلة صغيرة وحيدة هى التى ورثته ، واذ خشى كبار رجال الامارة أن تصبح الامــارة عرضة لأضرار ينزلها بها العدو لعدم وجود من يحمى بيضتها فقد لجأوا الى الملك يسألونه أن ينهض فيحمل مسئولية تصـــريف الأمور ورعاية كل شىء ، وكانت أرملة الراحل (بوهيموند) وهى « أليس » ابنة بلدوين وشقيقة الملكة مليزند امرأة خسيسة وضـــيعة النفس ، موغلة فى الشر ، ولا تكل عن تدبير المكائد ضد الامارة ، مستعينة فى ذلك بشركاء لها فى مشاريعها الرامية الى حرمان ابنتها وابنة بوهيموند الثانى من أن ترث أباها ، سعيا منها لأن تصفو الامارة لها هى وحدها فتتزوج من جديد بمن يرتضيه هواها ، لكن الملك بلدوين الذى كان لايزال على قيد الحياة أفســـد عليهـــا ما دبرت ، اذ أمر باخراجها قسرا من أنطاكية وأفهمهـــا أن تقنع بنصيبها الذى كان زوجها جعله صداقا لها وقت اقترانه بها ، وأعنى بهذا الصداق مدينتى جبلة واللاذقية الساحليتين ·

فلما مات أبوها ظلت أن الجو خلا لها وأن الوقت الملائـــم قد حان لتنفيذ خطتها الأصلية ، وكانت هى قد استطاعت بفضـــل هداياها الجمة ووعودها الكثيرة أن تستميل الى جانبها طائفة معينة من كبار القوم فاشركتهم فى مؤامرتها ، وهم « وليم دى سبهونا »

أخو « جارنتون » و « بونس » كونت طرابلس ، و « جوسلين » الأصغر لكونت الرها ، وكان هذا الأمر هو ما يخشاه كبار الامراء كل الخشية الذين جاهدوا أعنف الجهاد وبذلوا كل ما فى طاقتهم من قوة لمقاومة أهدافها الخسيسة ، ومن ثم فانهم التمسوا من الملك كما قلنا أن يمد اليهم يد المعونة ويمحضهم الرأى السديد فى هذا الموضوع ٠

(٥)

أصغى الملك بقلق بالغ الى التقرير الذى جاءته به السفارة من انطاكية بشأن ما يقع فيها من اضطراب ، وتجلت له خطورة الموقف البالغة ، فاستجاب فى الحال الى الدعوة الموجهة اليه ، ومضى فى زحفه قدما حتى بلغ بيروت ، ولما رأى أن كونت طرابلس يرفض السماح له بالمرور عبر بلاده عمد الى استصحاب أحد أشرافه الأوفياء وهو « إنسلم دى بورى » وأبحر الى ميناء السويدية حيث قابله فريق من أشراف أنطاكية والمتنفذين بها ورافقوه الى المدينة ، ووضعوا الامارة كلها تحت امرته يسيرها وفق رأيه ٠

وأسرع كونت طرابلس فى أثره الى أنطاكية عساه يفسد عليه كل ما أنجزه ، ذلك لأنه على الرغم من أن زوجته كانت ــ كما قلنا كثيرا ــ أخت الملك الا أن الشائعة ترددت بأن « بونس » قد استسلم لرشوة قدمتها له أميرة انطاكية كى يمد اليها يد المساعدة ، وكان « بونس » يسيطر فى هذه الناحية على حصنين هما « أرسكاثوم » و « الروج » اللذين آلا اليه شرعا عن طريق تملك زوجته (سيسيليا) لهما وكانت أرملة « تانكريد » الطيب الذكر الذى منحهما لها وهو على فراش الموت ، كما أنه كان قد زود هذين الحصنين بالسلاح وجهزهما بالعسكر ، واتخذهما قاعدة لمضايقة الملك ورجاله ، مما أثار

الحنق الشديد فى نفوس أهالى أنطاكية ، فأخذوا يحثون « فولك » على الزحف ضد الكونت لشجب عداوته الوقحة ، فلبى الملك دعاءهم اذ تذكر اللطمة التى لقيها أثناء رحلته حين رفض « بونس » أن يأذن له بالمرور عبر طرابلس(٢) ، لذلك حشد الملك أكبر حشد تيسر له وزحف به على خصمه ، والتقت القوتان قرب « الروج » واصطف الجانبان للصدام ، ونشبت معركة ضارية ظلت خاتمتها غير معروفة فترة غير قصيرة ، ثم رجحت كفة الملك أخيرا فانتصر ، فلم يجد الكونت ورجاله ازاء هذا الوضع بدا من الهرب ، وكان الجانب الأعظم من رجال الكونت ممن أرهقهم القتال قد أسروا وجىء بهم الى أنطاكية مكبلين بالأغلال ، غير أن الجفوة التى كانت تفسد ما بين الملك والكونت زالت فتصافيا فى النهاية بفضل الجهود الطيبة التى بذلها محبو الوئام المخلصون ،

وعاد الفرسان الذين كانوا فى الأسر الى الكونت ، وبدت أمور أنطاكية فى حال أحسن مما كانت عليه من قبل بيد أن رجال الامارة العقلاء خافوا ان رجع الملك الى دياره أن تضطرب أمــور الامارة من جديد وتشتعل بنار الفتنة الداخلية التى تتيح للأعداء الكفار أحسن الفرص لمهاجمتها ، لذلك توسلوا الى الملك « فولك » أن يطيل بقاءه بين ظهرانيهم ، فاستجاب لهم عن رضا وطيب خاطر ، شعورا منه بأن مملكته هو ذاته تتمتع بفضل الرب بالاستقرار التام ، بينما أنطاكية التى هو فيها الآن فى أمس الحاجة الى من يحميها ، ومن ثم مكنته حصافته من ترتيب أمور كل من المدينة والمنــاطق المجاورة لها ، مستعينا فى ذلك بنصيحة وجوه رجالاتها وموافقتهم ، كذلك دفعته الرغبة فى جعل كل شىء على أحسن وجه ممكـن أن يوليها من الرعاية مثلما يولى مملكته الخاصة بل وأكثر مما يوليها ، فاكسبه هذا الصنيع الثناء الجميل المتزايد من جانب الأهالى قاطبة ومن النبلاء المخلصين ، وظل مقيما فى انطاكية ما تطلب الموقف منه

هذه الاقامة ، حتى اذا اطمأن الى استتباب أمنها وانتظام امورها عاد الى مملكته حيث كانت مسئولياته الخاصة تتطلب عودته ، وترك الامارة فى رعاية رجل قدير شريف المولد هو : « رينييه ماسوييه » ٠

(٦)

مرت فترة من الوقت انشغل فولك خلالها تماما بأحوال المملكة التى عهد اليه الرب بأمرها ، وكان شأنه شأن « مارتا » دائـــم الانصراف الى تلبية احتياجاتها ، وظل على هذا المنوال حتى قـدم اليه مبعوث من أنطاكية يفيده بأن جيشا كبيرا من الترك من الخليج الفارسى ومن عامة بلاد الشرق قد اجتاح أرض أنطاكية بأعداد كثيفة ، فانزعج خاطره مما سمع وخاف على الامارة التى كانت رعايتها موكولة اليه والتى كانت سلامة سكانها أكبر ما يشغل باله لاسيما وقد وضعوا كل أملهم فيه ، كما تبلبل خاطره لأنه تذكـــر المثل القائل « ان شبت النار فى دار جارك،فبيتك هو الآخر فىخطر»، وعرف أن سقوط جيرانه يحمل اليه فى طياته الخطر عليه هو ذاته ولما كان موقنا بجلالة قدر ما ينطوى عليه اسعافه اخوانه فى شدتهم فقد استدعى العسكر : فرسانا ومشاة من شتى أرجاء المملكة وتأهب للزحف الى هناك بسرعة ، فبلغ صيدا مع جيشه حيث قابل أخته الكونتيسة « سيسيليا » زوجة « بونس » كونت طرابلس التى أفضت اليه بنبأ أثار حزنه الا وهو أن زنكى ـ أمير حلب ـ الوالى التركى القوى قد شدد الحصار على زوجها فى قلعة من قلاع الامارة اسمها « مونتفراند »(٣) ، فغلبت عليها طبيعة الأنثى فألحت فى التوسل اليه أن يدع فى لحظته هذه جانبا كل ما يشغله حتى ينصرف لتخليص زوجها من وضعه الذى يبعث الأسى فى النفوس ، فحرك تضرعها قلب الملك الذى أجل مؤقتا الموضوع الذى كان قد خرج من أجله ،

وأمر بتوجيه زحفه نحو حصن « بعرين » ، وأخذ فى رفقته فرسانا معينين من فرسان الكونتية لم يكونوا قد صاحبوا الكونت فى حملته فما كاد زنكى يسمع بأن الملك فى طريقه اليه لانقاذ « بونس » حتى شاور جماعته ورفع الحصار بمحض ارادته وعاد بعسكره الى ديساره ٠

(٧)

على هذه الصورة كان تحرير الكونت ٠

ولما تخلص الملك مما يؤرق باله ويزعج خاطره عاد الى هدفه الأصلى وتابع سيره فى خطوات قوية الى أنطاكية حسب ما كان قصده فى البداية ، فلما سمع الأهالى أنه ماض اليهم خفوا الى مقابلته ورحبوا بضيفهم الملكى أجمل ترحيب ، فقد راودهم الأمل أن يتمكنوا بفضل جهوده النشيطة من مواجهة بطش العدو الذى قيل أنه قريب منهم كل القرب ، ذلك لأن الكثرة وان بلغت حدا كبيرا فانها لا تجدى ان لم يتوفر لها القائد ، وما أشبه الجيوش التى ليس لها موجه بذرات الرمل اذ لا يمكن لها أن تتماسك من غير جص يربطها بعضها ببعض ٠

واجمعت الشائعات والتقارير الواردة اذ ذاك على أن الأعداء قد أتموا عبورهم الفرات بجيش قوى حسن التجهيز ، وضموا الى عسكرهم جندا آخرين قابلوهم على ذلك الجانب من النهر ممن لهم خبرة تامة بمسالك تلك الناحية ، كما جاءهم الخبر بأن كافة الحشود مرابطة الآن قرب حلب استعدادا للقيام بغارات فجائية على الاقليم كله والعيث فيه خرابا ، وزادت الاخبار على ذلك بأن هناك قوات من كل الاقليم المجاور قد تجمعت فى موضع يقال له «قنسرين»(٤) ،

فأشار عليهم العارفون بالبلاد أن يباغتوا الامارة بجموعهم هذه ويشنوا عليها غاراتهم غير المتوقعة ·

حينذاك حشد الملك عسكر الامارة وغادر أنطاكية بمن جاء معه من الفرسان وخيم بهم قرب حصن « حارم »(٥) حيث أملت عليه الحكمة القائلة بأن فى العجلة الندامة بأن يتريث هناك بضعة أيام ترقبا لمجىء الكفار الذين قيل ان عسكرهم كانوا فى كثرة تفوق كل عسكره ، وكان يؤمل اندفاع هذه القوات متحدية اياه للقتال فتكشف القناع عن خطتها فى الحركة لكنهم لم يفعلوا قط شيئا من هذا القبيل بل ظلوا ساكنين فى مخيمهم ، سالمين لم يلقوا كيدا ، وربما فعلوا ذلك انتظارا منهم هم أيضا لامدادات أكثر كانوا يترقبونها · لذلك بادرهم « فولك » بالاغارة عليهم مبادرة أخذتهم على غرة حتى انهم لم يتمكنوا من حمل أسلحتهم ، فتناوشتهم السيوف والرماح من كل جانب ، ولم يستطع النجاة منهم الا نفر قليلون كان الفضل فى نجاتهم راجعا الى جيادهم ، أما غيرهم فقد قتلوا عن بكرة أبيهم ؛ وقارب هلكاهم أن يكونوا ثلاثة آلاف رجل ، فأصبح معسكرهم خاويا منهم ليس به أحد ، وان كان مليئا بشتى أنواع الضرورات والمتاع ·

وعادت عساكرنا المنصورة الى انطاكية تغمرها الفرحة وتفيض أيديها بالأسلاب الرائعة وقد أثقلها ما حملت حتى انها لم ترغب فى مزيد مما غنمت ، وجاءت معها بشتى أنواع الغنائم وبالكثير من العبيد والجياد وقطعان الماشية والبقر والخيم ، ومجمل القول إنهم جاءوا بالغالى الثمين من كل صنف ·

وتمتع الملك منذ ذلك الحين بحب الانطاكيين حبا لا مزيد عليه ، يستوى فيه السادة منهم والعامة على السواء ، أما الأميرة

فقد كرهته ونقمت من وجوده بانطاكية ، وكان لايزال هناك نفر من الأشراف الذين أيدوا دعواها ممن استجلبتهم بعطاياها السخية فوقفوا ضده ، أما الآن فقد اجتمعت القلوب على حبه اذ جذبهـــا قاطبة اليه ٠

(٨)

اضطر الملك أن يطيل اقامته فى أنطاكية حتى يتم الاتفـــاق على اختيار أمير لها ، وعادت مقاليد أمور البلد فى هذه الأثناء مرة ثانية الى يده يتصرف فيها كما لو كان البلد بلده ، أما الصليبيون الذين تركهم فى مملكته ونعنى بهم البطرك وأهالى القدس فقد وكلوا أمرهم الى الله وتجمعوا فى عزم بمكان قريب من « نوبة » القديمة وهو المعروف اليوم ببيت نوبا(٦) ، وأقاموا على سفح الجبل القائم على المدخل المؤدى الى السهل وعلى الطريق الذى اذا سلكه المرء افضى به الى « اللد »(٧) ومنها الى البحر ، أقول شيدوا هناك قلعة من الحجر الأصم ليؤمنوا عبر هذا الدرب طريق الحجـــاج الذين كانوا يتعرضون لأخطار جمة بالغة أثناء اجتيازهم الممر الجبلى الضيق وأثناء اختراقهم الشعاب التى كان من المستحيل عليهـــم تجنبها ، اذ كان العسقلانيون قد اعتادوا مباغتتهم بالنزول عليهم منها ، فلما نجح الصليبيون فى اتمام البناء ، نعتوه بقلعة « أرنولد » ومن ثم أضحى الطريق بفضل الرب وبفضل هذا الحصن اكثر امنـــا لسالكه ، واصبحت رحلة الحجاج من بيت المقدس او اليها اقـــل خطورة عن ذى قبل ٠

(٩)

لما شاع ان الملك أحرز نصرا قشيبا ونجح نجاحا ملحوظا فى ادارة دفة أمور أنطاكية وفق ما يراه اكتسب شهرة فائقة واصبح

واضحا للعيان كأن العناية الربانية قد اختارته لتدبير شـــئون(٨) المملكتين ودعم السلام ونشر الأمن بين النـــاس ، لذلك قـــدم الملك لمشاورته فى الخفاء وجهاء أنطاكية لاسيما النفر الذين اقاموا على الولاء المتين للورد « بوهيموند » وابنته التى كانت لا تزال طفـــلة غريرة ، واذ كان الملك يعرف معرفة كبيرة كثيرا من شباب النبلاء البارزين من أهل البلاد الواقعة فيما وراء الجبال فقد جاءه الوجهاء هؤلاء يسألونه أن يشير عليهم بالشخص الذى يصلح أكثر من غيره من بين هؤلاء الأمراء(٩) الكثيرين ليكون زوجا لابنة مولاهم ووريثة أملاك أبيها (بوهيموند الثانى) ، فأصغى اليهم الملك وقد ســـره ما سألوه اياه ، وأثنى على اخلاصهم ، وبدأ يدبر الأمر فيما بينه وبينهم ، وبعد أن استعرضوا كثيرا من الأسماء أجمعوا العزم على أن يبعثوا فى استدعاء «ريموند بن وليم كونت بواتو» ، وهو من شباب الأشراف ذوى القدرة البارزة ، ويقال انه كان حينئذ فى بلاط هنرى الكبير ملك انجلترا الذى تسلم منه شارة الفروسية ، وكان أخوه الأكبر « وليم » فى هذه الأثناء حاكما على « اكويتين » اذ آلت اليه شرعا بالوراثة ، وبعد أن قلبوا الأمر على شتى وجوهه رأوا أن أحكم الطرق هى أن يرسلوا سفارة فى السر اختاروا لها « جيرالد » الملقب بجيبيريس » Jiberius أحد الاخوان آلاسبتارية ، فأرسلوه الى (ريموند) بكتب من البطرك ومن جميع النبلاء ٠

ولقد خافوا ان هم دعوا « ريموند » جهرا على يد رهط من كبار المبعوثين أن تقيم الأميرة أليس العراقيل فى وجه هؤلاء النفر لاسيما وهى امرأة قد حجبت الرحمة عن قلبها ففاض بالشر ، كما أنه كان من السهل الحيلولة بين أى شخص وبين الحضور ، لأن روجر الذى كان اذ ذاك دوقا لأبوليا والذى أصبح ملكا فيما بعد ، أراد أن يخلف هو نفسه قريبه بوهيموند (الثانى) ، وكان يزعم أن انطاكية ــ بكل ملحقاتها ــ تابعة له تبعية شرعية بحق الوراثة ٠

وكان روبرت(١٠) جيسكارد ــ والد بوهيموند الكبير ــ وروجر كونت صقلية الملقب ببورصـــة (والد روجـــر هذا) أقوى أخوين شقيقين من أم واحدة وأب واحد · أما بوهيموند الصغير بن بوهيموند (الأول) فكان والد هذه العذراء التى بعثوا فى استدعاء « ريموند » ليقترن بها ، لذلك كان من الضرورى اتخاذ الحذر فى ارسال الدعوة اذ لو علم منافسوه بالأمر لما استبعد استعمال العنف واللجوء الى المكيدة لمنع قدومه ، فلما رتبت المسألة على هذه الصورة عاد الملك الى بيت المقدس تشيعه بركات الجميع ·

(١٠)

ومات فى هذا الوقت « برنارد » أول بطرك لاتينى لأنطاكية ، وكان شيخا مسنا طيب الذكر ، قوى الايمان ، يخشى الله ربه(١١) وقد سار فى الطريق الذى لابد من أن يسير فيه كل مخلوق ، وكان قد أمضى فى بابويته ستا وثلاثين سنة ، فلما وافاه أجله حدث ما جرى العرف به ألا وهو تجمع كل منتسبى هذه الكنيسة الكبيرة من أساقفة ليرتبوا ما فيه العزاء للكنيسة التى حرمـــت من راعيها ، وبينما كانوا منصرفين تماما لهذه المسألة الخطيرة ــ كما هو الحال فى مثل هذه الأوضاع ــ إذا بالاختيار يقع على واحد اسمه «رالف» كان رئيس أساقفة « المصيصة »(١٢) ومن اقليم قلعة « دومفرونت » على حدود ابرشيتى « نرمنديا » و « مين » ، وكان « رالف » محاربا عظيم القدر ، كبير البر ، محبوبا من العامة والفرسان على السواء وان قيل ان العامة وحدها هى التى اختارته دون أن يدرى اخوانه واتباعه الأساقفة بما جرى ، ثم اجلسوه على الكرسى فى كاتدرائية أمير الحواريين ·

فلما فشـــا خبر هاذ الأمر انفرط عقد أولئك الذين كانوا قد تجمعوا لتنصيب بطرك عليهم بارادة الرب ، وخافوا هياج العامة

والرعاع المسعورين ، ولكنهم رفضوا طاعة ذلك الشخص الذى لم ينتخبوه بأنفسهم ، فلم يعبأ « رالف » برفضهم بل احتل الكنيسة والمقر البطركى وطالب فى الحال بالتقليد من مذبح القديس بطرس دون مراعاة لكنيسة رومة ، واستطاع بمرور الوقت أن يضم الى صفه بعض رجال الكنيسة ، ولقد أفاد الكثيرون أنه لو كان قد راعى قوانين الكنيسة مراعاة صحيحة ولم يفسد أوضاعها بما طبع عليه من الكبرياء فلربما أمكنه أن يمضى حياته هناك فى دعة وسلام ، ولكن المثل يقول انه من الصعب أن تنتهى بالخير الأعمال التى كانت بداياتها سيئة ، ولقد أصبح « رالف » ـ عقابا له على أخطائه ـ مقهورا على أمره بسبب أمواله الطائلة التى جعلته يعتبر نفسه فوق الآخرين ، وسلك مسلكا كما لو كان أميرا لأنطاكية أكثر من أن يكون خليفة لبطرس أو « اجناتيوس » ، فشلح بعضا من كبار رجال الكنيسة بالقوة ، وأمسك آخرين وزج بهم فى الحبس كما لو كانوا قد ارتكبوا كبار الاثم ، وكان من ضحاياه شخص اسمه « أرنولف الكلابرى » ، وهو رجل ضرب بسهم وافر فى العلم الى جانب كرم مولده ، كما كان من ضحاياه أيضا « لامبرت » كاهن نفس الكنيسة الذى كان قد بلغ حدا عظيما فى بساطته المتناهية وأسلوب حياته السامية ، هذا الى جانب أنه كان رجل علم ، لكن « أرنولف » لم يعبأ بذلك كله بل زج بهما ـ كما لو كانا سفاحين ـ فى قبو احدى القلاع وحبسهما فى غرفة ملئت بالكلس ، وظلا يقاسيان العذاب بضعة أيام بحجة أنهما دبرا مؤامرة لقتله ، فجلب بذلك على نفسه مقت الجميع لقيامه بمثل هذه الأعمال المنطوية على الوحشية والفظاظة التى أنزلها بأتباعهما ثم صحا ضميره فى النهاية فوخزه وخزا لم يجد معه الأمان فى أى مكان ، وافتقده حتى بين خدمه وحشمه ·

فلنكتف الآن بهذا القدر عن هذا الموضوع ، وسنتكلم عن نهايته فى الوقت والمكان المناسبين فى الفصول التالية(١٣) ·

بينما كانت هذه الأحداث تجرى اذ ذاك فى المشرق اذا بالبابا « هونوريوس » يوفى(١٤) دينه للقدر وانتهت أيام حياته ، واذ ذاك عقد اجتماع لاختيار خلف له ، لكن تباينت رغبات الكرادلة فيما بينهم ، ولما لم يتمكنوا من الوصول الى اتفاق فيما بينهم فقد اختير اثنان هما الكردينال « جريجورى » شماس « سنت انجلو » الذى نعت بعد ترسيمه بأنوسنت ، وأما الآخر فهو القسيس « بطرس » الملقب بليو كردينال كنيسة القديسة مارى الواقعة وراء نهر التيبر والمسماة بكنيسة « فننس أوليوم » وقد سـمى « ليو » هذا بـ « اناالكتوس » ، وهو ما سماه به من اختاروه ، وقد ترتب على هذه الثنائية (فى منصب البابوية) أن استحر شقاق عنيف الخطورة هدد كنائس المدينة وأدى الى حرب اهلية هلك فيها الكثيرون من الخلق ، والواقع أنه شقاق هز العالم كله ، وكان من جرائه أن راحت كل مملكة تقاتل الأخرى ، وانتهى الأمر أخيرا بانتصـار البابا « انوسنت » بعد كثير من المشاق والأخطار الكبيرة ، وذلك لأن منافسه « بطرس » مات قبله .

وحوالى هذا الوقت تقريبا تخلص سلفنا وليم (الأول) من عبء الجسد ومضى الى ربه ، وكان هو أول رئيس أساقفة لاتينى لمدينة صور بعد تحريرها ، وكان ذلك لوجود شخص تقلد أمر هذه الكنيسة وقت أن كانت صور لا تزال فى قبضة العدو ، ومات قبل استخلاص المدينة كما ذكرنا .

ولما مات وليم الأول خلفه الطيب الذكر « فولشر » الأكويتانى من كونتية « انجولم » الذى كان شديد التمسك بالدين وكان يخشى الله ، وعلى الرغم من أنه لم ينل غير قسط ضئيل من العلم الا أنه

كان مخلصا محبا للنظام ، وقد شغل منصـــب رئيس رهبان ديــر « سيللز » ، وطبق على اخوانه هناك القوانين التنظيمية ، ولما شب النزاع الذى أشرنا اليه آنفا (وهو النـــزاع الذى كان بينه وبين البابا أنوسنت الثانى وبطرس بن بطرس ليو،نائب الكرسى الرسولى) انضم جيرارد المندوب البابوى الى بطرس ، فأقض هذا كثيرا مضجع أنصار الجانب الآخر ، واذ كان فولشر رجلا يحيا حياة فاضـــلة فانه لم يطق صبرا على هذه المعاملة ، واستأذن رفاقه ومضى الى بيت المقدس من أجل التبتل ومارس حياة العزلة مع اعتكافه الدائـم بكنيسة الضريح المقدس حتى بعثوا أخيرا فى طلبه لكنيسة صـور التى ظل يدير شئونها بدقة وكفاءة على مدى اثنى عشر عاما ، وهو رابع من تولى هذه الكنيسة (١٥) قبلى أنا الذى أتولى الآن شئونها ، وهى التى لم تسق الينا لكفاءتنا ولكن بهذا قضت مشيئة الـــرب وقضت بها لنا ٠

وبعد أن تسلم « فولشر » هدية الترسيم من يد وليم بطرك بيت المقدس أراد الاقتداء بسلفه فى القيام بزيارة كنيسة رومة ليتسلـم عصا الرعوية ، غير أن البطرك ومعاونيه فى الأثم راحوا يحيكون ما يحول بينه وبين ما يزمعه ، سواء أكان ذلك بالحيلة أو بالقوة ، فكابد « فولشر » المشقة البالغة للنجاة من أيديهم كى يمضى الى الكنيسة فى رومة للسبب الذى ذكرناه آنفا ، وهذا يتضح بجـلاء من لهجة الخطاب التالى الذى كتبه البابا أنوســنت الثانى حيث يقول :

« من انوسنت الأسقف خادم خدام الرب ، الى أخيه الموقـر وليم بطرك بيت المقدس : لك السلام وعليك البركة الرسولية » ٠

« لقد أعلنت السلطة الانجيلية أن النعمة الربانية قد خصت بطرس المبارك كأمير الرسل برياسة الكنيسة الجامعة » ٠

ثم جاء بعد ذلك قوله :

« لقد تملكتنا الدهشة أنك لم تستجب الاستجابة الواجبة فى الرد على الكنيسة الأم بعد أن بذلت كنيسة رومة غاية الجهد لتحرير كنيسة الشرق وبعد اراقة دماء كثير من أبنائنا ، واجتذبت لخدمتها قلوب رجال الدين والعلمانيين ، وانك لم تكتف بمضايقة أخينا الموقر فولشر رئيس أساقفة صور حينما جاء جريا على عادة أسلافه ليتسلم الرداء الكهنوتى من الكنيسة فى رومة بل زدت فكنت غليظا عليه خشنا معه بعد أن رجع من لدنا ، ولقد أسرفت فى هذه المعاملة اذ رفضت أن تعيد اليه المكانة القديمة التى تتمتع بها كنيسة صور ، فعليك أن تنصفه حسب تفويضنا فتعمل فى خلال ثلاثة اشهر من تسلم كتابنا هذا على تعويضه عما أصابه من الخسارة ، سواء أكان ذلك فى حيفا أو فى « برفيريون » ، وعلى أية حال فليس من العدل أن تغتصب منه أنت أو خلفاؤك ما هو حق له من التعظيم ولكنيسة أنطاكية ، وزيادة على ذلك فانه يقال إنك أخذت نفسك بالمغالاة فى الاستبداد بأتباع تلك الكنيسة ، ومن ثم فان شئت أن تنعم بالتأييد الدينى والعزاء من نفس الكنيسة الأم ، وتلقى العون فى احتياجاتك بعطفها فانا نأمرك بحق سلطاننا الرسولى عليك أن تكرم رئيس الأساقفة المشار اليه ولا تسبب له ازعاجا ، ولا تتوان عن أن تعدلكل العدل فيما هو محل لشكواه منك ، وأن يتم ذلك فى مدى الأربعين يوما التالية لتسلمك كتابنا هذا ، وزيادة على ذلك فلا تظنن انا فاعلون شيئا يكون مخالفا للسنن المرعية ضد أولئك الخاضعين له ، وانا لمنذروك بسحب طاعته هو ورجاله لك ووضعها فى يدنا نحن » .

صدر فى لاتيران يوم ١٧ ديسمبر .

صدر الأمر لفولشر عند رجوعه من كنيسة روما أن تكون تبعيته لبطرك بيت المقدس حسب التوجيهات التى منحت لأسلافه وقت أن كان الجدل لايزال على أشده عمن يكون خضوعه الدائم له : ألهذا البطرك أم لذاك ·

كذلك صدر الأمر اليه أن يشغل فى كنيسة القدس نفس المكانة التى كان يشغلها اسلافه فى كنيسة أنطاكية طوال تبعيتهم لها ·

وكان من الثابت أن رئيس أساقفة صور كان يطلق عليه فى الشرق لفظ « صاحب القداسة العظمى » ، أذ لم يكن هناك من يجادل فى أنه كان صاحب الصدارة بين الرؤساء الأساقفة الثلاثة عشر الذين كانوا خاضعين لكنيسة انطاكية منذ أيام الرسل ، ويطالع المرء فى قائمة أسماء الأساقفة الكبار الذين كانوا يتولون شئون كنيسة أنطاكية ما يلى :

كرسى الأسقفية الأولى هو كرسى أسقفية صور وتتبعها ثلاث عشرة أسقفية ·

الكرسى الثانى وهو أسقفية طرسوس ويتبعها خمس أسقفيات ·

الكرسى الثالث : الرها وتتبعها عشر أسقفيات ·

الكرسى الرابع : أفامية ، وتتبعها سبع أسقفيات ·

الكرسى الخامس : منبج ، وتتبعها ثمانى أسقفيات ·

الكرسى السادس : بصرى ، وتتبعها ثمانى أسقفيات ·

الكرسى السابع : عين زربة ، وتتبعها تسع أسقفيات ٠

الكرسى الثامن : سلوقية ، وتتبعها أربع وعشرون أسقفية ٠

الكرسى التاسع : دمشق ، وتتبعها عشر أسقفيات ٠

الكرسى العاشر : آمد ، وتتبعها سبع أسقفيات ٠

الكرسى الحادى عشر : سـرجوليوس ، وتتبعهـا أربـع أسقفيات ٠

الكرسى الثانى عشر : تيودو سـيوبوليس وتتبعها سـبع أسقفيات ٠

الكرسى الثالث عشر : حمص وتتبعها أربع أسقفيات ٠

أما المطرانيات المستقلة فثمانية ٠

وأما الأسقفيات الرئيسية فاثنتا عشرة واحدة ٠

ويتجلى من كتاب البابا « انوسنت » المرسل الى « وليـم » بطرك بيت المقدس أن كنيسة صور كانت لها الصدارة والمكان الأول بين الكنـائس التابعة لكنيسـة القـدس ، وأن طاعتهـا لها كانت بأمر البابا وحده نفاذا للمرسوم البابوى الذى يجرى على النمط التالى :

« من انوسنت الأسقف خادم خـدام الرب الى وليـم بطرك القدس : لك السلام والبركة الرسولية » ٠

« لما كانت نعمة الرب الجليلة قد عظمت تعظيما باهرا لكنيسة بيت المقدس فى أيامكم ، فالواجب يقتضيك أن تبدى رحمة اكثر تجاه اخوانك ، وأن تبجل ــ بالحب المتبادل ــ أولئك الذين تجب عليهم الطاعة لك ، ومن ثم فاننا نوجهك أيها الأخ العزيز أن تحب وتكرم

بالعطف الأخوى أخانا الموقر « فولشر » رئيس أساقفة صور الذى يدين بالطاعة لك بأمر من كنيسة رومة الطاهرة ، وعليك أن ترعى بكل دقة هذا الخضوع لك ولكنيسة بيت المقدس وهو خضوع فرضه عليك فى الواقع عطف الكنيسة الرسولية ، فلا تضار كنيسة صور العظيمة الذائعة الصيت فى شىء من حقوقها ولا منزلتها ، ذلك لأنه ليس من المناسب أن تسلب منها أنت أو خلفاؤك التعظيم الذى ينبغى أن تبديه لها كنيسة أنطاكية » .

صدر فى ألبانو يوم ١٧ يوليو (١١٣٨) .

(١٣)

حين عاد « فولشر » من رومة استرد ــ ولكن بصعوبة ــ أبرشيته الكبرى التى ظلت حتى هذا الوقت تحت سلطان بطرك بيت المقدس ، وهى أسقفيات عكا وصيداء وبيروت ، أما المدن الأخرى وهى جبيل وطرابلس وطرسوس التى لها أبرشيات تتبع نفس الكنيسة فقد احتفظ بها غصبا بطرك أنطاكية ، وتعلل فى ذلك أنه غير خاضع لرئيس الأساقفة على الرغم من أنه لم ينكر أن هذه الأسقفيات كانت تحت نفوذ الأخير ، ورغبة من البابا انوسنت فى ألا يحال بين عودة هذه الأسقفيات الى حضن كنيستها الأم فى صور فقد كتب الى أساقفة الكنائس المذكورة من قبل ، وكذلك الى بطرك أنطاكية ما يلى :

« من انوسنت الأسقف خادم خدام الرب الى اخوانه الموقرين : جيرار أسقف طرابلس ، والى « ر » «R» أسقف طرطوسة ، والى « هـ » «H» أسقف جبيل ، لكم السلام والبركة الرسولية » .

« يجب أن تعرفوا أيها الاخوان الأعزاء أن وضع الكنيسة يزداد تألقا حين تبقى مراتبها مصونة لا تمس ، وحين يحظى كل مقدم

كنيسة من الكنائس بما ينبغي له من التوقير دون حجاج أو انكار ، وعلى كل تابع لكنيسة من الكنائس أن يراعى الاحتـــرام المفروض والتعظيم الواجب نحو رؤسائه أن وجد مثل هذا الأمر ، لأنه اذا حجب هذا التوقير عن طريق الخطأ والظلم فسوف يتلاشـــى مبدأ الوحدة الذى يقرر النظام الكهنوتى خضوع كل شىء له فى دقة متناهية ، ويدفعنا الحرص على سلامة بقاء شرف كنائسكم ومكانتها (وحتى لا تصبح هذه الكنائس عديمة الجدوى بســـبب المنازعات الكلامية أو التمرد) لأن نأمركم ونوجهكم عن طريق هذه الرسالة الرسولية لاظهار نفس الطاعة التى فى أعناقكم لنا الى أخينا الموقر فولشر رئيس أساقفة صور كما تبدونها لمطارنتكم .

« وبناء على سلطتنا الرســـولية فاننا نقرر عودتكم وعودة جميع كنائسكم الى كنيسة صور التى هى كنيستكم العظمى ، ونحلكم من التبعية لبطرك انطاكية . أما اذا خالفتم أوامرنا ولم تعودوا الى طاعة أخينا المشار اليه أعلاه فى مدى ثلاثة أشهر من تسلمكم هذه الرسالة فاننا ـ بقدرة الرب ـ سوف نقر الحكم الذى سوف يقضى به رئيس الأساقفة ضدكم وفقا للقوانين الكنسية » .

صدر فى لاتيزان يوم ١٧ يناير (سنة ١١٣٩) .

* * *

ولما كان بطرك أنطاكية رجلا واسع السلطة وكان يســـيطر سيطرة المالك لهذه الأسقفيات منذ زمن طويل ، وكان البابا لايحب أن يقوم من جانبه بعمل أى شىء يقف حائلا بينهم وبين تنفيذ أوامره فقد كتب الى بطرك أنطاكية هذا ذاته يقول له :

« من انوسنت الأسقف خادم خدام الرب الى أخيه رالف الموقر بطرك أنطاكية : السلام والبركة الرسولية لكم .

« لقد جاء فى نصوص القوانين المقدسة أنه ينبغى على كل واحد أن يكون قانعا بما فى يده من الممتلكات ، وألا يتطلع لاغتصاب حقوق الآخرين ، كما أن القوانين الوضعية والشرائع الالهية تمنعنا من أن نصيب جارنا بما لانحب أن نصاب به نحن أنفسنا ، واذا كان هذا من الحقائق الثابتة فانا نأمرك أيها الأخ العزيز ألا تمنع رجال كنيسة صور من أن يظهروا ما ينبغى عليهم اظهاره من الطاعة والتوقير لمطرانهم وهو أخونا الموقر فولشر رئيس الأساقفة ، وزيادة على ذلك فانه مما يخالف القواعد الكنسية أن تحجب عن المطارنة طاعة أتباعهم من رجال الدين ، لذلك فانا نرغب فى أن تظل الحقوق الموجودة بين كبار رجال الدين وأتباعهم والنظام القائم مرعية بلا معارضة » .

صدر فى لاتيران فى ١٧ يناير (سنة ١١٣٩) .

* * *

لم يكتف البابا المعظم بالكتابة الى هؤلاء العظماء وحدهم بل كتب أيضا بنفس الأسلوب الى الأساقفة الذين استقطبهم بطرك بيت المقدس والذين خافوا منه فرفضوا طاعة الأمر الرسولى ، ونصحهم البابا أن يدعوا جانبا جميع التعلات ، وأن يعلنوا طاعتهم فى الحال لكبير أساقفة صور ، وتقول هذه الرسائل ما يلى :

« من الأسقف انوسنت خادم خدام الرب الى اخوانه الموقرين بلدوين أسقف بيروت ، وبرنارد أسقف صيداء ، ويوحنا أسقف عكا ، سلام الرب عليكم والبركات الرسولية :

« لقد رغب الآباء المطهرون أنه لابد أن تكون فى الكنيسة مراتب ونظم مختلفة فيظهر الصغار خضوعهم وتوقيرهم لمن هم فوقهم حتى تؤدى الوحدة الناتجة من هذا التباين ذاته ، وتؤدى ادارة كل

وظيفة الى أفيد النتائج ، لكنا انزعجنا وبلغت الدهشة بنا غايتها حين علمنا أنه على الرغم من الوقت الطويل الذى انصرم منذ أن أمرناكم بكتبنا الرسولية أن تظهروا الطاعة والتوقير لأخينا المبجل فولشر رئيس أساقفة صور ، فانك لم تفعـــل ذلك بل رحت تقـدم الاعتذارات الفجة والحجج الواهية ، لأنه لاجدال فى أن خطيئة التمرد كخطيئة العرافة والسحر ، وأن العناد كالوثن والتراقيم(١٦) .

« ولذلك فانا نأمرك ونوجهك مـــرة ثانية - بحق ما لنـــا من الصلاحية الرسولية - أن تطرح جانبا جميع الاعتذارات وأن تطيع أخانا « فولشر » فى كل شىء ، كما ننهاك بحق الطاعة التى تظهرها لكل حبر من أحبار الكنيسة) عن أن تنتزع منه لقبا واحدا من ألقاب التبعية والترقير اللذين تدين بهما له باعتباره مطرانا لك ، وزيادة على ذلك فانك اذا دأبت على العناد فاننا سوف نوافق بقوة الله على الحكم الذى نطق به أو ينطق به رئيس الأساقفة هذا ضدك وفقـا للقوانين الكنسية ، فان أطعت هذا فان أى حكم يقضى به عليك أخونا بطرك القدس سوف نعده غير ذى موضوع ونعلن أنه لا قيمة لـــه » .

صدر فى لاتيران يوم ١٧ يناير .

(١٤)

من الأمور التى تحتاج الى شىء من التفسير هو أن يكتب البابا الى ستة فقط من رؤساء الأساقفة فى الوقت الذى يسيطر فيه شرعا رئيس أساقفة صور على أربعة عشـــر أسقفا من كبـــــار الأساقفة .

لم يكن لمدينة « بانياس » التى هى « قيصرية فيليبى » أى

أسقف فى هذا الوقت ، أما الأبرشيات الست الأخرى فكان لها رؤساء أساقفة يدينون بطاعتهم لها ، ويعترفون بسلطانها عليهم ، فكانت « صرفند » تتبع مطرانية صيداء كما هو الحال معها حتى الآن ·

وتتبع طرابلس أسقفيات البترون وعرقة وأرتاح ·

وأما أسقفية انطرسوس التى تعرف أيضا بطرسوس فتملك أسقفية « أرواد » ومرقلية ، كما استبقى بطرك أنطاكية تحت سلطانه الشرعى ثلاثا من هذه الأسقفيات الست هى طرسـوس وطرابلس وجبيل ، فلما استولى الصليبيون على هذه المدن نصب البطرك أساقفة فيها ، وكان قصده أنه حالما تتحرر مدينة صور ومطرانيتها فانهما تعلنان ـ وفق الاتفاق السابق ـ الطاعة الواجبة عليهما لـه باعتباره البطرك فيعيدهما من غير شقاق الى أساقفة صور حسب الارتباط الذى ارتبط به ، ولكن المدن المذكورة كانت تقع فى كونتية طرابلس حيث كان فى قدرة بطرك أنطاكية أن يفعل ذلك دون تدخل من أحد نظرا لأنه لم يكن هناك أى تدخل من جانب الملك ·

أما فى الثلاث الأخريات وهى بيروت وصيداء وبطلموسـة Ptolemais التى هى عكا فقد رسم بطرك القدس بها الأساقفة وهو مجمع العزم على نقلهم جميعا الى تبعيته متى تم الاستيلاء على مدينة صور العظمى حيث كان من حقه ترسيم أسقف بها ، وذلك لأنه كان ينادى بعكس ما جرت به العادة من أن أسقفية صور ينبغى أن تعلن تبعيتها له هو ذاته ، وكان يعتمد فيما ذهب اليه فى هذا الموضوع على خطاب « باسكال » الذى يبدو منه أنه منح كـلا من بلدوين أول ملوك بيت المقدس و « جبلين » ثالث بطاركتها الحق فى أن يكون أساقفة جميع المدن (التى استولى عليها الملك العظيـم وعسكره أو التى يتسنى له فتحها) خاضعين لبطرك بيت المقدس ·

ولقد قصصنا خبر ذلك من قبل حين كنا نعالج عهد بلدوين أول ملوك القــدس ٠

ومن ثم فانه لما كانت كل ولاية صور قد تحررت قبل أن تتحرر المطرانية ذاتها فقد تقاسم البطركان الأبرشيات بينهما ، فاستولت كنيسة أنطاكية على القسم الواقع خارج مملكة بيت المقدس والذى لازال فى حوزتها حتى الآن ، وهو القسم الممتد من المكان المسمى بالمنطقة القروية ، على حين أن بطرك القدس استحوذ على ما يقع من هذا الجزء فى داخل حدود المملكة ، ولما تم أخيرا بعون الرب استخلاص مطرانية صور الكبرى قام بطرك القدس بعد أربع سنوات من ذلك الخلاص بترسيم رئيس أساقفة لها ، ورد عليه الأماكن التى كان قد استبقاها تحت اشرافه الشخصى ٠

لكن حدث فى خلال هذا الوقت الذى صارت فيه اليد العليا لبطرك القدس على صور أن ضعفت صور غاية الضعف وتدهورت مكانة الكنائس الداخلة فى نطاق المدينة ذاتها ، غير واحدة احتفظ بها لرئيس الأساقفة المقبل ، وقد برهنت هذه الخاتمة على صــدق المثل القائل « ان الذين يطالبون بأربطة الأحذية وهم لا يحتاجونها انما تؤخذ لهم من جلود الآخرين » ٠ اذ لازال البطركان اللذان ذكرناهما يتنازعان حتى اليوم أمورنا ويشتدان فيما يضرنا ، ويثريان بفقرنا ، كما أن الكنيسة التى مزقتها قرارات المجامع العالمية السبعة المقدسة والتى كانت قد انتشرت شرقا وغربا منذ عهود قديمة ترجع الى أيام الرسل فانى أقول ان هذه الكنيسة يسودها الآن الاضطراب ، كما حرمت من أقوى أعضائها ، وباتت تنتظر العزاء وما من أحد يواسيها ، وانها لتمد يدها ضارعة مستغيثة فلا تغاث وقد أصبحت أشبه بالذين قيل عنهم « ان أى أخطاء يرتكبها الملوك يتألم منها الاغريق » ، وأشبه بالذين أكلوا من لحمنا حتى أتخموا الى حــد الغثيان ٠

ومع ذلك فاننا نعزو سبب هذا الشر الأكبر الى كنيسة رومة ذاتها غير متجنين فى ذلك عليها ، لأنها اذا كانت تأمرنا بأن نطيع بطرك القدس فانه مما يشقينا أن نضار ونظلم ببطرك أنطاكية ، لأنه لو عادت الينا وحدتنا فانا نكون على استعداد بقلوب راضية ـ لأن نخضع لأحد البطركين دون معارضة أو مشاحنة منا ٠

ومن ثم فلا يستغربن أحد أو ينكر علينا (نحن الذين أخذنا على عاتقنا كتابة التاريخ) أن ندرج فى هذا الكتاب التفاصيل عن أحوال كنيستنا ، لأنه ليس من الملائم أن نتناول أمور غيرنا ثـــم لا ندرى شيئا عما يخصنا ، اذ يقول المثل « ان الذى يتكلم ويتناسى نفسه انما ينطق غثا » ٠

والآن فلنعد الى التاريخ ٠

(١٥)

حين عاد الملك من أنطاكية كما ذكرنا اضـــطربت الأمـــور اضطرابا خطيرا مرة أخرى ، اذ يقال انه قد تآمر عليه اثنان من أكبر أشراف المملكة هما « هيج » كونت يافا و « رومان دى بوى » صاحب ما وراء الأردن ، ويتطلب تفصيل هذا الأمر منا أن نرجع قليلا الى الوراء ، ففى زمن « بلدوين دى بورج » الذى اعتلى العرش قبل الملك « فولك » كان هناك ممن قاموا بالحج الى بيت المقدس رجل من أصحاب المكانة الرفيعة والنفوذ القوى بين قومه هو «هيج دى بوسييه» من أبرشية « أورليان » ، وكان معه فى حجه هذا زوجته « ماميليا » ابنة « هيج شوليه » كونت « روسى » ، فولدت له اثناء الطريق ابنا فى « أبوليا » لأنها كانت حاملا حين بدأت رحلتها ، ولما كان الوليد ضعيفا أشد الضعف ويخشى عليه من هذا الســـفر فقد بعث به

« هيج » الى قريبه لورد بوهيموند ، ثم عبر البحر الى الملك بلدوين الذى كان يمت هو الآخر اليه بصلة القرابة ٠

ما كاد « هيج » يصل الى هنا حتى بادر الملك باقطاعه مدينة يافا بملحقاتها وجعلها ارثا فى ذريته من بعده ليكون بذلك تابعا له ، لكن ما لبث « هيج » أن مات ، واذ ذاك قام الملك وقرب اليه كونت « البرت » أحد نبلاء ناحية « لييج » وهو اخو « كونت نامور » ومن أصحاب النفوذ الكبير فى الامبراطورية ، فلما قدم البرت على الملك زوجه الملك من أرملة « هيج » وأقطعه المدينة المشار اليها ٠

ثم مات « البرت » وتبعته زوجته وكان الطفل الذى تركوه وليدا فى « أبوليا » قد بلغ سن الشباب فالتمس من الملك ان يمنحه ما ورثه من أبويه وهو ارث كان قد انتقل شرعا اليه حين مات أبوه ومن بعده أمه ٠

ثم تزوج « هيج » بعدئذ من المبجلة « ايميلونا » ابنة اخى البطرك أرنولف وأرملة الشريف الجليل « استاس جرنييه » الذى كان له توأم هو « استاس الصغير » صاحب مدينة صيداء ، وولتر الذى تولى حكم قيصرية ، وحدث بعد موت الملك بلدوين وارتقاء « فولك » العرش أن شبت خصومة عنيفة لا نعلم اسبابها بين كونت « هيج » والملك الذى قال البعض انه لم يكن كبير الثقة فى الكونت ، فقد شاعت الشائعة بأنه كان على علاقات كبيرة بالملكة ، ويبدو انه كانت هناك ادلة كثيرة تؤكد صحة هذه الشائعة ، ومن ثم فقد حركت الملك غيرته على زوجته حتى ليقال ان نفسه انطوت على كراهية سوداء كان يضمرها لهذا الرجل(١٨) ٠

وكان كونت « هيج » شابا فارع الطول ، مليح التقاطيع ، بارعا فى القتال ، يبهج العيون مرآه ويملك اعجاب الناس ، وقد جادت عليه الطبيعة بكل فتنة ، وحبته بجمال لا حد له ، وبذلك لم تفتح العين على مثيل له فى المملكة فى روعة الصورة وبهاء الهيئة هذا الى شرف مولده ، وبراعته فى فنون القتال ، الى جانب وشيجة القرابة القوية التى كانت تربطه بالملكة من جهة الأب ، لأن والديهما كانا ابنى خالة ، فأمهاتهما أختان ٠

على أن البعض يميل الى التقليل من حقيقة هذه الشـائعة فيقول ان السبب الوحيد لهذه الكراهية هو ما كان عليه الكونت من صلف طاغ وغرور شديد حملاه على أن يرفض الخضـوع للملك كبقية أشراف المملكة حتى لج فى عصيان أوامره ٠

(١٦)

ثم جاء يوم من الأيام جاء فيه « ولتر » صاحب قيصرية وهو ابن زوجة « هيج » وكان شابا تتدفق فيه الحياة ويتمتـع بمظهـر جميل ، كما اشتهر بين الناس بقوته ، ووقف « وولتر » فى هذا اليوم فى جمع من النبلاء وقد انعقد البلاط الملكى ورمى هيج بالخيانة العظمى ، مصرحا بذلك على رؤوس الأشهاد وفى حضرة الملك الذى قيل ان ذلك كان بتدبير منه ، واتهمه بالتآمر على حياة الملك مع ثلة من الأشراف الذين هم من نفس جبلته ، فخرج بذلك على كل أخلاقيات الوقت وسلوكياته الطيبة ٠

لكن « هيج » أنكر التهمة وعدها فرية كاذبة ، لكنه قال انه على الرغم من براءة ساحته الا انه راض بما يحكم به البلاط فى هذه الافتراءات التى رمى بها ظلما ، فتداول رجال البلاط الامر فيمـا

بينهم ، ثم أقروا ما تقضى به عادة الفرنجة من مبارزة كل من « هيج » و « وولتر » للآخر ، واتفقوا على يوم معين تقام فيه هذه المبارزة ، وإذ ذاك غادر الكونت البلاط عائدا الى يافا لكنه تغيب عن الحضور فى اليوم المحدد للمبارزة ، ولا يعرف أحد على وجه التأكيد أكان ذلك الغياب راجعا الى تأنيب ضميره له وادراكه لفداحة اثمه ، أم أنه كان راجعا الى عدم اطمئنانه الى البلاط ، ومهما كانت الحقيقة فلا شك فى أنه بمسلكه هذا جلب على نفسه – حتى بين أنصاره الخلص – الظن الكبير بأنه ضالع فى المؤامرة المنسوبة اليه ، وترتب على اصراره على عدم الاستجابة الى نداءات النبلاء المتكررة اليه فى الحضور أن أدانوه ، كما أدانه البلاط فى غيابه وحكموا بأنه مذنب قد ارتكب الجريمة التى اتهم بها ٠

فلما علم الكونت « هيج » بذلك الحكم سلك مسلكا شائنا جلب منه على نفسه كراهية الجميع له واستحق لومهم ، اذ أسرع بالابحار الى مدينة عسقلان الكارهة لكل ما هو مسيحى ، والباسطة كف الصداقة الى أعدائنا ، وطلب من أهلها الوقوف الى جانبه ضد الملك ، فما كان منهم الا أن استجابوا فى الحال الى ما التمسه منهم ليقينهم أن المنازعات الداخلية والاختلافات التى تشب بين الصليبيين بعضهم وبعض سوف تؤدى الى ما فيه صالحهم هم ، وتعود بأفدح الأذى على المملكة ، وانتهى الأمر أخيرا الى ابرام اتفاق بينه وبينهم واذ ذاك قام « هيج » بتسليمهم الرهائن وعاد الى يافا ٠

تحرك العسقلانيون بعدئذ بدافع مما تنطوى عليه صدورهم من الحقد الأسود علينا والبغضاء المريرة لنا ، وزادهم اتفاقهم مع الكونت وتودده اليهم مغالاة فى نقمتهم علينا فأقدموا على غزو أراضينا فى جرأة لم تعهد من قبل ، وغرور لم يسبق العهد به ، فلما لم

يتصد أحد لهم اجتاحوا أرضنا حتى بلغوا « أرسوف »(١٩) المعروفة اليوم باسم « انتبياتر » وأصابوا منها كثيرا من الغنائم ٠

وبلغت أخبار هذه الغارات سمع الملك فاستدعى اليه فى الحال العسكر من شتى أصقاع المملكة ، ونهض فحاصر يافا بحشد كثيف من الناس ، وأصبح من الواضح لأتباع الكونت الخلص الذين كانوا معه فى هذه المدينة ذاتها ، أمثال « بليـــان » الكبير وغيره ممن يخشون الرب أن « هيج » عازم العزم الأكيد على الانزلاق فى هــوة الخطر ، وأنه لم يعد قادرا على التراجع مما أقدم عليه من مشروع مدمر ، وغير مصغ لتحذيرات أصدقائه الصادقين وهى تحذيرات تنطوى على العقل والسداد ، بل لقد أوغل فى الاصرار على السير فى الطريق الذى لابد أن يؤدى الى نكبة أكبر ، واذ ذاك نزلوا عن اقطعياتهم التى كان « هيج » قد أقطعهم اياها وانضموا الى جانب الملك انصياعا منهم الى ما يمليه عليهم الرأى الفطن ٠

(١٧)

ولما كان البطرك وليم رجلا كريما يؤثر السلم ويجنح اليه فقد قام فى هذه اللحظة مع رهط من أمراء المملكة بمهمة الوساطة بين الملك والكونت « هيج » فى محاولة منهم لتهدئة الأمور بين الطرفين ، والتوصل الى التوفيق بينهمـــا ، وكانت تلح على أذهـــان هؤلاء الوسطاء كلمات الانجيل القائلة(٢٠) « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت » ٠ ورأوا أن أفحش الأخطار التى تهدد المملكة انما تتمثل فى الانقسامات الداخلية وخافوا ــ وكانوا على حق فى خوفهم ــ أن يغتنم مخالفو الملــة المسيحية هذه الفرصة للاضرار بهم ، وانتهى الوضع أخيرا بدعاة السلام وصانعيه (بعد بذلهم المحاولات الشاقة فى أمور خطيرة من هذا القبيل) الى أن يكتفوا سعيا منهم للوفاق وللحفاظ على شرف

الملك بنفى الكونت لمدة ثلاثة أعوام ، ثم يسمح له بعدها وللضالعين معه فى الجرم بالعودة الى المملكة ، شريطة أن يوافق الملك على هذه العودة ، وان كان ذلك لا يعفى الكونت من اللوم الذى يستحقه بسبب ما اقترف ، كما اشترطوا فى الوقت ذاته أن تستوفى من عائدات أملاكه جميع الديون التى قد تكون فى عنقه ، وكذلك رد كل مال يكون قد اقترضه من أى مكان ٠

وكان الملك حينذاك مشغولا فى الناحية التى حول يافا ومعه أيضا لورد « رينييه » الملقب ببروس مع غيره من نبلاء المملكة ، كما كانت مدينة « بانياس » تعانى الحصار الذى ضربه عليها « شمس(٢١) الملوك بورى » ملك دمشق ، وكان الملك « فولك » اذ ذاك يبذل قصارى جهده ليحصل على أية نجدة تمكنه من انقاذ الموقف ، ولكن حدث قبل نجاحه فى مسعاه هذا أن سقطت مدينة « بانياس » عنوة فى يد العدو الذى استرق سكانها وألقى القبض على جميع العسكر المرتزقة من فرسان ومشاة ، وكانت من بين السبايا التى حملت مع غيرها زوجة لا « رَيْنييه » المحارب النبيل ٠

(١٨)

فى هذه الأثناء كان كونت يافا مقيما فى بيت المقدس جريا على مألوف عادته ولكن فى انتظار الاذن له بالسفر ، وحدث فى أحد الأيام أن كان جالسا يلعب النرد على مائدة أمام حانوت تاجر من التجار اسمه « الفانوس » فى الشارع المسمى بشارع « الفرائين » واستغرقه اللعب استغراقا خلا معه باله من توقع أى خطر يلقاه حينما برز له فجأة وأمام جميع الناس فارس من بريتانى ، واستل سيفه وهاجمه وضربه به عدة ضربات ، فاضطربت المدينة من أدناها الى أقصاها حين سمعت خبر هذه الجريمة ، وتجمع فى الحال حشد

كثيف من الناس وسرى الهمس الخبيث بينهم الذى لم يكن يخرج عن قول واحد هو انه ما كان لمثل هذه الجريمة أن تتم من غير علـــم الملك بها ، وأنه ما كان للمجرم أن يجرؤ على مثل هذه المحاولة لو لم يكن واثقا من مساندة الملك « فولك » له ، وقالت الجموع المحتشدة ان الكونت قد رمى بفرية كاذبة هو منها برىء ، وأن الملك قد قدم الدليل الصريح على ما يضمره للكونت من الكراهية التى لا مبرر لها ، وهى كراهية جاوزت كل حدود خصومته مع الكونت الذى أكسبه ذلك الحادث عطفا شعبيا كبيرا ومحبة طاغية ، وأحس الجميع أن التهم التى رمى بها ــ أيا كانت طبيعتها ــ ان هى الا افتراءات أملتها الكراهية ٠

فلما وقف الملك على هذه المشاعر رأى الضرورة تفرض عليه أن يبرىء ساحته وحثته الرغبة فى زيادة البرهنة على براءته ان يأمر بتقديم المجرم الى المحاكمة ، ولم تكن الحاجة تدعو الى متهم وشهود لاثبات الجريمة لأنها ارتكبت أمام الجميع فى وضح النهار ، ولما لم تكن هناك حاجة لاتخاذ الاجراءات القانونية المعتادة فقد أمر الملك بوجوب الحكم على المغتال حكما يتلاءم مع شـــناعة جرمه ، وصدر الحكم بالاجماع بتقطيع أطرافه ، فلما رفع الحكم الى الملك أمر بتنفيذ ما قضى به عليه فورا واستثنى لسانه من القطع فلـم يقطع ، وقد عمد الملك الى هذا الاستثناء حتى لا يتقول قائل بأن القصد كان قطع لسان المجرم كى لا يقدر على الاعتراف بالحقيقة ، ألا وهى أن الملك هو الذى أرسله الى الكونت « هيج » ليقتله ٠ وهكذا نهج « فولك » نهجا حكيما صان به سمعته ، وأخمد السخط الهادر ضده، واستحال على القوم أن يستخلصوا من المجرم فى السر ولا العلانية وقبل تنفيذ الحكم أو بعده ــ اعترافا بأنه ارتكب هذا الاثم الشنيع بتوجيه من الملك أو بعلم منه ، ولكن الذى جرى كان على العكس من

ذلك حيث صرح بأنه أقدم على هذه الفعلة بدافع من تلقاء نفسه أملا منه فى اكتساب عطف الملك عليه ٠

❋ ❋ ❋

ظل الكونت مقيما بعض الوقت فى المملكة حتى تندمل جراحاته ويسترد صحته ، فلما نقه وتمت عافيته غادر المملكة الى « أبوليا » بقلب يفيض بالألم والأسى حزنا من المصائب التى انصبت عليه منذ قريب ، وبسبب القرار الذى جعل منه شريدا كالمتسول فى الأماكن التى لا يعرفها ، ومحروما مما ورثه من أسلافه ٠

❋ ❋ ❋

ومضى الى « أبوليا » حيث يوجد « روجر » الذى كان قد أتم فتح الاقليم بأجمعه ، فأكرم روجر وفادته أحسن الاكرام ، ادراكا منه بأن الغيرة منه التى كانت تنهش صدور خصومه هى التى أخرجته هائما على وجهه من المملكة وهو الرجل النبيل الشجاع ، ومن ثم عطف الكونت روجر عليه وأقطعه كونتية « جارجان » لكن ما لبث الموت أن عاجله فيها ، فحق للأجيال التالية له أن ترثى له اذ لم يقدر له أبدا أن يعود الى المملكة ٠

❋ ❋ ❋

وراحت الملكة مليزند منذ ذلك الحين تصب جام غضبها على جميع من كانوا يقولون قالة السوء فى الكونت ، وكانوا السبب فى اثارة حنق الملك عليه ، فاضطر هؤلاء لاتخاذ الاحتياطات الشديدة حفاظا على سلامة أرواحهم فقد كان الألم الممض يعصر قلب الملكة حزنا على الكونت « هيج » المنفى وتحقد على هؤلاء الذين شوهوا سمعتها الطيبة بذلك الاتهام المشين بعض الشىء ، وراحت تصب شواظ اضطهادها صبا عنيفا على « روهارد » الكبير الذى عرف

فيما بعد بصاحب نابلس ، فهو الذى كان يسعى فى غير كلل الى اثارة الغيرة فى نفس الملك من « هيج » ، ولم يكن احد من هؤلاء الوشاة بقادر على التواجد فى حضرتها ، بل رأوا الخير كل الخير فى اعتزالهم الاجتماعات العامة حتى ان الملك نفسه لم يكن يحس السلامة التامة ان كان وسط أقارب الملكة وأنصارها ، وأخيرا هدأت حدة غضبها بفضل توسط جماعة من الأصدقاء المخلصين ، ونجح الملك بعد لأى وبعد بذل الجهود الكثيرة المضنية فى أن يفوز بصفحها عن آخرين كانوا محل نقمتها ، فان لم يكن صفحها تاما فلا أقل من أنهم أصبحوا قادرين على الدخول الى حضرتها ، وان كان ذلك مع سواهم ، بيد أن الملك أصبح منذ ذلك الحين شديد الكلف بها ، فكان يعمل كل ما فى وسعه لتهدئة ثائرتها ، ويتجنب كل ما كان يثيرها من قبل ، ولم يعد يتخذ أى قرار — مهما يكن تافها — دون علمها واستشارتها ٠

(١٩)

وفى حوالى هذا الوقت استجاب الملك لرجاء الدماشقة فهادنهم هدنة مؤقتة كانوا قد سعوا اليها بأن عرضوا بناء على اتفاقهم معه أن يردوا جميع من أسروهم فى مدينة « بانياس » وكان من بينهم زوجة « رينييه دى بروس » الشجاع صاحب هذه المدينة ، فعادت الى زوجها العظيم بعد غيبة طالت سنتين ، فردها مغتبطا الى مكانتها كزوجة ، وان كان قد ظهر بعد حين أنها سلكت أثناء وجودها بين أيدى العدو مسلكا مزريا فلم تحافظ محافظة المرأة الشريفة على فراش الزوجية ، فنبذها رجلها ولم تنكر هى اثمها بل دخلت أحد الأديرة الخاصة بالنساء الطاهرات ببيت المقدس ، وأقسمت لتلتزمن العفة التامة حتى يوافيها أجلها ، وأن تنضم الى زمرة الراهبات كواحدة منهن ٠

فلما ماتت تزوج هذا الرجل الشريف من ابنة أخى « وليم بيوزى » وهى « أجنس » التى اقترنت بعد موت « رينييه » من « جيرار » صاحب صيداء ، وأنجبت له « رينو » الذى له الحكم الآن فى صيداء ذاتها .

وكان سقوط مدينة « بانياس » كما قلنا أثناء غياب صاحبها ، وكانت موجودة منذ أمد بعيد فى أيدى جماعة الحشاشين ثم سلمها أحد حكامهم واسمه « أمير على »(٢٢) قبل ذلك بقليل الى الصليبيين فعوضوه عنها تعويضا مجزيا اتفقوا عليه في عهد بينه وبينهم ، فبادر الملك « فولك » فى الحال فأقطعها للورد « رينييه » ملكا يتوارثه الخلف عن السلف وسوف نقدم فى موضع آخر جماعة الحشاشين هؤلاء ونشرح عقائدهم الباطلة ، ونبين سخط الرب عليهم . أما الآن فيكفى أن نقول انهم قوم لا ذمة ولا أخلاق لهم أبدا ، ومن ثم فقد حق للمسيحيين وغيرهم أن يخشوهم ، وحق للأمراء على وجه الخصوص أن يخافوهم .

(٢٠)

كان أهل أنطاكية كما قلت قد أرسلوا فى ذلك الوقت الى « ريموند بن كونت بواتو » الرسل الذين خرجوا يتحرون تحريا دقيقا أى الأماكن التى يتوقع وجوده فيها ، فعرفوا من المصادر الموثوق بها أنه كان فى بلاط « هنرى الكبير » ملك انجلترا الذى نصبه فارسا وقلده بسلاح الفارس ، ومن ثم اتجهوا مباشرة اليه فى انجلترا حيث وجدوا الشاب فبينوا له فى سرية تامة الدافع وراء حضورهم ، فنزل « ريموند » على نصيحة مولاه الملك (فولك) ورحب أجمل ترحيب بهذه الفرصة المتاحة له،حتى اذا أتم جميع الاستعدادات اللازمة للرحلة خرج متنكرا ، ولما كان روجر دوق أبوليا عارفا بما

دبره أهل أنطاكية من استدعائهم ريموند فقد أعد فى كل مدينة من مدن « أبوليا » الساحلية كمينا لمسك ريموند ، لعلمه أنه ان تمكن من أن يحول بين هذا الشاب (ريموند) وبين العبور ونجح فى رشوة كبار رجال هذه الناحية أو تلك فانه هو نفسه (أى روجر) يستطيع آن يجنى ثمار التركة التى يسعى ريموند وراءها ٠

على أن ريموند استطاع بما طبع عليه من الحذق والمهارة أن يخفى الغرض الحقيقى من سفره هذا ، فخلى جانبا كل مظاهر الأبهة وطلع على الناس كأنه واحد من عامتهم ، فكان يسير تارة على قدميه ، وتارة يمتطى دابة حقيرة من دواب الحمل ، وجعل رحلته بين العامة ، ولم يبد عليه أى مظهر يشير الى مكانته ويدل عليها أو على ثرائه ، كما أن الذين رافقوه من اصحابه واهل بيته وخدمه توزعوا جماعات ، فسبقه بعضهم بثلاثة أيام أو أربعة ، وجاء خلفه غيرهم كأن ليست بينه وبينهم صلة ما ٠

أما هو ذاته فقد تسربل فى أدنى مسوح يتسربل بها واحد من فقراء الحجاج حتى كان فى بعض الأحيان يخدم الناس فيظنه من لا يعرفه خادما ، وتمكن بمظهره هذا أن يخدع الجميع ، وأن يتجنب الوقوع فى الكمائن التى نصبها له خصمه العنيد القوى (روجر دوق أبوليا) ، فلما بلغ أنطاكية فرحت به قلوب أصدقائه وزادت فى خوف الآخرين من أنصار الأميرة الذين كانوا يحاولون جهدهم منعه من الحكم ٠

* * *

على أنه حدث قبل فترة وجيزة من هذا الوقت ــ وان كان بعد سفر المبعوثين لدعوة ريموند ــ أن خرجت الأميرة « اليس » (أرملة الراحل بوهيموند وأخت الملكة مليزند) ومضت للمرة الثانية قاصدة

أنطاكية ، وعلى الرغم من أن أباها كان قد منعها من الوجود فى هذه المدينة وطلب اليها أن تقنع باللاذقية وجبلة الا أنها تمسكت بدور المالكة صاحبة الأمر والنهى ، وبسطت مرة أخرى سيطرتها عليها ، فتشفعت لها أختها (مليزند) عند الملك راجية اياه ألا يتدخل فيما تفعله « أليس » ، وأعان الملكة فى مسعاها هذا نفر معروفون من الأشراف ٠

كما قام فى الوقت ذاته « رالف » بطرك أنطاكية الداهيـــة ، الرجل الراسخ القدم فى الحيل والمكائد ، وزعم لأليس زعما أوهمها به أن « ريموند » الذى قيل انه قريب من أنطاكية قد جاء لخطبتها هى ذاتها وليكون زوجها المقبل ، وكان الأسقف يرمى من وراء ذلك الزعم الى كسب ودها ونفوذها ضـــد رجـــال الدين الذين كانوا يعارضونه ، فجاز الأمل المزعوم على عقل « أليس » الساذجة ٠

وتجلى لريموند فى الوقت ذاته أنه لن يستطيع تحقيق هدفه من غير نفوذ البطرك ورضائه ، ومن ثم بعث الى البطرك بمترجمين تربطهم به وبرالف رابطة الصداقة يسألونه بلسانه الاجتماع بـه ، راميا من وراء ذلك أن يسبغ البطرك عطفه عليه ويكسب تأييده لـه ووقوفه الى جانبه ، فكان رد « رالف » على ريموند أنه اشترط عليه أن يبادر فيعلن ولاءه له ، وأن يقسم يمين الطاعة له ، ويكون جزاؤه على تلك اليمين الزواج ، من « كونستانس » دون أى معارضة ، واذ ذاك تساق اليه الامارة فينالها آمنا مطمئنا ٠

وزيادة على ذلك فانه اذا جاء أخوه هنرى الى أنطاكية سعى له البطرك سعيا حثيثا ليتزوج من « أليس » والدة الأميرة الصغيرة وأرملة بوهيموند ، ويكون له هو أيضا المدينتان الساحليتان والأراضى الملحقة بهما ٠

لم يكد يتم الاتفــاق على هذا الوجه ويؤكد باليمين المغلظة حتى دخلوا المدينة بريموند ، وبينما كانت « اليس » لاتزال غارقة فى وهمها ، ظانة أن كل الترتيبات التى تجرى أمامها انما تعد من أجل اتمام عرسها ، اذا بالقوم يسيرون بريموند الى كنيسة أميـر الرسل حيث تمت مراسـيم قرانه بالأميـرة الصغيرة السـيدة « كونستانس » التى لم تكن قد بلغت سن الرشد والزواج ولكن جميع النبلاء الـكبار طالبوا باتمـام العقد فتم الأمر كما أرادوا ، وزفه البطرك بنفسه العروس الى زوجها ريموند ٠

ما كادت « اليس » تدرك كيف غرر بها حتى غادرت أنطاكية وارتدت الى مقاطعتها الخاصة وان ظلت تطارد الأمير (ريموند) منذئذ ببغضها الذى لا تهدأ حدته ولا يخبو سعيره ، كما راح البطرك منذ ذلك اليوم يسلك سبيل التعالى ، اذ أدى به اعتقاده برسوخ مكانته عند الأمير (ريموند بن كونت بواتو) الى اظهار غطرسة لم تعهد منه من قبل ، لكن سرعان ما أدرك أنه كان مخدوعا فيما ذهب اليه ، ذلك لأن ريموند أحس بالعار يلحقه بسبب اليمين التى أجبره البطرك على قطعها له ، ومن ثم تناسى النعم التى جناها والتى يرجع الفضل فيها الى البطرك ، وشرع فى النيل منه نيلا شديدا ، ولم يأبه قيد أنملة باليمين التى قطعها له بل انحاز الى خصومه ٠

(٢١)

كانت تجرى فى عروق لورد ريموند دماء تشير الى كـــرم محتده وشرف أرومته ٠

أما صفته فكان فارع الطول ، تتقحمه العين فتسرها طلعته غاية السرور ، وكان ذا وجه قسيم ، قد ظهرت فى خديه أولى طلائع

الشباب ، هذا الى وضاءة فاق بها كل ملوك الأرض وأمرائها ، وكان عذب الحديث لين الجانب ، والواقع أن مظهره كان على وجه العموم ينم عن أنه أمير سرى جذاب أنيق ، كما بز أسلافه وأقرانه بخبرته بفنون الحرب ، وبراعته فى استعمال السلاح ، وعلى الرغم من أن حظه من العلم كان ضئيلا الا أنه كان حفيا بأهل الأدب ، مع اهتمام بالشئون الدينية ، ومحافظة على اداء الشعائر الكنسية لاسيما الأعياد الدينية ، فلما تزوج صار حريصا كل الحرص على مراعاة العلاقات الزوجية والوفاء التام بكل مقتضياتها •

وكان وسطا فى مطعمه ومشربه ، وجوادا مبسوط الكف الى حد الاسراف ، فلا يحسب حسابا للغد ، هذا الى شدة ولعه بالألعاب الذميمة كالنرد والميسر •

وكان من النقائص التى تؤخذ عليه وتقدح فى خلقه اندفاعه الطائش مما يترتب عليه صدور أفعال مشينة منه ، وكثيرا ما أطلق العنان لغضبه من غير مبرر لهذا الغضب الذى كان لا يستطيع كبحه •

وقلما حالفه الحظ الحسن فلم يكترث باليمين التى قطعها على نفسه للبطرك رالف ، فلم يوف قط بعهوده اليه •

(٢٢)

كان نجاح العسقلانيين المستمر دافعا لزيادة جراتهم وشن المزيد من الغارات العنيفة المهينة ، وعلى كثرة اجتياحهم المنطقة كلها دون أن يتعرض لهم أحد فيصدهم ، وكانت عسقلان تحت حكم وال مصرى شديد البطش ، وكان أخوف ما يخافه هذا الوالى أن يقتحم الصليبيون تلك المدينة ثم يغزوا مصر ويعكروا صفو هدوئها ، ومن

ثم فانه لم يبخل بالمال يصرفه ، ولا بالجهد يبذله ، حتى تظل عسقلان خط الدفاع عن مصر والحائل بينها وبين منطقتنا ، ولما كان يخشى تسرب الوهن الى نفوس أهلها من جراء أهوال الحروب الشديدة وأخطارها فقد عنى عناية كبرى بأن يمدها كل ثلاثة أشهر بدماء جديدة وبعسكر غير العسكر الذى يكون عندهم ، مع تزويدهـم بالميرة والطعام والسـلاح الوفير ، وكان من الطبيعى أن يحـاول هؤلاء القادمون الجدد مضاعفة جهدهم للدلالة على شجاعتهم ، لذلك كانوا يكثرون من القيام بغارات وحملات هدفها التخريب رغم معارضة أهل الخبرة ٠

ورأى الصليبيون أن ليس ثمة بارقة أمل تومىء الى توقف هذه الغارات الجريئة من جانب الأعداء لاستمرار تجدد قواتهم التى كانت كالحية ذات الرؤوس التسعة ، فكانوا كلما هلكت طائفة من جندهم حلت أخرى جديدة مكانها ، فيزدادون بأسـا على بأس ، لذلك تدبر رجالنا الأمر بينهم طويلا ، وانتهوا الى أنه ينبغى أن يشيدوا بعض الحصون فى أرجاء تلك الناحية لتكون مراكز دفاع لهم ضد هذا الوحش الذى كان عدده يزداد على الدوام ، والذى كان كلما قتل رجال من رجاله وقيل انتهوا عادوا أكثر من ذى قبل فيتضـاعف خطرهم علينا ، ورأينا أننا ان أقمنا قلاعا وجهزناها بمزيد من الجند الذين نجمعهم من شتى أرجاء تلك النواحى كنا أكثر استعدادا لصد هجمات الأعداء ، كما تصبح هذه القلاع قواعد نشن منها العديد من الغارات على البلد نفسه ٠

لذلك تخير الصليبيون موضعا ملائما لهذا الغرض فى ذلك الصقع من أرض « يهوذا » التىكانت فى التقسيم الأصلى من نصيب أبناء شمعون ، وهناك استعدوا لاعادة بناء مدينة قديمة درسـت معالمها وصارت أطلالا وتعرف ببير سبع ، وكان الموقع المختار قائما

عند سفح الجبال فى المدينة المشار اليها ، وجمعوا فيها الناس من اهل الناحية ، كما جاء أيضا البطرك والأشراف ، وهكذا تمت بعون الله المهمة التى خططوا لها فأحسنوا التخطيط ، واهتموا برعايتهـــا فبنوا على بعد أربعة عشر ميلا من عسقلان معقلا منيعا أحيط بسور لا يمكن اقتحامه ، وزود بالأبراج والتحصينات ، وحفروا حوله خندقا وكان هذا المكان زمن بنى اسرائيل هو الحد الجنوبى لأرض الميعاد ، أما حده الشمالى فمدينة « دان »(٢٣) المعروفة الآن باسم «بانياس» أو قيصرية فيليبى · وكثيرا ما يطالع المرء فى العهد القديم(٢٤) هذه العبارة « من دان حتى بير سبع » ، ويقال ان هذا المكان هو الذى حفر فيه ابراهيم بئرا ، كما حفر أمثاله فى أماكن أخرى متعددة ·

ونظرا للماء الوفير الذى كان يخرج من هذه البئر فقد سماه ابراهيم بالوافر ·

كما تكلم عنه أيضا يوسيفوس فى تاريخه فقال « لقد أعطاهم أبو ملخ الأرض والقطعان ، وقبلوا السكن هناك جميعا فى سلام دون حقد ، وأبرموا اتفاقا عند بئر معينة تعرف باسم بير(٢٥) سبع ، ولذلك يسمى باتفاقية البئر ، ولايزال أهل تلك الناحية يطلقون عليها حتى اليوم هذا الاسم كما تسمى هذه البئر أيضا بالبئر السابعة ، أما فى العربية فتعرف ببيت جبرين أو بيت جبريل(٢٦) ·

ولما فرغوا من بناء الحصن(٢٧) وكمل من كل ناحية اتفقوا جميعا على تسليمه للاخوان الاسبتارية فى بيت المقدس الذين أحسنوا الحفاظ على ماعهد به اليهم حتى اليوم · كما خفت حدة غارات العدو منذ ذلك الحين فى تلك الناحية ·

لم ينقض غير وقت يسير حتى أغار « بزواج » قائد جيش دمشق على أرض طرابلس فتصدى له بكل همة كونت « بونس » وخرج له على رأس كل من عنده من العسكر والتقى الجيشان قرب قلعـــة تسمى بقلعة « تل الحجاج » ، وشب قتال شرس بين الجانبين ، لكن مالبثت الدائرة أن دارت على جيش الكونت الذى فر رجـــاله على وجوههم ، أما هو فقد وقع أسيرا فى أيدى العدو ، وقد غدر به السوريون الذين يعيشون على مرتفعات لبنان ، فدبروا له مكيدة أدت الى هلاكه ، فتولى بعده ولده « ريموند » الذى ورثه فى ادارة شئون الكونتية ، كما أسر معه فى الوقت ذاته « جيرالد » اسقف طرابلس الذى بقى فى الأسر فترة كان فيها مجهول الهوية لا يعرفه أحد و لايدرى أحد من يكون ، لكن لما بادل الصليبيون فى النهاية أحد أسراهم به عاد الى حريته ·

وقد هلك فى هذه الوقعة بعض أشراف طرابلس ، وان يكن أكثر القتلى يومذاك من الطبقة الوسطى ·

وجمع « ريموند » بعد مصرع أبيه البقية الباقية من الفرسان ، وضم اليهم طائفة قوية من الجند المشاة ومضى بهؤلاء وهؤلاء الى جبل لبنان وكلهم يتفجرون غضبا ، وهناك ألقى القبض على كثير ممن صادفهم من أولئك القتلة وحملهم مقيدين بالســـلاسل الى طرابلس ومعهم نساؤهم وصغارهم ، ذلك لأنه اعتبرهم ضالعين فى مصرع أبيه ، ومسئولين عما وقع بالصليبيين من مذبحة عامة ، فقد غرروا بنفاقهم بهذا الرجل القوى فاستجاب لهم ودخل سهل طرابلس، لذلك أراد ريموند الانتقام لدم من سقطوا فى المعركة فأذاق هؤلاء

القوم شتى صنوف العذاب امام الجميع ، وعذبهم بما يتكافأ وشناعة جرمهم الذى اقترفوه ، وجرعهم غصص الموت فى أفظع صورة له ٠

كانت هذه الدلائل الأولى التى قدمها هذا الكونت الشـــاب بادىء ذى بدء دليلا على شجاعته فاكتسب بها محبة كل شـــعبه وتأييد الجميع له ٠

(٢٤)

أخذت الأخبار الكثيرة ترد فى هذا الوقت وتتردد فى أرجاء الناحية مشيرة الى أن يوحنا (الثانى) امبراطور القســـطنطينية (وهو ابن ألكسيوس كومنين) موشك أن يغير على بلاد الشام ، وانه استدعى من كافة أرجاء الامبراطورية رجـــالا ذوى قوميـات مختلفة وألسنة متباينة ، وأنه آخذ الآن فى الزحف على رأس جيش لا يحصيه العد من الفرسان ، وأرتال كبيرة من العربات (الرومانية) ذات العجلات الأربع ، ولم تكن هذه الأخبار بعيدة عن الواقع ، ذلك أن يوحنا لم يكد يسمع من المصادر الموثوق بها باســـتدعاء أهـل أنطاكية لريموند وتسليمهم المدينة له وتزويجهم اياه من ابنة مولاهم بوهيموند (الثانى) حتى قرر الذهاب الى أنطاكية ، وكان أشد ما أسخطه وأضرم غيظه منهم أنهم دبروا زواج ريموند من ابنة مولاهم من غير مشورته ، وتطاولوا فسلموا المدينة دون اذن منه الى حاكم آخر ، ذلك أن يوحنا (الثانى) هذا كان يعتبر أنطاكية وما جاورها ملكا خالصا له فأراد ردها الى سلطانه ، مؤكدا أن الأمراء الأبطال ذوى الذكر الخالد الذين جاءوا بأمر الرب فى الحملـــة الاولى ، والذين لا يتسع المقام لذكر أسمائهم هنا قد أبرموا مع أبيه وســلفه الامبراطور ألكسيوس اتفاقا صريحا تبادلوا بعده الهدايا وصرحوا بالمودة بعضا لبعض ، وكانت الشروط تنص على أن يعيد الصليبيون

الى الامبراطورية من غير معارضة جميع القــلاع والمــدن التى يستولون عليها خلال هذه الحملة ، كما نصت على أن تظل فى أيديهم بعد الاستيلاء عليها لحراستها بأمانة حتى يأتى الامبراطور بجيشه ويتسلمها منهم ، وقد أصر يوحنا على أن هذه الشروط واردة فى الاتفاقية ، وأن الأمراء الصليبيين أكدوهــا من جانبهـــم باليمين المغلظة ٠

وليس من شك فى أن هؤلاء الأمراء كانوا قد عقدوا اتفاقا مع الامبراطور تعهد لهم بعهود موثقة ، لكنه هو ذاته كان أول حانث فيما قطع على نفسه ، فعد الصليبيون أنفسهم فى حل مما تعاهدوا عليه معه ، اذ كان هو أول شاجب للعهد ، ومن ثم فقد حق لهم (بناء على منطوق المعاهدات) الا يلتزموا من جانبهم بالعهد معه لأنه من الخطأ أن يخلص المرء فى تعامله مع من يحاول العمل بما يناقض فحوى الاتفاق ٠

لذلك أرسل الامبراطور الضباط الى كافة أرجاء امبراطوريته ، وأمضى عاما بأكمله فى اتخاذ الاجراءات اللازمة للقيام بحملـــة تليق بالعظمةالامبراطورية ، فلما تم له ذلك أبحر فى البسفور المسمى فى العادة بذراع سنت جورج ميمما وجهه شطر أنطاكية ، وتبعه فى خروجه عدد كبير من العجلات الرومانية الحربية والجياد ، وأخذ معه من الأموال قدرا كبيرا ، ومن المتاع ما لا يقدر بثمن ، فلما تم اجتياز الولايات التى فى طريقه نزل الى كيليكية وتريث لمحاصرة طرسوس احدى المدن الكبرى الشهيرة فيها ، فاستولى عليهـــا بالقوة ، وطرد منها رعايا أمير أنطاكية الأوفياء الذين كانت رعاية الامارة موكولة اليهم ، وأحل الامبراطور مكانهم أشرافا من كبـــار رجالاته ، ولم يتردد فى أن ينهج نفس النهج فأعلن ملكيته لأدنـــة والمصيصة وعين زربة ، وكلها من أكثر مدن كيليكية الصـــغرى

ازدحاما بالسكان ، كما استولى أيضا على غيرها من المدن الموجودة فى تلك الولاية بكل ما اشتملت عليه من الأماكن الحصينة والقلاع المنيعة ، فناقض بذلك كل مقاييس العدل والحق ، اذ ضم الى مملكته (كجزء منها) كل ولاية كيليكية التى ظلت على مدى أربعين عاما ملكا لأمير أنطاكية لا ينازعه فى ملكيتها منازع ، حتى انه قبـــل استيلائنا على أنطاكية كان بلدوين (أخو الدوق) قد رد طرسوس الى الحرية المسيحية كما أن « تانكريد » العظيم حرر المصيصة وكافة أرجاء الاقليم ٠

ثم تقدم الامبراطور يوحنا الثانى فى عسكر كثيف لمضايقة أنطاكية ، فلما بلغها سارع الى فرض الحصار عليها ، فنصب العدد والآلات الحربية الثقيلة ، ووضعها فى وضع استراتيجى حول المدينة واخذ يكثف من الضغط على المكان يوما بعد يوم ٠

(٢٥)

هكذا كان الموقف فى أنطاكية ٠

وعلم زنكى (وهو رجل شديد الدهاء ومن أكبر مضـــطهدى المسيحيين) بما حاق منذ قريب بكونت طرابلس وأكثر جنده من هلاك أفناهم ، وأن المنطقة بأجمعها باتت الآن من غير عسكر يذود عنها الضرر ويحمى بيضتها ، فبادر الى الحصار الشديد **يضربه على** قلعة « مونتفراند »(٢٩) الواقعة على مرتفعات طرابلس والمشرفة على مدينة « رفنية » التى اشرنا اليها منذ قريب ، وزاد من ضغطه على من كان داخل القلعة ووالاهم بهجماته الضارية الموصولة دون أن يترك لمن بها لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ٠

وجاءت الأخبار عن هذا الوضع الى ريموند كونت طرابلس ابن الكونت الراحل « بونس » وابن خالة الملك فبادر الكونت الصغير

فى لحظته بايفاد الرسل على جناح السرعة الى الملك فولك يلح عليه بالحضور فى ساعته لمساعدتهم فى موقفهم المحزن ٠

كانت جميع متاعب الصليبيين تشغل بال الملك فولك انشغال الأب الحنون بأولاده ، ومن ثم استدعى اليه فى الحال كبار رجـــال المملكة ، وجند العسكر من الفرسان والمشاة ، وأسرع بالزحف حتى بلغ أرض طرابلس حيث قابله هناك مبعوثون من قبل أمير أنطاكية يحملون اليه الأخبار السيئة بالرسائل والكلمة ، ويلقون على مسامعه نبأ محاصرة الامبراطور لأنطاكية ، وكانت هذه الأخبار صـــادقة للأسف تمام الصدق ، وألح الرسل على الملك أن يسرع الى هناك ما وسعه الجهد لمد يد المعونة والنجدة لاخوانه فى وضعهم الحـــرج الدقيــق ٠

ونظرا لهذه الحالة الطارئة المخيفة عقد الملك جلسة للتشاور فيما يفعله ، فاتفق الرأى على أن تكون الاولويات لمساعدة الصليبيين المحاصرين فى القلعة المجاورة ٠ وقد بدت هذه المهمة يسيرة ، ثم يزحفون بكل العسكر لنجدة أهل أنطاكية ، فضم الملك والكونتقواتهما بعضا الى بعض فى محاولة منهما للزحف على الأعداء ، غير أن العناية الالاهية لم تصاحبهما ، اذ علم زنكى بخبر اقترابهما فتخلى عن الحصار ورتب صفوفه للقتال ، وتقدم الصليبيون تقدما حثيثا نحو المدينة ، وتهيأوا للقتال وفق قواعد الحرب ، مستهدفين من وراء ذلك أن يمدوا يد المساعدة للمحصورين وامداد البلد بما جاءوا به معهم من المئونة والطعام الذى كان قد نفد من المدينة تمـــاما ، غير ان الأدلاء الذين كانوا يرشدون جيشنا ويقودونه تركوا الطريق الأسهل السوى الذى على اليسار ، (اما عن طريق الخطأ او انقيادا لنية شريرة سوداء) ، وسلكوا طريقا جبليا صعبا ، وســـاروا

بالصليبيين عبر دروب ضيقة كثيرة المجاهل ليست بها ناحية تصلح للمعركة ، بل تصعب فيها المقاومة ، ولا تتاح لهم الفرصة الملائمة للهجوم ٠

وكان زنكى رجلا جادا قد عركته الحروب ، فلم يفته الوضع اذ ذاك ، وأيقن أن الحظ يمشى فى ركابه ، فاستدعى اليه رجاله وهو يتقد حماسة ووقف بينهم وهم ألوف مؤلفة يلهب حماستهم بكلامه ، ويحثهم على الاقتداء به ، وحارب حرب الصنديد البطل ، وهاجم القلب ، وراح يدعو رجاله للقضاء علينا كى يبور أمرنا ، فاضطربت صفوفنا الأمامية وولت الأدبار وهرب رجالها على وجوههم ، فلما رأى قادة عسكرنا فرار الصفوف الأولى فقدوا الأمل فى المقاومة ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا (وهم فى هذه الأحراج الضيقة) أن يهبوا لنجدتهم ، واذ ذاك أشاروا على الملك أن يطلب السلامة لنفسه بالانسحاب الى القلعة القريبة منهم ، فرأى « فولك » مكانة الحق فى كلامهم ، وأدرك أن الانسحاب هو خير طريق أمامه مؤقتا ، لأن جميع الفرسان راحوا ما بين قتيل وأسير ، فتسحب فى شرذمة ضئيلة من حراسه الى القلعة٠ أما كونت طرابلس الشاب الذى كان ذا مستقبل مرموق فقد وقع فى الأسر مع بعض فرسانه ٠

على أن القلة التى تبعت الملك « فولك » فرت الى القلعة وأعدوا المكان ليكون آمنا ، وقد فقدوا فى هذا اليوم كل ما كان معهم من المتاع وكان شيئا عظيما ، كما فقدوا جيادهم ودواب حملهم التى تحمل الميرة التى أعدت لتزود بها القلعة التى لم يستطع الهاربون أن يحملوا معهم اليها أى طعام ، بل كان فرارهم وهم صفر الأيدى الا مما حملوه معهم من السلاح وهو قليل ٠

* * *

كان من بين من هلكوا فى هذا اليوم « جوفرى شـــاريولو » العظيم أخو « جوسلين » الكبير كونت الرها ، وكان رجلا بارزا عظيم المكانة ، مشهورا ببراعته فى استعمال السلاح ، فخلف موته فى النفوس أسى عميقا فقد كان جنديا باسلا شجاعا ، كما أن نهايته المأساوية أحزنت الجيش بأكمله .

(٢٦)

كان زنكى يعلم تمام العلم أن الصليبيين قد جاءوا الى القلعة بلا طعام لأنه كان قد استولى على جميع مئونتنا وتموييننا ، كما كان يعلم أن قوة المملكة الحربية قد بلغت حد الانهاك ، هذا الى جانب وقوع الكونت فى أسره ، ووجود الملك مع أعظم نبلاء مملكته محصورين بلا زاد فى قلعة نصف خربة ، لذلك أزمع أن يعـــاود حصـــار « مونتفراند » ، طمعا منه فى ألا تصل الى الحامية المأسورة بها أية مساعدة من أى مصدر مما جعله واثقا من أنه سوف ينجـــح فى الاستيلاء على القلعة فى وقت قصير ، ولذلك نادى فى عســكره مرة أخرى بالتجمع فاستجابوا لندائه وجاءوا وقد فاضت أيديهم بالأسلاب التى غنموها من الصليبيين ، حتى انهم انصرفوا عما قد يكون هناك من نهب جديد لكثرة ما أخذوه ، وهكذا أحاطت القوات المعادية بمونتفراند ، واشتدت فى حصارها الذى فرضته عليهـــا شدة عنيفة .

كان من بين كبار رجالات المملكة ذوى المكانة السامية الذين التجأوا مع الملك الى الحصن « وليم دى بيور » الكونستابل الملكى ، و « رينييه دى بروس » المحارب الصنديد ، و « جى دى بريزبار » وبلدوين صاحب الرملة ، وهمفرى صاحب « التورون »(٣٠) وكان شابا لا خبرة عنده بأمور الحرب ، وكثير غير هؤلاء ، فسألهم الملك

أن يشيروا عليه بما يجب عليه أن يفعله فى هذه الأزمة الكالحة ، فانعقد اجماعهم على وجوب طلب النجدة من أمير أنطاكيـــة ومن جوسلين الصغير كونت الرها ، كما أشاروا عليه باستدعاء بطرك بيت المقدس مع جميع أهل المملكة ، وأن يصبروا فى الوقت ذاته ويصابروا حتى توافيهم هذه النجدة ٠

هكذا كان الموقف فى « مونتفراند » ٠

* * *

وحدث فى الوقت ذاته أن وقع فى الأسر « رينو » الملقب بالأسقف وكان محاربا شجاعا بارزا لبراعته الحربية ، وهو ابن أخى «روجر» أسقف اللد ، وكان رئيس جماعة فرسان القديس جورج ، وحـــدث أثناء مطاردته العسقلانيين أن سقط فى كمين من كمائن العدو ، وقد أوقعه فى ذلك ما طبع عليه من الشجاعة والاندفاع ٠

وأسرع الرسل لتوهم ومن غير تلكؤ فى الخروج ، فمضى أحدهم الى أنطاكية شارحا لأميرها ورفاقه الوضع المتردى الذى فيه الملك ومن معه ، وحثهم على الاسراع دون ابطاء لانقاذهم ، كما مضى واحد آخر الى كونت الرها واستطاع بتوسلاته القوية أن يحركـه للعمل ، على حين انطلق ثالث مغذا السير الى القدس لاثـــارة الأهالى كلهم ٠

غير أن أمير أنطاكية تردد بعض الشىء وتحير لا يدرى ما يفعل ، فقد ساوره الخوف على مصير مدينته ان هو غادرها والامبراطور (البيزنطى يوحنا الثانى) لايزال على أبوابها ، كما أنه رأى من ناحية أخرى أن ليس من اللياقة ولا الانسانية أن يمتنع عن الذهاب لمساعدة الملك فى مثل هذا الموقف الحزن ، فاستودع الرب مدينته وتركها فى رعايته ، واثقا تمام الثقة أن مشاركته اخوانه فى كربتهم

خير من أن ينعم وحده بالرفاهية والهدوء ، فاستدعى اليه علية القوم ووجوههم وشرح لهم ما يحس به ، ودعاهم جميعا لنجدة الملك ، فلم يصعب عليه اقناعهم بما يرجوه ، وشاركوه عواطفه عن طيب خاطر ارضاء للرب ، وأسرعوا بالاستعداد للرحيل ، وغادروا المدينة وهى محاصرة بقوات الامبراطور (البيزنطى) ، وخرجوا كلهم لا يشغلهم غير أمر واحد هو انقاذ الملك ٠

وحركت أمثال هذه العواطف كونت الرها فأعد هو الآخر كل جنده ، وخرج بهم فى سرعة مدهشة سعيا وراء الغرض نفسه ، كما أن وليم بطرك بيت المقدس جمع كل قواته ومضى حاملا الصليب وأسرع الى هناك فى لهفة ، وحاول وهو مسرع الخطى تجميع الامدادات متوسلا اليهم أن يذهبوا لمساعدة الملك ٠

(٢٧)

بينما كانت امور الملك تسير على هذا المنوال اذا بأخبار الموقف تصل الى سمع « بزواج » « حاكم دمشق وقائد الجيش الذى أشرنا اليه من قبل ، فعلم أن مملكة بيت المقدس خالية من جيشها الذى جرت العادة أن يكون موجودا بها ، وعرف أن فولك محصور فى ناحية نائية من مملكته ، وأن لا شىء يشغل بال الناس والنبلاء جميعا غير تخليصه مما هو فيه ، فأيقن (بزواج) أن الفرصة التى طال انتظاره لها لضرب الصليبيين قد حلت ، ومن ثم خرج على رأس قوة كبيرة قاصدا غزو المملكة ، وهاجم مدينة نابلس غير المحصنة اذ كانت بلا أسوار ، وخالية من القلاع الأمامية وليس حولها خندق ، فتسلل اليها كاللص تحت جنح الظلام وانقض على سكانها على غير توقع منهم انقضاضا وحشيا لم يراع فيه شيخا ولا أنثى ، فلما أدرك أهلها جسامة الخطر الذى يكتنفهم (وقد جاء ادراكهم هذا

للأسف متأخرا) هب من لازالوا على قيد الحياة وخرجوا بنسائهم وأطفالهم ، ونجحوا فى الوصول الى القلعة القائمة فى وسط البلد ، ونجوا بصعوبة بالغة من بين النيران التى كانت تكتنفهم ، ومن القتل والذبح ، ولم يجد « بزواج » أحدا يعترضه فانطلق مسعورا فى المدينة لا يكبح جماحه شىء ، مضرما النار فى كل ما صادفه ، ثم رحل لم يخسر شيئا ، بل كانت يداه تفيضان بالغنائم والأسرى وكل ذى قيمة فى البلد من غالى المتاع ٠

(٢٨)

استمر زنكى فى هذه الأثناء يواصل هجماته الضارية على المحصورين بعنف لا يعرف الهوادة ، واهتزت الجدران من جـــراء رميات آلاته القوية التى أخذت تقذف بالأحجار والصخور الضخمة فتقع وسط القلعة فتحطم ما بها من البيوت ، وتبث الفزع الشديد فى قلوب اللاجئين اليها الذين أصابتهم قطع حجرية كبيرة باصابات جسيمة ولـــم يعد ثـم موضع أمين داخل الأسوار يمكن أن يلجأ اليه الضعاف والجرحى ، فكان الخطر يجثم فى كل ناحية وفى كل ركن وزاوية ، وكان شبح الموت المفزع يلوح للعيون فى كل موضع ، وراح القوم يتوقعون أن يباغتهم الدمار ما بين لحظة وأخرى ، ولما لم تكن هذه الأمور غائبة عن العدو الفظ فقد ضاعف هجماته ، ونظم رجاله فى فرق تتناوب القتال ، اذا كلت واحدة منها حلت أخــرى مكانها ، وهكذا كان الصف يحل محل الصف ، هذا فى الوقت الذى حرم فيه الصليبيون نعمة الفرق المتجددة وذلك لقلة عددهم ، ولكنهم مع ذلك تحملوا فى صبر وعزم صلب كل الهجمات التى كان بعضها يأخذ بحجز البعض الآخر ، بيد أن البعض منهم أثخنتهم جراحهم الدامية ، وعانى البعض الآخر أمراضا شتى ، فأخذ عسكرنا فى التناقص يوما بعد يوم ، وأدركوا استحالة قدرتهـــم على تحمـــل

الهجوم المستمر عليهم اذ كانوا يقضون ليلهم فى الحراسة لا يغمض لهم جفن ، أما فى النهار فكانت المعارك (التى بدت وكأنها بلا نهاية) ترهقهم أشد الارهاق ، ولم يكن العدو يترك لهم لحظة تستريح فيها أجسادهم المنهكة ·

كانت ذروة هذه المتاعب هى أن اللاجئين هؤلاء لم يستصحبوا معهم فى مجيئهم ما يأكلونه ، ولم يكن قد تبقى فضلة من طعام فى القلعة من جراء الحصار السابق ، كما استولى العدو على ما كانوا قد أحضروه ، لذلك اضطر الصليبيون فى أعقاب دخولهم القلعة الى أكل لحوم جيادهم بعد أن لم يجدوا شيئا سواها يقتاتونه ، فلما أتوا عليها لم يبق لهم أى نوع من الطعام فأصابتهم مخمصة أوهنتهم جميعا حتى نالت من أشدهم بأسا وأصلبهم عودا ·

وزيادة على ذلك فان ضخامة عدد من كان منهم بالقلعة لم تجعل ما لديهم من الطعام — وكان قليلا — كافيا لبعضهم ، ناهيك بضيق المكان عن أن يسع الجميع ، مما حمل الكثيرين منهم على الاقامة فى الشوارع والميادين حتى بدت الأرض وكأنها قد فرشت ببساط منهم ، فكانت سهام الرماة — حتى العشوائية — قل أن تخطئهم مما أسفر عن اصابتهم بجراح قاتلة ، وجاءت الى زنكى كل أخبار هذه الأحداث : جليلها وتافهها يفصلها له الثقات من رجاله ، فلما أيقن تماما أن الصليبيين لن يستطيعوا احتمال هذه الأهوال أكثر مما احتملوه حتى الآن شجع رجاله على اتخاذ اجراءات أعنف من سابقتها ، ورتب عساكره وجعلهم متقاربين من بعضهم البعض قربا شديدا ووضعهم حول القلعة ، وشدد الحراسة على جميع المنافذ حتى لا يتمكن أحد ما — ولو فى محاولة يائسة — من الوصول الى رجالنا ، كما لا يستطيع رجالنا الخروج ·

اخذ الوضع فى المدينة المحاصرة يزداد سوءا يوما بعد يوم ، ونفد الطعام أو كاد ، وفقد الجميع الأمل ، وعلم الصليبيون فى هذه الشدة بالتجربة والخبرة ـ بمدى فتك الجوع ، وصدق المثل القائل « أن المجاعة وحدها تجعل المدن تفك قيدها وتتحرر من ساداتها » ٠

لكن الأمل لايزال يداعبهم فى غوث يأتيهم من أمير انطاكية وكونت الرها ومن بيت المقدس صغرت هذه النجدة أو كبرت ، وكان هذا الأمل عاملا على تقوية روح هذه الجماعة المشرفة على الهلاك ٠ لكن لما كانت النفوس النشيطة تتعجل كل شىء فقد كفر الصليبيون بالانتظار ، وزاد تحفزهم ، وأصبحت الساعة عندهم وكأنها عام ٠

(٢٩)

بينمـا كانت هذه الأحداث تجـرى عند قلعة « مونتفراند » المحاصرة كان الأمير ريموند يقترب على رأس قواته ، ولم يعد كونت الرها هو الآخر بعيدا بمن معه من القوة الكبيرة ، كما كان جيش بيت المقدس (ومعه صليب الخلاص) يزحف سريعا الى هناك ، وجاء الرسل الثقات الى زنكى يخبرونه باقتراب هؤلاء القادة العظـام فخافهم ، ثم كان الذى أفزعه أشد الفزع خبر وصول الامبراطور (يوحنا الثانى) حين علم بوجوده عند أنطاكية ، وخشى أن يتفطر قلبه شفقة على الصليبيين ان هو علم بما هم فيه من النكد والهم ، فيدفعه ذلك الى الزحف بجيشه الذى لا يغلب فيهاجم زنكى الذى بادر فأرسـل رجالا من عنده الى المحاصرين فى القلعة يعرض عليهم الصلح قبل أن يبلغهم خبر اقتراب النجدة ، وعهد الى هؤلاء الرسل أن يوضحوا للملك ونبلائه أن القلعة عاجزة عن الصمود طويلا فى وجهه لما هى عليه من التصدع ، وبينوا لهم أن الصليبيين قد فقدوا شجاعتهم اذ أمضهم الجوع وعضهم بنابه ، ولم يعودوا قادرين على المقاومة ، على حين أن جيشه هو لم يكن تنقصه حاجة مما تعوز

المحاربين ، وأفضى الى الرسل أن يبينوا لفولك أن احترامه له ـ وهو العظيم الشأن ، الجليل القدر بين المسيحيين ـ يجعله مستعدا لاعادة جميع من وقعوا منذ قريب فى أسره ومنهم الكونت ، وأنه يسمح للملك ولجميع من معه بمغادرة الناحية فى أمن وسلام ليعودوا الى بلادهم شريطة أن يسلمه الملك الحصن ٠

كان الصليبيون يجهلون أن النجدة قريبة منهم أشد القرب ، ولكن الجوع والأهوال التى يقاسونها ، والآلام النفسية التى ترهقهم، بالاضافة الى جراحهم المرثة كانت قد أنهكتهم كل الانهاك وصرفتهم عن القتال ، لذلك تلقفوا العرض المبذول لهم بلهفة كبيرة ، واشتدت بهم الدهشة من أن تتوفر مثل هذه الانسانية فى رجل كهذا الرجل الفظ القاسى ، لذلك تقبلوا الشروط المعلنة اليهم ، شاكرين له تقديمها ولم يسألوه عما حداه الى التقدم بها ، وما كاد التفاهم يبلغ حد الاتفاق المرضى لكلا الطرفين حتى أطلق زنكى سراح كونت طرابلس كما أطلق معه جمعا غفيرا من الأسرى ، وخرج الملك فى الحال مع رجاله ، وعاملهم العدو أرق معاملة ، واستسلمت القلعة للمسلمين ، ومع ما كان عليه الملك اذ ذاك من القلق الا أنه كان سعيدا لخلاصه من موقف شديد الخطورة ، ومن ثم نزل من المرتفعات الى الحقول القريبة من « عرقة » حيث عرف بوجود الأمير والكونت على مقربة منه فمضى اليهما فى فرحة عارمة ، وأثنى على حبهما الأخوى وعلى ما أظهراه من الاهتمام الكبير بأمره ، وبذلهما كل ما فى وسعهما لاسعافه بالمعاونة المنشودة ٠

ثم لما فرغوا من تبادل الأحاديث الودية انفصلوا عن بعضهم ومضى كل واحد منهم الى بلده ٠

عاد أمير أنطـــاكية الى بلده على جناح السرعة ، اذ كانت أموره الخاصة هناك تمر بلحظات حرجة أشد الحرج ، فقد غادرها وأقوى ملوك العالم مرابط على أبوابها بنية العدوان عليها ، ولمـا دخلها الأمير « ريموند » من الباب العلوى الملاصق لكل من القلعة وحصن المدينة وجد الامبراطور لايزال مجمعا العزم على ما بيته ومن ثم غبرت عدة أيام جرت خلالها مناوشات حربية بين الجيشين (الصليبى والبيزنطى) ، وكان أهالى أنطاكية ينسلون تارة خلسة وتارة جهرا فيقاتلون جيش الامبراطور ، وكثيرا ما كبدوه الخسائر الفادحة ، وكان كل منهما يحارب الآخر كما لو كان يحارب عدوا لدودا له ، وما من أحد منهما يكترث بالحقيقة التى لا يمكن دحضها ألا وهى أنهما يعتنقان نفس الملة ٠

كان الامبراطور (يوحنا الثانى البيزنطى) قد أصدر أوامره بأن تقذف الآلات الحربية والعدد القوية الأحجار الضخمة ، مستهدفا من وراء ذلك اضعاف وسائل الدفاع عن المدينة وتحطيمها وهدم الأسوار والأبراج القائمة عند مدخل الجسر ، ورتب كتائبه وقد جهزهـــا بالأقواس وشتى أنواع وسائل الرمى ، فأحاطت بالمكان على شكل دائرة ، وكان يعمل فى معاونتهم طائفة قوية من الرماة بالمقاليع وقد اصطفوا صفا طويلا ، وعهد اليهم بمنع أهل البلد من الدفاع عن الأسوار ، كما أمرهم بتحين الفرصة للاقتراب من تحصينات المدينة ونقضها من أساساتها ، ولما أخذ الموقف يتصاعد سوءا خاف رجال أفاضل فى كلا الجيشين أن يفضى الوضع بين الجانبين الى خاتمة محزنة لا يمكن معها التوصل الى حل يدرأ خطر هذه الأزمة ان لم تتدارك تلك النهاية الحكمة والمشورة العاقلة ، ومن ثم سعى من أجل هذا الهدف نفر جعلوا من أنفسهم وسطاء بين الجانبين

فذهبوا الى معسكر الامبراطور يعرضون مقترحات الصـــلح ، وحاولوا استرضاءه بكلمات عذاب ، وأظهروا الخضوع له رغبة فى كسر حدة غضبه ، فاستطاعوا بهذا الأسلوب الحكيم والطريقة المرضية أن يقتربوا من الامبراطور فى محاولة منهم لتمهيد السبيل للصلح المنشود الذى يقضى بأن يحضر الأمير ذاته مصحوبا بجميع بارونات امارته أمام جلالته الامبراطورية ، وأن يقسم فى وجود كبار رجال القصر الامبراطورى يمين التبعية والولاء ليوحنا ، وزادوا على ذلك بأن يقسم الأمير يمينا مغلظة ألا يعـــارض الامبراطور ولا يحاجه فى دخوله المدينة أو قلعتها متى شاء فى السلم والحرب على السواء ، وأنه اذا أعاد الامبراطور للأمير ريموند فى ســـلام مدن حلب وشيزر وحماة وحمص حســـب الشـــروط الواردة فى الاتفاقية فعلى ريموند أن يقنع بهذه الأماكن وغيرها من المدن المجاورة لها ، كما يرد الى الامبراطور (من غير معارضة) مدينة أنطاكية بحق ملكيته لها ، وفى مقابل هذه التبعية التى يعلنها الأمير له فعلى الامبراطور أن يقبل أن يخلع على ريموند مدينتى حلب وشيزر وما جاورهما دون معارضة أو شقاق وذلك حين يأذن الرب له بالاستيلاء عليها ، واذ ذاك تصبح ملكا لريموند وذريته من بعده ، على أن تكون هذه الملكية منحة بالاقطاع .

* * *

وتطبيقا لهذا الاتفاق توجه الأمير الى المعسكر الامبراطورى مصحوبا بحاشيته من النبلاء فتلقاه الامبراطور بالاجلال اللائـــق بقدره ، وبعد أن أعيدت تلاوة الاتفاق ليحظى برضاء الجانبين أقسم

الأمير يمين الطاعة للامبراطور الذى قام فى الحال فمنحه تقليدا بالمدن المذكورة أعلاه وبكل ملحقاتها ، وتعهد فى اخلاص أنه اذا استولى عليها بمشيئة الرب فى الصيف التالى فانه سوف يسلمها بنفسه الى الأمير ٠

* * *

ما كادت الاتفاقية تبرم ويرفرف السلام الشامل بجناحيه حتى رفع العلم الامبراطورى على برج أنطاكية الرئيسى ، واذ ذاك انكفأ الأمير بحاشيته الى أنطاكية يحملون أنفس الهدايا ، ولما كان الشتاء القارس على الأبواب فقد عاد الامبراطور بعســـكره الى كيليكية ليمضى الشتاء على الساحل قرب طرسوس ٠

هنا ينتهى الكتاب الرابع عشر

حواشي الكتـــاب الرابع عشر

(١) سبق الكلام عن هذه الأميرة « سيسيليا » ·

(٢) راجع ما سبق ، ص ٤١ ، س ١ ـ ٢ ·

(٣) أبقينا هذا الاسم على ما ورد عليه فى الأصل ، وان كان يعرف فى تاريخ الصليبيين باسم Mons Ferrandus وفى العربية ببعرين ، أما الحصن المعروف بهذا الاسم فقد جدده الصليبيون عام ٤٨٠ (حوالى ١١٩٠م) ، وهو واقع كما قال ياقوت وابن عبد الحق وأبو الفداء بين حلب وحماة ، وسترد الاشارة الى هذا الاسم فيما بعد فى حاشية رقم ٢٩ ص١٥٤ ·

(٤) يلاحظ اختلاف التاريخ بين المراجع العربية الاسلامية (ذيــل تاريخ دمشق) والمراجع الغربية
(Stevenson : Crusaders in the East, P. 132.)
أما فيما يتعلق بقنسرين فهى واردة فى المراجع الصليبية باسم Chalsis ولكنها بلدة اسلامية ، وكانت أحد الأجناد التى أسسها معاوية بن أبى سفيان ·

(٥) حصـــن حـارم ويعرف عند الصـليبيين بحصـــن Harenc وهو من القلاع المنيعة قرب أنطاكية ، واعتبره ياقوت الحموى فى معجمه

وفى يومه من ضواحى حلب ، وهو واقع على نشز من الأرض يشرف على بلدة صغيرة هناك أصبحت تنسب اليه ٠

(٦) « بيت نوبا » قرية صغيرة واقعة على مقربة من الرملة ، وقد وردت الاشارة اليها فى معجـــم البلدان لياقوت . كما ورد ذكرهـــا فى التوراة حيث جاء : «فجاء داود الى نوب الى أخيمالك الكاهن » ، انظر صمويل الأول ٢١/١ ٠

(٧) كانت « اللد » العاصمة القديمة للولاية المعروفة فى المراجع العربية باسم ولايات فلسطين ، فلما بنى الخليفة سليمان بن عبد الملك « الرملة » نقل اليها ســكان اللد التى أخذ شــــأنها فى التدهور منــذ ذلك الحين ، وهى واقعة على بعد ميل واحد من الرملة ، كما أن بالبلد كنيسة تعرف بكنيسة سنت جورج التى يقول المقدسى عنها ان المســـيح سوف يصرع على بابها الدجال ٠ ، انظر أيضا لى سترانج :
Palestine Under Moslems, P. 493.

(٨) يطلق وليم الصورى فى كثير من الأحيان على امارة أنطاكية « كلمة « مملكة » ومن ثم فان المقصود بالمملكتين هنا : مملكة بيت المقدس وامارة أنطاكية ٠

(٩) يقصد المؤلف بذلك الأمراء فى البلاد الأوربية لاسيما فى فرنسا ٠

(١٠) هو الأمير النرمندى روبرت جيسكارد الذى كان يتطلع كولديه بوهيموند وروجر الى السيطرة على الامبراطوريـــة البيزنطية فى عهـــد الامبراطور الكســـــيوس الأول كومنين ، وكانت بينهما من جـــراء ذلك منازعات طويلة حادة أفصحت عنها الأميرة « أنا كومنينة » فى مؤلفهـــا التاريخى العظيم « ألكسياد » الذى هو سيرة لأبيها الامبراطور ، واذا كان النرمنديون قد استطاعوا انتزاع جزء كبير من جنوب ايطاليا سنة ١٠٥٩ م فقد كانت الضربة الكبرى التى وجهوها لبيزنطة هى ما قـــام به روبرت جيسكارد ذاته سنة ١٠٧١م من الاستيلاء على مدينة « بارى » فى جنوب ايطاليا ، وكان ذلك العمل منه ذروة الخطر النرمندى الذى تطلـــع روبرت من بعده للاستيلاء على الامبراطورية ذاتهـــا ، وسيجد القارىء التفصيلات الوافية فى كتاب « ألكسياد » الذى قمنا بترجمته الى العربية ، كما يمكن الاسترشاد فى هذا الموضوع بما يلى :

Gay (J) : L'Italie meridionale et l'empire Byzantine depuis l'avenement de Basil I jus-qu'à la Prise de Bari par les Normands (867 — 1071), Paris 1907, P. 520 et seq; Chalandon (F.) Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile (Paris 1907) t I, PP. 189 et suiv. Buckler : Anna Comnena; Davies : (H.W.) : Europe from 800 to 1789, PP. 34 — 37.

(١١) من الملاحظات الطريفة التى تسترعى الانتباه هو أن هناك تشابها بين وليم الصورى المؤرخ النصرانى وابن القلانسى المؤرخ المسلم فى أن كلا منهما يستعمل عبارات تكاد أن تكون متماثلة فى تكوينها وفى صيغتها ازاء موت الانسان ، فنرى وليم يكثر من مثل هذه العبارة « سار فى الطريق الذى لابد أن يسير فيه كل مخلوق » كناية عن الموت » ، كما أن ابن القلانسى يورد عبارات مماثلة يرددها فى كثير من المواضع ٠

(١٢) ويسميها الصليبيون Mopsuesta واليونان Mamistra كما يشـــير الى ذلك البعض ، ويلاحظ أن الجغرافيين العرب كالبلاذرى وياقوت وابن عبد الحق وأبى الفداء والادريسى يشيرون الى اطلاق هذا الاسم على موضعين . أحدهما قريب من « أدنة » على نهر جيحان فى منطقة الثغور ، والأخر على قرية من قرى دمشق قرب بيت لهيا ، أما فيما يتعلق بالأولى فنستفيد مما ذكره البلاذرى وأبو الفداء والمسعودى أنه فى سنة ٨٤هـ (٧٠٣م) غزاها عبد الله ابن الخليفة عبد الملك فى خلافة أبيه وحصنها وجهزها بالجند ، كما شيد جامعا على التل الموجود بها ، وكانت بها قبل ذلك كنيسة ، ثم لما جاء عمر بن عبد العزيز بنى مسجدا فى قسم منها يعرف باسم « كفر بيا » ، لكنه تهدم زمن الخليفة المعتصم وكان يسمى بمسجد الحصن ، انظر فى ذلك Le Strange : Op. Cit. 505 — 507 وما أورده من المصادر العربية هناك ٠

(١٣) انظر فيما بعد الفصلين ١٦ و ١٧ من الكتاب الخامس عشـــر ص ١٩٣ ، ١٩٦ ٠

(١٤) راجع الحاشية ١١ أعلاه ، وسنكتفى بهذا دون الاشارة الى مثل هذه الصـــيغة كلما وردت مثـــل هذه العبارة فى هذا الموقـــف

(١٥) الواقع أن وليم استعمل صيغة المتكلم بالجمع ، وربما كان ذلك منه تقديرا للمكانة التى يشغلها من كونه رئيس أساقفة صور ، غير

أننا آثرنا فى ترجمتنا العربية استعمال ضمير المتكلم المفرد ليسهل على القارىء فهم الموضوع جيدا ٠

(١٦) انظر صموئيل الأول ١٥/٢٣ حيث جاء فيه « الاستماع افضل من الذبيحة ، والاصغاء أفضل من شحم الكباش ، لأن التمـرد كخطيئة العرافة . والعناد كالوثن والتراقيم ، لأنك رفضت كلام الرب » ٠

(١٧) سبق لوليم أن أشار الى « أستس جرنييه » هذا فى الجزء الأول من كتابنا هذا انظر ج١ ، الكتاب ١٧ ٠

(١٨) المقصود بالرجل هنا الكونت « هيج » ٠

(١٩) اشارة وليم هنا الى أن « أرسوف » أصبحت تعرف فى يومه بانتيبياتريس انما هى اشارة صريحة الى محاولة الصليبيين تغيير بنية البـلاد ، فاسـتعمالهم لكلمة أنتيبياتريس Antipiatris دليـل على محاولتهم احياء الأسماء القديمة التى لم يعد لها وجود ، فهى أسـماء من التوراة والانجيل ، وهذا الاسم الجديد الذى أطلقوه على « أرسوف » منظور فيه الى ما ورد فى أعمال الرسل ٢٣/٣١ فى أخذ العسكر لبولص وذهابهم به ليلا الى « انتيبياتريس » ، كما عرفت « أرسوف » أيضا فى العصر الصليبى باسـم « Apollonia وكانت بلدا اسلاميا عربيا ، ويشير ياقوت الى أنها ظلت محتفظة بطابعها الاسلامى العربى حتى «أخذها كندفرى (أى جودفروى دى بويون) سنة ٤٩٤هـ (١١٠١م) ٠ انظر فى ذلك Le-Strange : Op. Cit., PP. 399, 472

(٢٠) متى ١٢/٢٥ ٠

(٢١) الوارد فى وليم اسم « تاج الملوك » وهو خطأ صوابه ما اثبتناه فى المتن ، وقد تنبهت الترجمة الانجليزية الى هذا الخطأ ولكنها لم تصححه وبالرجوع الى المصادر العربية يتبين لنا أن « تاج الملوك بورى » كان قد مات فى يونيو ١١٣٢م وتولى مكانه ولده شمس الملوك أبو الفتح اسماعيل ٠

(٢٢) أشار الى هذا التسليم ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشـق ، ص ٢٢٤ ، حيث ذكر أن الحاكم كان يدعى باسماعيل ونعته بالداعى العجمى، وأنه علم أنه ان قام « ببانياس فالبلاء محيط به ، ولم يكن له صـبر على الثبات ، فأنفذ الى الفرنج يبذل لهم تسليم بانياس ليأمن بهم ، فسلمها اليهم

وتسلل هو معه من لف لفه الى « الأعمال الفرنجية على غاية من المذلة ونهاية من السفلة » ·

(٢٣) أما « دان » المشار اليه فى المتن أعلاه فقد كان أحد اولاد يعقوب ، وصار المكان المدفون فيه مع ثلاثة من اخرته (ليس منهم يوسف الصديق) يعرف بقبر « دان » ، وهو على مقربة من « اربد » ، وقد ذكر ناصرى خسرو فى رحلته أنه زار هذا القبر ، كما ذكر الهروى أنه يوجد قرب هذا الموضع قبر أم موسى عليه السلام ، ويشير ياقوت الحموى فى معجمه (مـــادة اربد) الى أنها قرية فى اقليم الأردن قرب طبرية على يمين المسافر الى مصر ، وقد نقل ذلك كله عنه ابن عبد الحق فى معجمه « مراصد الاطلاع » · ثم يعود ياقوت فيقرر فى موضع آخر من معجمه بأن « هذا الاسم واحد من أسماء صيدا ، راجع فى ذلك كله Le-Strange : Op. Cit. PP. 457 — 458

أما بيت حبرين . أو بيت جبريل كما جاء فى متن وليم أعلاه فاسمها القديم هو Eleutheropolis كما كان يقال لها أيضا Betocarba

وقد أشار اليها ياقوت فى معجمه فذكر أنها تقع بين القدس وعسقلان أو غزة ، وكانت بها قلعة حصينة انتزعها صلاح الدين من الصليبيين · كما يوجد بين بيت جبرين وعسقلان واد يعرف بوادى النمل المشار اليه فى قوله تعالى (حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملـــة يأيهـــا النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون) ·

(٢٤) يوئيل ، ١/٢٠ ·

(٢٥) بير سبع المعروفة عند الغربيين باســـم Beer Sheba

وبها البئر التى حفرها ابراهيم الخليل عليه السلام حسبما ذكر ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع ·

(٢٦) انظر ما سبق ، حاشية رقم ٢٣ ·

(٢٧) فيما يتعلق بالقلعة والاخبـــار الواردة فى المتن ومـــا كان من الفرسان الاسبتارية راجع Stevenson : Crusaders in the East, P. 136.

(٢٨) أشار ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٨ ، الى أنه فى رجب سنة ٥٣١هـ ، نهض الأمير « بزواج » فى فريق كبير من العسكر الدمشقى والتركمان الى ناحية طرابلس فظهر اليه قومصـــها فى عسكره ، والتقى المصافان فدارت الدائرة على القومص ومن معه ولقى الكثيرون

منهم مصرعهم ، وترتب على ذلك أن تملك « بزواج » حصن وادى ابن الأحمر ، وأغلب الظن عندى أن هذا الحصن هو حصن « عثليث » وقد يقال له حصن الحجاج المسمى فى المراجع الصليبية حينا باسم Castellum Peregrinorum وحينا آخر باسم Petra Incisa ، وهو الواقع كما ذكر ياقوت فى معجم بلدانه على الساحل الشامى وقال ان صلاح الدين استرده من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ٠

(٢٩) قلعة « مونتفراند » هى المعروفة عند الصليبيين باسم Mons Ferrandus وقد تألف الصليبيون على اطلاق هذا اللفظ على «بعرين» كما ذكرنا آنفا (راجع حاشية رقم ٣ ،ص ١٤٩)، ويشير أبوالفداء الى أنه يوجد قربها أطلال مدينة قديمة تدعى « المرفنية » أو « رفنية » Raphanea ٠

(٣٠) كانت « التورون » Le Toron أو « تبنين » واحدة من قلاع الصليبيين الحصينة ، وقد ذكرها ابن جبير فى رحلته ووصفها بأنها واحدة من أكبر قلاع الفرنجة ، وبها محطة تمكيس القوافل ٠ ومن الطريف الذى يذكره ابن جبير فى هذا الصدد قوله ان هذا المكان تحكمه امرأة يدعونها « الخنزيرة » وينعتونها أيضا بالملكة ، ويقول انها أم الملك الخنزير الذى هو صاحب عكا ، كما يشير الى أنه ومن معه نزلوا اسفل هذا الحصن ، كما لاحظ أن معظم جباة الضرائب هنا من المغاربة ، مما يسترعى الانتباه فى دراسة الجباة فى الاقاليم الاسلامية ٠

فصول الكتـاب الخامس عشر

١ ـ الامبراطور يفرض الحصار على شيزر فيصحبه أمير أنطاكية وكونت الرها وفاء بعهد الطاعة والتبعية الذى قطعاه له ·

٢ ـ الغضب يحمل الامبراطور على رفع الحصار عن شـــيزر والعودة الى أنطاكية قبل أن يتم هدفه ·

٣ ـ الامبراطور يطالب الأمير من جديد بقلعة أنطاكية ، وبذلك يميط اللثام عن نيته فى الاقامة بعض الوقت فى تلك الناحية ·

٤ ـ حدوث بعض الاضطراب فى أنطاكية ممـــا يترتب عليه أن يشجب الامبراطور ما كان قد طلبه خوفا من العاقبة ، ثـــم يخمد الاضطراب ويغادر الامبراطور المدينة راحلا عنها ·

٥ ـ ارسال وفود الى الامبراطور لتهدئة ثائرته ، فتنجح الوفود فيما جاءت من أجله ويرحل الامبراطور عائدا الى دياره ·

٦ ـ ملك بيت المقدس يحاصر احدى القلاع الموجودة فيما وراء الأردن ويستولى عليها بالسيف ، أما جيشـــنا فتلحق به

الهزيمة النكراء فى « تقوع » ، ويقبض الموت روح « يود دى مونتفوكوت » فى هذه البقعة ٠

٧ ــ زنكى يسبب لدمشق كثيرا من الاضطرابات فيستنجد الدماشقة بالصليبيين فينجدونهم لكن بشروط معينة ، ويعود زنكى الى قواعده ٠

٨ ــ الدماشقة يساعدون الصليبيين فى حصار مدينة « بانياس » ٠

٩ ــ أمير أنطاكية وكونت طرابلس يحضران هما أيضا لمساعدتنا فى الحصار فيشتد التضييق على المدينة ٠

١٠ ــ وصول أمير أنطاكية وكونت طرابلس ، وبناء آلة للرمى ، وقيام الأهالى بالدفاع عن أنفسهم دفاعا مجيدا أملا منهم فى قدوم النجدة اليهم ٠

١١ ــ وصول مبعوث من كنيسة رومة عن طريق البحر ومتابعته المسير الى موقع الحصار ٠ الاستيلاء على مدينة « بانياس » والقبض على أحد الأساقفة هناك ثم عودة جميع الأمراء الى بيت المقدس ٠

١٢ ــ أمير أنطاكية يتآمر مع خصوم لبطرك هذه المدينة الذى يرحل الى رومة فيقع أسيرا فى يد روجر دوق « أبوليا » ، وصول البطرك أخيرا الى رومة فيرميه أعداؤه بالتهم ، ولكنه يعود فى النهاية الى أرضه وقد حظى بالعطف التام ٠

١٣ ــ أتباع البطرك من رجال الدين يرفضون استقباله عند عودته بايحاء من الأمير (ريموند) ، واذ ذاك ينسحب البطرك الى بلاد كونت الرها ، ثم يتم الصلح أخيرا بينه وبين الأمير ريموند فيعود الى أنطاكية ٠

١٤ ــ رئيس أساقفة ليون المندوب البابوى يلفظ أنفاسه الأخيرة فى عكا ، فيحضر الى هناك « البيريكوس » أسقف « أوستيا » وينعقد مجمع أسقفى فى أنطاكية ٠

١٥ ــ رمى البطرك بالتهم فى مجمع الأساقفة ٠ المجمع يستدعى البطرك للمثول أمامه لكنه يمتنع عن الحضور واذ ذاك يأخذ « سيرلو » ــ رئيس أساقفة أفاميه ــ مكانه ويتقرر خلـــع البطرك من أسقفيته ٠

١٦ ــ المجمع يقرر خلع البطرك فى غيبته لعدم طاعته ، ويلقى به فى الحبس حيث يعامل معاملة مشينة فيعود أدراجه مرة ثانية الى رومة ويكسب عطف البابا عليه ، الا أنه يمـوت بالسم وهو فى طريق العودة ٠

١٧ ــ المندوب البابوى يعود للقدس ويعقد اجتماعا ويدشن أيضـا هيكل السيد ٠

١٨ ــ الامبراطور (البيزنطى يوحنا الثانى) يسافر مرة اخـــرى الى سورية ويطالب الأمير (ريموند) بتنفيذ الاتفاق الذى كان قد أبرمه معه ٠

١٩ ــ الأهالى يبعثون بالرسل الى الامبراطور يشجبون الاتفاقية ويرفضون دخوله المدينة ٠

٢٠ ــ وصول رسل من قبل الامبراطور الى ملك القدس معلنين اليه عزم مولاهم على المجىء الى بيت المقدس بحجةزيارةالأراضى المقدسة ٠ رد الملك عليه ٠

٢١ ــ اصابة الامبراطور بجرح مميت أثناء خروجه للصيد أثناء اقامته فى « كيليكية » ٠

٢٢ ـ الامبراطور ينادى بأصغر أولاده امبراطورا مكانه ثم يلفظ أنفاسه · عودة الجيش (البيزنطى) الى بلاده تحت قيادة الامبراطور مانويل ·

٢٣ ـ قيام الملك فولك وأشراف المملكة ببناء قلعة « ابلين » أمام عسقلان ·

٢٤ ـ بناء قلعة أخرى أمام عسقلان استجابة لرغبة جماعية من ناحية البارونات ، وتسميتها بقلعة « بلانش جارد » ·

٢٥ ـ الملكة تؤسس ديرا فى « بيثانى » وتوقف عليه حبوسا كبيرة وتقيم أختها رئيسة للدير ·

٢٦ ـ الملك (فولك) يقع على أم رأسه من فوق ظهر جواده أثناء مطاردته لأرنب فى سهل عكا فيموت ويدفن فى بيت المقدس مع سلفيه ·

هنا يبدأ الكتاب الخامس عشر

محاولة الامبراطور يوحنا بسط نفوذه على الامارات اللاتينية

(١)

أمضى الامبراطور شهور الشتاء فى كيليكية ، فلما اقترب دخول الربيع (وهو أكثر فصول السنة ملاءمة لمتابعة الحرب) أرسل المنادين ينادون بالقرار الامبراطورى قـــواد الجيش وأمراء المئين والخمسين لاعداد قواتهم وتهيئة الات الحرب وتسليح الناس كافة ، كما بعث الرسل الى أمير أنطاكية والى كونت الرها وبقية كبـــار مسئولى هذه النواحى للخروج بصحبته للقتال ، وتم جمع العسكر من شتى النواحى ، حتى اذا كان الفاتح من ابريل سعى الامبراطور للاستفادة من الاتفاق المبرم بينه وبين الأمير ريموند ، فأمر بــدق الطبول والنفخ فى الأبواق واذ ذاك زحف الجيش كله نحو « شيزر »

ودخل أرض العدو ، ولم تنقض سوى أيام قلائل بعدئذ حتى كان قد ضرب معسكره أمام المدينة ·

ما كاد الأمير « ريموند » والكونت يعلمان بهذا الخبر حتى حشدا الحشود من كافة أرجاء بلادهما ، وسارا مجدين فى اثـــر الامبراطور مستهدفين الهدف ذاته ، وسرعان ما وصلا بجيوشهما أمام المدينة المشار اليها ·

***

وموقع شيزر مشابه تمام المشابهة لموقع أنطاكية ، فهى واقعة بين الجبل والنهر الذى يمر بالمدينة الأخيرة أنطاكية ، كما أن القسم الأكبر منها واقع فى السهل الذى ينبسط حتى يبلغ النهر ، على أنه يوجد قسم آخر منها قد شيد على سفح الجبل ·

أما قلعتها المشرفة على الأبراج فانها معقل أشب يعز اقتحامه ، كما أن الأسوار تمتد على يمين القلعة ويسارها حتى تفضى الى النهر مع احاطتها بالمدينة وضواحيها المتصلة بها ·

***

ولقد عبر الامبراطور النهر وأحدقت كتائبه بالمدينة وضرب الحصار على تلك الناحية التى تعتبر الاغارة عليها من أيسر الأمور بسبب وجود الضواحى أمامها ، وأخذت الآلات الحربية المنصـــوبة فى المواقع الاستراتيجية ترمى بقذائفها الحجرية الثقيلة قذفا موصولا فتهز الأبراج والأسوار وتصدع ما وراءها من دور الأهالى ، وكانت هذه القذائف الهائلة الحجم يأخذ بعضها بحجز البعض الآخـــر بلا انقطاع مما نجم عنه انهيار التحصـــينات التى كان الأهـــالى يعتبرونها أكبر مدافع عنهم ، فأحدث انهيارها دويا مفزعا بين أهل البلد ، وبث الذعر فى نفوسهم ·

ونظراً لما طبع عليه الامبراطور من الشجاعة الفائقة فقــد ضاعف من شدة هجومه الضارى ، وأظهر حماسة فائقة آذنت بأن النصر المنشود قريب المنال ، كما أثار همة الشباب الطموح فنشطوا هم أيضا من جانبهم فى النضال وأبدعوا فى القتال ، ثم نزل الامبراطور بنفسه بين صفوف جنده ، حاملا درعه ، ومتقلدا سيفه ، وواضعا لامته الذهبية على رأسه ، وسار فى العسكر يشجع بكلامه جماعة هنا وأخرى هناك ، فكان بينهم كواحد منهم ، وقاتل قتالا بطوليا حمل الآخرين على بذل المزيد من الاستبسال فى المعركة ، وهكذا لم يقتصر نشاط هذا الرجل العظيم على ما هو آخذ به نفسه فقط بل لقد تحمل حر المعركة منذ أول النهار حتى آخره دون أن يعطى نفسه بعض الراحة ، أو لحظة يتناول فيها طعامه ، ذلك لأنه كان موزعا بيــن شد عزائم من يديرون الآلات الحربية ليضاعفوا همتهم فى تحقيق غرضهم ، وبين بث الحماسة فى قلوب الذين هم فى أتون المعمعة ، فأعاد للقتال ضراوته اذ راح يبعث بالصف من الرجال مكان غيره ، ويستبدل من أنهكهم القتال بغيرهم •

وبينما كان هؤلاء منصرفين كل الانصراف الى الصراع العنيف اذا بالأمير والكونت ـ وكانا شابين فى ميعة العمر ـ يستسلمان لنزوات الشباب الذين فى مثل عمرهما ، فانكبا على ألعاب القمار انكبابا أضر بصالحهما ، وزيادة على ذلك فقد دفعهما عدم رغبتهما فى مواصلة القتال الى اغراء سواهما بالتكاسل والقعود عن القيام بدور جدى فعال فى الحصار •

فلما وقف الامبراطور على سلوكهما الشائن تسعر غضبه عليهما ، وكثيرا ما راح يبذل النصــيحة الرقيقة لهما فى الســر والعلانية ، وجاهد كى يردهما الى واجبهما ، وضرب لهما المثل بنفسه هو ذاته ، وذكر لهما أنه ـ وهو أقوى ملوك الأرض قاطبة ـ

لم يرحم نفسه أن يجشمها الكثير من المتاعب الجثمانية ، ويتكبد هو النفقات الطائلة ، ويحارب على مثل هذه الصورة ٠

واستمر الجيش يقاتل بضعة أيام من غير توقف ٠

وكان مما أحنق الامبراطور أشد الحنق أن يرى مدينة ضعيفة كهذه المدينة تقاوم أمدا طويلا جيشه العظيم الذى لا يضاهيه أى جيش آخر ، كما أضجره طول وقوفه ، فرمى رجاله بالتراخى ، وراح يحثهم على بذل المزيد من المحاولات العنيفة ، وأمرهم بمضاعفة قوة هجومهم ليكون حصارهم أشد ضراوة ٠

كان الحصار عنيفا وان لم يكن فعالا ٠

ثم تم الاستيلاء على ذلك الموضع الواقع أسفل البلد اثر قتال تشابكت فيه الأيدى بالأيدى ، ولم تأخذ الغالب الرحمة بأحد من السكان الذين وجدهم هناك ، فقسا عليهم قسوة لم يستثن معها الا من دلته لهجته أو هندامه أو ما شابه ذلك على اعتناقه الديانة المسيحية فقد كان فى « شيزر » قوم من المؤمنين(١) أذاقهم ساداتهم الكفار ذل الأسر ٠

(٢)

لم تكد تلك الضاحية تقع (فى يد الامبراطور) حتى خاف الأهالى أن يقتحمها العدو ويدخلها قسرا فيفتك بنسائها وأطفالهم ، لذلك التمسوا هدنة قصيرة فأجيبوا اليها ، وكان صاحب « شيزر » اذ ذاك شريفا(٢) عربيا ، فأرسل فى السر الى الامبراطور رجلين من قبله يستعطفانه ، ويلتمسان منه الابقاء على المدينة والتعطف عليها والرحمة بسكانها فتشملهم رحمته ، كما أخذ هذا الأمير (المسلم) العهد على نفسه أن يدفع لقاء ذلك مبلغا كبيرا من المال ٠

على أن المسلك الشائن الجبان الذى سلكه الأمير (ريموند) والكونت أثناء الحملة أسخط الامبراطور أشد السخط ، لاسيما وأنه كان يحارب من أجلهما وفاء منه بعهده لهما ، أما يمينهما التى أقسماها بالولاء والتبعية له فرأها خدعة أكثر من أن تكون حقيقة واقعة ، ومن ثم اشتد مقته لهما وعزم عزما أكيدا (ووافقه فيه ثلة من أصحابه ونصحائه المخلصين) على أن ينزل العقاب بهما جزاء نكثهما بالعهد ، وأن يغتنم أول فرصة تلوح له فيرفع الحصار ويعود الى دياره مع المحافظة على شرفه ٠

لذلك ما كاد يتسلم المال المتفق عليه (من أمير شيزر) لرفع الحصار حتى أمر المنادين أن ينادوا بعودة السلام والاستعداد للرحيل ، وسرعان ما قوض الجند الخيم ، وصدرت الأوامر الى جميع الفيالق بالانضمام بعضها الى بعض والزحف الى أنطاكية ، وأن يعجل الجيش كله بالذهاب الى هناك ٠

فلما علم الأمير والكونت بما فعله الامبراطور ندما على ما كان منهما ، لكن لات ساعة مندم ، وحاولا ثنيه عن عزمه فلم يفلحا فيما قصداه ، ونبذ هو ظهريا كل مساعيهما ومحاولاتهما وبادر الى الرحيل ، ويقال ان الكونت كان أكثر حنكة ومكرا من الأمير اذ سلك فى هذا الموقف مسلكا شديد الخبث ، وذلك لأن ما كانت تنطوى عليه جوانحه من كراهية لسيده الأمير حمله (كما صرح فيما بعد) على أن يستعين بدهائه الذى يعجز الأمير الشاب الطائش عن مجاراته فيه ، فعمل على أن يضله ليزداد هو قوة ، وسعى بكل وسيلة لحمل الامبراطور على صب جام غضبه ونقمته على الأمير الشاب ، فلا تعلو مكانته عنده ٠

(٣)

وصل الامبراطور الى أنطاكية فى أبنائه وحاشيته ودخـل المدينة وحوله أكثر عسكره ، فتلقاه الناس بالحفاوة البالغة ، ثـم ساروا به أول ماساروا الى الكاتدرائية فقصـر الأمير الذى قام هو والكونت بقيادة الركب الامبراطورى ، وتبعهم كالعادة موكـب مؤلف من البطرك وجميع رجال الدين والناس كافة ، وراحت العامة تنشد بين يدى يوحنا أناشيد الثناء ، وتدق له الآلات الموسيقية ، وتشق الأفق هتافات الفرح ، والتصفيق العالى ٠

ولقد ظل الامبراطور يتمتع بضعة أيام كما لو كان فى قصره بكل ما شاء من الاستحمام وكل ما ينعش البدن ، وأغدق كرمه على الأمير والكونت ونبلائهما بل وعلى بعض الأهالى ، ففاضت انعاماته عليهم جميعا كأسخى ما يكون الانعام ، حتى اذا انتهى من ذلك كله طلب العاهلين (٣) وجميع أشراف الامارة للمثول بين يديه ، فلما صاروا أمامه قال موجها الكلام الى الأمير :

« انك لتعلم يابنى العزيز ريموند أننا أقمنا فى هذه الناحية زمنا طويلا بسبب حبنا لك ، وقد فعلنا ذلك تنفيذا للاتفاق الذى كنا قد أبرمناه سابقا بفضل سعى بعض أهل الفطنة بين امبراطوريتنا ــ رعاها الرب ــ وبينك ، باعتبارك فصلا مخلصا لنا ، وها قد جاءت الفرصة الملائمة كى نفى بوعدنا ، ونضع جميع المنطقة المجاورة تحت حكمك كما تنص على ذلك صراحة شروط الاتفاقية ، ولكنك تعرف جيدا ــ كما يعرف هؤلاء النبلاء الذين يقفون الآن فى حضرتنا ــ أن تنفيذ هذه الشروط التى نحن ملتزمون بهـا تتطلب زمنا ليس بالقصير ، كما أن واقع أمورك يفرض على أن أطيل اقامتى لكنـه يكلفنى نفقة أكبر ، وعلى ذلك فالواجب يقتضيك ــ حسب نص

الاتفاق ـ أن تعهد الينا بقلعة هذه المدينة حتى نضع أموالنا بهـــا فتكون فى مأمن ، كما يجب أن يتوفر لعسكرنا حرية الوصول الى المدينة : يدخلونها متى شاءوا ويخرجون منها متى أرادوا من غير عائق يعوقهم فيما يبغون ، كما أنه لا يمكن الحصـــول على الآلات اللازم جلبها لحصار حلب من طرسوس وعين زربة وغيرهما من مدن كيليكية ، ولكن أنطاكية هى الوحيدة التى هـــى أقـــدر من غيرهـــا فى تقديم هذه الأشـــياء من أجل تحقيق هذه الأهداف وامدادنـــا بالتيسيرات التى لا يستطيعها سواها ، لذلك فعليك الوفاء بعهدك ، وأداء واجبك التزاما بيمين الطاعة التى قطعتها على نفسك لنا ، وستكون مهمة عظمتنا الامبراطورية أن ننفذ الالتزامات المفروضـــة علينا ، ٠٠٠ ولن نقصر فى البذل ولن نضن ببذل أقصى جهدنا » ٠

هالت الأمير ونبلاءه خشونة هذه الكلمـــات ، وظلوا فترة طويلة من الوقت يقلبون المشكلة فيما بينهم على شتى وجوهها وهم جزعون ، ولم يعلموا بماذا يجيبونه ، ذلك لأنهـــم رأوا مدى الخطر الجسيم الذى يهدد المدينة ان وقعت فى أيدى الاغريق المدللين ، وهى المدينة التى حصلت عليها أمتنا بعد تعرضها لأخطار جسام ، وردت الى العقيدة المسيحية بعد أن بذل الأمراء الكرام من أجلها دماءهم الغالية ، وكانت أنطاكية على الدوام رأس كثير من الولايات الكبيرة وتاجها ، والتى كان يخيل الينا أنه ما كان لباقى الاقليم أن تقوم له قائمة بدونها ٠ كما أنه لا جدال من ناحية أخرى فى أن هذا الأمر تضمنه الاتفاق الذى كان الأمير قد أبرمه ، بالاضافة الى ذلك فان الامبراطور كان قد أحضر اليها الكثيرين من رجاله مما جعل من الصعب معاندته ان هو رأى اللجوء الى القوة ولما وصلت الأمور الى هذا الحد الحرج تكلم كونت الرها نيابة عن الجميع فقال :

« مولاى : ان كلمات عظمتكم الامبراطورية حافلة بالبلاغة العلوية ، وانها لقمينة بالقبول التام لأننا نرى أن هدفها يرمى الى زيادة قوتنا ، ولكن جد أمر يستدعى الالتفات ، ذلك أنه لم يعد فى قدرة صاحبها الأمير أن يتفرد وحده بالموافقة على هذا الطلب ، بل عليه أن يستوفيه بحثا ومشورة مع كبار رجالاته ومعى أنا ذاتى ومع رعاياه الآخرين المخلصين ، فيشير عليه هؤلاء جميعا بأمثل الطرق لاستجابة قرارك وتنفيذ أمرك على أتم وجه ، اذ لو شبت ثورة من جانب الأهالى لحالت دون تنفيذ مطالبك » .

وصادف رد الكونت قبولا حسنا عند الامبرطور الذى أذن لهم بفترة قصيرة من الوقت حتى يمكنهم مناقشة الأمر فيما بينهم .

ثم انصرف الكونت بعدئذ عائدا الى قصره ، وبقى الأمير فى القصر وان كان فى الواقع سجينه كما ذكر ذلك أحد التقارير .

(٤)

ما كاد الأمير يصل الى داره حتى أنفذ فى السر رجالا من ناحيته الى العامة يخبرونهم بمطالب الامبراطور ، ويحرضونهم على حمل السلاح ، وسرعان ما اندلعت فى أرجاء المدينة المظاهرات الصاخبة ، وتكاثرت الجموع من كل حدب وصوب ، واستحالت الضجة الى زئير غاضب هادر ، فلما سمع الكونت جوسلين الصخب بادر الى امتطاء أحد الجياد وانسل على عجل ميمما وجهه شطر القصر كما لو كان يفر من مطاردته الناس له،وطرح نفسه وهو يلهث على قدمى الامبراطور الذى استبدت به الدهشة من هذا الاقتحام الفجائى ، وتساءل فى اهتمام بالغ عما حمل الكونت على تناسى آداب اللياقة وحرمة القصر العالى فيندفع الى الحضرة الامبراطورية الجليلة على هذه الصورة ، فرد عليه الكونت أن

الضرورات تبيح المحظورات وهى لا تعرف عرفا ولا قانونا ، وأن مطاردة الرعاع العنيفة له أرغمته على خرق القواعد المتبعة فرارا من القتل ، فألح الامبراطور عليه أن يزيده تفصيلا ، فأجابه بأنـه قد دخل احدى الحانات يستجم قليلا ، ويتنـــاول بعض الأطعمـة الخفيفة واذا بباب النزل قد حاصرته جموع غفيرة مدججة بالسلاح ومنتضية السيوف وشتى أدوات القتل التى يستلزمها غضـــبهم ، وصاروا كأنهم رجل واحد وليس على لسانها سوى اتهامه بأنـه رجل سفاك ، خائن لبلده ، وقاتل لشعبه ، وأنه موشك أن يبيع المدينة للامبراطور لقاء مال رشاه به الامبراطور ، كما طالبوه بتسليم نفسه اليهم ، ثم اقتحموا الخان قبل أن يفر منهم ومن آلاف الأخطار التى تتهدده ٠

* * *

وتجاوبت أرجاء المدينة فى هذه اللحظة بهدير الجموع الصاخبة الحانقة ، وانطلقت الشائعات تزعم بأن أنطاكية بيعت للاغريق الذين تسلموا قلعتها والذين سوف يحملون الأهالى على هجر دور أجدادهم والرحيل عن أرض أسلافهم ، فأسخطت هذه المزاعم الناس وأحنقتهم، وانطلقوا يهاجمون كل من صادفوه من رجال الامبراطور ، فينزلونهم من على ظهور جيادهم ، ويسلبونهم غصبا كل مامعهم ، ولم يتورعوا عن ضربهم بالسياط ، فمن قاومهم ولو قليلا قتلوه بالسيف ، أمـــا الشاردون الذين انطلقوا على وجوههم وهم فى غمرة اليأس فرارا من أن يقتلوا أو تنالهم الكلوم فقد تتبعتهم العامة بسيوفها المسلولة ، وتعقبوهم حتى داخل القصر الامبراطورى ٠

حينذاك اضطر الامبراطور ازاء ثورة الأهالى وصراخ حاشيته الى القيام بعمل شىء ما ، فبعث فى استقدام الأمير والنبلاء اليه فى لحظته هذه خوفا من قيام مظاهرة خطيرة ضده هو ذاته فكبح جماح

غضبه ساعتئذ ، وقال مشيرا الى الملاحظات التي ذكرها في حضرتهم جميعا ، فقال :

« انذكر أنني تذاكرت معكم اليوم فى موضوع ربما كان هو الذى أدى الى هياج الناس ، والآن أريد أن يعرف أهل المدينة قاطبة وشيوخها أننى شاجب ما قد قضيت به ، وراجع عما كنت راغبا فيه طالما رأيتم أن فيما طلبته ما يلحق الأذى بكم ويكبدكم من أمركم عسرا ، ولذلك فانى مبق بأيديكم القلعة والمدينة كلها ، ويكفينى أن تظل الأمور على ما هى عليه الآن ، وأنا واثق تمام الثقة أنكم أتباعى الأوفياء ، وموقن كل اليقين أنكم لن تحنثوا بعهد الولاء ولا يمين التبعية التى قطعتموها على أنفسكم لى ، وأناشدكم أن تتوجهوا الآن الى هؤلاء الناس الحانقين لتسكتوا ثورتهم ، ولتعلموهم أنـــه اذا كانت اقامتى فى أنطاكية تسبب لهم ذعرا فليقروا نفسا ولتطمئن قلوبهم فاننى راحل غدا باذن الله » ·

فاستصوب الحاضرون قرار الامبراطور وأثنوا الثناء العاطر على حكمته وبعد نظره ورجاحة عقله وحسن تدبيره ·

واذ ذاك خرج الأمير ريموند والكونت جوسلين ومعهما غيرهما من كبار الرجال وأشرفوا على العامة وحاولوا بالكلمة والاشـــارة والايماء تهدئة فورتهم ، فهدأوا وانفثأ غضبهم بهذه الكلمات الطيبة وأخلدوا الى السكينة ، ثم التمس منهم الوسطاء أن يعودوا الى بيوتهم ويلقوا سلاحهم جانبا ويلتزموا السكينة ويركنوا للهدوء ، ففعلوا · وانتهى الأمر أخيرا على هذه الصورة ·

فلما كان اليوم التالى غادر الامبراطور أنطاكية وفى معيته أبناؤه وأقاربه وجميع أتباعه ، وصدر أمره بنصب المعسكر خارج أسوار المدينة ، فتم الأمر كما أراد ·

غير أن ذوى الفطنة من أهل المدينة أدركوا أن الامبراطور كان ساخطا فى قرارة نفسه على الأمير « ريموند » وكبار النبلاء ، وعلى الرغم من كتمانه مشاعره الحقيقية كتمانا أملاه عليه العقل الا أنه كان يؤمن أنهم هم المسئولون عن شغب العامة ، وأنهم هو المشجعون لهم سرا على هذه الفوضى ، لذلك تطلع هؤلاء النفر الى اعادة السلام واقراره ، فأرسلوا رهطا من أهل التجربة والعقل كمبعوثين الى عظمته الامبراطورية ، وعهدوا اليهم أن ينوبوا عن الأميـــر « ريموند » وكبار أعيان البلد فى الاعتذار اليه وتبرئة ساحتهم عنده ، وأنهم لم يكونوا هم الذين دفعوا العامة الى الشغب ·

وجىء بالرسل الى الحضرة الامبراطوريـــة فأكدوا براءة الأمير ، وبذلوا غاية جهدهم فى اقناع الامبراطور بهذه الحقيقة اذ قالوا له :

« تعرفون يا صاحب العظمة الامبراطورية والجلالة السامية أحسن مما نعرف نحن أن الناس فى كل المجتمعات ـ لاسـيما فى المدن حيث تحتشد الجماهير الغفيرة ـ لا يكونون على درجة واحدة من الفهم ، وأنهم غير متكافئين فى عدالة حكمهم على الشىء ، ذلك لأن عاداتهم شتى وتقاليدهم متباينة ، ومناهجهم متضاربة حسبما تمليه عليهم مصالحهم ، وما أصدق المثل القائل : « كلما كثر الرجال تعددت الأفكار » لذلك فان واجب العاقل فى خضـــم هذه الظروف والأعراف الجمة المتضاربة أن يميز بين من يستحقون ومن لا يستحقون، ويحكم على كل واحد بما هو أهل له ، وبناء على هذا التعقل فان الفعال المسعورة الصادرة عن رعاع غير مسئولين لا ينبغى أن تعود بالمضرة على العناصر الطيبة ، اذ كثيرا مايحدث أن تطيش أحلام

جماعة من العامة الفوضويين ، يسخطها الزجر فلا تطيقه فتثير المنازعات والاضطرابات ، ولكن من المؤكد ايضا ــ حسبما تدل العادة القديمة والتى ثبت منذ بعيد صحتها ــ أنه فى جميع المدن المنظمة قانونيا أن يكون لسراة القوم المعتدلين اثرهم فى كبح جماح النزوات وصد الاندفاع الجنونى ، فان لم يفعلوا ذلك تغلب وضع العامة على وضع النبلاء ، وما لم يتدخل العقلاء لتصحيح أخطاء الرعاع الذين لا تفكير عندهم فان الفوضى الطائشة التى جبل عليها الغوغاء سوف تكون لها اليد العليا وتتغلب على فطنة الحكماء ٠

« ولقد ارتكب جماعة ممن لا خلاق لهم هذه الفوضى دون أن يعلم الأمير ولا أولو الأمر فى الدولة عنها شيئا ٠٠٠ فلينزل بهم العقاب الذى هم أهل له ، ولكن لا تحملوا الأمير ولا الأمراء جريرة السفهاء التى لم يرتكبوها هم أنفسهم » ٠

« ورغبة من الأمير فى البرهنة على براءة ساحته فانه مستعد للالتزام بشروط الاتفاق ، ويرجوكم ــ اذا سمحتم ــ أن يضع فى يد الامبراطور المدينة والقلعة معا » ٠

أدى هذا الاعتذار وأمثاله من التبريرات القوية الى هدوء حدة الامبراطور وازالة سخطه الذى كان يرجع الى الشك وحده ، وأفسح المكان لاحساس رقيق ، ومن ثم أرسل الى الأمير والكونت طالبا اليهم المثول بين يديه ٠ فانقشعت بذلك سحابة الغضب التى كانت تفصل بينه وبينهم ، وسعد الامبراطور بتحياتهم ، ورد عليها بأحسن منها ٠

ثم أفضى اليهم أخيرا بأن هناك أسبابا بالغة الأهمية تحمله على العودة الى بلاده ، واستأذنهم فى الخروج ووعدهم وعدا أكيدا أنه راجع اليهم بعون الرب على رأس جند كثيرين ، ومنفذ ما اتفق

عليه ، ثم سار بكل جيشه ودخل كيليكية حتى اذا فرغ من كل ما يشغل باله فى هذا الاقليم وفى سورية أعد عسكره للمسير والعودة الى مملكته ٠

(٦)

فلما كان الصيف التالى وبعد مرور فترة قصيرة على وقوع هذه الأحداث فى أنطاكية جاء الى القدس للحج « تييرى كونت فلاندرز » ختن الملك ، وكان رجلا وجيها ، عظيم القدر بين أمراء الغرب ، وكان فى صحبته حاشية نبيلة ٠

واستقبله الملك وكافة الناس استقبالا دل على عظيم فرحتهم به ، ذلك أنه كان قد تم الاتفاق بالاجماع – بناء على توجيه من البطرك ومن عنده من أمراء المملكة – أن يقوم « تييرى كونت فلاندرز » بمن معه من الفرسان الأشاوس بحصار قلعة واقعة على الجانب الآخر من الأردن على مقربة من جبل جلعاد فى اقليم « العمونيين » ، وكانت هذه القلعة مصدر خطر كبير يهدد أرضنا ، وهى عبارة عن مغارة فى منحدر جبل باسق الارتفاع صعب المرتقى ، ويقوم على أحد جانبيه ممر ضيق بالغ الخطورة ، يقع بين جرف صخرى مرتفع وبين المنحدر الذى ذكرناه ، ويؤدى الى نفس الكهف ٠

كان يغشى هذا الكهف عصبة من اللصوص وقطاع الطرق والأوشاب القادمين من أراضى مؤاب وعمون وجلعاد ، الذين ألفوا – كلما سنحت الفرصة لهم – مراوحة أراضينا بغاراتهم الكثيرة التى يباغتوننا بها على غير توقع منا ، وكثيرا ما أصابتنا هذه الهجمات بالأضرار البليغة ، وكانت أخبار الأراضى الصليبية تصل الى هذه العصابات بواسطة جواسيسهم الخبيرين بالاقليم ،

ممن كانوا يرسلونهم قبل كل غارة يزمعون القيـــام بها ۰ وكان زعماؤنا يتلهفون لاجتثاث هذه الشرور ، ومن ثم اقترحوا ـ كمـا قلنا ـ محاصرة الكهف فاستدعوا أهل تلك الناحية قاطبة ، وعبروا الأردن بصحبة القوات الحربية ، حتى اذا بلغوا وجهتهم نصبوا خيامهم فيما بين الأحراج الضيقة ، ووضعوا القوات على شــكل دائرة تحدق بالمكان المحاصر ، وتبعـــا لقوانين القتال فقد أخذوا يضايقون العدو بكل السبل ، وأطبقوا عليه كل الاطباق لارغامه على الاستسلام ، أما اللصوص فاستعدوا من جانبهم وبكل ما أوتوا من مكر شرير للدفاع عن أنفسهم ۰

وهكذا كان الجيش الصليبى كله على وجه التقريب لا يشغله سوى المعركة ، وأدرك جمـــاعة من الأتراك فى نفس الوقت أن كل الاقليم المار بالأردن قد خلا من العسكر ، فأصبح ميسرا للهجمات العدوانية ، فاغتنموا هذه الفرصة التى سنحت لهم حينئذ وعبروا الأردن وجعلوا منطقة « أريحا » على يمينهم ، وساروا على طول ساحل « بحيرة الأسفلت » التى تسمى أيضا بالبحر الميت ، وتقدموا من هناك الى الاقليم الجبلى وهاجموا تلك الناحية من الولاية التى كانت فى العصور القديمة من أرض أبناء يهوذا ، فاستولوا بالغصب على « تقوع » وهى مدينة النبيين عاموس وحبقوق ، وقتلوا القلة القليلة الباقية ممن لازالوا موجودين بها ، اذ كان قد هجرها من كانوا بها من قاطنيها الذين فرت جموعهم منها مستصحبين معهـم نساءهم وأولادهم وقطعانهم وأغنامهم ، ولجأوا الى كهف « أودولا » المجاور ، وذلك لأن النذير جاءهم قبل فوات الأوان باقتراب العدو ، واذ كانت المدينة خالية من أهلها فقد اقتحم المغيرون بيوت الهاربين وحملوا معهم كل ما وجدوه بها بعد رحيل أصحابها عنها ۰

وحدث فى تلك الأيام أن جاء الى بيت المقـــدس من أنطاكية المجاهد فى سبيل الرب « روبرت » الملقب بالبرجندى ، وكان فارسا مغوارا بارعا فى استعمال السلاح ، هذا الى جانب ما كان عليه من كرم المحتد وسمو الخلق ، وهو من مواليد « أكويتانيا » وكان رئيس جماعة فرسان المعبد ، وصاحب فى قدومه هذا بعض رفاقه ورهطا ضئيلا من الفرسان من مختلف المراتب ممن كانوا قد تخلفوا فى القدس التى ما كاد يصلها هو ومن معه حتى انطلقوا على جناح السرعة الى المكان الذى ذكرناه حالا ، يتقدمهم « برنارد فاشيه » أحد رجال الملك حاملا العلم الملكى ومن ورائه الناس قاطبة ٠

لكن ما كاد الترك يعلمون بأن الصليبيين فى الطريق اليهم حتى غادروا « حبيس »(٤) موطن النبى « يوئيل » وفروا نحو الخليل الذى هو مدفن البطاركة ، وفى نيتهم النزول من هناك الى عسقلان ٠ ومع معرفة الصليبيين بأن العدو شارع فى الارتداد الا أنهم أمسكوا عن مطاردته رغم أنه لا زال قريبا منهم ، كأنما كانوا على ثقة من أن النصر فى جانبهم ، ولكنهم نهجوا عكس ما كان ينبغى عليهـم نهجه ، اذ تفرقوا فى غير اكتراث فى شتى النواحى ، وليس لهم من هم غير النهب الذى فضلوه على استئصال شأفة خصـــمهم ، وسرعان ما أدرك الترك هذا الوضع رغم ركونهم للهرب ، فعاودتهم شجاعتهم ، وتجمعوا ثانية على مألوف عادتهم وحاولوا جهدهم لم شتات قواتهم المبعثرة ، وأغاروا فجأة وبكل ثقة على زمر الصليبيين الذين كانوا يتجولون هنا وهناك ، لا يخامرهم أدنى خوف من أى خطر يترصدهم ، فاستحر القتل فى رجالنا ، ولم تكتب النجاة الا لشرذمة ضئيلة منهم حاولوا الهرب فلملموا فلولهم المشتتة وقاتلوا الترك ٠

وفى هذه الآونة تردد فى الأفق صدى دق الطبول العالى ، والنفخ فى الأبواق وعلك الجياد للجمها ، كما خطف الأبصار بريق

الاسلحة اللامعة ، وسمعت أصوات القادة يشجعون رجالهم ، وحجبت الأفق سحائب من الغبار الكثيف أثارتها سنابك الخيل فكان ذلك كله صيحة النذير الى قوات الصليبيين الأخرى المبعثرة هنا وهناك ، فأسرعوا الى ساحة المعركة ، الا أن صفوفنا الامامية مالبثت أن فرت على وجهها قبل أن يتمكن الصليبيون من الانضمام الى رفاقهم الذين كانوا يجاهدون فى سبيل المقاومة ، واذ ذاك رجحت كفة العدو علينا ، وحاقت القارعة برجالنا ٠

وحاول الصليبيون الفرار والعدو يلاحقهم بسهامه المشرعة ، ولكن النجاة كانت شبه مستحيلة لامتلاء الناحية كلها بالصخور ، كما كاد المكان أن يكون خلوا من الممرات مما أسفر عن لقاء بعض الصليبيين حتفهم بظبى السيوف ٠

كذلك هوى آخرون من أعلى المنحدرات فجد الترك فى أثر الباقين من الصليبيين يذبحونهم ذبحا فظيعا بدءا من الجليل الذى هو قرية « عربة »(٥) حتى حدود « تقوع »(٦) ٠

وهلك فى هذا اليوم كثير من الأشراف والرجال البارزين ، وكان من بين الهلكى « أيودى منتفوكون » الفارس المعلم الذى هو من جماعة فرسان المعبد ، فكان مصرعه مبعث حزن عميق وكثر البكاء عليه ٠

وعاد العدو الى عسقلان ظافرا منصورا ، تزدهيه النشوة بهلاك الصليبيين ، وتملؤه الفرحة بما فى يده من الغنائم ٠

أما رجالنا الذين كانوا مشغولين بالحصار (فى جبل جلعاد) فقد فاضت نفوسهم جزعا حين جاءهم النذير بالنكبة التى ألمت بنا ،

لكن خفف من جزعهم وشد من عزمهم ما يعلمونه علم اليقين أن الحرب سجال ، يكون النصـــر فيها يوما لهذا ويوما لذاك ، ومن ثم استمروا فى العمل الذى يقومون به فى حماسة فائقة ، فلم ينقض بعض الوقت الا وقد تم لهم الاستيلاء على ذلك الحصن بمشيئة الرب فعادوا الى ديارهم سالمين يكلل المجد هاماتهم ٠

(٧)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى القدس كان زنكى قد غره نصره فجعله أشبه بالدودة التى لا تعرف الاستقرار ، فتطلع الى غزو مملكة دمشق التى جاء الخبر الى حاكمها معين الدين أنر الذى كان فى الوقت ذاته حما الملك بأن زنكى نهض بجيشه فاقتحم دمشق ، فبادر الحاكم أنر فى الحال الى ارسال رسل من ناحيته الى ملك بيت المقدس متوسلا اليه فى الحاح وبكلمات تقطر ودا أن يقوم هو وشعبه المسيحى فينجده بالمدد ويسعفه بالرأى ضد العدو الشرس الذى لا ينكر أحد خطره على المملكتين معا ، وتعهد له بدفع عشرين ألف قطعة من الذهب نفقة للحملة ، وقد فعل ذلك حتى لا يظن أحد أنه ينشد من الملك وأشرافه النجدة بلا ثمن ٠

وكانت الاتفاقية قد نصت على أنه لايكاد يتم اخراج العدو من دمشق حتى يرد « أنر » الينا من غير معارضة مدينة « بانياس » التى انتزعت منا قبل عامين من هذا التاريخ ، وتعهد ـ تأكيدا لشروط الاتفاق ـ أن يسلمنا عددا من كبار رجالاته يتفق عليه ليكونوا رهينة لدينا ٠

فلما استمع الملك الى هذه العروض جمع اليه كافة أشـــراف المملكة وشرح لهم شرحا دقيقا لكل شروط الاتفاقية وتفاصيلها التى

حملها اليه رسل « أنر » وسألهم ماذا يكون رده عليه ، فطال البحث بينهم ، ثم قر قرارهم بعد اعمال الفكر المتزن والاستعراض الدقيق لمختلف الآراء أن يساعدوا أنر والدماشقة ضد هذا العدو الضارى الذى يهدد المملكتين على السواء ، ورأوا أن خير صورة لهذا العون هى أن تكون مطلقة سخية حتى لايصبح العدو أكثر قوة بسبب تلكئنا فيستولى على مملكة دمشق ويستغل مواردها فيزداد بأسه ضدنا ·

... كذلك كان هناك ظرف آخر جعل المساعدة أمرا لا مندوحة عنه ، وكان هو أقوى الدواعى التى ساعدت على الاستجابة لهذا العرض الا هو ما تضمنته الاتفاقية فى بندها الأخير من الاشارة الخاصة الى مدينة بانياس ·

(٨)

على هذه الصورة كانت الموافقة على الخطة العامة ·

لذلك ما كادت الرهائن المذكورة تصل وتوضع فى مكان أمين حتى صدرت الأوامر (الصليبية) بجمع القوات الكثيرة من الفرسان والمشاة من شتى رحاب المملكة وحشدها حالا فى طبرية ، وقام زنكى فى الوقت ذاته مندفعا بشجاعته الطاغية فغزا أرض دمشق بعسكر كثيرين من الفرسان ، وزحف مخلفا المدينة وراءه حتى بلغ موضعا يسمونه رأس العين ، فاقام به هو وكتائبه وعسكر هناك مؤقتا ، ذلك لأن تقدم الصليبيين فرض عليه شيئا من التردد وكانت ثقته كبيرة ببلوغ غايته المأمولة ما لم تفسد قواتنا عليه خططه ·

وجاء الى الصليبيين خبر توقف زنكى عند الموضع المذكور ونبأ خروج الدماشقة من بلدهم وانتظارهم فى « نوارة » وصول الملك وعسكره ، واذ ذاك قوض الصليبيون معسكرهم وأسرعوا رافعين بيارقهم ، متجهين على بكرة أبيهم شطر المكان المذكور · بيد أن زنكى ما كاد يعلم بهذه الحركة من جانبهم حتى بادر الى الانسحاب ليعد للأمر أهبته كراهية منه فى محاربة جيشين فى وقت واحد ، وخوض غمار معركة على أرض معادية له ، ومن ثم أسرع قبل انضمام الصليبيين الى الدماشقة الى ترك الناحية التى هو فيها ، وارتد على عجل تاركا قواتنا وقوات الدماشقة الى اليسار ، وزحف صوب الاقليم المعروف عادة باسم « وادى بكار » لكن هذه الحركة من جانبه لم تمنع رجالنا من مواصلة زحفهم الى الموضع المحدد حيث انضموا الى الدماشقة وصاروا يدا واحدة ، وحينذاك تأكد عندهم تماما خبر رحيل زنكى ، فاتفقوا على أن يحولوا زحف الجيش بأجمعه الى ناحية « بانياس » حسبما جرى الاتفاق عليه فى المعاهدة ·

لقد سبق لنا أن قلنا ان « طغتكين » ملك دمشق كان قد استولى قبل سنوات قلائل على هذه المدينة بقوة السلاح ، وعهد بادارتها الى وال من قبله ، لكن سرعان ما انفصل هذا الوالى عن الدماشقة وانضم الى عدوهم عماد الدين زنكى ، وكان هذا هو السبب الذى حمل حلفاءنا (الدماشقة) على بذل الجهود المضنية لوضع مدينتهم تحت نفوذ ملك بيت المقدس ، اذ أنهم رأوا أن ردها الى الصليبيين الذين يتمتعون بعطفهم خير من أن يروها فى قبضة خصم يخافونه أشد الخوف ولا يطمئنون اليه ، ذلك لأنه يستطيع ــ من وجهة نظرهم ــ أن يصيبهم بكثير من الأذى ويسبب لهم ازعاجا أشد وأكبر ·

وتعرف « بانياس » فى العادة باسم « بليناس »(٧) ، وكانت تعرف قبل دخول أبناء اسرائيل أرض الميعاد باسم « بليشم » ، ثم ما لبثت أن صارت من نصيب أبناء « دان » فسموها « لشم دان » حسبما نقرأ ذلك فى يوشع(٨) : « وخرج تخم بنى دان منهم ، وصعد بنو دان وحاربوا لشم ، وأخذوها وضربوها بحد السيف ، وملكوها ويكنوها ، ودعوا لشم دان ، كاسم دان أبيهم » ٠

ثم سميت هذه المدينة فيما بعد باسم « قيصرية فيلبى » لأن فيليب التراشى بن هيرود الكبير زاد فيها تمجيدا لتيبيريوس قيصر ، كما اشتهرت بفضل ما شيده فيها من العمـــائر الرائعـــة ، ومن ثم فان شطرا من اسمها يشير الى « قيصر ، أما الشطر الآخـــر فمنسوب الى ذلك الرجل الذى زاد فى رقعتها ٠

* * *

زحفت الجيوش المتحـــالفة نحو هذه المدينة التى ما كادوا يدخلونها يوم أول مايو حتى فرضوا عليها الحصـــار من كـل النواحى ، ووضع « أنر » جيوشه فى ناحية بالجانب الشرقى منها تقع بين المدينة والغابات فى بقعة يسمونها « كوها جار » وأما قوات الملك فقد رابطت فى الناحية الغربية تجاه المزارع الفسيحة ، فأدى وضع القوات على هذه الصورة المحيطة بالمدينة الى منع أى أحد من الوصول الى من بداخلها ، كما حالوا دون خروج أحد منها ، وزيادة على ذلك فقد اقتضتهم الحكمـــة أن يبعثوا الرســـل الى « ريموند » أمير أنطاكية والى كونت طرابلس لدعوتهما للمشاركة فى الحصار الذى بدأ حالا ، وقد تم ذلك باتفاق عام فبعثوا الرسل اليهما فى الحـــال ٠

شدد الصليبيون فى هذه الأثناء الحصار بلا هوادة ، يعاونهم حلفاؤهم(٩) الدماشقة الذين لا يقلون عنهم حماسة والذين كانوا على

الدوام على استعداد للقتال اليومى ، وأخذوا يقذفون من آلات الرمى المسماة بالبطاريات أحجارا ثقيلة الوزن زلزلت الأسوار ودكت المبانى القائمة داخل المدينة ذاتها ، كما أخذت السهام والنبال تنهال كصيب لا ينقطع على أهالى البلد المنهوكين بصورة أصبح من المستحيل معها أن يوجد أى مكان آمن وراء الأسوار ، حتى ان المدافعين أنفسهم – رغم حماية المتاريس والسور لهم أثناء رميهم الأحجار أو جذبهم أقواسهم – كانوا قل أن يجرؤوا على التطلع بالنظر الى المهاجمين فى الخارج ٠

وكان منظرا عجيبا ومشهدا لم تر العين مثيلا له من قبل أن يقوم خصم بتشجيع عدوه على تسعير أوار الحرب ، وأن يمضى مدججا بالسلاح ليكون حليفا لعدوه لتدمير العدو المشترك ، كذلك لم يكن أحد قادرا على أن يقول أى الحليفين كان أكثر استبسالا من الآخر ضد العدو المشترك ، وأيهما كان أشرس فى الهجوم أو أكثر صبرا على تحمل عبء المعركة فقد تساوى الصليبيون والدماشقة فى الشجاعة ، واتحدوا معا لتحقيق هدف واحد ، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا على حد سواء فى التدريب ولا فى استعمال السلاح ، الا أن تلهف الدماشقة فى الاضرار بالعدو الذى هو من جنسهم جعلهم لا يذعنون ، وعلى الرغم من أن المحاصرين أرهقتهم الهجمات التى لا تنقطع ، وأثقل كاهلهم عبء العمل وضخامته الا أنهم ما زالوا يقاومون المقاومة الشديدة ولا يقصرون فى بذل كل جهد للذب عن حريمهم وأبنائهم ، وفوق كل شىء عن حريتهم ، وزاد ضغط الأهوال عليهم من ابداعهم ، فلم يدعوا طريقا للمقاومة الا سلكوه ، واستمروا على ذلك فترة طويلة من الوقت جعلت الصليبيين يوقنون فى آخر الأمر ألا سبيل لكسب شىء ما لم يبنوا برجا خشبيا ثم يحركونه ويلصقونه بالأسوار ، ثم يعتلونه فيقاتلون المحصورين ، غير أن الناحية كلها لم تسعفهم بالمادة الملائمة لصنع

مثل هذا البرج ، وحينذاك كلف « أنر » بعض رجال من عنده بالمضى الى دمشق فى طلب الواح كبيرة الحجم كانت مكدسة هناك منذ زمن بعيد لمثل هذا الغرض ، وأمرهم بانجاز مهمتهم هذه على وجـــه السرعة والعودة على عجل ٠

(١٠)

وصل لحظتئذ أمير انطاكية وكونت طرابلس تلبية لرسلنا الذين استدعوهما ، فقدما ومعهما ـ كما أملنا ـ عدد كبير من المقاتلين الأشداء الذين انضموا الى معسكرنا ، فضاعف مجيئهم حـــزن المحصورين الذين بدوا وكأنهم فقدوا الأمل فى الصمود ، اذ كان القادمون الجدد حريصين كل الحرص على اظهار باسهم ، فراح البعض منهم ينافس البعض الآخر منافسة حادة ، واذ كانوا يتطلعون الى الثناء والمجد فقد قسموا أنفسهم الى جماعات منفصل بعضها عن البعض ، وهاجموا المدينة فى شدة ترتب عليها مضاعفة جزع المحصورين واستيلاء الشك عليهم فى قدرة عسكرهم على حمايتهم بينما تزايد ـ من ناحية أخرى ـ ايمان المتحالفين باحرازهم النصر فازدادوا بأسا على بأس وشجاعة على شجاعة ، وأخذ مللهـــم يتلاشى يوما بعد يوم حتى وجدوا أنفسهم أخيرا أقوى على الهجوم عما كانوا عليه من قبل ٠

❊ ❊ ❊

بينما كانت هذه الأحداث تجرى أمام « بانياس » اذا بالرجال الذين أرسلوهم الى دمشق يعودون من غير تريث ولا تأخير بألواح كثيرة من الخشب من كل حجم وقوة يحتاجها العمل ، وسـرعان ما بدأ النجارون والفعلة فى ضمها بعضــــها الى بعض وتثبيتهـــا بالمسامير الحديدية تثبيتا متينا ، وسرعان ما قامت عندهم آلـــة

عظيمة الارتفاع يساعد أعلاها على استكشاف كل أرجاء المدينة ، وأخذوا يرمون من فوقها بالسهام والنبال وشتى صنوف القذائف ، وحالت الأحجار التى كانوا يقذفونها باليد دون تمكن الدافعين من التقدم ٠

ولما أصبحت هذه الآلة جاهزة للعمل نصبت على الجدار بعد أن سويت الأرض التى بينها وبين الأسوار ، وكان يخيل للناظر اليها ــ وهى تشرف على المدينة كلها ــ كأنها برج أقيم فجأة وسط الموقع ذاتــه ٠

حينذاك أصبح موقف المحصـــورين لأول مرة موقفا لا يمكن احتماله ، ففروا الى أقصى مكان يستطيعون الفرار اليه ، الا أنــه كان من المستحيل استنباط أى علاج ضد ما يلقيه باستمرار هذا البرج المتحرك من وابل هتان من الأحجار والقذائف ، يضاف الى ذلك أنه لم يكن يوجد داخل المدينة أى مكان آمن للمرضى والجرحى ، ولا لأولئك الذين لازال فيهم من القوة والنشاط ما يساعدهم على التضحية بأنفسهم دفاعا عن الآخرين ، فلم يجدوا مكانا ينسحبون اليه التماسا لشىء من الراحة بعد الجهود الشاقة التى بذلوها ٠

زد على ذلك أنه حيل بينهم وبين التقدم أو الارتداد الى الخلف لوجود المتاريس،وأصبحوا عاجزين عن مد يدالمساعدةلاخوانهمالذين يتساقطون ، لأنهم ان فعلوا ذلك عرضوا أنفسهم للهلاك ، ولم تكن الأسلحة ولا أساليب الهجوم التى يستعملها المحاربون الموجودون فى الداخل ذات جدوى تذكر أمام ما يتعرضون له من الأخطـــار الجمة على أيدى المقاتلين الموجودين فى البرج ، والحق أن القتال لاح وكأنه معركة ضد الآلهة أكثر مما يكون بين البشر ، وكان زنكى قد وعدهم ــ وكان صادقا مخلصا فى وعده ــ بأنه ســوف يهب

لنجدتهم ، فصدقوا ما وعدهم به منذ أن قاله ، أما الآن فقد تلاشى كل أمل لهم فى الدفاع عن أنفسهم فى ظل هذا الخطر الموشك على الالمام بهم ٠

(١١)

حدث فى أثناء هذه الحملة أن قدم الى صيداء رســـول من كنيسة رومة هو « ألبيريكوس » أسقف « أوستيا » الفرنسى المولد من أسقفية « بوفيه » ، وقد أوفده البابا فى مهمة خاصة لتقصى حقيقة خبر النزاع الناشب فى كنيسة أنطاكية بين قداسة البطرك وبين أتباعه ، ذلك أنه حدث قبل ذلك بفترة قصيرة أن بعث البابا الى سورية بالرجل الطاهر الذيل «بطرس» رئيس أساقفة «ليون» رسولا خاصا من قبله لبحث هذا النزاع بالذات ، غير أن المنية وافته فلم ينجز المهمة التى عهـــد اليه القيـــام بها ، ومن ثـــم فقد اختير « ألبيريكوس » ليحل محله ، وكان بطرس رئيس الأساقفة الموقر موكلا بوضع خاتمة مناسبة لهذا الصراع حسبما نقص خبر ذلك فيما بعد ٠

فلما عرف الأسقف « البيريكوس » أن الجيش الصليبى مشغول بأكمله فى حصـــار « بانياس » ، وأن « وليم » بطرك بيت المقدس « وفولشر » رئيس أساقفة صور وغيرهما من أمراء المملكة موجودون فى مكان الحصار مضى الى « بانياس » على جناح السرعة ، وأدت معونة هذا الرجل الحكيم ومشاركة السلطة الرسولية فى الأمر الى زيادة حماسة الصليبيين لمواصلة القتال رغم أنهم لم يتراخوا فيه أصلا بل كانوا يؤدونه على أكفأ وجه ، غير أن كلمات «ألبيريكوس» المشجعة ضاعفت من قوة هجومهم على البلد ٠

فى هذه الأثناء كان الرجال الذين ندبوا للعمل عند الآلات لا يكفون عن الضغط على المحصورين فى شدة لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، فلم يتيحوا لهم لحظة من الراحة يلتقطون فيها أنفاسهم وضاعف من بلواهم المستمرة ذعرهم وتوقعهم الهلاك بسبب ما هم فيه الآن ، هذا الى جانب استمرار النقص فى أعدادهم فقد هلك بعضهم بالسيف ، وأثخنت البعض الآخر جراحهم المميتة ، وفر غير هؤلاء وهؤلاء بسبب ما حاق بهم من ارهاق مضن أعجز المدافعين عن الاستمرار فى دفع الهجمات المتتالية كما كانوا يدفعونها من قبل •

كان « أنر » حاكم دمشق والقائد العام للجيش رجلا صادق الفراسة شديد الالتزام بتنفيذ بنود الاتفاق معنا ، وكان يدرك ما فيه الخصم من مرارة ، ويعرف أيضا أن « الابتلاء كثيرا ما يحمل المبتلى به على أن يستمع لكل ناعق ، ويدرك أن التعاسة المتزايدة قادرة على أن تحمل ضحاياها على الرضوخ لأقسى الشروط»ومن‌ثم فانه وضع هذا القول موضع الاختبار فبعث فى الخفاء رهطا من اتباعه يدعون الناس الى الاستسلام للابقاء على أرواحهم ، فاستنكر القوم بادىء ذى بدء هذه الفكرة واستهجنوها ونبذوها ظهريا ، وقالوا انهم قادرون على الثبات على ماهم فيه زمنا أطول ، فبدوا وكأنهم لا يزالون يأملون أن تطول المقاومة من جانبهم ، غير أنهم قبلوا العرض المقدم اليهم بعد طول تمعن واستقراء ، الا أن واليهم(١٠) (وكان رجلا شديد البأس من علية القوم وينعتونه بالأمير) خاف أن تؤول حاله الى الفقر ، فأضاف شرطا الى العروض المقدمة ، اذ سألهم أن يعوضوه تعويضا نقديا ترك أمر تقديره لحكمة عادل منهم ان هو سلمهم المدينة ، ذلك لأنه رأى أنه من المشين المخجل لرجل عظيم القدر مثله كان فى السابق حاكما لمدينة كبيرة أن يخرج من كل أملاكه الموروثة ويضطر لمد يده

للاستجداء ، وبدا لأنر أن الحق كل الحق فيما التمسه حاكم «بانياس» ومن ثم أصر على وجوب الاستجابة لما التمسه ، لأنه كان معتزما عزما اكيدا على وضع المدينة تحت حكمنا بأسرع ما يمكن ، وعلى هذا الأساس تم وضع الشرط التالى : وهو أن يخصص لأمير « بانياس » دخل سنوى يتفق على مقداره بينه وبينهم ، ويدفع اليه من دخل الحمامات وبساتين الفاكهة ، وأن يؤذن للاهالى بالخروج بكل متاعهم ان هم أرادوا الخروج ، أما من يؤثرون البقاء هناك أو فى ممتلكاتهم سواء ما كان منها داخل المدينة أو فى الريف ، وسواء أكانت هذه الاقامة دائمة أو مؤقتة ، ولم يشاءوا مكانا غيرها فقد وعدهم بملكية هادئة وفق شروط طيبة حينما يتم أخذ اليمين » ٠

رحب الملك وبقية الصليبيين بهذا الاتفاق ، واستعد الأهالى(١١) كلهم لتسليم المكان من غير توان ، فلما رأى « أنر » أن المفاوضات قد بلغت غاية المرتجى ، وأن الأمر قد حسم من كل نواحيه بادر فوضع امام الملك والبطرك والأمير والكونت جميع الحقائق بطريقة ودية ، وشرح لهم بالتفصيل كل دقائق المفاوضات التى أجراها فى السر ، وحثهم بكل ما أوتى من ذلاقة اللسان على الموافقة على الاتفاق ، وحملهم احترامهم لفطنة هذا الرجل وصدق اخلاصه على قبول الشروط ، وأظهروا استعدادهم لموافقته ، ووعدوه أن يوفوا له بكل ما يقتضيه الواجب وفقا للاجراءات التى اتخذها ٠

ولما استسلمت المدينة أذن لأهلها بالرحيل عنها بحريمهم وأبنائهم وبكل ما ملكت أيديهم من غير مضايقة ، فمضوا الى الناحية التى اختاروها(١٢) ٠

ما كادت المدينة تصبح فى قبضة الصليبيين حتى اختاروا أسقفا لها هو « ادم » رئيس أساقفة عكا ، وقد تم هذا الاختيار

باشارة من البطرك وموافقة ورضاء « فولشر » رئيس أساقفة صور الذى كانت تتبعه كنيسة «بانياس» ، وتدخل فى طاعته باعتبـــاره المطران ، وعهدوا الى « آدم » هذا بالقيام بأداء الطقوس الدينية للمؤمنين الذين يريدون الاقامة بالمدينة ٠

أما السلطة الادارية فقد ردوها الى من كانت قد اغتصبت منه منذ سنوات قلائل وأعنى به « رينيه بروس » واذ ذاك أســـرع الملك وبصحبته أمير أنطاكية والبطرك والمندوب البابوى الى بيت المقدس لأداء صلاة الشكر وتقديم القرابين الجليلة للرب ، ثم بقى الأمير مقيما هنا بضعة أيام لأداء الشعائر المعتادة ، حتى اذا فرغ منها قفل راجعا الى امارته ، لكنه حاول قبل رحيله ان يلفت أنظار المندوب البابوى الى بطرك مدينته مؤكدا له تمام ثقته فى معاونتـه الشخصية ، وتمنى منه ألا يتأخر عن زيارة أنطاكية ٠

وكان النائب البابوى قد وفـد كما قلنا للنظر فيما رمى به البطرك من تهم اتهمه بها نفر من كبار أتباع كنيسته ، فجاء الرسول البابوى عساه يصل بالموضوع الى خاتمة ملائمة ٠

والآن حان الوقت لشرح ما كان قد قيل فى شأن هذا البطرك، غير أن فهم ذلك يتطلب منا أن نرجع قليلا الى الوراء فى عرض هذه القضـــية ٠

(١٢)

حينما جاء سمو الأمير « ريموند » الى أنطاكية لأول مرة بل وحتى قبل أن تزف اليه عروسه المختارة ، ورغبة منه فى وضـــع خاتمة طيبة لهذه الرغبة فانه قطع على نفسه يمين الولاء والخضوع لرالف الذى كان اذ ذاك رئيسا لكنيسة أنطـــاكية ، اذ وقف بين

يديه واقسم بشرفه اليمين المألوفة بالطاعة له « والا يقدم من الآن فصاعدا على التفكير في القيام بأى عمل أو شيء يمس شـــرف البطرك ، او يؤدى الى هلاكه ، أو يفقده عضوا من أعضاء جسمه،أو ينتهى به الى الأسر الكريه » ، لكنه لم يوف بقسمه هذا ولم يلتزم به ولو لفترة قصيرة ، بل سرعان ما نكث بعهده له ، اذ ما كاد يتم قرانه بالأميرة « أليس » ابنة « بوهيموند » وما كاد يجمع فى كفه شئون الامارة كلها بفضل سعى البطرك وجهوده حتى انقلب عليه ووثق عرى ارتباطه بخصوم البطرك ، وشجب يمين الولاء الذى كان قد أقسمه له ، فمد يد العون لخصوم « رالــــف » ووقف الى جانبهم ، ولم يبخل عليهم بالمشورة الضارة التى يترتب عليها انزال الأذى بالبطرك الذى استمر أعداؤه يدبرون الخطط المعادية له فى قوة وجرأة أشد من ذى قبل ، حتى لقد ذهبوا الى رومة بتأييد من حليفهم القوى « ريموند » ٠

وكان أعداء البطرك رالف يتمثلون فى « لامبرت » أحد كبار شمامسة تلك الكنيسة ذاتها ، وهو وان يكن رجلا كريم الخلق وعلى جانب كبير من الثقافة الا أنه كان قليل الخبرة بالأمور المدنية ان لم يكن معدومها كما كان من خصومه أيضا « أرنولف » وكان رجـــلا متعلما رفيع المكانة ، بارعا فى معالجة الأمور والمشاكل الدنيوية ، وهو من مواليد « كلابريا » ٠

واستطاع هذان الرجلان بفضل عطف الأمير عليهما وتأييده لهما ان يرحلا الى رومة لرفع شكواهما الى البابا الذى ذهب اليه أيضا البطرك « رالف » ، وان كان ذهابه هذا رغم أنفه ، فقد أجبره الأمير عليه ٠

ورتبت الأمور على أن يسبقهم « أرنولف » سالكا اقصر الطرق الى صقلية حيث اتصل بأصدقائه وذوى قرباه هناك ، لأنه كان من

مواطنى « كلابريا » ، كما أصبح فيما بعد أسقف كنيسة «كوسنزا» اذ كان كما قلنا رجلا رفيع المكانة جدا ، ثم مضى « أرنولف » الى روجر الذى كان يعرفه تمام المعرفة ، وقال له :

« أيها الأمير الجليل : لقد تحقق رجاؤك فوقع فى يدك من غير أن تبذل المال ذلك الرجل النكرة الذى قام عدوك (أى رالف) الكاره لك فتحدى القانون اذ ولاه أمر أنطاكية فحرمك وحرم ذريتك من بعدك من حكمها ، ولقد شاء الرب أن يسلم اليك بطرك أنطاكية الذى جاءت به الى هنا خطاياه ، ألا فاغضب لنفسك أيها الأمير وتدبر أحسن الطـرق للقبض عليه ، وكن واثقا أنك ســتكون من خلاله قادرا على أن تستعيد ارثك الشرعى الذى حرمك منـــه هذا الرجل فظلمك » •

وآتت هذه الكلمات أثرها فى دوق « أبوليا » الذى كان رجلا ذكيا داهية ، فأمر أن تنصب فى الحال الكمائن لتصـــيد البطرك (رالف) وأن تراعى السرية التامة فى نصبها فى جميع المـــدن الساحلية ، حتى اذا وصل البطرك الى واحدة منها أمسكوه وقيدوه بالسلاسل وأرسلوه فى لحظته الى صقلية •

ما كاد « رالف » البطرك يرسو فى « برنديزى » بعد رحلة موفقة وهو لا يدرى شيئا مما دبر له فى الخفاء حتى نفذ القـــوم توجيهات الدوق « روجر » ، فاستولوا على ما جلبه البطرك معــه من الأمتعة ، وشردوا حاشيته التى رافقته باعتباره أميرا ، ثــم قيدوه هو ذاته وأسلموه الى « أرنولف » ليذهب به الى صــقلية ليحاكم أمام الدوق ، وهكذا واتت الفرصة أرنولف لأول مرة ليتمكن من صب حقده علانية على مضطرده اللئيم « رالف » ، وأن ينتقم منه انتقاما كال له فيه الصاع صاعين لقاء كل المصاعب التى لقيها منه •

وجيء اخيرا بالبطرك « رالف » أمام الدوق « روجر » ، ودار بين الاثنين حديث ودى ، ولما كان « رالف » رجلا رصينا ، جميل المنظر ، ذلق اللسان اذا تحدث ، فقد استطاع أن يسترد فى النهاية كل ما كان قد فقده ، وان كان استرداده اياه حسب شروط معينة ، كما ردوا عليه أتباعه ووعد هو من جانبه أن يعرج على الدوق فى أوبته لزيارته مرة أخرى ، واذ ذاك احتفوا بوداعه احتفاء بالغا ، فتابع هو رحلته الى رومة التى ما أن بلغها حتى وجد فى بادىء الأمر صعوبة فى الحصول على اذن له لمقابلة البابا والتحدث اليه ، اذ كانوا يعدونه فى رومة مناوئا للكنيسة ، وأنه أراد تحجيم مكانة الكرسى الرسولى ، وأنه حاول التطاول على حقوقه بايجاده كرسيا منافسا له وادعائه أن هذا مكافىء لكرسى بابا رومة ، وهكذا كان (رالف) متهما بجريمة الاجتراء على الذات البابوية ، فرفضوا أن يدخل القصر الطاهر وأن يحظى بالحديث الى البابا ٠

كان البابا وجميع رجال الكنيسة حريصين أشد الحرص على اغتنام كل فرصة تلوح لهم لتعقيد الأمور أمام البطرك ، على حين أظهروا منتهى الود نحو خصومه ، وكانوا ينظرون اليه فى الواقع بعين الريبة والشك ، لأنه كان رجلا ثريا عالى المكانة ، وأنــــه يرفض اعتبار كنيسة أنطاكية التى يرأسها خاضعة لكنيسة رومة ، بل لقد ذهب عكس ذلك فعدها(١٣) مساوية من كل الوجوه لكنيسة رومة قائلا : « لئن كانت كل منهما كنيسة بطرس الا أن كنيســـة أنطاكية تميزت بميزة الوليد البكر » ، لذلك لم يدع الجميع وسيلة يزعجونه بها الا حاولوها ٠

على أن جماعة من الوسطاء من أصـــدقاء الطرفين تدخلوا لصالح « رالف » وفتحوا الباب المغلق أمامه حتى استطاع بفضل

مناصبهم الرفيعة أن يحظى بالمثول فى حضـــرة البابا فى احتفال مهيب وهو فى وسط حاشيته ، كما تم استقباله فى حفل رائع ، وبعد ظهوره عدة مرات فى مجمع الكرادلة برياسة البابا اغتنم خصومه فرصتهم وجرموه علانية على رؤوس الأشهاد ، واستعرضت التهم المنسوبة اليه ، واتخذت الاجراءات القانونية الأولية للنظر فيهـــا لمحاكمته ٠

غير أنه كان من المعروف تماما لكل رجال المحكمة أن الذين رموه بهذه التهم لم يكونوا قادرين تماما على اقناع البابا ومعاونيه بصحة تلك الاتهامات ، ومن ثم فقد اقترح البعض أن يركن الجانبان الى ضبط النفس حتى يرسل البابا واحدا من جهته الى أنطاكيـــة ليحصل على الشهود ، ويجمع البراهين التى تجلى غوامض هذه القضية وتظهر حقيقتها ٠

وحدث فى هذه الأثناء أن خلع البطرك الطيلسان الذى كان قد أخذه بحق مكانته من مذبح الكنيسة بأنطاكية على الرغم ممـــا قيل ان ذلك من حق الكرسى الرسولى ، ثم ناوله للكرادلة ، وحينذاك أخذ رئيس الشمامسة طيلســـانا آخر من فوق جثمـــان بطرس الطوبانى ، وأخلع على البطرك بالأسلوب المعتاد ٠

وأقام البطرك فى رومة فترة اقتضتها مشاغله ، فلما فرغ منها استأذن فى السفر فأذن له بكل العطف والأمان ، وعاد الى صقلية حيث استقبله الدوق استقبالا كريما ، ودار بين الاثنين حديث حول كثير من القضايا المهمة ، ثم جهزه الدوق أخيرا بعدد كاف من السفن للرحلة ، فأقام حتى اذا كانت الريح رخاء أفرد الشـــراع وأبحر الى سورية حيث أرسى عند المكان الذى يعرف عادة باسم السويدية(١٤) والذى يبعد عن أنطاكية بما يقرب من عشرة أميال عند مصب نهر العاص الذى يجرى فى تلك المدينة ٠

(١٤)

حالما بلغ قداسة البطرك اقليم سورية كما قلنا وأصبح قريبا من مدينته كتب الى رجال كنيسته راغبا أن يخرجوا فى يوم حدده لهم لمقابلته فى موكب مهيب وفى مكان معين خارج المدينة ، وكان رجاله على علم تام بما يضمره له الأمير من كراهية سوداء يلاحقه بها لتجاهله يمين الولاء التى كان قد أقسمها له ، ومن ثم فانهـــم رفضوا الاستجابة لسؤال البطرك رفضا تاما وعصوه فيما أراده استجلابا منهم لعطف الأمير (ريموند) عليهم ، بل ان خوفهم من بطش الأمير بهم حملهم على منع البطرك من دخول المدينة ، فلما رأى (رالف) لؤم رجال كهنوته والمكانة المنبوذة التى وضعه فيها من كان يتوقع منهم أن يعاملوه غير هذه المعاملة ، ولما أدرك أيضا مدى غضب الأمير العنيف عليه انسحب الى المنطقة الجبلية القريبة من البلد (١٥) • والمعروفة عند الناس باسم « الجبل الأسود » ، وظل مقيما هناك ردحا من الوقت كان يتنقل فيه بين الأديرة التى تكثر فى تلك الناحية ، وكان يطمع أن يستدعوه للرجوع الى المدينة عندما تهدأ ثورة الأمير وأتباعه من رجال الدين عليه ويحل مكانـه الشعور الطيب •

غير أن الأمير تمادى فى اظهـــار عدائـــه له أكثر عن ذى قبل(١٦) ، وراح يصرح بهذا العداء علانية وعلى رؤوس الأشهاد ، لاسيما حين بعث اليه « أرنولف » من صقلية بخبر زاد من اضرام كراهيتـــه له ، اذ كتب « آرنولف » الى الأمير يخبره أن البطرك تحالف سرا مع الدوق « روجر » ، ودلل له على صدق ما يقول بأن زعم له أن الدوق أغرق البطرك بالهدايا وخصه بآيات الشرف فى عودته عن طريق صقلية ، وجهزه بالسفن اللازمة له فى سفرته •

وطبيعى أن تحمل هذه الأمور كلها الأمير على الاعتقاد بصحة هذا الخبر ٠

* * *

بينما كان البطرك موجودا فى الأماكن التى أشرنا اليها جاءه ممثلون خصوصيون من جوسلين كونت الرها الذى كان يضمر الكراهية الشديدة للأمير ريموند ويعطف عطفا كبيرا على البطرك ، يحملون اليه دعوة خاصة عاجلة يسأله فيها الكونت أن يحضر اليه هو وجميع من معه ، مؤكدا له أنه سيكون آمن السرب سالما كل السلامة فى هذه الزيارة ، ذلك لأن كبار رجال الدين فى هذه الامارة (وهم رؤساء أسقفيات الرها وكورتييوم وهيرابوليس) يقفون الى جانبه ويؤيدون دعواه ، وهم صادقون فى توقيرهم له باعتباره رئيسهم وأباهم ، فانشرح صدر البطرك بهذه الدعوة وسافر الى هناك حيث استقبله رجال الدين بها استقبالا كريما ، وأوفى الكونت جوسلين أيضا بعهده ، وسره أن يرحب بمقدمه ترحيبا لحمته الحب وسداه الاخلاص له ٠

ونجحت وساطة أصدقاء الطرفين فى حمل أمير انطاكية « ريموند » على اعادة عطفه على البطرك ، لكن ذلك كان مجرد عبارات تنطق بها الشفاه وليست نابعة من القلب ، اذ يقال انه لم يفعل ما فعل الا لاعتبارات مالية ، مخفيا البواعث الحقيقية الكامنة وراء الكلمات المعسولة ، فقد أرسل الى البطرك على يد مبعوثيه دعوة ودية يدعوه فيها للعودة الى المدينة واستئناف مهام وظيفته ٠

فلما تسلم البطرك هذه الرسالة استعد للعودة فى الحال مستصحبا معه أساقفة تلك الامارة الذين قام الدليل البين على

وفائهم له فى محنته ، ورجع الى أنطاكية ، ولم يقتصر الأمر على أن يلقاه جميع رجال الدين والشعب فحسب بل خف أيضا لاستقباله الأمير (ريموند) بنفسه على رأس رهط من أتباعه الفرسان ، وساروا به فى احتفال مهيب وهو فى مسوحه الكهنوتية الى المدينة وسط التراتيل والأناشيد الدينية ، ثم دخلوا به الكنيسة الكبرى ومنها الى قصره الخاص ·

(١٥)

قدم فى هذه الأثناء الى سورية « بطرس » رئيس أساقفة « ليون » وأرسى بعكا مبعوثا من قبل البابا انوسنت كمندوب لكنيسة رومة رجاء التوصل الى خاتمة طيبة فى قضية البطرك ، وكان « بطرس » هذا برجندى المولد ، طاهر الذيل ، بسيطا ، يخشى الرب، ولكنه كان شيخا هرما طاعنا فى السن ، وما كاد يصل الى سورية حتى مضى الى بيت المقدس للصلاة ، ثم غادرها الى أنطاكية استجابة للدعوة الملحة التى وجهها اليه «لامبرت» وأرنولف للاسراع الى هناك ليضع نهاية للمشكلة ، فغادر القدس ورجع سالكا أقصر الطرق الى عكا ، لكنه ما كاد يسير قليلا حتى باغته مرض خطير ألح عليه وأفضى الى موته ، فانطلقت الشائعات تقول انه مات بسم دسوه له فى شرابه ، فران اليأس على نفوس خصوم البطرك الذين كانوا قد أسرعوا الى أنطاكية ، وكان مرجع حزنهم أنهم حرموا كليا من المساعدة التى كانوا ينشدونها من وراء قدوم المندوب البابوى ، ولما كانت الرحلة قد انهكتهم ، وكذلك المشاق التى تحملوها طويلا فانهم راحوا يلتمسون اقرار السلام عن طريق وسطاء أيقنوا أنهم خير من يصلح لهذه المهمة ، وصرحوا باستعدادهم لشجب الاتهامات التى كالوها للبطرك واعلان طاعتهم له ، وتوسلوا أن تعاد اليهم وظائفهم ورواتبهم ، فردت على « لامبرت » وظيفته

كرثيس شمامسة ، أما « أرنولف » فلم يجد راحما يرحمه ويرق له ، ومن ثم راح يعتمد على عون الأمير له ، وتهيأ بشجاعته المألوفة لأن يتحمل مشاق السفر الى رومة ، وأخذ يجدد اتهاماته بداع ومن غير داع ، وتمكن أخيرا بفضل اصراره العنيف من الحصول على قرار يقضى بأن يرسل الى سورية رجل الدين الذى نتكلم عنه الآن الذى وصل الى القدس كما ذكرنا ، حتى اذا فرغ من حجه استدعى البطرك وكل أساقفة البلد الى مجمع يعقد فى أنطاكية فى مستهل ديسمبر ، كما أسرع هو ذاته الى هناك ٠

(١٦)

ولما كان اليوم المحدد للاجتماع وفد الى أنطاكية من أبرشية القدس كل من البطرك « وليم » و « جودنتيوس » رئيس أســـاقفة قيصرية ، «وأنسلم» أسقف بيت لحم كما حضر أيضا المخلص كل الاخلاص لكنيسة رومة « فولشر » رئيس أساقفة صور ، الذى كان المندوب البابوى عاقدا كل أمله عليه فى أن تكلل مهمته بالنجاح ، لأنه كان رجلا سامى النفس ، رصينا أشد الرصانة ، وكان«فولشر» أخذ معه اثنين من كبار أساقفته ، هما : « برنارد » أسقف صيداء و « بلدوين » أسقف بيروت ، وحضر الاجتماع جميع كبار رجال الدين بامارة أنطاكية لأنها كانت أقرب ما تكون اليهم ، ولكن أهواءهم كانت شتى ليست على اتفاق واحد . فكان « ستيفن » رئيس أساقفة طرسوس ، و « جيرارد » أسقف اللاذقية ، و « هيج » أســـقف جبلة يؤيدون الاتهامات الموجهة ضد قداسة البطرك ٠

أما « فرانكو » أســـقف « منبج » و « جيرالد » أســـقف « كوريس »(١٧) ، ومعهما « سيرلو » أسقف « أفامية » فقد صرحوا علانية بحمايتهم له باعتباره البطرك ، وكان الأخير منهم يقف ضده فى بادىء الأمر لكن انتهى الوضع به أخيرا الى تاييده ٠

ثم كان هناك غير هؤلاء وهؤلاء من وقفوا صراحة موقف الحيـاد ٠

***

ولما كان اليوم المحدد اجتمع فى كنيسة أمير الرسل رؤســاء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وهم جميعا فى مسوحهم الدينية حسب العادة المرعية ، وكان على رأسهم جميعـــا مندوب البابا باعتباره ممثله ، وقرىء العهد البابوى عليهم ، فلما تمعنوا جيدا محتواه وفهموا ما تضمنه تمام الفهم وقف أمام الجميع الرجلان اللذان وجها للبطرك الاتهامات وهما « أرنولف » و « لامبيرت » رئيس الشمامسة ، ومع أن ثانيهما كان من قبل شديد الوطأة على البطرك الا أنه تراضى معه ، لكنه مالبث أن انحنى الآن كالقوس ، وعاد مرة أخرى يجرحه ويتهمه ، وشاركهما فى موقفهما هذا كثيرون غيرهما حين تبينوا أن الريح تهب فى غير صالح البطرك ، وحينذاك ظهر صدق المثل الذى قاله « أوفيد » اذ قال : « ان حالفتك الدنيا وعلا نجمك كثر أصحابك ، فان خالفتك الأيام وتجهمت سماؤك انفضوا من حولك ووجدت نفسك وحيدا » ٠

ودخل المدعون قاعة الاجتماع الكبرى وأعلنوا أنه ما دامت وثائق الاتهام قد قدمت فانهم مستعدون لبحثها ومناقشتها مناقشة قانونية ، فان هزموا عوقبوا بما يستحقون ٠

كانت التهم التى اعتمدوا عليها فى ادانة البطرك مدونة فى جزازات ورقية صغيرة ، يتعلق بعضها بتنصيبه بطركا فى مخالفته لنظام الآباء الطاهرين وسننهم ، أما البعض الآخر فكان يتعلق بآثامه وسيمونيته (أى بيعه الوظائف الدينية الكنيسية) ، ولما كان متهمو البطرك قد أصروا على وجوب حضوره شخصيا فقد مضت

الرسل اليه للرد على التهم المنسوبة اليه ، الا انه رفض الحضور رفضا باتا ٠

لذلك لم يتم شىء طوال هذا اليوم الا ما كان من حديث عام وتحذيرات متبادلة كما يحدث عادة فى مثل هذه الاجتماعات ، ثم عادوا للاجتماع ثانية فى اليوم التالى وأخذ كل واحد مكانه حسب مكانته ، واستدعوا البطرك رسميا للمرة الثانية للحضور ، فكان منه فى يومه ما كان منه فى أمسه اذ أبى الحضـــور اباء تاما ٠ وحضر هذه المرة « سيرلو » رئيس أساقفة « أفامية » اجتمـــاع الأساقفة وهو غير مرتد مسوحه الكهنوتية ، اذ لم يكن فى ثيابه البابوية كغيره من الأساقفة ، فلما سأله قداسة النائب البابوى عما يمنعه من مجاراة اخوانه فى زيهم ، ولماذا لم يواصل الاتهام كما فعل من قبل ، رد عليه قائلا : « ان موقفى السابق فى الغض من أبينا لهو شبيه بموقف حام (بن نوح) الملعون الذى جاهــر بفضيحة أبيه ، وقد اتخذت قرارى آنذاك فى لحظة انفعـــال ذميمة أفقدتنى خلاص روحى ، أما الآن فانى استعيذ بالرب وأتوب عن مسلكى الخاطىء ، وسأحاول ألا أتهمه ولا أجترىء عليه فأدينه ، بل على العكس فانى أقف على استعداد للدفاع عن سلامته وأمنه ، حتى الموت » ٠ وحينئذ صدر الأمر اليه بمغادرة القاعة فى لحظته ، كما صدر ضده قرار الحرمان،سواءأكان يستحقهأم لايستحقهوتجريده من وظيفته الدينية والبابوية ، وكان الخوف الشديد من الأمير (ريموند) مسيطرا على الجميع دون استثناء أحد منهم ، وغمز حياد الجانب البابوى ، فلم يسمح لأحد أن يعارض ما تقرر ، وكان الدافــع للأمير على سلوك هذا المسلك المتطرف البعيد عن العقل هو حارس القلعة واسمه « بطرس أرموان » ، وكان رجلا غارقا الى أذنيه فى الخبث طبعا منه ــ اذا ما كاد يتمم خلع البطرك حتى حمل الأمير « ريموند » على أن يحل مكانه ابن أخته هو ذاته ، ألا وهو «بطرس

أيمرى » الذى كان البطرك قد عينه من قبل شماسا فى نفس الكنيسة. فكان البطرك بذلك العمل ساعيا لحتف نفسه بظلفه ، وهو غير عالم بذلك اذ جاءت الخاتمة كما يهوى « بطرس أرموان » ٠

وسواء أكان خلع « سيرلو » قد تم عن حـــق أو كان عملا لا يبرره الشرع ، فانه ترك فى الحال أنطاكية ومضى الى أبرشيته الخاصة ، فلما وصل الى قلعة « حارم » وقد أثقلته همومه خـــر مريضا فحملوه الى فراشه فلم يحتمل غلطاته الجسام وأدار وجهه الى الجدار ولفظ أنفاسه ٠

(١٧)

فلما كان اليوم الثالث انعقد المجمع من جديد ، وحين أخذ رجال الدين مقاعدهم بعثوا الرسل الى البطرك مرة ثالثة يستدعونه بقرار لا يقبل النقض للحضور والرد على التهم الموجهـــة اليه ، فرفض كما فعل من قبل رفضا باتا وأبى أن يستجيب لطلبهم ، ولسنا ندرى على وجه التأكيد أكان مسلكه هذا بوحى من ذاته أم لأنـــه كان يدرك ادراكا تاما أن أعضاء المجمع مجمعون على بكرة أبيهم على اتخاذ قرار معاد له خوفا من بطش الأمير (ريموند) بهم ٠

لكنه ظل رغم ذلك بين جماعته فى قصره الخاص الذى اكتظ بطائفة كبيرة من الفرسان والعامة اذ تجمع أهـــل المدينة كافـــة لمناصرته ، ولولا خشيتهم من بطش الأمير بهـــم لأخرجوا النائب البابوى من البلد على أقبح وجه هو وجميع الذين وافقوا على خلع البطرك ٠

ولما أدرك النائب البابوى أن البطرك لـــن يحضر اليه خرج معتمدا على حماية الأمير القوية ، ومضى بنفسه الى مسكن البطرك

حيث تلا عليه الحكم بخلعه ، وأرغمه بالقوة على خلع الخاتم وارجاع عصا الرعوية ، ثم أمر بتسليمه الى الأمير فأوثقه بمهانة وعامله معاملة شائنة كأنه مجرم سفاح ، ثم بعثوا به الى سـجن بدير القديس سمعان الواقع على جبل شـاهق الارتفـاع مطل على البحر ٠

كان قداسة البطرك « رالف » هذا ــ وقد رأيته بنفسى فى شبابى ــ رجلا طويل القامة وسيما ، فى عينيه شىء من الحول وان لم يبلغ الحد الذى يشوه منظره ويقبحه ، وعلى الرغم من أنه كان على حظ قليل من التعلم الا أنه كان طلق اللسان لطيفا ، عذب الحديث ، وقد أكسبه شلحه من البطركية عطفا كبيرا ليس من جانب الفرسان وحدهم بل وعند العامة أيضا ، غير أنه كان شديد النسيان لعهوده واتفاقياته ، متقلبا فيـما يقول ، مداهنـا يفتـل فى الذروة والغارب ، ومع ذلك فقد كان حذرا متحفظا لم تخنه فطنته غير مرة واحدة فقط حين رفض استقبال خصومه الذين أثارهم بالحنق ضده حينما أرادوا العودة الى حظيرة عطفه ، وكان الناس يصـفونه بالمتعجرف ، وهو وصف لم يجاوزوا فيه الحق ، وكان مغرورا الى أبعد حدود الغرور ، كما نكب بسوء الطالع الذى كان فى استطاعته تجنبه بسهولة لو أنه سلك مسلكا رصينا بعض الشىء ٠ ولقد أخذوه ذات مرة وأوثقوه فى الدير سجينا فطال حبسه ، وبينما كان يتأهب للعودة مات ميتة شنعاء من جرعة سامة دسها له مجرم مجهـول استؤجر لهذا الغرض ، فكان بذلك ماريوس(١٧) جديدا جمع فى شخصه كل ما يبلو به القدر المرء من طيب التقلبات وسـيئها ٠

(١٨)

بعد أن خلع المندوب البابوى البطـرك وفرغ من المهمـة التى جاء من أجلها الى أنطاكية عاد الى القدس وظل مقيما به حتى فرغت الاحتفالات بعيد الفصح ، وكان يتشاور خلال اقامته هنا مع كبار رجال الكنيسة ، فلما كان ثالث أيام هذا العيد الطاهر مضى فدشن هيكل السيد بمساعدة بطرك القدس وبعض الأساقفة وتجمع يوم التدشين طائفة ضخمة من كبار الرجال ذوى المكانة الرفيعة ونفر من الأشراف الذين جاءوا من البلاد الواقعة وراء الجبال ومن البلاد المطلة على هذا الجانب من البحر . وكان من بينهم « جوسلين الصغير » كونت الرها الذى كان خلال عيد الفصح المبارك مقيما فى المدينة اقامة تجلت فيها مظاهر الروعة الكبيرة .

ولما انتهى الاحتفال بعث المندوب البابوى فى اســـتدعاء الأساقفة ورؤسائهم وغيرهم من كبار رجال الدين فى الكنيســة ، فعقد ـ ومعه البطرك ـ مجلسا فى كنيسة صهيون الطاهرة ـ أم جميع الكنائس ـ وحضر هذا المجمع « ماكسيموس » أسقف أرمينيا أو بقول أصح رئيس كل أساقفة « كبادوكيا » و « ميديا » وفارس وأرمينيا الصغرى والكبرى ، وكان « ماكســيموس » هذا يعرف بالجاثليق ـ وقد ناقش مع المندوب البابوى مواد العقيدة التى يبدو أن قومه يخالفون فيها شعبنا ، ووعد بالقيام بحركة اصلاح فى كثير من النواحى ، وما كاد العمل يتم فى هذا المجمع على هذه الصورة حتى عاد المندوب البابوى الى مدينة عكا حيث أبحر منها الى رومـة .

* * *

أما رجال الدين فى أنطاكية لاسيما أولئك من كانوا قد تآمروا

على خلع قداسة البطرك « رالف » فقد انتخبوا لكرسى البطركية فى نفس الكنيسة مساعد شماس يدعى « ايمرى »(١٨) ، وقد فعلوا ذلك بتحريض واقتراح من الأمير (ريموند) الذى كان مدفوعا كما قيل – الى حد كبير – بالهدايا التى غمره بها « ايمرى » ٠

وكان « ايمرى » هذا رجلا جاهلا قدما من ولاية « ليموزان » ، ويأخذ نفسه بحياة هى أبعد ما تكون عن الشرف ، فلما أدرك البطرك « رالف » فيه هذه الصفات أراد أن يجعله صنيعة له فرفعه الى مرتبة رئيس الشمامسة فى كنيسته ، لكن خاب ظنه وطاش سهمه اذ يقال ان « ايمرى » ربط نفسه منذ اليوم الأول لتعيينه بخصوم البطرك ، فتآمر معهم على خلعه وهو رب نعمته غير مكترث بما ينبغى عليه من الولاء له ، ويقال فى توليه هذه الوظيفة أن شخصا معينا كان قواما على قلعة أنطاكية واسمه بطرس ويلقب بأرموان ضـــمن له هذه الوظيفة بالحيل والهدايا والتحف السنية التى كان يبذلها لكل من الأمير ورجال الدين فجذب أنظارهم بها الى « ايمرى » الذى كان من ذوى قرباه ٠

(١٩)

فى حوالى هذا الوقت قام يوحنا (الثـــانى) – امبراطور القسطنطينية – للمرة الثانية بجمع قواته وكتائبه ، ووجه حملته وجيوشه نحو سورية ولـــم يكن قد مر على تركه « طرســـوس » بكيليكية كلها أكثر من أربع سنوات ، غير أنه تلقى كثيرا من الكتب من أمير أنطاكية ومن أهلها تحمل اليه التماسا بالمجىء اليهـــم ، فاستجاب لهم وخرج الى أنطاكية فى العدد الكبير ، ومعه الخيل والعربات والأموال التى لا يحصيها العد ٠

وابحر « يوحنا » عبر البسفور المعروف بأنه الحد الفاصـــل بين أوربة وآسيا،واجتاز ما وراءه من البلاد حتى وصل الى«أضاليا» عاصمة « بامفيليا » وهى من المدن الساحلية الكبرى ، وبينما كان موجودا فى هذا المكان أصيب اثنان من أولاده هما « أليكسيوس » الذى كان أكبرهم و « أندرونيكوس » الأصغر منه بمرض شـــديد، أفضى الى موتهما ، فاستدعى الامبراطور فى الحـــال اليه ابنه الثالث « اسحق » وكلفه بالرجوع الى القسطنطينية بجثمانى أخويه لأداء ما تقضـــى به الانســـانية من واجبـــات الاحترام الأخيرة للجثتين(١٩) وتشييعهما الى مثواهما الأخير بما يليق بهما من العظمة الامبراطورية ، فلما انتهت مراسم الجنازة ظل اسحق ـ كما أشار عليه أبوه ـ مقيما فى القسطنطينية حتى جـاءه نبأ وفـــاة الامبراطور ·

ثم استصحب الامبراطور بعدئذ أصغر أبنائه « مانويل » وتابع رحلته عبر « ايسوريا » فى اقليم « كيليكية » التى عبرها بسرعة فائقة ، ولم يعلم الناس بخبر زحفه حتى كان قد اقتحم أرض كونت الرها وعسكر أمام « تل باشر » قبل أن يصل النذير الى أهلهـــا بقدومه ، وكانت قلعة تل باشر هذه قلعة غنية جدا وتقع على بعـــد أربعة وعشرين ميلا أو أكثر قليلا من الفرات ·

ما كاد الامبراطور يصل الى هناك حتى طلـــب الرهائن من كونت « جوسلين » الأصغر الذى استبدت الدهشة به والاستغراب من ظهور الامبراطور المباغت ، فلما رأى هذا الجيش العرمرم الذى يبدو وكأن ليس هناك من مملكة على وجه الأرض بقادرة على صده ، وبالنظر الى أنه هو نفسه لم يكن مستعدا ولا قادرا على مقاومته فقد خضع للضرورة ، وبعث باحدى بناته واســـمها « ايزابيلا » رهينة عند الامبراطور الذى كان السبب الوحيد الذى حمله على

طلبها رهينة عنده هو أن يربط الكونت به ربطا وثيقا ويحمله على تنفيذ أوامره ، ثم تعجل فزحف على أنطاكية ، حتى اذا كان الخامس والعشرون من شهر سبتمبر (سنة ١١٤٢) ضرب معسكره قرب بلدة معينة اسمها « جاستن »(٢٠) حيث أرسل الكتب الى أمير أنطاكية يطالبه فيها ــ بناء على الاتفاق المبرم بينهما من قبل ــ أن يسلم اليه المدينة بقلعتها وجميع حصونها ، لايستثنى من ذلك شيئا حتى يكون قادرا على شن الحرب على مدن العدو المجاورة من أقرب قاعدة مناسبة ، على أنه أوضح استعداده للوفاء بشروط الاتفاقية المعقودة بينهما بقدر ما فى طاقته ، وبالاضافة الى ذلك فانه مستعد لزيادة جهده تبعا لطبيعة الشروط ٠

(٢٠)

كان ريموند أمير أنطاكية قد بعث قبل هذا الوقت كثيراً من الرسائل الى الامبراطور يدعوه فيها للقدوم الى أنطاكية ، أما الآن فقد وجد نفسه فى موقف صعب ، ولما كان يعرف أنه ملتزم بشروط الاتفاق فقد تحير فيما ينبغى عليه عمله ، ومن ثم جمع اليه كبار رجال المدينة وسراتها ووجوه بقية النواحى ، وسألهم أن يشيروا عليه بما ينبغى عليه عمله فى أزمة خطيرة كتلك الأزمة ، وطال حوارهم حتى أفضى أخيرا ــ بالاجماع ــ الى أنه ليس من الصالح أبدا لبلد عظيم كهذا البلد شديد القوة والمنعة أن يسلم الى الامبراطور (مهما كان نوع الاتفاق) لما يترتب على مثل هذا الاجراء من وقوع البلد ومعه كل الاقليم فى يد العدو بسبب تراخى الاغريق ، وهو أمر تكرر وقوعه من قبل مرارا ٠

ورغبة من القوم فى ألا يوجه الاتهام للأمير ــ وان كان اتهاما حقا ــ بنكث العهد فانهم راحوا يفتشون عن ذريعة يتذرعون بها .

حتى يبدو الأمر ولا غبار عليه فوجدوا انه قيل ان اتفاقا أبرم بين الاثنين خلال زيارة الامبراطور السابقة تعهد فيه الأمير بتسليم المدينة الى الامبراطور يوحنا (الثانى) من غير جدال ولا مناقشة كما تعددت رسائل(٢١) « ريموند » الى الامبراطور بعدئذ يلح عليه فيها بالقدوم الى سورية ، ويعده فيها أن يخلص النية تجاهه ٠

كذلك حدث الرغبة بهؤلاء القوم فى تبرير مسلك مولاهم الأمير الى أن يبعثوا برسل الى الامبراطور يكونون ممن تميزوا عن النظراء من رجالات الامارة ، ومن أعلاهم قدرا ينهونه (نيابة عن بطرس المبارك وعن البطرك والسكان جميعا) عن دخول المدينة ، وعهدوا اليهم أن يفهموه بطلان الاجراءات السابقة التى اتخذها الأمير من جانبه وحده اذ لا يملك الصلاحية التى تخوله عقد اتفاقات من هذا القبيل تتعلق بممتلكات زوجته ، كما أنه لا يحق لها هى الأخرى أن تنقل الحكومة الى أى شخص آخر من غير موافقة الأهالى والسادة الكبار ، كما أنه ليس هناك من أحد فوضهما فى التنازل عن أى جزء من تلك الأراضى ، فان أصر أحدهما أو كلاهما على مثل هذه الخطة أخرج أو أخرجا من المدينة ، وجردا من كل ما يملكان ، ونفيا من البلد ، ونزع ما بايديهما لأن ما يفعلانه اذ ذاك يتضمن أضرارا بليغة تلحق برعاياهما المؤمنين ، ويعتبر ما تم مخالفا للشرع ٠

اشتد غضب الامبراطور حين سماعه هذه الكلمات ، الا أن معرفته العميقة بمشاعر المواطنين وأهل الولايات عامة حملته على أن يصدر أمره الى جيشه بالرجوع الى « كيليكية » تحاشيا لزمهرير الشتاء الذى أصبح على الأبواب ، وحتى يسكون مقيما فى جو ساحلى أكثر ملاءمة ، ذلك لأن هواء الشتاء يكون على الدوام أخف

مما يكون على الساحل ، ويكون الاقليم اكثر ملاءمة للعسكر وأحسن قبولا عندهم ·

(٢١)

أدرك الامبراطور استحالة تحقيق طلبه فى دخول أنطاكية فى الوقت الحاضر ، ومع ذلك فانه كان يطمع أن يتمكن بعد انصرام الشتاء وعودة الربيع اللطيف أن يحقق بعض رغباته فيما يتعلق بهذه المدينة حتى ولو كره أهلها ، لذلك كتم نواياه فى صدره ولم يصرح بها ، ورأى أن خير ما يفعله لاخفاء غرضه الحقيقى هو انفاذ سفارة تتألف من أكبر أعيان رجاله الى « فولك » ملك بيت المقدس تعلن اليه أنه ربما كان من الخير للصليبيين أن يأتى الامبراطور الى هناك للصلاة والتعبد ، وأنه يطيب له أن يمد يد العون لهم جميعا ضد من فى تلك الناحية من الأعداء · فتبادل الملك (فولك) ومستشاروه الرأى فيما عرضه الامبراطور ثم أرسل رده على يد رهط من خاصته ، هم « أنسلم » أسقف بيت لحم ، و « جوفرى » الراهب من جماعة فرسان الهيكل الذى كان يتقن اللسان اليونانى ، و « رود هارد » قيم قلعة بيت المقدس ، وحملهم فولك الرسالة التالية :

« ان أرض المملكة ضيقة كل الضيق فهى لا تستطيع أن توفر من الطعام ما يكفى جيشا كبيرا كهذا الجيش ، كما أنه لا قبل لها باستقبال كل هذا العسكر والا تعرضت لخطر المجاعة الناجمة عن ندرة ضروريات العيش ، ومع ذلك فانه اذا كان يسر جلالته الامبراطورية المحبوب من الله أن يحضر الى المدينة المقدسة على رأس عشرة آلاف رجل لزيارة الأحرام المقدسة ، وأن تجرى الأمور كما يهوى ويحب فسيجد الناس جميعا قد هبوا لاستقباله تغمرهم

الفرحة العارمة به ، وسيرحبون بحضوره فى غبطة شاملة ، ويكونون طوع أمره باعتباره مولاهم وأقوى أمراء الدنيا قاطبة » ٠

❋ ❋ ❋

ثم يجد الامبراطور بعد سماعه هذه الرسالة بدا من سحب اقتراحه ، اذ ليس من اللائق بجلالته الامبراطورية أن يسير فى مثل هذا العدد القليل ، وهو الذى لم يخرج قط الا ومعه الآلاف المؤلفةمن الجند.لذلك فانه أعاد الرسل محملين بالهدايا المترجمة عن حبه ، وسخا عليهم فكان أريحيا سمحا ، ثم مضى بعد ذلك الى « كيليكية » حيث أمضى فصل الشتاء قرب « طرسوس » فى انتظار دخول الربيع ، غير أنه أضمر فى سريرته أن ينجز بالشام فى الصيف التالى من الأعمال ما يستحق الذكر الخالد ٠

وحدث فى هذا الوقت بالتقريب أن قام وجيه اسمه «باجانوس »(٢٢) فشيد قلعة فى اقليم غرب الأردن سماها «المكرك» وكان « باجانوس » هذا يعمل من قبل ساقيا للملك ثم امتلك أرضا فيما وراء الأردن وذلك بعد « رومان دى بوى » وابنه « رالف » (اللذين خلعا بعدئذ مما بأيديهما لأخطائهما ونفيا عنها) ٠ وكانت الطبيعة قد سخت على هذا الموضع بنعمها ، هذا الى جانب ما شيده الناس بأيديهم ، ويقع حصن الكرك(٢٣) هذا قرب مدينة قديمة كانت تسمى من قبل « الربة »(٢٤) وهى عاصمة نفس الاقليم ٠ ونقرأ أنه قد قتل بها « أوريا » البرىء تنفيذا لأمر داود ، ولكن على يد نواب « يؤآب » أثناء حصار ذلك المكان ، ثم سميت فيما بعد بالبتراء الصحراوية ، ولكنها تسمى الآن ببلاد العرب الصغرى أو « البتراء » العربية ٠

(٢٢)

كان امبراطور القسطنطينية شديد الولع بالطراد فى الغابات والأحراج ، فلما كان مستهل الربيع وقبل الموسم الذى اعتاد الملوك أن يخرجوا فيه بعسكرهم الى الحرب مضى الامبراطور الى الغابة يصحبه حرسه الذى ألف صحبته وعدم مفارقته ، وكان خروجه لغرض القنص الذى جرى العرف منذ القديم بالخروج اليه للتغلب على ساعات الملل الرتيبة • انطلق الامبراطور والقوس فى يده وقد أثقله كثرة ما يحمل من السهام ، وبينما هو فى مطاردته الحيوانات البرية بما عرف عنه من شجاعة اذا بخنزير برى يطلع فجأة وقد اثارته الكلاب وأفزعه نباحها الحاد الذى لا ينقطع ، فاندفع الوحش وانطلق أمام المكان الذى يكمن فيه الامبراطور الذى أسرع فالتقط فى خفة عجيبة قوسا وترها بشدة ورمى عنها بسهم فأصاب نصله كف الامبراطور فجرحه جرحا بسيطا لكنه أفضى الى موته ، فقد اشتد وجعه منه وأثبته الجرح فحمله من معه الغابة مرتثا وعادوا به الى المعسكر واستدعوا له عددا من النطاسيين فشرح لهم الخبر وصارحهم أنه هو ذاته سبب هلاك نفسه فقلقوا على حياته وعالجوه بشتى الأدوية ولم يتركوا سبيلا الا سلكوه معه فلم يجد ذلك كله نفعا ، اذ كان السم يسرى فى بدنه وان كان سريانه فى بطء لكن بصورة تلاشى معها كل أمل فى برئه ، وحينذاك أشاروا عليه أن هناك طريقا واحدا لا طريق سواه ربما أفضى الى الابقاء على حياته ألا وهو بتر اليد المصابة التى تركز فيها الخطر الجسيم وذلك قبل أن يسرى السم الى بقية بدنه فيستحيل حينئذ الشفاء •

لكن الامبراطور كان رجلا عنيدا لا يقبل أن يقهر فيستكين ، اذ أنه على الرغم من معاناته الشديدة ويقينه من أن هذا الجرح لابد أن يفضى الى موته الا أنه كان لا يزال محتفظا بكبريائه الامبراطورى

فأبى أن ينزل على نصح الناصحين ، ويقال انه أجابهم بقوله انه ليس من اللائق بمقام العظمة الامبراطورية الرومانية أن يحكم بيد واحدة ٠

وهلع الجيش لهذا الحادث أشد الهلع وخارت عزيمته من جراء هذا الأمر البغيض الذى لم يكن يملك له دفعا ، وأدت وفاة هذا الحاكم العظيم الى اللوعة الشاملة التى اجتاحت الكتائب ووجدت لهـــا مسا أليما ، فعصر الألم الممض كل قلب ، وعم العسكر حزن لم يكن مثله حــزن قط من قبل ٠

(٢٣)

لما كان الامبراطور رجلا حصيفا بعيد النظر فقد أدرك أن يوم رحيله عن الدنيا قريب ، واذ ذاك استدعى اليه ذوى قرباه وأصهاره الذين كان الكثيرون منهم على الدوام بصــــحبته ، كما دعا كبار رجال القصر السامى وقواد الجيش وراح يشـــاورهم فى أمــر خليفته ، وكان هو ذاته فى حيرة بالغة بصــــدد ما ينبغى عليــه اتخاذه : أيعهد بأمور الامبراطورية الى ولده الأكبر « اسحق » الذى كان قد بعث به الى القسطنطينية من « اضاليا » بجثتى شقيقيه(٢٥) والذى كان من حقه اعتلاء العرش بحكم تقدمه فى السن على أخيه ؟ أم تراه يؤثر بالعرش أصغر ولده (مانويل) الذى كان بصحبته والذى كان شابا فيه أمل ما شابهه أمل فيمن كان فى مثل عمره ، وكان الجميع يتوقعون له أن يكون رجلا عظيما ٠

كذلك كان هناك سبب آخر دعا الامبراطور (يوحنا) للتردد وقد أفصح عنه فى ملاحظته التى قال فيها « اننا اذا أعطينــــا الصولجان لهذا الابن (الصغير مانويل) فقد يبدو الأمر وكأننـــا

نفعل ما هو مناقض للقوانين المعمول بها والتى تقضى أن تكون التقدمة للابن الأكبر ، أما اذا نهجنا النهج المعتاد وعهدنا بحكومة الامبراطورية الى « اسحق » فليس بيننا من يقود العسكر سالمين الى ديارهم ، لاسيما وأنهم قوة الامبراطورية وعصـــبها ومعقد مجدها ، والحق الصراح أنه ما كان لهؤلاء العسكر أن يأمنوا على سلامتهم أثناء اجتيازهم الأقاليم الداخلية فى هذه البلاد لأنهـــا كانت غاصة بالأعداء الذين لابد وأن ينصبوا لهم الكمائن وأن يبعثوا فى طلب النجدات من كل النواحى المحيطة بهم » .

وكان من بين كبار رجال البلاط الموجودين حينذاك أمير بارز اسمه « يوحنا البروتوسباستوس » ، سعى ومن معه ممن هم على شاكلته فى الرأى سعيا حثيثا لسوق العرش الى « اسحق » ، مؤكـــدا للامبراطور مخاوفه وشكه فى عودة الجيوش ســـالمة ، هذا على الرغم من أن « مانويل » ـ أصغر أولاد الامبراطور والذى كان فى الحملة مع أبيه ـ كان يحظى بالتأييد الكبير من جانب الجند ومن اللاتين(٢٦) على وجه الخصوص ، كما قام بعض الأمراء بتأييده ، يزكيهم فى هذا التأييد أن أباه (يوحنا) كان يؤثره على غيره بحبه وكان أكثر ميلا اليه لأنه كان أرجح من أخيه عقلا وأكثر قدرة على استعمال السلاح ، بالاضافة الى ما يمتاز به من حسن القبول عند الناس كافة . هذا الى جانب أنه كانت تقع على كاهله ـ أكثر من سواه ـ مسئولية رجوع العسكر سالما .

وقضت مشيئة الرب أن ينتهى الحوار الطويل الى اختيار الابن الأصغر « مانويل » الذى قدمه الجميـــع امتثالا لأمـــر أبيه وفى حضوره ، ثم ألبسوه العباءة القرمزية جريا على مألوف العادة فى الامبراطورية .

وانطلقت حناجر العسكر هاتفة به امبراطوراً عظيماً ٠

وبعد أن تبوأ « مانويل » ذروة القوة وتسنم غارب السطوة فى الامبراطورية مات أبوه العظيم ذو المناقب الخالدة السنية ، والذى جمع بين الكرم والتقوى والرحمة ٠

كان يوحنا الامبراطور من حيث الهيئة ربع القوام ، أسود الشعر حالكه أسمر البشرة(٢٧) حتى نعته الناس « بالمغربى » وما زالوا ينعتونه بذلك ، وعلى الرغم من أنه لم يكن ملفتا للانتباه الا أنه كان على خلق رفيع ، مشهورا ببراعته فى الحرب ، وكانت وفاته فى ناحية يسمونها بوادى « العين »(٢٨) على مقربة من « عين زربة القديمة » عاصمة كيليكية الصغرى وذلك فى شهر ابريل سنة ١١٤٣- من مولد المسيح ، وهى السنة السابعة(٢٩) والعشرون من حكمه ٠ والسنة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ (٣٠) من عمره ٠

* * *

حين فرغ الامبراطور الجديد من ترتيب أموره فى تلك البلاد قفل بعسكره فى سلام الى القسطنطينية حيث وجد أخاه الأكبر قد احتل القصر لحظة سماعه نبأ وفاة أبيهما ، واذ ذاك حرر « مانويل » رسالة خاصة (لم يعلم بها أخوه) وبعث بها الى الموظف القائم بحفظ القصر وكل خزائنه ، يأمره فيها بالقبض فى الحال على أخيه الذى لم يكن يعلم شيئا من هذا الأمر ٠ كما أمره بايداعه السجن ٠

على أنه بعد دخوله الى المدينة وكان دخولا مهيبا سرعان ما حل الوئام بينه وبين أخيه « اسحق » بفضل المساعى الحميدة الحنونة التى بذلها أقاربهما وبعض نبلاء القصر السامى ، وهكذا أخذ « مانويل » مقاليد أمور الامبراطورية فى يده فى هدوء وسلام

وفق وصية أبيه الأخيرة ، ولم يكف أبدا طول حياته عن تعظيم أخيه والتودد اليه لتقدمه فى السن عليه ٠

(٢٤)

فى هذه الأثناء شعر فولك ملك بيت المقدس وأمراء المملكة الآخرون ومعهم قداسة البطرك وكبار رجال الكنيسة بضرورة وضع نهاية لعيث أهالى عسقلان بالفساد والتدمير الفظيعين ، ورأوا كبح جماحهم ، أو على الأقل تحجيم اجتياحهم الاقليم ، فاستقر الرأى على بناء قلعة هناك متاخمة لمدينـــة الرملـــة وقريبة من « اللد » المعروفة باسم « ديوسبو بوليس ، حيث يوجد تل مرتفع بعض الشيء عن السهل ، وتقول الأخبار القديمة انه كان هنا ذات مرة مدينة للفلسطينيين تدعى « جات » كما كانت على مقربة من هنا أيضا وعلى بعد عشرة أميال تقريبا من عسقلان مدينـــة أخرى تســـمى « أسدود »(٣١) تابعة لهذه الجماعة ذاتها ٠

لم يتخلف عن استجابة هذا النداء أحد من الصليبيين فشيدوا على التل الذى ذكرناه حالا قلعة من الصخر الشديد الصـــلابة حفروا لها أساسا بعيد العمق ، وجعلوا لها أربعة أبراج ، كما أخذوا كميات كبيرة من الأحجار أمدتهم بها المبانى الدارسة التى لا تزال أطلالها باقية حتى اليوم ، كما أسعفتهم الآبار القديمة التى كانت تكثر فى المدينة الخربة بكميات وفيرة من الماء الذى كان عونا لهم فى عمليات البناء وسد حاجتهم للشرب ٠

ولما فرغوا من بناء القلعة وحصنوها من كل النواحى استقر رأيهم على أن يعهدوا بها الى أحد النبلاء وكان معروفا بالحصافة والحكمة ، ذلك هو « بليان » الكبير والد كل من « هيج » و « بلدوين »

و « بليان الصغير » الملقب كل منهم بالابليني نسبة لذلك المكان الذي كان يسمى بهذا الاسم حتى بناء القلعة ، ولقد أظهر بليان مثابرة كبيرة في حراسة القلعة « ابلين » هذه (أو يبنـــى) وفي مطاردة العدو الذي بنيت هذه القلعة لردعه ، فلما مات الأب « بليان » قام أبناؤه هؤلاء النبلاء المحاربون البسلاء والأبطال المغاوير وأحسنوا احسانه في مراعاة القلعة حتى تـــم استرجاع عســـقلان أخيرا وارجاعها الى الملة المسيحية ٠

(٢٥)

كان قيام قلعتي « بير سبع » و « ابلين » تجربة أقنعت نبـلاء المملكة أنهم قد أحرزوا تقدما في صد الغزوات العقسلانية الجريئة ، وأدرك الجميع أن هذا البناء قد ساعد الى مدى بعيد على كبح جماح عربدة أهل عسقلان وقلل من غاراتهم وأفسد عليهم خططهم ، ومن ثم أزمعوا أن يشيدوا قلعة أخرى في الربيع القادم ، اذ رأوا في الاكثار من الحصون في تلك الناحيـة ما يعينهم على مضـــايقة العسقلانيين ، ويساعدهم على مراوحتهم ومغـــاداتهم بالمغارات يشنونها عليهم فيزيدونهم فزعا لتوقعهم الخطر يلحقهم من حصـــار رجالنا لهم ٠

وكان هناك موضع يسمونه « تل الصافية » يبعد عن عسقلان بثمانية أميال وهو في ذلك القسم من « يهودا » الذي تنتهي عنـــده الجبال ويبدأ السهل المنبسط قرب أرض الفلسطينيين ، حيث تسكن قبيلة « شمعون » ، وكان هذا الموضع يبدو وكأنه لا يعدو أن يكون أكمة صغيرة اذا ما قورن بالاقليم الجبلي ، اما اذا قورن بالأرض المنبسطة فهو جبل عال ، فاتفق الرأي من جانب عقلاء المملكة على أن يقيموا هنا قلعة تكون قريبة من المدينة ومن القلاع الأخـــرى

التى اقيمت من قبل لهذا الغرض ذاته ، وكان هذا الموضع يبدو وكأن الطبيعة حصنته فأحسنت تحصينه ٠

لذلك لم يكد ينقضى فصل الشتاء ويأذن الربيع بالدخول حتى اجتمع الملك بنبلائه وبالبطرك وبكبار رجال الكنيسة فى هذا الموضع وقد اقتنعوا بتلك الفكرة(٣٢) ، وجىء بالعمال وتجهز الناس بكل ما يلزم للبناء ، وأقاموا حصنا من الصخر الأصم على أساس قوى ، وزينوه بأربعة أبراج ذات ارتفاع ملائم اذا اعتلاها المرء طالع من هذا العلو مدينة الخصم على امتداد البصر ولا يحجبها عن ناظريه عائق ٠

ولقد أثبتت هذه البنية بالدليل القاطع أنها أكبر عقبة كأداء أمام العسقلانيين ، وأنها مصدر خطر داهم عليهم ان هم فكروا فى العيث فسادا فى تلك الناحية ، وكان هذا الحصن يعرف فى اللهجة الدارجة باسم « بلانش جارد »(٣٣) ومعناه فى اللاتينية « برج المراقبة الأبيض » ٠

ما كادت هذه القلعة تكتمل بناء حتى وضعها الملك فى حمايته هو ذاته ، وزودها بكميات ضخمة من الأطعمة ، وجهزها بالذخيرة ، وعهد بحراستها الى رجال أباء ممن عركوا الحروب طويلا ، فبرهنوا على اخلاصهم وتفانيهم فيما كان يوكل اليهم من الأعمال ، اذ كانوا يخرجون تارة وحدهم ، وفى أغلب الأحيان مع غيرهم من رجال القلاع الأخرى التى بنيت لنفس الهدف ، لا يبتغون من وراء ذلك الا صد العدو وهزيمته ان هو حاول الاغارة من المدينة(٣٤) ، بل طالما كانوا يقومون من تلقاء أنفسهم بمهاجمة سكانها فيكبدونهم الخسائر الفادحة ، ثم يعودون فى أغلب الأحيان ترفرف عليهم رايات النصر ٠

ولقد ترتب على ذلك أن أصبح سكان الاقليم المجاور يعتمدون اعتمادا كبيرا على هذه القلعة والقلعتين الأخريين ، ونشأت حولها ضواح كثرة فسكنتها أسر كثيرة عاشت جنبا الى جنب مع الفلاحين فى مزارعهم ، وغدت الناحية أكثر أمنا وازدهارا لازدحامها بقاطنيها وتوافر كل ما يحتاجه الاقليم المجاور من المئونة ٠

* * *

ولما رأى أهل عسقلان احداق القلاع المنيعة بمدينتهم تضاءلت ثقتهم فى قدرتهم على المقاومة عن ذى قبل ، وتعدد سفاراتهم الى مولاهم خليفة مصر ذى البطش الشديد يخبرونه بما يفرضه عليه الواجب من اتخاذ ما فيه حماية عسقلان التى هى خط الدفاع الأول فى امبراطوريته ، بعد أن لم يعد له من ممتلكات سواها فى ذلك الاقليم(٣٥) ٠

(٢٦)

اصبحت المملكة حينذاك بفضل الرحمة الالهية الكبيرة دولة تنعم بحال من الطمأنينة المرضية ، فرأت صاحبة الجلالة الملكة « مليزند » الطيبة الذكر انشاء دير للنساء اذا أمكن توفير المكان الصالح الذى يتفق ورغباتها حتى يكون لهن ديرا ، وكانت تسعى من وراء ذلك الى استجلاب الرحمة لنفسها ولأبويها ولخلاص روح زوجها وولديها ٠

وكانت لها أخت تدعى « ايفيتا » هى أصغر شقيقاتها وقد ترهبت فى دير القديسة « حنة » أم السيدة العذراء المباركة والدة سيدنا عيسى ، وكان اهتمام الملكة « مليزند » بهذه الأخت هو الذى حدا بها الى القيام بهذا العمل ، لأنها لم تر من اللائق ان تخضع

بنت الملك لنفوذ أم(٣٦) (راهبة) فتستوى بذلك مع أية امرأة من العامة ، لذلك مسحت الاقليم كله بفكرها فى الاستقصاء الدقيق لتجد موضعا ملائما يمكنها أن تؤسس فيه ديرا ، فانتهت بعد طول تمعن الى اختيار العازاريه(٣٧) مسكن مارى ومارتا وأخيهما « العازر » الذين أحبهم عيسى المسيح · وكانت « بيثانى » أو العازارية كما ورد فى الانجيل تقع وراء « جبل الزيتون » على سفحه الشرقى ، وأرضها تابعة لكنيسة القبر المقدس ، ولكن الملكة «مليزند» منحتها لرجال الدين فى « تقوع » مدينة الأنبياء ، وأخذت بدلا منها «بياثنى » ، (تل الصافية) ملكا خالصا لها ، لكن ذلك الموضع كان عرضة لهجمات الأعداء بسبب وقوعه على مشارف الصحراء ، لذلك بذلت الملكة الأموال الطائلة لتشيد برجا منيعا من الحجر الصلد المصقول وكرسته للدفاع حتى تجد فيه العذارى اللائى نذرن نفوسهن للرب حصنا منيعا لا يرام اقتحامه حماية لهن من العدو ، فلما فرغوا من بناء الدير واعداده جريا على العادة لأداء المراسيم الدينية أنزلت الملكة فيه أخوات طاهرات عهدت برعايتهن الى سيدة موقرة بلغت من العمر أرذله ، ذات خبرة دينية كبيرة ناضجة ، ثم حبست الملكة على الكنيسة أراضى فسيحة شاسعة تتبعها أملاك كبيرة حتى لا يكون هذا الدير دون سواه من الأديرة الأخرى فيما عنده من الممتلكات ومن أمور الدنيا ، سواء فى الرجال أو النساء ، بل أرادته أن يكون كما قيل أغنى من بقية الأديرة الأخرى ·

وكان من الممتلكات التى وهبتها الملكة أيضا لهذا المكان الطاهر مدينة « أريحا »(٣٨) الشهيرة بكل ملحقاتها الواقعة فى سهل الأردن والغنية جدا بكل شىء ، وزيادة على ذلك فقد أهدت الملكة الدير عددا كبيرا من الأوانى الذهبية والفضية المقدسة المرصعة بالجواهر ، كما منحته أقمشة حريرية لتزيين بيت الرب ، وأفاضت أنواع الثياب لرجال الدين حسبما تقضى بذلك القواعد الديرية ·

ثم ان الملكة صرفت جل اهتمامها الى ذلك المكان الذى عهد به الى تلك المرأة الموقرة التى ما كادت تموت حتى قامت « مليزند » بجعل أختها رئيسة له بعد موافقة البابا البطرك ورضاء الأخوات الراهبات الطاهـرات ، وأغدقت بهذه المناسـبة كثيرا من الهدايا الاضافية مثل كؤوس العشاء الربانى والكتب وغير ذلك من الأدوات اللازمة للخدمة الدينية ، وظلت (مليزند) طول حياتها حفية بهذا المكان سعيا وراء خلاص روحها وروح شقيقتها التى كانت تحبها كل الحب ٠

***

لكن حدث فى تلك الأيام بعد انقضاء فصل الخريف أن كان الملك والملكة يقضيان بعض الوقت فى مدينة عكا ، حين تراءى للملكة أن تخرج من المدينة الى احدى الضواحى التى تكثر بهـا العيون المائية لتكسر رتابة الأيام بشىء من الرياضة المستحبة ، وخرج الملك فى حرسه الذى اعتاد أن يكون معه ورافقها حتى لا تفتقد صحبته ، وبينما كانوا على صهوات جيادهم اذا بالخدم الذين سبقوا ركبهم يثيرون أرنبا كان يجثم فى حفرة من الأرض فانطلق هاربا تلاحقه من خلفه صيحات الجميع ، وشاء قدر الملك السيىء أن يحمل رمحه وينضم الى المطاردين ، وكانت مطاردته عنيفة للحيوان ، كما راح يهمز جواده ليسرع عدوا الى حيث فر الأرنب ، فما كان من الجواد الا أن انطلق انطلاقا وعدا عدوا سريعا فكبا كبوة طوحت بالملك من فوقه وأوقعته على أم رأسه مغشيا عليه ، وارتطم السرج برأسـه فانبثق الدم من أذنيه وسال من أنفه ، فاستولى الفزع على حرسه سواء من كان منهم أمامه أو خلفه ، وجزعوا من ذلك الحدث المروع ، وهبوا الى نجدته وهو طريح الأرض ولكنهم وجدوه وقد أغمى عليه ، عاجزا عن الكلام أو عن ادراك ما حوله ، فلما أخبروا الملكة عنمصرع زوجها الذى لم يكن متوقعا أحست كأن طعنة نجلاء اخترقت قلبها

من جراء هذا الخطب المشئوم ، فراحت تمـــزق ثيابها ، وتجذب شعرها ، وكان صراخها وعويلها دليلين على ما تكابده من الحزن الممض ، ثم طرحت نفسها أرضا معانقة جسده الذى لم يعد فيه رمق يدل على الحياة ، ثم خانتها دموعها من كثرة بكائها المستمر ، وتعالى أنينها يقطع نحيبها ، ولم تستطع كتمان حزنها ، ولم يكن يعنيها الا ارضاء ألمها ، كما لم يستطع أهل بيته كتمان حزنهم العميق الذى تجلى فى عويلهم وكلامهم ، كما أفصح عنه مظهرهم ٠

ما لبث أن ذاع خبر الحادث المبكى الذى ألم بالملك وانطلق الخبر بأجنحة خفاف ، وتسامعت به كل أرجـــاء عكا ، فتقاطرت الجموع الى مكان الحادث يريدون أن يعرفوا بأنفسهم ماهية النكبة التى يعجز اللسان عن وصفها ، وحملوه ــ وعيونهم مغرورقة بالدمع ــ الى المدينة حيث ظل الى اليوم الثالث فى غيبوبة وان كان لايزال به نفس يتردد فى ضعف ٠

فلما كان اليوم العاشر من نوفمبر سنة ١١٤٢ من مولد سيدنا وهى السنة الحادية عشرة من حكم « فولك » غشيته غاشية الموت ، وكان عمره يومذاك كبيرا ٠

ونقل جثمانه من عكا الى بيت المقدس بما يليق به من الاحترام، وخرج رجال الدين بكافة طبقاتهم والناس أجمعون يستقبلون موكب الجنازة ، ودفن فى أبهة ملوكية مع أسلافه العظام ذوى الذكر المجيد فى كنيسة قبر السيد عند جبل الجلجثة عند الباب الواقع الى يمين الداخل ٠

وتراس قداسة البطرك « وليم » بطرك بيت المقدس حفل الدفن الملكى •

* * *

وقد ترك الملك « فولك » طفلين لم يبلغ أى واحد منهما سن الرشد عند وفاته ، أما أكبرهما فبلدوين وكان فى الثالثة عشرة من عمره ، وأما الآخر فعمورى ، وكان ابن سبع سنوات •

وانتقلت السلطة الملوكية الى الملكة المعظمة السيدة « مليزند » المحبوبة من الرب ، وكان انتقالها اليها عن طريق الارث الشرعى •

هنا ينتهى الكتاب الخامس عشر

حواشى الكتـــاب الخامس عشر

(١) المقصود بالمؤمنين هنا الجماعات المسيحية من أى مذهب كانت هذه الجماعات ·

(٢) ذكر وليم الصورى فى نصه الاصلى أن هذا الشريف العربى كان يدعى Machedolus ولكننا لم نستطع الاستدلال عمن يكون هذا المنعوت بذلك الاسم عند وليم ، وان رجحت الترجمة الانجليزية أن يكون هو « عز الدين أبو العساكر سلطان » عم أسامة بن منقذ ، وقد بنت هذا الترجيح على ما أورده فيليب حتى فى كتابه :
Usamah Ibn Munqidh, Introd., P. 6:

(٣) المقصود بالعاهلين هنا أمير أنطاكية وكونت طرابلس ·

(٤) وهى حبيس جلدك ، وهى كما ذكر ياقوت فى معجمه قلعة فى سهل دمشــق ·

(٥) لم يزد ياقوت فى تعريفه لعربة هذه عن وصفها بأنها « موضع » فى جند فلسطين ·

(٦) على الرغم من اهمية مكانة « تقوع » الروحية فى نفوس المسيحيين حتى ليطلقون عليها « مدينة الأنبياء » الا أن كل ما ورد عنها فى المراجــع

العربية لايزيد عن القول بأنها قرية من قرى بيت المقدس ، مشهورة بعمل النحل ، انظر فى ذلك :
Le-Strange : Palestine Under the Moslems, P. 542.

(٧) ربما كان من المناسب فى هذا المجال وقد راح المؤلف يشرح كلمة « بانياس » أن نضيف الى ذلك انها تعرف بقيصرية فيليبى ، أما كلمة «Paneas» « بانياس » القديمة فمشتقة من الاله المسمى « بان » Pan التى يقول ياقوت عنها انها قصبة جند الأردن ، أما المقدسى فيقول انها مدينة على مشارف بحيرة الحولة المعروفة باسم بحيرة « ميروم » ، كما يقول ان بها رافدا ماؤه شديد البرودة ينبع من تحت جبل الثلج فى هيرمون Hermon ، ولما زارها الرحالة المسلم ابن جبير سنة ١١٨٥ قال انها ثغر من ثغور الاسلام الحربية ، وكان بها قلعة فى أيدى الفرنجة ثم استردها منهم نور الدين محمود ويسمونها « هونين » وقد أشرت الى ذلك فى كتابنا « نور الدين والصليبيون » ، ويذكر لى سترانج انه يوجد فى المجلة الأسيوية Journ. Asiatique رسم كروكى لاحدى ضواحى بانياس ، انظر الفهارس التفصيلية التى ألحقناها بترجمتنا العربية لكتاب فلسطين تحت الحكم الاسلامى لـ « لى سترانج » .

(٨) يوشع ١٩/٤٧ .

(٩) فى الأصل الذى كتبه وليم الصورى باللاتينية وترجمته الترجمة الانجليزية « الترك » ، وهو لفظ نرى من مطالعتنا لنص وليم أنه يطلق على المسلمين ممن احتك بهم الصليبيون دون المصريين ، على أن سياق الخبر أعلاه يقتضى وضع كلمة « الدماشقة » اذ هم المقصودون فى هذا الموقف بالذات دون غيرهم .

(١٠) الوالى الذى يقصده وليم فى المتن هو والى بانياس .

(١١) المقصود بالأهالى هنا سكان بانياس .

(١٢) ليس فى ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (ص ٢٧٠ ــ ٢٧٢) ما يشير الى قيام « أنر » بتسليم البلد للمسيحيين ، ولكن المعروف هو أن الأتابك عماد الدين زنكى كان قد طلب من صاحب دمشق أن يسلمه البلد فلم يجبه الحاكم الى ما طلب ، ثم حدث أن مات محمد بن تاج الملوك بورى

فنصب أولو الأمر ولده مكانه وهو الأمير « عضد الدولة » ، فلما عرف زنكى ما تم زحف الى دمشق ولكنه لم يصادف « من أجناد دمشق وأحداثها الا الثبات على القراع والصبر على المناوشة ، فانكفأ عائدا الى غزة ، ويقول ابن القلانسى أيضا انه كان قد تقرر مع الافرنج (يقصد الصليبيين) الاتفاق « والاعتضاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج فى دفعه ، والاختلاط فى صده عن مراده ومنعه » ، وأمضى الطرفان فيما بينهما معاهدة ، ثم التمس الصليبيون على ذلك « مالا معينا يحمـــل اليهـــم ليكون عونا لهـــم على ما يحاولونه ، وقوة ورهانا تسكن بها نفوســـهم ، وأجيبوا الى ذلك » ٠ وترتب على ذلك رحيل زنكى ٠ ولعل ما يقصده وليم من الاســـتسلام هو ما جرى على « بانياس » فقد جاء فى الذيل لابـــن القلانسى ، ص ٢٧٢) أن شرط الصليبيين أن يبذل لهم انتزاع ثغر بانياس من يد واليها ابراهيم ابن طرغت ٠

(١٣) الضمير فى عدها عائد على كنيسة أنطاكية ٠

(١٤) هو الميناء المعروف عند الصليبيين باسم st. Simon وعنده دير باسم هذا القديس ، وقد وردت الاشارة اليه فى كثير من المصـــادر الجغرافية الاسلامية ، ويذكر صاحب مراصد الاطلاع أن سمعان الذى يطلق اسمه على الناحية هو شمعون الصافى ، كما أن هناك أكثر من دير يعرف كل واحد منها بدير سمعان ٠

(١٥) من رأى ابن القلانسى (الذيل ، ص ٢٦٣) ان صاحب أنطاكية قبض على بطركها الافرنجى « ونهب داره ٠٠٠ وذلك لأن ملك الروم لـما تقرر الصلح بينه وبين ريموند صاحب انطاكية شرط فى جملة الشروط أن ينصب بأنطاكية بترك من قبل الروم » ٠

(١٦) انظر الحاشية السابقة ٠

(١٧) ترد الاشارة فى المراجع العربية الى موضـــعين رســـم كل منهما قريب فى رسمه للاسم الذى أورده وليم الصورى فى المتن أعلاه ، فهنـــاك « قورس » أو « قورص » Kurus التى تسميها المصادر الصليبية باسم Cyrrus حينا وباسم Cyrrhus حينا آخر ، والتى يشير ياقوت تحت نفس الاســـم فيصفها بأنهـــا بلدة قديمة متاخمة لحلب وحولها اطلال كثيرة شديدة القدم ، أما فى القرن الرابع عشر الميلادى فيصفها أبو

الفدا بأنها بلد « كبير وقصبة اقليمها » ٠ ثم نطالع اسما آخر قريبا من هذا الاسم الذى أورده وليم وهو « قرقس » أو بالمصطلح الغربى Corycos ويصفه الادريسى أيضا بأنه حصن يستطيع الناظر منه أن يرى مرتفعات قبرص ، فهل ترى الكلمة الواردة في المتن أعلاه تمت بصلة الى أحد هذين المكانين ، أم أنها غريبة عنهما ؟

(١٨) فيما يتعلق بايمرى هذا ، انظر الفصل السادس عشر من هذا الكتاب ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ٠

(١٩) يستعجل وليم هنا الأحداث حتى ليخيل للقارىء أن الأخوين ولدى الامبراطور ماتا فى هذه الأثناء فى الرحلة فى أضاليا ، لكن الواقع هو أن الموت عاجل ولده البكر « الكسيوس » ، أما الآخر وهو « أندرونيكوس » فقد وافته منيته وهو عائد الى القسطنينية فأمر يوحنا الثانى ولده بمرافقة جثمان أخيه الكسيوس ، وهذه ملاحظة تستلزم الاشارة اليها فى هذا المكان قبل أن يتوغل القارىء فيما كتبه وليم ، على أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن الأخوين الكسيوس وأندرونيكوس ولدى يوحنا ماتا فى عام واحد هو عام ١١٤٢م ، ومن هنا كانت وصية الأب فى أن يخلفه ولده الرابع مانويل (١١٤٣ ـ ١١٨٠) الذى جمع بين الحرب والسياسة ٠

(٢٠) أشارت الترجمة الانجليزية فى هامشها (ج٢ ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم ٢٤) الى أن « جاستون » هذه كانت حصنا استولى عليه الداوية ٠

(٢١) الواقع أن ريموند امير أنطاكية دأب على ارسال كثير من الرسائل الى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثانى يستنجد فيها به ويلح عليه أن يقدم الى أنطاكية خوفا من بطش عماد الدين زنكى ودفعا لأطماعه فى امارة أنطاكية مما يهدد فى الوقت ذاته هيبة الامبراطور البيزنطية ، وقد تعرض لهذه الناحية ولتلك الرسائل المؤرخ شالاندون فأوضح فى جلاء مدى هذه الاستغاثة وفحوى تلك الكتب ، راجع ذلك بالتفصيل فى :
Chalandon (F.) : Les Comnenes II, Jean Comnene et Manuel Commnene PP. 186 fol.

(٢٢) كان هناك فى هذه الفترة ثلاثة يعرف كل منهم بيجانوس ، ورغم أن الترجمة الانجليزية قد رجعت الى ما كتبه فى هذا الصدد :
J. La-Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem (1100 — 1291)

الا أنها وقعت فى حيرة : أى هؤلاء الثلاثة هو المقصود عند وليم فى المتن ، لكن بالرجوع الى نفس البحث الذى أشـــارت اليه الترجمة الانجليزية ، (وهو بحث الأستاذ لامونت La-monte : Op. Cit., P. 256 et seq.
نجد ان الذى يقصده وليم الصورى كان يشغل وظيفة « ساقى الملك » كما بالمتن هذا وقد نعته
Le-Strange : Palestine Under The Moslems P. 479.

باسم « باين » Payen ونكر أنه ساقى الملك فولك .

(٢٣) يشير ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع الى أن هناك ثلاثـــة مواضع يعرف كل منها باسم الكرك ، أما أحدها فقرب الســـويدية فى جند فلسطين ، وأما الثانى فقرب طبرية ، وأما الثالث فبين بعلبك ودمشق . كذلك اختلف الجغرافيون العرب فى وصف الكرك التى تعرف فى الحوليات التاريخية الصليبية باسم Petra Deserti (وسيشير اليها وليم فى نهاية هذا الفصل من الكتاب الخامس عشر) وهى تقع فى أقصى الطرف الجنوبى للبحر الميت . ويلاحظ أن حصن الكرك هذا يشغل البقعة التى وردت فى سفر اشعيا ١٥/١ ، فى قوله « انه فى ليلة خربت قير مؤاب وهلكت » . ويصف ياقوت الكرك بأنها حصن شديد المناعة على تخوم سورية فى الجبال ، ويقوم على جبل صخرى تحوطه الوديان من كل الجهات ، ثم يزيد على ذلك بأنه واقع بين القدس وأيلة على البحر الأحمر . أما الكرك عند ابى الفدا فبلدة شهيرة ذات حصن يقع فى أرض شديدة الارتفاع ، وانه يوجد على مسيرة يوم منها ــ بتقدير أهل ذلك العصر ــ « مؤتة » حيث دفن بهـــا جعفر الطيار وأصحابه . ويصفها ابن بطوطة بعد زيارته لها سنة ١١٣٥م بأنها من اشهر واقوى القلاع ببلاد الشام ، وتعرف بحصن الغراب ، انظر كل ذلك بالتفصيل Le-Strange : Op. Cit. PP. 479 — 480.

(٢٤) عرض لى سترانج Le-Strange : Op. Cit. P. 494 فى تفسيره لربة هذه بأن اسمها الصليبى منظور فيه الى ما جاء فى العهد القديم بأنها تسمى Rabath Moab وكذلك Areopolis ثم نقل عن أبـــى الفدا أن « الربة » هذه تقع فى اقليم البلقاء فى جبل الشراة .

(٢٥) راجع ماسبق ص ٢٠٠ والحاشية رقم ١٩ ٠

(٢٦) هذه اشارة صريحة الى ميل الامبراطور الى اللاتين ميلا ظاهرا لايحاول اخفاءه ٠

(٢٧) نطالع فى التأليف التاريخى « الكسياد » الذى وضعته المؤرخة « أنا كومنينة » والذى استعرضت فيه هذه الفترة اشارات متعدده اليه منها على سبيل المثال ك١ ف١٠ ، ك٣ ف٢ ، ٣ ، ك١٢ ف٣ ، ك١٣ ف١٠ ، ك١٤ ف٣ ، وكان مما ذكرته عنه أنـه لم يكن فى مهده بالذى يجـــذب النظر ، الألكسياد ٨/٦ وانظر فى ذلك أيضا :
Chalandon (F) : Les Comnenes II, P. XXXIII.

(٢٨) أشار ياقوت فى معجمه الى أن « العين » قرية أسفل جبل اللكام قرب مرعش ، ويخرج منها طريق يسمونه درب العين يؤدى الى الهارونية ٠ ويلاحظ أن العين هذه معدودة بين قلاع المصيصة ، أما عين زربة فقد أنشاها الخليفة هرون الرشيد ، واعتبرها ياقوت من مدن « الثغور » ٠ ويحدد أبو الفدا حدودها الجغرافية فيقول انها واقعة بين سيس وتل حمدون ٠

(٢٩) الواقع أن الامبراطور يوحنا الثانى تولى العرش بعد وفاة أبيه الكسيوس الأول سنة ١١١٨م ، ومات سنة ١١٤٣م ، وبذلك تكون مدة حكمه ستا وعشرين سنة ٠

(٣٠) فراغ فى الأصل ٠

(٣١) ذكرها ياقوت باسم « أزدود » ، وقد يقال لها أيضا « يزدود » وهى فى غير اللسان العربى تعرف باسمى Azhdod Azotus راجع فى ذلك Le-Strange : Op. Cit., P. 405

(٣٢) أى فكرة بناء قلعة جديدة ٠

(٣٣) « بلانش جارد Blanche-Garde هو الاسم الصليبى لتل الصافية ، وقد عرفه ياقوت فى معجمه بأنه حصن من حصون فلســـطين ، ويقع على مقربة من بيت جبرين أو جبريل فى اقليم الرملة ٠

(٣٤) المقصود بالمدينة هنا « عسقلان » ، وكانت لاتزال حتى هذا الوقت فى أيدى المسلمين ·

(٣٥) يعنى بذلك بلاد للشام بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وطرابلس وانطاكية ·

(٣٦) المقصود بالأم هنا الراهبة رئيسة دير النساء المشار اليه حالا فى المتن أعلاه ·

(٣٧) العازارية هو الاسم المتداول فى كتابات المؤرخين والجغرافيين ويدعوها ياقوت أيضا باسم العازارية و «العيزارية» وهى نسبة الى «العازار» الذى أحياه المسيح عليه السلام من بين الموتى ·

(٣٨) كانت أريحا قصبة اقليم الغور بالأردن ·

فصول الكتاب السادس عشر

١ ـ بلدوين الثالث يخلف أباه فولك على العرش بعد موته ٠

٢ ـ نبذة عن حياة بلدوين وخصاله ٠

٣ ـ اعتلاؤه العرش ومدة حكمه تحت وصاية أمه ٠

٤ ـ عماد الدين زنكى يحاصر مدينة الرها ٠ وصيف موقع الرها ٠

٥ ـ الإستيلاء على الرها والفتك بأهلها ٠

٦ ـ استيلاء الملك على مدينة فيما وراء الأردن تدعى « وادى موسى » ٠

٧ ـ اغتيال زنكى أثناء حصاره قلعة جعبر واستخلاف ابنه نور الدين مكانه ٠

٨ ـ قيام أحد كبار الدماشقة وهو حاكم مدينة « بصرى » بمحالفة الملك وارسال جيش الملك اليها ٠ « أنر » حاكم دمشق يحاول افساد هذه الخطة ٠

٩ ـ الجيش الصليبى يواجه أخطارا لا عد لها أثناء زحفه ٠

١٠ ـ حين يبلغ الصليبيون غايتهم يجدون العدو قد احتل المدينة فيعودون الى ديارهم من غير أن يحققوا هدفهم ٠

١١ ـ الجيش الصليبى يواجه أخطارا جمة فى طريـــق عودته ، والأتراك يعجبون من عزيمة قواتنا ٠

١٢ ـ ارسال مبعوث الى العدو لطلب الصلح ٠ هلاك أحد الفرسان العظام فى الجيش ٠ تشتت شمل الجيش التركى ٠ قواتنا تتقدم من غير عائق يعوقها ٠

١٣ ـ عساكرنا تصل الى الرها ٠ وصفها ٠ عودة العسكر الى ديارهم ٠

١٤ ـ استنجاد أهالى الرها بالكونت واسراعه الى هناك دون أن يعلم العدو بخبره وتسلمه المدينة ٠

١٥ ـ نور الدين يهاجم الرها ويحاصر المدينة ويكبد المسـيحيين أفدح الخسائر ٠

١٦ ـ الكونت « جوسلين » يغادر المدينة بجيشه ويحاول الرجوع الى وطنه ٠ نور الدين يلاحقه ٠ نكبة الجيش ٠ الكونت يفر فينجو ٠

١٧ ـ موت وليم بطرك بيت المقدس فيخلفه فى كرسيه « فولشر » رئيس أساقفة صور ٠ قيام الملك بفرض « رالف »مستشاره رئيسا لكنيسة صور ٠

١٨ ـ اثارة شعوب الغرب • كونراد امبراطور الرومان ولويس ملك فرنسا يقومان مع كثير من الأمراء الآخرين وسواهـم تجدة لمسيحيى المشرق •

١٩ ـ الامبراطور (كونراد) يخرج أول الجميع بجيشه ويصـل الى القسطنطينية • سلطان « قونية » ينصب له كمينا فى ألطريق •

٢٠ ـ سوء نية الاغريق تجعل جيش الامبراطور كونراد يضـل الطريق بعد عبوره البسفور فيدخل أماكن شديدة الخطورة •

٢١ ـ الأدلاء الذين يبعثهم الامبراطور البيزنطى لارشـاد جيش الامبراطور كونراد ينسلون خفية ويتركونه معرضا لخطر داهـم •

٢٢ ـ الترك يقومون بغارة فجائية على القوات التيوتونية وهلاك هذه القوات ولكن تكتب النجاة للامبراطور •

٢٣ ـ ملك الفرنجة يعبر البسفور ويصل بقواته الى « نيقية » فى اقليم « بيثينيا » • العاهلان (الألمانى والفرنجى) يتفاوضان معا • الامبراطور كونراد يعود الى القسطنطينية •

٢٤ ـ ملك الفرنجة يسلك طريقا آخر الى « افسوس » وهنا يموت « جى دى بونثيو » • الفرنجة يعبرون نهر « مياندر » رغـم محاولات العدو اعتراض سبيلهم •

٢٥ ـ نزول أفظع هزيمة بالجيش الفرنسى ونجاة مقدمته التى سبقته •

٢٦ ـ (الملك لويس السابع) ينجو بالصدفة فيلجق بالمقدمة التى سبقته • أما بقية الجيش فتصل الى « أتاليا » ومن هناك تمضى الى الشام فى موكب مهيب ويسيرون به الى أنطاكية ، واخيرا يفترق العاهلان بعضهما عن بعض على أسوأ حال •

٢٧ ـ انتهاء فصل الشتاء ووصول كونراد إلى بلاد الشام بحرا • كذلك رسو كونت ألفونس فى مدينة عكا وموته فى قيسارية •

٢٨ ـ ملك الفرنجة يغادر أنطاكية ويتابع سيره الى القدس وارسال بطركها لاستقباله •

هنـــا يبدأ الكتاب السادس عشر

اشتراك بلدوين الثالث وأمه مليزند في الحــكم
الحمــلة الصليبية الثانيــة

(١)

لقد تسنى لنا أن نجمع الأخبار التى نسوقها فى الكتاب العالى حتى وقتنا هذا مما رواه الآخرون الذين مازالت ذاكرتهم تعى أخبار الأزمنة السالفة وعيا صادقا ، ولقد كابدنا أكبر المشقة فى الحصول على الأخبار الموثوق بصــــحتها وعلى التاريخ الصــحيح وتوالى الحوادث ، ثم أوردنا ما وسعنا الجهد النبأ الحق عن هذه الأحداث التى بلغتنا عن طريق تلك الروايات ذاتها ، الى جانب ما رأيناه بعينى رأسنا وشاهدناه بأنفسنا ، وعلمنا ببعضه الآخر عن طريق العلاقة

الوثيقة بأناس كانوا شهود عيان لها حين وقوعها ، ومن ثم فاننا سوف ندرج فى يسر وأمانة بمشيئة الرب من أجل خير الأجيال التالية بقية هذا التاريخ اعتمادا منا على هذين المصدرين ، لأن الذاكرة تكون أكثر دقة فى استعادة الأحداث القريبة الحية ، كما أن كل ما تنقله العين الى الذاكرة يكون أقل عرضة للنسيان مما ينقل اليها عن طريق الأذن وحدها ، وان كلمات « فلاكوس » لتترجم عما نشعر به اذ يقول : « ان الأشياء التى تروى بالسماع تكون أقل تأثيرا واستيعابا من تلك التى تأتى عن طريق المشاهدة الفعلية بالعين ، أعنى بذلك الأمور التى شاهدها الناظر بنفسه ووعاها فى باطنه » ٠

***

لما مات « فولك » ثالث ملوك بيت المقدس اللاتين خلفه «بلدوين» الثالث ابنه من الملكة « مليزند » ، وكان لبلدوين — كما قلنا — أخ واحد اسمه « عمورى » وكان صبيا مازال فى السابعة من عمره ، فلما مات بلدوين الثالث هذا من غير ولد من صلبه خلفه فى المملكة أخوه (عمورى) كما سنروى خبر ذلك فى الكتب التالية ٠

كان بلدوين (الثالث) فى الثالثة عشرة من عمره حين آل اليه العرش ، وقد طالت أيام حكمه حتى بلغت عشرين عاما ، وكان شابا ذا مقدرة طبيعية رائعة ، فأفصح — وهو فى هذه السن المبكرة عن هذا الخلق الذى استكمله بعد حين ، فلما بلغ مبلغ الرجال بزّ الآخرين جميعا بجمال تقاطيعه ، وحسن هيئته ، ومنظره العام ، كما فاق جميع نبلاء المملكة فى اتقاد ذهنه وفصاحة لسانه ، وكان أطول قامة من المألوف بين الناس ، قد تناسبت أطرافه مع قامته المديدة واتسق بعضها مع بعض ولم يبد منها شىء يتنافر مع غيره ، هذا الى جمال ملامحه وتناسقها ، أما بشرته فقد أشربت بالحمرة دليلا على قوة بنيته واستحكام خلقته ، فكان من هذه الناحية شبيها بأمه ، كما لم

يكن فى ذلك دون ما كان عليه جده لأمه ، وكانت عيناه متوسطتى الاتساع شديدتى التألق بصورة تجذب الانتباه ٠

أما شعره فكان أميل للصفرة ، وتكسو خديه وذقنه لحية كاملة، وكان متناسب أطراف الجسم ولكن ليس كأخيه فى اكتنازه أو نحيفا كأمه ، ومختصر القول ان مرآه كان يوحى بعظمة تشير الى أنه صاحب مكانة مرموقة ، حتى لقد كان الأغراب لا يفوتهم ادراك هيبته الملوكية ، وهى هيبة ركبت فيه بالفطرة ٠

(٢)

كانت ملكة بلدوين العقلية وجماله الجثمانى متســاويين تمام المساواة ، وكان حاد الذكاء ألمعيا بصورة خارقة ، قد وهبته الطبيعية هبة نادرة هى فصاحة اللسان ، ولم يكن دون أحد سواه من الأمراء فى عاداته الرائعة المحبوبة ، وقد بلغ الغاية من طلاقة المحيا ورقة القلب ، الى جانب أنه كان جوادا سمح الكف على كل امرىء سماحة جاوزت ما تملك يداه ، لكنه لم يتطلع الى ما فى يد غيره ، ولم تمتد يده الى إملاك الكنائس ، ولم يحمله اسرافه الى انتزاع شىء من اموال رعيته ، وكان له طابع خاص ندر أن يوجد له ضــريب فى الشباب ، فقد كان وهو فى هذه السن المبكرة يخشى الله كل الخشية شديد التوقير للشرائع الدينية ورجال الكنائس ٠

وكان ذا فطرة سليمة وذاكرة واعية دقيقة ، وقد أتيح له أن ينال قسطا طيبا من التعليم أعظم ما تهيأ لأخيه عمورى الذى خلفه ، وكان يسعده أن يمضى فى المطالعة كل فراغ ينتهبه من بين التزاماته العامة ، ويجد لذة لا تضاهيها لذة فى الاستماع الى التاريخ يقرأه الآخرون عليه ٠

وكان ولعا بالسؤال عن أعمال كبار ملوك وأمراء الأزمنة السالفة وعاداتهم ، هذا الى جانب ميله العظيم لمحاورة الأدباء وأفاضل العلمانيين ٠

وقد حملته رقة طبعه على افشاء التحية فى الجميع حتى لأقلهم مكانة ، فكان يناديهم بأسمائهم مما يثير دهشتهم ، وكان يتحيل أختلاق الفرصة للتحدث مع أى امرىء يريد التحدث اليه ، أو يلقاه صدفة ويعرف أنه يسعى لمحادثته ٠ وكان اذا ساله سائل أن يناقشه لم يرفض سؤاله ، ولقد أكسبه هذا الطبع حب الصغار والكبار على السواء ، لذلك كان أكثر شعبية من أسلافه عند هاتين الطبقتين ، هذا الى تجمله بالصبر فى تحمل المتاعب والمشاق ، فيقتدى بأحسن الأمراء فى اظهار مزيد من التعقل وبعد النظر فيما تتمخض عنه حرب غير مضمونة العاقبة ٠

ولقد اظهر ثباتا يليق بالملوك وحضور ذهن جديرين بالرجل الشجاع ، وكان اذا ما ادلهمت الخطوب يتحملها من أجل زيادة رقعة مملكته ، كما كان ملما تمام الالمام بالأعراف التى تحكم مملكة الشرق والتى تنزل فيها منزلة القانون ، لذلك كان الجميع — حتى كبار النبلاء — يسألونه الرأى فيما يبهم عليهم من الأمور ، ويعجبون من ألمعيته ودقة تفكيره المنظم ٠

وكان فى حديثه حاضر البديهة سريع الخاطر ، بشوش الوجه ، وكان الناس من كل سن وتحت أى الظروف يتقبلونه قبولا حسنا لبساطته فى تكييف ذاته فى غير عسر ولا تكلف مع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص ، وزيادة على ذلك فانه جاوز حد المجاملة المألوف بصورة أصبحت واضحة فيه تمام الوضوح ، فهو يطلق للسانه العنان ،فان رأى خطأ فى أحد من خلانه أو فى كبير من القوم لامه علانية ، لا يعبأ ان جرحت كلماته أو أرضت ، ولما كان

يرسل هذا الزجر في شكل دعابة تصدر عن قلب طيب أكثر من أن تكون نابعة من رغبة فى الاساءة فانها لم تقلل مما له من حب فى نفوس من كانوا هدفا لملاحظاته الخشنة ، وكانت صراحته تقابل بالتسامح، لأنه كان هو الآخر شديدا فى احتماله للكلمات الجافة التى توجه اليه ردا عليه ٠

على أنه كان كثير الانغماس بصورة لا تتفق وهيبته الملوكية فى ممارسة ألعاب الحظ كالميسر والنرد ، كما يقال ان استسلامه لشهوات البدن أفسد روابط الزوجية عند آخرين ، بيد أن ذلك كله كان أيام شبيبته ، أما حين اشتد عوده وبلغ مبلغ الرجال فقد أصبح كالرسول(١) « لما صار رجلا أبطل ما للطفل » ومن ثم فانه بملازمته للفضائل كفر عن زلاته التى كانت منه فى فجر شبابه ، اذ يقال انه لما تزوج أخلص لزوجته كل الاخلاص ، وتخلى عن خطيئة بغيضة(٢) الى الرب مذمومة عنده كان قد مارسها فى شبابه تحت ظروف حرجة ، ثم تاب عنها بعقل راجح ، واستبدلها بما هو احسن ٠

وكان بلدوين الثالث مقتصدا كل الاقتصاد فى تناول المنشطات الجسدية ، بل الحق انه كان زاهدا فيها كل الزهد بالنسبة لاحتياجات هذه السن ، فقد كره الاسراف فى الطعام والشراب ، وكان يقول ان هذه ليست الا عقابا على جرائم اشد منها ثقلا ٠

(٣)

مات « فولك » عاشر يوم من نوفمبر ، فلما كان عيد ميلاد المسيح التالى من عام ١١٤٢ ، أقيم حفل كبير مسح فيه « بلدوين » بالزيت ، ورسم وتوج هو وأمه فى كنيسة القيامة ، وأدار مراســم الاحتفال « وليم » بطرك بيت المقدس فى حضرة الحشد المعتاد من الأمراء وجميع كبار رجال الكنيسة ٠

وكان بابا كنيسة رومة اذ ذاك هو « يوجين »(٣) الثالث ، أما بطرك انطاكية فكان « ايمرى » ، وبطرك القدس هو « وليم » ، كما كان « فولشر » رئيسا لأساقفة صور ٠

***

وكانت « مليزند » أم الملك امرأة حصيفة راجحة العقل ، كبيرة الخبرة بجميع الشئون الدنيوية ، وقد أربت على كل امرأة من بنات جنسها ، فما كانت تدانيها في مستواها واحدة منهن مما أهلها للقيام بمعالجة الأمور الخطيرة أحســـن قيام ، كما أنها تطلعت لمنافسة أعظم الأمراء مكانة وقوة حتى لا تبدو أبدا أنها دونهم كفاءة، ولما كان ابنها لايزال صبيا غريرا فقد استقلت بمقاليد الحكم هي وحدها ، وسيرت شئون الحكومة بمهارة بلغت من الدقة غاية يمكن أن يقال معها بحق انها كانت مكافئة لأسلافها في هذا المجال ، وكان الشعب ينعم بما يرغب فيه من الطمانينة ، كما كانت أمور المملكة تدبر بنجاح طالما كان ابنها راضيا أن يسير وفق مشورتها ٠ لكن كانت هناك عناصر طائشة في المملكة سرعان ما أدركت أن تأثير حكمة الملكة افسد عليهم محاولاتهم في السيطرة على الملك ليكون طوع يمينهم ورهين اشارتهم ، فكانوا يلاحقون على الدوام مولاهم الذى يكون من في مثل سنه لينا كالشمع ينحنى نحو الرذيلة ، ويكون شموسا مع من ينقدونه » ـ وكان هدف هذه العناصر المرذولة من ملاحقتهم اياه أن يتخلص من وصاية أمه عليه ، عساه ينفرد هو بالحكم ويستقل وحده بحكم مملكة آبائه ، فقالوا له انه ليس من اللائق أن يظل الملك متعلقا بذيل أمه مثله في هذا مثل أى شخص عادى ، في الوقت الذى ينبغى فيه أن يستقل بالحكم لا يشـــاركه فيه مشارك ، وعلى الرغم من أن هذه المؤامرة كانت وليدة طيش أرعن تمت ونمت في مهاد شرود أشخاص معروفين بالذات ، الا أنها كادت أن تدمر المملكة باكملها ، كما سيأتى شرح ذلك بتفصيل أكثر حين نعرض لهذا الموضوع ٠

(٤)

قام عماد الدين زنكى اللعين بحصار مدينة الرها بجيش قوى فى هذه السنة ذاتها وذلك فى الفترة الواقعة بين وفاة الملك « فولك » وارتقاء « بلدوين » الثالث العرش ، وكانت تلك المدينة هى كبرى مدائن أرض الميديين وعاصمتها الزاهية ٠

وخلاصة القول فى زنكى انه تركى قوى البأس ، وكان يحكم المدينة التى كانت تسمى فى القديم بنينوى ، ثم أصبحت تعرف الآن بالموصل ، وهى قاعدة الاقليم الذى كان يطلق عليه من قبل أرض آشور ٠

لم يكن زنكى يعتمد على كثرة عدد قومه وشدة بأسهم فحسب، بل كان يستثمر أيضا الشقاق المرير بين « ريموند » أمير أنطاكية و « جوسلين » كونت الرها ٠

وتقع مدينة الرها على مسيرة يوم واحد وراء الفرات ، ويتولى امرها ويملكها الكونت « جوسلين » الذى خالف سنة اسلافه فهجر مقامه هناك وجعل مقره الدائم قرب الفرات فى قلعة تعرف بقلعة « تل باشر » ، وكان الذى دعاه الى هذا الانتقال هو ما امتازت به هذه الناحية من الخصب وما تتيحه من البلهنية فى العيش ٠ هذا الى ان وجوده هنا كان يباعد تمام المباعدة بينه وبين المتاعب التى يسببها له أعداؤه ، كما تتوفر له فيها شتى ضروب اللهو والمتعة ، وتحرره من كل تبعة كتلك التى يتحملها (والتى يجب أن يتحملها) تجاه المدينة العظيمة ٠

* * *

كان سكان الرها من الكلدانيين المحليين والأرمن المسالمين . وليس فيهم من يعرف ابدا استعمال السلاح بل انهم كانوا لايمارسون سوى التجارة فاتخذوها حرفة لهم ·

وكان اللاتين أيضا يحضرون الى هناك بين آن وآخر فيقيمون بها ، ولكن كانت اعدادهم قليلة ، كما أن حماية المدينة كانت موكولة كلها الى أيدى الجند المرتزقة الذين لم يكونوا يتنـــاولون رواتب وأجورا حسب مقتضيات الوقت أو حسب نوع الخدمة التى يؤدونها ، بل انهم كثيرا ما كانوا يضطرون للانتظار فترة قد تطول فتبلغ عاما أو يزيد قبل أن يستطيعوا أخذ معاشهم ورواتبهم المستحقة ·

ما كاد بلدوين وجوسلين الأب يمتلكان هذه الكونتية حتى جعلا مقامهما الدائم فى الرها ، وعنيا عنـــاية تامة بتوفير التجهيزات الملائمة لها من الســــلاح والطعام ، يجلبان ذلـك من الأماكـــن المحيطة بها ·

واســـتطاعا بهذه الوســائل توفير الأمان التام للرها التى أصبحت بفضـــل هذا العمل مهابة عن جدارة أكثر من بقية مدن الاقليم الأخرى ·

لكن كانت هناك ـ كما قلنا سلفا ـ عداوة بين أمير انطاكية وكونت الرها ، وقد تجلت هذه العداوة للعيان حتى وصلت الى حد الكراهية السافرة ، مما ترتب عليه أن لم يعد أحدهما يأسى على ما يحيق بالآخر من المصائب أو يلم به من سوء الحظ ، بل ان كلا منهما كان يغتبط للمصيبة يبلى بها الآخر ، ويفرح أشد الفرح لأى كارثة تلحق به ·

وقد اغتنم الأمير الكبير زنكى الفرصة التى أتاحتها له هذه العداوة بين الاثنين فقام يجمع أعدادا كبيرة من أهالى المدن المتاخمة وضرب بهم الحصار على الرها ، وســـد كل المداخل المؤدية الى

المدينة بسدا محكما مما أسفر عن عدم قدرة أحد ما على مغادرتها أو الدخول اليها ، وترتب على ذلك أن نزل القحط الشديد فى الأطعمة وشتى أنواع التجهيزات بالأهالي الذين أغلقت عليهم المدينة ٠

* * *

وكانت مدينة الرها يحوطها سور شديد الضخامة ، كما يوجد فى القسم الأعلى منها عدد كبير من الأبراج الشاهقة الارتفاع ، كما يوجد فى القسم الأسفل منها حصن منيع يستطيع الأهالى اللجوء اليه فيما لو تمكن العدو من الاستيلاء على المدينة ٠

وكانت كل هذه التحصينات مجدية في انزال المضرة بالعدو اذا توفر لها المحاربون الأكفاء الذين يستبسلون فى القتال من أجل حريتهم ، ولكنها تصبح غير ذات جدوى لو انعدمت بين المحاصرين الرغبة فى القيام بواجب الدفاع ، ذلك لأن الأســـوار والأبراج والخنادق لا تجدى فتيلا ان لم يحمها الحماة ، فلما وجد زنكى المدينة خالية ممن يذودون عن حياضها تزايد أمله فى التغلب عليها، فرتب جنده على شكل دائرة التفت بها وأحاطتها من كل جانب ، وأنزل قواد العسكر فى أماكن حصينة نافعة وحاصرها ، وانطلقت الآلات الحربية ترمى الأسوار بلا انقطاع ، كما انهمر وابل هتان من السهام لم يترك للأهالى لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ٠

فى هذه الآونة سرت فى الخارج فى سرعة البرق شائعة تنبىء بما تعانيه الرها المؤمنة بالرب من ويلات الحصار على يد خصـــم العقيدة ، فجزعت للخبر قلوب المؤمنين الصادقين سواء من كان منهم قريبا أو كان بعيدا ، وشرع المتحمسون في تسليح أنفسهم للانتقام من العدو الماكر ، فحملت أخبار هذا الموقف الحرج الكونت على العمل ، واهتم اهتماما جديا بجمع قواته ، وتذكر المدينة العظمى ولكن بعد فوات الأوان ، فكان أشبه بمن يعد مراسيم الجنازة لميت

قصر فى اسعافه وقت مرضه وأهمل نجدته فى شدته ، فيمم وجهه شطر الصليبيين وراح يلتمس العون من أصدقائه ، وأنفذ الرسل الى مولاه الاقطاعى أمير أنطاكية متضرعا اليه فى مذلة ، وراجيا اياه الرجاء الحار أن يتعاطف معه فى محنته ويخلص الرها من الرق الذى يتهددها ٠

كذلك وصلت أخبار هذه النكبة المروعة الى ملك بيت المقدس ، وتأيدت لديه شائعة حصار الرها ، وثبت عنده ما يلاقيه أهلوها من الأهوال ، واذ ذاك قامت الملكة (مليزند) التى كانت بيدها دفة أمور الحكومة بعقد مجلس من نبلائها ، وكلفت « مناسيس » الكونستابل الملكى وفيليب النابلسى ، و « اليناندوس » صاحب طبرية بالزحف الى الرها على رأس قوة كبيرة من الجند لنجدة الكونت « جوسلين » والأهالى المنكوبين ، ومع ذلك فقد كانت الفرحة تغمر قلب أمـــير أنطاكية للنكبة التى نزلت بالكونت جوسلين ، ولم يدرك مسئوليته ولا الحقيقة القائلة « انه لا ينبغى أن نسمح للكراهية الشخصية أن تؤذى المصالح العامة » ، اذ راح « أمير أنطاكية » يختلق المعاذير فى تأخره عن المبادرة فى ارسال النجدة التى طلبت منه ٠

(٥)

دأب زنكى فى الوقت ذاته على مهاجمة المدينة بلا انقطاع ، ولم يترك وسيلة من وسائل المضايقة والايذاء الا عمد اليها لالحاق المضرة بها ، ولم يدع أى طريقة تؤدى الى زيادة متاعب المواطنين وتساعده على الاستيلاء على البلد الا جربها ، فأرسل عبر الممرات السفلية عمالا يحفرون الأنفاق تحت الأسوار القائمة على أعمدة من الخشب ويشعلون النيران فيها ، فلما أمسكت النار بهذه الدعائم انهار جزء كبير من السور تاركا ثغرة اربى اتساعها على مئة ذراع

تتيح للخصم الدخول منها ، فتم له ما أراد ، فاندفع عسكره من كل الجهات واقتحموا المدينة وحكموا السيف فى جميع من صادفوهم ، لم يستثنوا شيخا لكبر سنه ، ولا ذكرا أو أنثى ، ولم يراعوا وضعا حتى صح فيهم المثل القائل(٤) : « يقتلون الأرملة والغريب ، ويميتون اليتيم » .

هكذا تم الاستيلاء على المدينة وصار حماها مستباحا لسيوف الأعداء ، واذ ذاك فر عنها من سـكانها أكثرهم عقلانية وتوقعا للخطر ، وفر معهم حريمهم وأولادهم ، ولجأوا الى القلعة التى كانت داخل المدينة كما قلنا ، وقد فعلوا ذلك طمعا منهم فى أن يأمنوا بها على أرواحهم ولو لفترة قصيرة ، ولكن تدافع الجموع الغفيرة من الجماهير أفشى الجزع بين الناس الذين هلك الكثيرون منهم وسـط الرعاع المتزاحمين ، وكان من بين الهلكى الذين قضـوا نحبهم على هذه الصورة رئيس أساقفة الرها الموقر جدا « هيجو » وبعض رجاله .

فأما الذين كانوا موجودين فى ذلك الوقت فقد ألقوا بعض اللوم فى وقوع النكبة على رئيس الأسـاقفة ذاته الذى كان فى امكانه أن يبذل على جمع العسكر للدفاع عن البلد بعض المال الذى يكنزه ، لكن شحه جعله يؤثر خزنه فلا ينفقه فى سبيل قومه الهلكى ، فجنى ثمرة بخله ، وكان مصيره مصير العامة ، وسيظل خبره الكئيب يلاحقه الى الأبد ما لم تتداركه رحمة ربه ، وما أشد وقع كلمات الكتاب المقدس(٥) بشأن من هم على نمطه اذ تقول « لتكن فضتك معك للهلاك » .

* * *

كانت الكراهية الرعناء تسيطر على أمير أنطاكية سيطرة دفعته الى التخلى عن مد يد المعونة الواجبة عليه لاخوانه ، وبينما كان

الكونت « جوسلين » ينتظر المساعدة من الأغراب اذا بالمدينة العتيقة تسقط في يد زنكي ·

هاهى ذى الرها التى حافظت على الاسم المسيحى وسلمت من بدع الكفار بفضل تمسكها بتعاليهم الرســول « تاديوس » وكلماته تكابد الآن رق العبودية المهيمن رغم أنها لا تستحقه ·

وقد ورد فى الأخبار أن الرسول توما كان مدفونا فى هذه المدينة ، وكذلك الرسول « تاديوس » و « أبجار » الملك الطوبانى حاكمها العظيم الذى أورد « يوسيبيوس » القيصرى كتابه الى السيد عيسى المسيح فى تاريخه الكنسى فيقول « يوسيبيوس » ان « أبجر » كان أهلا لأن يتسلم ردا من المسيح ، ثم يورد كتاب كل منهما الى الآخر ، ويتبع ذلك بقوله : « واننا لنجد فى محفوظات مدينة الرها العامة التى حكمها أبجار هذين الخطابين بين الوثائق التى تحتوى على أعمال الملك « أبجار » وهما محفوظان هناك منذ أحقـــاب بعيدة » ·

ان هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن هذا الموضوع ، لكن هيا بنا لمواصلة التاريخ ·

(٦)

فى أثناء السنة الأولى من حكم الملك بلدوين (الثالث) احتل الترك واحدا من معاقلنا الحربية فى مكان اسمه وادى موسى(٦) فى منطقة سورية الجنوبية فيما وراء الأردن ، وقد تم استيلاؤهم عليه بموافقة السكان القاطنين فى تلك الناحية فهم الذين استدعوهم · ويقع هذا المكان قرب النبع الذى فجر موسى ماءه من الصخرة

فشرب منه بنو اسرائيل ، وارتوت منه أيضا دوابهم وذلك حين شكوا اليه أنهم موشكون أن يموتوا ظما ٠

فلما ذاع خبر استيلاء العدو على هذه القلعة وفتكه بالمسيحيين النازلين بها نهض الملك رغم شدة صغر سنه وجمع العسكر من كافة أرجاء البلاد وسار بهم عابرا الوادى الشهير الذى يوجد به الآن البحر الميت والمعروف أيضا باسم « بحيرة الأسفلت » ، وانطلق صاعدا الاقليم الجبلى لبلاد البتراء العربية فى أرض « مؤاب » ، ومضى من هناك فاجتاز ناحية الكرك المعروفة الآن عادة بأرض « مونت ريال » حتى بلغ هدفه ، وكان خبر تقدمنا قد بلغ سمع سكان الاقليم ففروا بنسائهم وأولادهم الى القلعة التى كان تحصينها يحمل من يراها على الظن بأنها منيعة على من يرومها ، وضاع عبثا ما حاولته قواتنا من بذلها جهد أيام طويلة وقفتها أمام ذلك الموضع ، ولم ينفع رجالنا ما ألقوه من القذائف الحجرية وما أطلقوه من السهام التى كانت تنهال كصيب من المطر ، ولا ما استعملوه من وسائل الهجوم الأخرى ، وأخيرا تبين للصليبيين أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على ذلك الموضع بفضل استحكاماته الحربية ، فلم يجدوا بدا من اللجوء الى وسائل وخطط أخرى ٠

كانت الناحية كلها مكسوة بأشجار الزيتون ومزارعه الفسيحة التى تغطى سفح الأرض فتبدو أشـــبه ما تكون بالغابات الكثيفة المتشابكة ، وكان سكان هذه المناطق يعيشون كما عاش أسلافهم من قبل على ما تنتجه هذه المزارع التى لو توقفت عن الانتاج لضاع مصدر حياتهم ، ومن ثم عزمنا على اجتثاث هذه الأشجار وجعلها طعمة للنيران ، وكان الظن عندنا أن يعمد الأهالى الجازعون من دمار بساتين زيتونهم الى أحد أمرين : اما أن يستسلموا لنا أو يقوموا بطرد الترك الذين اعتصموا بالقلعة ثم يسلموها لنا ٠٠ وآتت هذه الخطة أكلها اذ ما كاد الأهالى يرون تساقط أشجارهم

الغالية على نفوسهم حتى غيروا خطتهم فعرضوا على الملك أن يسلموه القلعة ان سمح للترك الذين استنجدوا بهم بالرحيل سالمين ، والا يعاقبهم الملك هم أنفسهم وذويهم بالموت جزاء مسلكهم الشائن ٠

وحينذاك تسلم الملك القلعة وأقام بها حامية وزودها بالمؤونة والسلاح ٠

وهكذا أتم الملك بنجاح أول حملة له بعد اعتلائه العرش ، وعاد منصورا هو وجيشه الى بلدهم ، ورجعوا سالمين آمنين فى انفسهم وأرواحهم ٠

(٧)

شمخ (عماد الدين زنكى) بأنفه تيها لما أحرزه من النصر الرائع باخضاعه مدينة الرها فبادر فى الحال الى بذل جهده فى حصار قلعة « جعبر »(٧) الواقعة على نهر الفرات ، وبينما كان قائما على حصارها اذا بحاكم البلد يتآمر مع بعض غلمان زنكى وخاصة خصيانه ، واغتنموا ليلة أفرط فيها الأمير زنكى فى الشراب حتى بلغ السكر به مبلغا لم يكن يبلغه فى العادة ، فاستلقى فى فسطاطه ، فوثب عليه بعض خاصته فذبحوه ، فلما جاءنا نبأ مصرعه قال أحد رجالنا معلقا : « ياله من نبأ سعيد مبهج ٠٠ ان قاتلا مذنبا عرف بظمئه للدماء قد أصبح هو ذاته ملطخا بدم نفسه » ٠

ولجأ القتلة الى حاكم المدينة المحاصرة فأخفاهم وراء أسوارها حسب اتفاق بينه وبينهم ، وبذلك نجوا من انتقام أتباع الراحل القتيل ٠ أما جيش زنكى فقد فر على بكرة أبيه حين حرم من معونة مولاه وحمايته له ٠

وترك زنكى من بعده ولدين اســـتقر أحدهما فى الموصـــل بالمشرق ، واستقر الآخر فى حلب واسمه نور الدين محمود الذى كان رجلا ألمعيا فطنا ، يخشى ربه فى نظر قومه ، وقد حالفه حسن الطالع فتوسع فيما ورثه عن أبيه ٠

(٨)

وحدث بعد فترة وجيزة من وقوع هذا الحادث ، وفى السنة الثامنة من حكم « بلدوين » الثالث أن قدم الى بيت المقدس(٨) وال تركى مع بعض كبار خاصته ، كان قد ساء ما بينه وبين مجير الدين ملك دمشق حتى استحق غضبه عليه ، وزاد على ذلك بأن حل عليه سخط الحاكم (معين الدين أنر) الذى كان سلطانه فى بلاد الدماشقة أعظم من سلطان صاحبها ذاته ، وقد أكد هذا الوالى (التركى الطنطاش) للملك بلدوين ولأمه (مليزند) أنه سوف يسلم لهما مدينة بصـــرى التى تحت حكمه ومعها حصـــن صلخد(٩) أن هما أجزلا له العوض لقاء تسليمهما مدينة « بصرى » التى كانت تعتبر عاصمة منطقة بلاد العرب الأولى التى تسمى فى اللسان الدارج باسم « بصرى » ٠

ويقال ان هذا الرجل النبيل واسمه « الطنطاش » كان أرمنى المولد ، تميز بطول القامة وجمال الطلعة ، وكان كل ما فيه يشـــير الى طبيعته البطولية ٠

* * *

حينذاك عقد مجلس عام من النبلاء الصليبيين بســطت فيه أسباب زيارة هذا الرجل(١٠) العظيم ، ونوقشت كل صغيرة وكبيرة من اقتراحه الذى تقدم به مناقشة دقيقة ، فاتفقوا أخيرا باجماع الآراء على وجوب منحه تعويضا ضخما مرضيا له ، وأن يستنفر

الناس الى حملة ترسل الى بصرى ، ورأوا أنه اذا تم عن طريق هذا الرجل ادخال « بصرى » الى ممتلكاتنا وضمها الى الاسم المسيحى على الدوام فان مثل هذه الاضـــافة فى المملكة ستكون مقبولة كل القبول عند الرب ، ومن ثم تم بين الطرفين اتفاق ارتضاه كل منهما ، وصدر الأمر الى المنادين أن ينادوا بتجمع كل عسكر المملكة فى الحال ، وبعد أن سألوا الله المعونة حمل الملك ونبلاؤه صليب الخلاص المانح الحياة وزحفوا شطر « طبرية » حيث ضربوا معسكرهم قرب الجسر الذى تنفصل عنده مياه الاردن عن البحر ٠

وكان بين الملك « بلدوين » الثالث و « أنر » تحالف وهدنة مؤقتة منذ أيام « فولك » والد الملك الحـــالى ، ومن ثم كان من الضرورى أن يعلن الحاكم رسميا حتى يكون عنده مبرر شرعى حسب عادة البلاد لجمع العساكر والاستعداد للمقاومة ، والا بدا الملك وكأنه قد دخل أرضه على غرة منه ومن غير اعلامه اعلاما رسميا ، وهو أمر يخالف قانون المعاهدات ، ومن ثم أرسلت الرسل الى « أنر » ، ولكنه كرجل فطن لبيب أرجأ الاجابة بعض الوقت حتى انقضى شهر انصرف خلاله انصرافا تاما لضمان المساعدات تأتيه عن طريق المفاوضات ، كما ضمن المال من كل زعماء بنى جنسه ، سواء منهم من جاوره ومن بعدت داره عنهم ، فلما تجمع عنده العدد الكبير من شتى النواحى أرسل الرسالة التالية الى الملك ونبلائه يقول لهم فيها :

« لقد خالفتم شروط الاتفاق الذى ارتضيتموه ، اذ رحتم تستعدون لدخول أرض مولاى ، ورحت أنت أيها الملك تبسط حمايتك على تابعه الخـــارج عليه (الطنطاش) الذى لا يستحق الرعاية ، والذى يعمل عكس ما تمليه عليه يمين الطاعة التى اقسمها له ، واننا لنتوسل الى الملك المعظم فى ضراعة أن يكف عن

هذا العمل المغاير للعدل ، وأن يحافظ على روح الاتفاق السابق عقده بيننا وبينه حتى يبقى العهد سليما ، واننا لمستعدون بكل اخلاص أن نرد على الملك كل ما انفقه من أموال صرفها فى تجهيز هذه الحملة » ٠

فكان رد الملك على هذه الرسالة ما يلى بعد اســـتشارة الجميع :

« اننا غير عازمين أبدا على أن ننقض بأى حال من الأحوال نصوص الاتفاق الذى أبرمناه معكم ، لكن لما كان هذا الرجل النبيل (الطنطاش) قد جاءنا ليناقش معنا بعض المسائل بروح ودية ، فان الشرف يأبى علينا أن نخذل رجلا وضع أمله فى مملكتنا ، ومع ذلك فاننا قانعون - اذا سمحتم لنا - أن نرده آمنا الى المدينة التى تخلى عنها لصالحنا ، وليفعل به مولاه - بعد رجوعه الى قلعته - ما يشاء حســب قوانين البلاد ، وليجازه بالعوض الذى يراه أهلا له ، أما نحن فلن نصيب صديقنا ملك دمشق بأى اذى ، سواء فى خروجنا أو رجوعنا حســب اتفاقنا ، ملتزمين فى ذلك بعهد الله » ٠

❋ ❋ ❋

كان « أنر » هذا رجلا كبير الحكمة محبا لشعبنا ، وكان له ثلاثة بنات زوج احداهن بملك الدماشقة الذى اشرنا اليه حالا ، وزوج الثانية من نور الدين محمود بن زنكى ، وأما الثالثة فقد زفها الى فارس عظيم هو « مارجار »(١١) ٠

وكان قلب « أنر » ينطوى على ما فيه خير للمملكة ، لا لأنه كان والد زوجة أحد اقارب الملك فقط بل وأيضا لما طبع عليـــه من رجاحة العقل ، غير ان الملك كان متوانيا بطبعهمكبا علىمعاقره الخمر، مسلما زمامه للهو ، ولا يعنيه غير ملذاته ، كما كان غارقا الى أذنيه فى الفجور ٠

وكان « أنر » كما ذكرنا قد بذل جهودا جبارة ليكسب مودة الصليبيين مصطنعا شتى أساليب التودد التى تؤدى الى كســب الأصدقاء ، وسواء أكان فى سلوكه هذا صادرا عن نية صادقة واخلاص للغرض الذى يسعى اليه ، أو كان أمرا فرضـــته عليه الضرورة وألجأته اليه الظروف المحيطة به على الرغم منه فذلك أمر متروك تقديره لذوى الفطنة ، وسواء أكان دافعه هو هذا الأمر أو ذاك الا أنه كان يشعر نحو ختنه نور الدين بنفس الشك الذى كان يساوره من قبل تجاه أبيه عماد الدين زنكى ، اذ كان يخاف أن يقوم نور الدين فيخلع الملك الذى كان هو الآخر ختنا له ، وان كان صاحب دمشق هذا رجلا جاهلا تمام الجهل ، فان تم ذلك ضاعت مقاليد السلطة من يده هو نفسه ٠

كان هذا هو السبب الحقيقى الذى حمله(١٢) على أن يعتبر صداقتنا ضرورة ملحة للحفاظ على مصالحه ، ومن هنا كان سعيه الحثيث بكل الوسائل لضمان اســـتمرار هذه المودة بيننا وبينه ، ويبدو أن هذا الرجل الفطن كان على جانب من بعد النظر فى التنبؤ بما سوف يقع ، فقد وقع الذى كان يخشاه ، اذ ما كادت توافيه منيته حتى عمد نور الدين بموافقة الدماشقة ــ الى خلع الملك الحاكم عنوة واستيلائه هو ذاته على السلطة ٠

ومن أجل هذا أجهد (أنر) نفسه فى اخلاص لرد ما أنفقه الملك الصليبى على تجهيز الحملة ، كما صدق فى اعادته الى بلده

سالما لم يصبه أذى أو تلحقه مضرة ، ولاشك أنه كان لابد له أن ينحونحوا أقل عداء تجاه الملك وجنده فى هذه المسألة لو أنه استطاع أن يكبح جماح حلفائه الذين استدعاهم من الخارج ، ذلك لأنه توفرت لدينا الشواهد الجمة الموثوق بها التى تقدم الدليل القاطع على اخلاصه ووفائه وحزمه فى كثير من الأمور ٠

(٩)

كان من بين الرسل الذين جاءوا بهذا التقرير شخص معين اسمه « برنارد فاشيه » الذى كانت تربطه بالملك وشيجة قربى ورحم ماسة ، فلما وقف الناس على هذه الحقائق أخذوا منذ لحظتهم هذه يرمون « برنارد » علانية بالخيانة ويعدون كل من يحاول ثنيهم عما هم بصدده واعاقتهم عن الزحف على دمشق خائنا للصليبيين ، وتعالى ضجيجهم ، وأخذ من ليسوا فى العير ولا النفير يطالبون بمتابعة الزحف على هذه المدينة العظيمة ، ويصرون على ألا ينصرفوا حتى يتم لهم الاستيلاء عليها ، مع أن الواجب كان يفرض عليهم أن يعترفوا بالفضل لذلك الرجل الشريف الذى أدى خدمة للمسيحية سوف تظل مذكورة على مدى العصور ، وكان الواجب يقتضيهم أيضا تنفيذ اقتراحه بحذافيره بكل اخلاص وأمانة ، اذ لولا اقتراحه هذا لظلوا يناضلون حتى الموت ٠

وتغلبت ارادة الغوغاء وسط هذا الصخب العالى ، فضرب بمشورة أصحاب العقول الراجحة عرض الحائط ، ومن ثم أعدوا حوائجهم ، وقوضوا خيامهم ، ووجهوا زحفهم نحو مدينة دمشق ، فلما فرغوا من اجتيازهم « كهف رؤاب » أصبحوا فى السهل المسمى « بالسوق الذى جرت عادة العرب والشرقيين على عقد أسـواقهم التجارية السنوية به ، وبدأ جيشنا يواجه فى هذه الناحية جموعا كثيفة من عسكر العدو ، وكانت هذه الجيوش من الكثرة بالدرجة

التى حملت حتى من كانوا اشد القوم الحاحا على الزحف يرحبون بالرجوع من حيث جاءوا ما أمكنهم الرجوع ، لكن علي الرغم من فزع عسكرنا من روعة نظام العدو الا أنهم أخذوا يستعدون للقتال فى لحظتهم هذه ، غير أن الملك نزل على مشورة أهل الخبرة بفنون الحرب فأمرهم أن يبدءوا أولا بنصب الخيام ، فتم الأمر على الصورة التى أمر بها ، ثم أراح الجند أبدانهم المرهقة بعض الوقت بقدر ما سمحت به ظروفهم القاســـية ، وانقضى الليل دون أن تذوق جفونهم الكرى لانشغالهم بالحراسة ، كل ذلك وعسكر العدو آخذ فى التزايد زيادة جاوزت الحد ، حتى أحدقوا بقواتنا وهم على تمام الثقة من أن لن يطلع الغد حتى يصبح الصليبيون فريسة هينة لهم يأخذونهم بالأيدى أخذهم أقل العبيد شأنا ٠

لكن لما كان رجالنا أهل فطنة فقد ظلوا متيقظين في حراستهم المستمرة ، ولم يقصروا فيما يمليه عليهم الواجب ، سالكين في ذلك مسلك الأبطال الصناديد ، حتي اذا طلع النهار عقدوا من بينهم مجلسا قرروا فيه التقدم الي الامام ، اذ لم يكن الإرتداد أمرا مشينا فحسب ، بل كان أيضا مستحيلا من الناحية الواقعية لأن العدو كان محدقا بهم تمام الاحداق من كل جانب ، معطلا كل حركة يقدمون عليها فى كلتا الحالتين ٠

غير أن رجالنا تسلحوا بالشجاعة فشقوا فى النهاية لأنفسهم طريقا خلال صفوف الأعداء وتقدمت قواتنا نحو هدفها صفا واحدا وان اتسم تقدمهم بالبطء الشديد ، لأنهم كانوا مثقلين بما عليهم من الزرديات والخوذ والدروع ، وزاد من هذا الابطاء كثرة جند الخصم المحيطين بهم [٢٠] ٠

أما فرق الخيالة فكانت تتقدم بسرعة لعدم وجود أمتعة معها تثقلها ، ولكنها كانت مضطرة أن تجارى اخوانها المشاة فى بطء

الحركة حتى لا تختل الصفوف ، وحتى لا تواتي الفرصة العدو فيشق طريقه بين جموعها ، فكان لابد أن يكون السير على نسق واحد ٠

وأظهر الفرســـان رعاية شــديدة للمشاة حتى انهم كثيرا ما ترجلوا عن جيادهم وشاركوهم متاعبهم ، بل لقد حملوا المنهوكين منهم حتى تخف مشقة السير عليهم ٠

* * *

في هذه الأثناء كان العدو مستمرا في مضايقة الجيش ورميه بسيل لا ينقطع من السهام ، ويجاهد في تمزيق صفوفنا اذ يضاعف محاولاته ، لكن كان الصليبيون يزدادون تماسكا وتجمعا كلما زادهم العدو تهديدا ، وساروا فى طريقهم وقد بارحهم الخوف وازدادت حماستهم اتقادا ٠

على أنهم أشرفوا على المشقة التى ما بعدها مشقة حين اشتد بهم الظمأ الممض ، وزاد من سعاره صعوبة الزحف وحرارة الصيف الشديدة ، لاسيما وأن سيرهم كان عبر أرض قاحلة انعدم فيها الماء لخلو هذا الاقليم كله من الآبار ، وكان الأهالى اذا حل الشتاء جمعوا مياه الأمطار فى خزانات كان بعضها من صنع الطبيعة ، وأخرى صنعوها هم بأيديهم ، على أن هذه الخزانات لم تعد فى هذا الوقت بذات قيمة لأن أسراب الجراد كانت خربت الاقليم ، وجاوزت هذه الأسراب كل تصور حتى فسدت الخزانات وأسنت المياه بسبب تعفن ما بها من الحشرات الميتة ٠

كان الاقليم الذى يسير فيه رجالنا يسمى « تراخونيتس »(١٣)، وقد ذكره لوقا فى انجيله(١٤) اذ قال : « وفيليبس أخوه كان رئيس ربع على أيطورية بكورة « تراخونيتس » وأكبر الظن عندى أن هذا اسم مشتق من « التراخون » لأن الكهوف والمغارات الموجودة تحت سطح الأرض والموجودة فى هذا الاقليم تسمى بالتراخونات ، ويكاد

جميع سكان هذه الناحية يعيشون فى مغارات وكهوف يتخذونها بيوتا لهم ٠

(١٠)

اجتاز الصليبيون بعض هذا الاقليم فى ظروف بالغة الخطورة حتى اذا كانت آخر ساعة من النهار وصلوا الى موضع كان يعرف قديما باسم « ادرعات » أما الآن فيعرف عادة باسم مدينة « برنارد دى تامب » وهى احدى المدن المطرانية التابعة لمدينة بصرى الكبيرة ٠

وكان سكانها قد انضموا الى قوات العدو ومن ثم كابد رجالنا مشقة أفدح من أية مشقة كابدوها من قبل ، ذلك أنهم كانوا اذا أرادوا الحصول على الماء من الصهاريج المفتوحة لم تعد اليهم دلاؤهم التى أدلوها فيها ، اذ يعمد العدو المختفى فى الكهوف التى تحت الأرض الى قطع الحبال المربوطة بها ، فتضاعف ظمأ رجالنا بسبب فشلهم فى أملهم الذى أجهدوا أنفسهم من أجله طويلا ٠

ولقد ظل رجالنا أربعة أيام سويا لم يذوقوا فيها للراحة طعما لمكابدتهم العذاب طول الوقت ، ولم يكونوا يجدون لحظة فراغ حتى فى الليل تنال فيها أجسادهم ما تنشده من الراحة هنا ، وبينما كانت جموع العدو تتزايد يوما بعد يوم كانت أعدادنا فى تناقص مستمر بسبب مقتل البعض منهم واصابة البعض الآخر بجراحات مميتة ، وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء رجال آخرون استبد بهم الفزع وداخلهم اليأس فتواروا وراء الأمتعة ، أو اختفوا بين الخيول ودواب الحمل ، وتصنعوا الوهن حتى لا يرغمهم قومهم على الخروج فيقاسون ضراوة هجمات العدو عليهم ، وأخذت رخات السهام الكثيفة وغيرها من القذائف تتساقط على قواتنا كالمطر فى غزارة ، حتى لقد بدت

جموع الناس والحيوانات وكأنها مغطاة بالرماح ، ولشد ما كان يستلفت النظر دأب العدو من غير انقطاع فى الهجوم ، وكيف كان الصليبيون يقاومونه مقاومة باسلة لا يفل غربها ، ومع ذلك فقد استمر رجالنا يرمون بالأقواس والنشاب ، لكن قذائفنا كانت أهون من أن تصيب العدو بأذى وذلك لعدم وجود عائق يعوق قدرته على الحركة ٠

واستمر الصليبيون فى سيرهم وقد أحدقت بهم الأخطار من كل جانب ، حتى اذا كان اليوم الرابع صاروا قاب قوسين أو أدنى من غايتهم ورأوا المدينة رؤيا العين ، وتمكنوا ولكن بعد صعوبة كبرى من طرد العدو بالقوة والاستيلاء على المياه التى كانت تتدفق سلسلا هادئا بين الصخور ، فضرب الجند معسكرهم على مقربة منها ، ومنحوا انفسهم فترة قصيرة من الهدوء والراحة الجثمانية ، ومن ثم نعم الصليبيون هذه الليلة بشىء من الاستجمام مع تشوقهم الحار الى طلوع الغد ٠

لكن حدث فى هدأة الليل وفى منتصفه أن تسلل من المدينة سرا رسول يحمل أخبارا كريهة واتخذ طريقه عبر خطوط العدو الى معسكرنا ، وصرح أن معه كتبا الى الملك لا يجوز أن يطلع عليها أحد سواه ، وتوسل الى القوم أن يأخذوه حالا اليه فأدخلوه عليه ، فاستدعى الملك النبلاء وفيهم السيد النبيل(١٥) حاكم المدينة السابق الذى كان السبب فى أن نصل الى ما نحن فيه الآن من مأزق حرج ، واذ ذاك أماط الرسول اللثام عما يحمل الا وهو أن زوجة هذا النبيل قد غدرت بالمدينة واسلمتها الى التركمان الذين ادخلوا فيها قواتهم ، واستولوا على جميع معاقلها بما فى ذلك القلعة ذاتها ، وانفردوا بوجودهم فيها ٠

أزعج نبأ هذه الكارثة رجالنا فعقدوا مجلسا انتهوا فيه الى أن خير الطرق التى يسلكونها انما تتمثل فى رجوعهم على جناح السرعة الى بلدهم دون نظر الى ما يتهددهم من الخطر ، غير أن رهطا من زعماء المملكة اجتمعوا سرا بالملك وأشاروا عليه بامتطاء جواد « جون جومانى » المعروف بأنه يفوق جميع جياد الجيش فى عدوه وقوة احتماله ، وأن يحمل الملك على سلامة نفسه فينطلق وحيدا يحمل صليب النجاة فى يده ، والحق أنهم لم يتقدموا اليه بهذه النصيحة الا بعد يأسهم من قدرتهم على الرجوع ، والا بعد أن أيقنوا أن الجيش بأكمله هالك بعد قليل ، لكن الملك رفض النزول على هذه النصيحة فى اباء وشمم جديرين بمن كان ملكا ، على الرغم من شدة صغر سنه ، فتجلى لهم حينذاك ما سيكون عليه فى سنواته المقبلة ، وأوضح لهم أنه لو أنقذ حياته هو وحده دونهم لظل على الدوام يزدرى نفسه ، لأن هذه الصورة تنطوى على هلاك شعب وهب نفسه للرب •

وعلى الرغم من أن هذه النصائح كانت صادرة عن حب صادق الا أن الملك رفضها وأنكرها ، فسلكوا اذ ذاك طرقا أخرى وأعدوا العدة للارتداد ، ايمانا منهم بأن الهلاك المبين يترصدهم ان هم زادوا فى تقدمهم أكثر من ذلك ، وشعروا لأول مرة أن موقفهم تضاعف صعوبة ، فرث حبل رجائهم وأيقنوا ضياع جهودهم أدراج الرياح ، وشعروا أنه اذا كانت متاعبهم حتى الآن موجعة كل الايجاع وغير محتملة وأن ما لاقوه من شدة يعادله ما يلاقونه بعد ذلك ، الا أن مثابرتهم على متابعة نضالهم شدت من عزائمهم ، ومن ثم راودهم الأمل القوى فى الاستيلاء على المدينة ، وقد ساعدتهم هذه التوقعات التى لازالت فى ضمير الغيب صمودا ، لكن سرعان ما تبين لهم أن أملهم كان برقا خلبا ، وأنه ينبغى عليهم التخلى عن مشروعهم ، لذلك نودى بالعودة ، فتجهزوا على بكرة أبيهم للقفول الى ديارهم •

حين طلع فجر اليوم التالى جاء نور الدين من المدينة التى ذكرناها يسعى مع قوم من الترك لا يحصيهم العد ممن انضموا الى جيشه ، وكان حموه قد استنجد به ليعينه ، الا أن الصليبيين كانوا قد بدءوا رحلة العودة حسبما تواصوا من قبل ، فما كاد الترك يرون هذه الحركة منهم حتى أسرعوا نحوهم مرسلين صرخاتهم العالية فى محاولة منهم لمنعهم من العـــودة والارتداد ، فأورت الصعاب المحدقة برجالنا زناد حماستهم ، فاندفعوا مصلتين سيوفهم وشقوا لأنفسهم طريقا بين صفوف أعدائهم المتلاصقة أمامهم ، غير مبالين بالموت يتخطف أرواح الكثيرين منهم ٠

وصدرت الأوامر بوضع القتلى الصليبيين على ظهور الجمال وغيرها من دواب النقل حتى لا يراها العدو فيعرف كيف أفحش القتل فينا فيقوى ساعده ، ويشتد أزره ٠

كذلك أمر الصليبيون بحمل ضعافهم ومن أثخنتهم جراحهم على دواب الحمل حتى لا يحسب أحد أن أحداً من الصليبيين قد قتل أو أصيب بجرح ، ففعلوا ما أمروا به ٠

بل لقد صدرت الأوامر أيضا الى العجزة أن يستلوا سيوفهم ليوهموا الناظرين على الأقل بما يوحى بما هم عليه من قوة ، فاشتدت الدهشة بالعدو (حتى بأذكى رجاله) من الا يكون بين الصليبيين قتيل ولا جريح بعد تلك السهام الهطالة ، والمعارك العديدة ، والظمأ الممض ، والغبار الكثير ، والحرارة اللافحة التى لا تطاق شدتها ، وقالوا لأنفسهم أن لابد وأن يكون هؤلاء القوم قد خلقوا من الحديد والا ما استطاعوا صبرا على هذا الضغط الشديد عليهم يتحملونه

دون أن يبدو عليهم أى أثر ، فلما أبصر العدو أن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح لجأ الى حيلة أخرى هى اضرامه النار فيما يكسو هذا الاقليم من الحشائش الكثيفة والأشواك الجافة وغيرها من الأعشاب ، هذا الى جانب ما حصدوه من الغلال التى نضجت واستوت على عودها ، وسرعان ما حملت الريح السنة هذه النيران نحونا ، فابتلينا بها شر البلية ، كما ضاعف من مصائبنا اذ ذاك أعمدة اللهب المتصاعدة وسحب الدخان المتكاثفة التى صحبت هذا اللهيب ، فاستغاث الكل بالموقر « روبرت » رئيس أساقفة الناصرة وتضرعوا اليه والدموع تملأ مآقيهم قائلين : « نستحلفك يا أبانا بالصليب الواهب الحياة الذى تحمله فى يدك ، والذى نؤمن ايمانا جازما برفع مخلصنا عليه ، أن تصلى من أجلنا ، وأن تسأله أن ينقذنا من هذه البلايا التى لم نعد قادرين على احتمالها » .

وكانت الريح قد حولت الدخان نحونا حتى اســـودت منه الوجوه اسودادا صيرها كسحنة الحداد وهو ينفخ الكير ، وتعاون سعير اللهب وقيظ الصيف وشدة الظمأ على أن يبلغ الضيق بنا حدا لم نعد قادرين على احتماله ، فلما سمع هذا الرجل التقى حبيب الرب عويلهم وتوسلاتهم بلغ التأثر به غايته ، فرفع صليب الخلاص فى خشوع تام ووجهه نحو النار الملتهبة التى كانت مندفعة نحوه بكل قواها ، وطلب النجدة من العلى الذى سرعان ما أدركتنا رحمته الالهية ، فما انقضت لحظة واحدة حتى انحرفت الريح عنا ، وأصلت أعداءنا الترك شواظا من نار فحاق بهم مكرهم السيىء الذى أرادونا به ، فارتد عليهم مكرهم مدمرا اياهم ، حتى لقد وقفوا فى موضعهم مشدوهين من هذه المعجزة العجيبة الفذة فى نوعها ، والتى كانت فى الواقع بسبب أيمان الصليبيين الذين استطاعوا بفضل صلاتهم أن يستجيب لهم الرب فى سرعة ، وانشغل الترك بالخطر الذى يتهددهم مما أتاح لرجالنا قسطا من الراحة والهدوء .

على هذه الصـــورة كان نزول هذه الأهوال التى لا تحتمل بجيشنا ، وأدرك كبار النبلاء وأصحاب التجربة الواسعة أنه لم يعد فى قدرة الناس طاقة على تحمل المزيد ، فمضوا الى الملك يحثونه على ارسال مبعوث الى « أنر » فى طلب الصلح ، وكانوا مستعدين لقبول أى شروط مادامت شروطا تساعد الجيش الصليبى على العودة الى دياره ، واختير لهذه المهمة رجل مغموز السيرة ، كان قد قام فى أمر كهذا الأمر من قبل فخان شعب المسيح ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعلمون بخبره هذا الا أنهم وكلوا اليه هذه المهمة لاتقانه اللسان التركى ، ويقال انهم سألوه أن يصـــدقهم فى انجاز هذا الموضوع ، فقال لهم « ان الشكوك التى أرمى بها ان هى الا فرية افتريت على زورا وبهتانا ، ومع ذلك فاننى ماض لما ندبتمونى له ، وأدعو الرب ألا يردنى اليكم سالما وأن أهلك بسيف العدو ان كنت مذنبا حقا » ٠

لقد حكم هذا الشقى على نفسه بالموت ، وسرعان ما حق عليه قضاء الرب ، فقد هلك على يد العدو قبل أن يصل الى الترك وينجز سفارته ٠

* * *

ولقد شارك فى هذه الحملة أربعة اخوة من الزعماء العرب البارزين بعساكرهم ، هم أبناء الوالى العربى « موريبيل »(١٦) العظيم ، جاءوا بجنودهم فشنوا غاراتهم العنيفة المســتمرة على أجنحة جيشنا ، غير أن عسكرنا استجابوا للأوامر الصادرة اليهم فلم يجرؤوا على الخروج من صفوفهم للتصدى لهم لأنهم لو فعلوا ذلك لكان ما فعلوه كسرا لوحده الصف وخروجا على الأمر القتالى، وان ذاك يوقع بهم أشد العقاب باعتبارهم فارين من مواقعهم ٠

وكان من اتباع هذا التركى (الطنطاش) الذى معنا فارس من الفرسان لم يستطع صبرا على ما يرى ، وتحرق شوقا لتخليصنا من هذا الأزعاج ، فخرج مستهينا بحياته غير عابىء بالأمر الذى ينهى عن الخروج وغمز جواده غمزة اندفع اثرها فى شجاعة كبيرة ، وطوح بحربته التى فى يده فاستقرت فى صدر أحد الاخوة الأربعة ثم عاجله فاجهز عليه بسيفه وهو بين رجاله ، وألقى بالجثة الهامدة على الأرض ثم عاد الى صفوفنا لم يمسسه أذى ·

وتجمع فى الحال حشد كثيف حول الزعيم الصريع فلما تبينوا انه لفظ أنفاسه وأسلم روحه البائرة أجهشوا بالبكاء عليه فى صوت عال ، وانسـابت الدموع هطالة من مآقيهم معبرة عن حـزنهم العميق ·

أما رجالنا فكانوا أسعد ما يكونون بما جرى ، وتشـوقوا لمعرفة اسم الرجل الذى عرض نفسه للتهلكة حتى اسـتحق الذكر الخالد ، فتبينوا أنه غريب فيهم ، وأظهروا استعدادهم لمسـامحته على خروجه عن القواعد النظامية المرعية ، والتمسوا له العذر فيما فعل فقالوا انه لا يعرف لساننا ، ولم يفهم النداء العام ، ومن ثم فقد حظى بالعفو التام رغم أنه مما لاشـك فيه أنه نهج نهجا مخالفا لقواعد النظام الحربى ، ولكن العمل الذى نهض به عمل جـدير بالثناء ، لا لأنه كان صوابا ولكن لما تمخض عنه ·

بهذه الطريقة اضطربت صـفوف العدو فى هذه الناحية الفسيحة ، وأصبح جيشنا قادرا على التحرك فيها حرا ثم مالبث أن استولى عليها ، فاستعاض بهذا الاستيلاء عما قاساه من الأهوال، وظل سائرا بضعة أيام من غير انقطاع حتى جاءوا الى « كهف رؤاب » ، ولما كان الموضع شديد الضيق وكان اجتيازه من الخطورة بمكان فقد صدر أمر القادة بوجوب تجنبه ، فلما لاحظ « أنر » نائب

دمشق أن الملك كان يقود جيشه تجاه ذلك الوادى المشار اليه بعث اليه رسولا من ناحيته يقول له انه يسعده أن يدعوه الى وليمة فيما وراء هذا المكان أن قبل الدعوة ، لأنه يعرف أن الجيش يكابد نقصا فى المؤونة منذ بضعة أيام • غير أننا لا ندرى أكان « أنر » فى دعوته هذه صادرا عن نية صادقة نحو الصليبيين أم أن ذلك كان حيلة منه لارغام الجيش الصليبى على المسير فى الدروب الضيقة والوديان الشديدة الخطورة ، ولما كان من الطبيعى أن ينظر المرء الى كل عرض يقدمه العدو (ولو كان طيبا) بعين ملؤها الريبة والشك فقد تقرر بالاجماع أن يواصل الصليبيون زحفهم عبر الطريق الأعلى الذى كان أكثر استواء وأقل خطورة •

لم يكن عند رجالنا مرشد يهديهم طريقهم فى الاقليم الذى لابد لهم من اجتيازه ، لكن ظهر أمامهم فجأة فارس لا يعرفونه وقد امتطى صهوة جواد أبيض وراح يخطر أمامهم وعليه درع وزرد من حديد وقميص يصل الى مرفقيه ، وفى يده بيرق أحمر ، فسار بهم هذا الفارس الذى كان كأنه ملاك الرب عبر طريق كان أقصر الطرق المؤدية الى مياه لا يدرى أحد عنها شيئا ، وأرشدهم الى أحسن الأماكن وأكثرها ملاءمة لنصب مخيماتهم ، وكانت هذه الرحلة تستغرق عادة من الحملة خمسة أيام حتى تصل الى الكهف، ولكنهم تمكنوا بهداية هذا القائد من الوصول الى « جدارا » فى مدى ثلاثة أيام فقط •

(١٣)

وتقع « جدارا » هذه فى المنطقة المسماة بالمدن العشر التى ورد عنها فى انجيل « القديس مرقص »(١٧) ثم خرج ايضا من تخوم صور وصيدا وجاء الى بحر الجليل فى وسط حدود المدن العشر » •

وهذه الأرض ــ كما يستدل من اسمها ــ تشتمل على عشر مدن هى : « هيبوس ، وبيلا ، وجدارا ، التى ذكرناها حالا وسبعا اخريات ، وتقع هذه المدينة الأخيرة على التخوم الفاصلة بين أرض العدو وأرضنا ، وحدث حين بلغتها طلائع كتائبنا أن عاود الترك الغارة العنيفة على مؤخرتنا كأنما قد استولى عليهم غضبهم الشرير، لكن سرعان ما تبين لهم عبث جهدهم وذهابه أدراج الرياح فقد صار الصليبيون فى بلادهم ، وحينذاك فضوا صفوفهم وشــرعوا فى الرجوع على بكرة أبيهم الى ديارهم بعد أن أنهكتهم أهوال الدخان، ومسهم لفح الحرارة ، وأعياهم الارهاق ، وقد انقضت هذه الليلة على رجالنا فى هدوء غير مألوف ، فأخذت أجسادهم المنهكة قسطا من الراحة ، ونعموا بالطعام الذى كانوا فى مسيس الحاجة اليه ، حتى اذا طلع صباح اليوم التالى تابعوا زحفهم الى طبرية ٠

ويجمع الذين لازالوا يعون فى ذاكرتهم هذا الحادث أنه لم يكن معروفا اسم قائد(١٨) هذا الزحف الذى ما ان يضرب الجيش مخيماته حتى يختفى عن العيون ولا يعود أحد يرى له أثرا فى أى ناحية من نواحى المعسكر ، لكن ما أن يطلع الصبح على الكون حتى يعود ثانية ليقود الجيش فى زحفه ، ولا يذكر أحد ممن لازال حيا حملة شاهت هذه الحملة فيما اكتنفها من الأخطار طول وجود اللاتين فى الشرق ، ولا رأوا لها مثيلا فيما انتهت اليه من ظهور حاسم على العدو ٠

* * *

ولما عاد الملك الى المملكة وعاد صليب السيد الى القدس أحس الجميع ممن كانوا قد تخلفوا فى البلد بالســرور الطاغى يغمرهم فرحا بعودة أصدقائهم ، وحق لهم أن يقولوا ما قيل(١٩) : « نأكل ونفرح ، لأن ابنى هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد ، فابتدءوا يفرحون » ٠

وبعد فترة وجيزة من هذا الحادث بعث « أنر » المخادع فى طلب هذا التركى النبيل (الطنطاش) بحجة المصالحة ، ومداهنا اياه بكلمات معسولة ، فلما صار هذا الرجل التعيس عنده عامله « أنر » أسوأ معاملة تنطوى على العار ، اذ سمل عينيه فعاش ما عاش بعدئذ يقاسى أسوأ صنوف الفقر والتعاسة(٢٠) ٠

(١٤)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى ناحيتنا اذا بحادث مفجع يلم بامارة الرها يستحق التدوين ، ولابد فى شأن هذا الحادث أن نرجع الى الوراء قليلا رغبة منا فى أن تكون تفاصيله مفهومة كل الفهم ٠ ذلك انه بعد موت زنكى ــ وهو أشد الخلق اضطهادا للعقيدة النصرانية ــ قام ابنه نور الدين فتريث بالموصل بعض الوقت حتى يفرغ من أمر وراثته لامارة أبيه ، ولم يستبق من أتباعه فى الرها سوى نفر قليل لحمايتها ، ولما كان بقية سكانها من غير هذا النفر شديدى التمسك بعقيدتهم المسيحية فقد بعثوا فى السر رسلا من لدنهم الى كونت « جوسلين » ، وأخبروه أن مدينتهم تكاد تكون خالية الا من رهط قليل من الترك لحراسة القلعة ، أما أمر البلد فمتروك فى الواقع لهم هم وحدهم ، وكان الايمان المسـيحى منذ عهد الحواريين قد ترسب فى قلوب أهل الرها حتى لم يكن بينهم ــ كما قلنا فى موضع غير هذا ــ أحد من أصحاب الديانات الأخرى ، لذلك فانهم ألحوا على الكونت « جوسلين » الحاحا لا مزيد عليه وتوسلوا اليه أن يحشد المقاتلين ويسرع الى المدينة التى سوف يسلمونها اليه حال وصوله دون أن يخشى من وراء ذلك خطرا أو يصادف عقبة ٠

وبادر جوسلين فجمع عسكر الامارة من المشاة والخيالة على السواء ، واستصحب معه بلدوين صاحب مرعش وكان من النبلاء

الأقوياء • وعبر النهر بسرعة ، وما كاد الليل يسدل سدوله حتى ظهر بلدوين هو وجميع من يتبعه امام الرها ، فاغتنم الأهالى سكون الليل واستغراق حراس القلعة في سباتهم فادخلوا بعضا من رجال الكونت بواسطة الحبال والسلالم التى دلوها اليهم ، ففتح هؤلاء الابواب لبقية من كانوا ينتظرون فى الخارج ، فأقبلوا على بكرة ابيهم وانطلقوا فى جميع رحاب المدينة وأعملوا السيف فى جميع من صادفوهم من رجال العدو الذين قدرت النجاة لبعضهم ، ثم بلغوا القلعة •

هكذا تمكن الكونت وعسكره المسيحيون من الاستيلاء على المدينة أياما عدة ، ولكنهم فشلوا فى أخذ القلعة لشدة تحصينها وحسن تزويدها بالميرة والسلاح والجند ، ويرجع معظم السبب فى فشل قومنا فى هذه الناحية الى أن العسكر لم يستصحبوا معهم الآلات الحربية ومايلزم لبنائها ومايحتاجون منه لصنعها ، كما لم يكن بالمدينة شىء من هذا القبيل يصلح لمثل هذا العمل •

(١٥)

خرجت الرســـل أرتالا تحمل الى الشعب المسيحى أنى كان خبر هذا النصر ، وتدعو المقيمين فى الناحية الى الاسراع الى هناك للمســاعدة فى أخذ المدينة والمحافظة على دوام بقاء الملة المسيحية التى عرفتها الرها بفضل الرب ، فغمرت النشوة قلوب النصارى انى كانوا بهذا النبأ الذى كان خير عزاء يكافىء الحزن العميق الذى كانوا يحسونه بسبب سقوط الرها ، غير أن البكاء مالبث أن حل محل الغبطة الشاملة ، واستحالت رنات المثانى الى سيل من انات الأسى الذى عاد من جديد أشد مما كان عليه من قبل ، ويرجع السبب فى ذلك الى أنه ما كاد نور الدين يعلم بما فعله أهل

الرها من تسليم البلد الى الكونت حتى حشد العسكر من شتى نواحى المشرق ، وأمر المنادى أن ينادى فى أهالى المدن المجاورة للتجمع فى مكان واحد ، ثم فاجأ الرها بالظهور أمامها وأحدقت قواته بها ، وبدأت عمليات الحصار ، فصدق فى ذلك ما قيل(٢١) « من أن السيف يترصدهم بالخارج ، والرعب يغشاهم فى الداخل » ذلك لأن صفوف العدو الموجودة خارج المدينة استعدت للقتال ، وأغلقت جميع المنافذ فهدد الموت الصليبيين · أما فى الداخل فقد أخذ الترك الذين بالقلعة يبثون الفـــزع فى نفوس أهل ملتنا ، ويراوحونهم ويغادونهم فى الغدو والآصال بالغارات يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر ·

لم يدر الصليبيون ماذا يفعلون اذ استحكمت النوازل الجمة بهم ، غير أنهم عمدوا الى الاكثار من عقد الاجتماعات فيما بينهم للتشاور فيما يفعلون ، وكانوا فى كل مرة يغيرون خططهم ، كما كانوا كلما اقترحوا خطة جديدة وجدوا سبل السلامة قد سدت فى وجوههم ، ومن ثم ادركوا ألا نجاة لهم مالم يخاطروا بمواجهة الموت ذاته ، ثم رأوا أخيرا تحت هذه الظروف الزمانية والمكانية المحيطة بهم أن مجابهتهم العدو ومجاولتهم شق طريق لنجاتهم بحد السيف خير من تحمل أهوال الحصـــار الذى لابد أن يؤدى الى زيادة حاجتهم للطعام ، وإذ ذاك يسترقهم الترك ويفرضون عليهم الأمر المرير ، ووافقوا كلهم على هذا الرأى ، ومع ما كانت تنطوى عليه هذه الخطة من الخطر الفادح الا انها كانت الطريق الوحيد الذى لابد لهم أن يسلكوه اذا ما قيس بغيره من الطرق التى تهددهم بأذى أكبر وأفدح ·

أما الأهالى الذين يرجع الفضل الى جهودهم الحماسية فى دخول الكونت وعسكره المدينة فقد اســـتولى عليهم من الاحباط

ما تلاشى معه كل أمل لهم فى المقاومة ، ورأوا كيف سـدت فى وجوههم جميع سبل النجاة ، وادركوا أنهم سوف يلاقون الهلاك ـ كأبشع ما يكون الهلاك ـ ان هم ظلوا مقيمين حيث هم فى الرها بعد مغادرة الكونت لها ، ولذلك آثروا الرحيل عنها بنسـائهم وأبنائهم ، وفضلوا أن يشاطروا اخوانهم رجال الجيش الصليبى المصير المجهول الذى لابد لهم منه بدلا من أن يقعوا فى براثن موت مؤكد ، أو ما هو أفدح من الموت ، ألا وهو أن يرسفوا فى قيـود الأسر عند عدو كافر ٠

(١٦)

ما كادت الأبواب تفتح على مصـاريعها حتى تدافع الجميع عبرها كأن ليس لهم سواها من سبيل للنجاة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يدركون تمام الادراك أنه لابد لهم من أن يشقوا بسـيوفهم لأنفسهم طريقا لهم خلال صفوف العدو الا أنهم اعتبروا أن كل ما يحدث بعد مغادرتهم المدينة لن يكون بذى بال ، وفى أثناء ذلك كان الأتراك الذين قد فتحوا جميع مداخل المدينة أدخلوا بعض رجالهم اليها ، وراحوا يكثفون ضـغطهم من الخلف على الصـليبيين وأرغموهم على سرعة الرحيل ٠

وسمع الترك الذين كانوا خارج الأبواب فى هذا الوقت ذاته أن بعضا من قومهم لازالوا داخل البلد ، وأنهم يحاربون الصليبيين، فدفعتهم الرغبة الجامحة فى الانضمام اليهم للاستيلاء عنوة على الأبواب التى كانت قد فتحت ليرحل منها رجالنا ، ومن ثم احتشدت فى هذه النقطة جموع غفيرة من شتى الرتب والطبقات ، يحاول بعضهم أن يشقوا لأنفسهم طريقا للخروج ، والبعض الآخر يجاهد للدخول عنوة ، مما أسفر عن عراك شرس فى هذه البقعة الضيقة تمخض عن عواقب وخيمة اكتوى بنارها كل من الطرفين ، فكان

العدو فى الخارج يقاتل قتالا ضاريا عساه أن يتمكن من الدخول ، لكن انتصر عليه الصليبيون بفضل بسالتهم واصرارهم ، وحالفهم النجاح فى النهاية حين شقوا طريقهم بحد السيف وانتشروا فى السـهل كله ، لكن بعد أن اسـتحر القتل وهلك الكثيرون من الطائفتين ٠

ياالله ما كان أبشع المنظر اذ ذاك وأدعاه للرثاء الذى لا مزيد عليه ! ٠

لقد كان هناك جيش من الأهالى لا يعرف الحرب ولم يكن له عون ، وكان هناك أرتال من الطاعنين فى السن وجموع من المرضى، والأمهات والعذارى الرقيقات والعجائز المسنات ومن الصغار بل والرضع على صدور أمهاتهن ، وقد تزاحمت جموعهم الكثيفة عند الممر الضيق فداست الخيل بسنابكها من داسته منهم ، وهلك من هلك من تزاحم هذه الجموع ، وراح غير هؤلاء وهؤلاء يزاحم بعضهم بعضا وقد تناهبتهم سيوف الترك الذين تجردت قلوبهم من كل رحمة ٠٠

كما هلك فى الوقت ذاته أسوأ الهلاك الجزء الأعظم من الأهالى من الرجال والنساء الذين آثروا متابعة الجيش الناكص على أعقابه، ولم ينج الا القليل بفضل قوتهم وبأسـهم أو بفضـل الخيل التى يركبونها ٠

❋ ❋ ❋

حين أدرك نور الدين أن الصليبيين يسـتعدون للعودة الى ديارهم جمع كتائبه ليقصهم ، وأعد جنده للمعركة ، ورتبهم أحسن ترتيب ، وشد على مؤخرة الصليبيين بسلسلة من الهجمات الموصولة فاضطروا لأن ييمموا وجوههم شطر الفرات الذى كان على بعد

اربعة عشر ميلا من الرها ، وعانى الكونت وعسكره في اثناء زحفهم كثيرا من الغارات التى لا تنقطع ، كما صادفوا كثيرا من الأخطار الماثلة أمامهم ، ولم تخل مرحلة من مراحل زحفهم من هجمة يشنها عليها جموع كبيرة ، أو هجمات فردية مما ألحق بالجانبين خسائر جمة فادحة .

ومات فى هذا الارتداد الرجل النبيل الذى أشرنا اليه من قبل الا وهو بلدوين صاحب مرعش ، وكان محاربا جلدا تجلت ألمعيته فى انجازاته الحربية ، كما هلك فى هذه الأثناء كثيرون كانوا من علية القوم الذى يستحقون خلود الذكر .

الا فليتغمدهم الرب برحمته السرمدية !!

واذا كان النسيان قد سحب ذيوله على اسمائهم فالأمر الذى لا مشاحة فيه هو أنها مكتوبة فى عليين ، لأنهم ماتوا ميتة رائعة فى سبيل العقيدة ، من أجل حرية شعب المسيح .

لم يكن عسكر الكونت مكافئا أبدا لعسكر العدو ، فقد فقد الكونت الجانب الأكبر من جنده مما أعجزه عن الصمود طويلا فى وجه هجمات الترك المتواصلة ، وحينذاك رأى أن يعمل للحفاظ على حياته فعبر الفرات وارتد الى سميساط ، أما غيرهم فقد هاموا على وجوههم مشردين ، كل حسبما يراه حسنا ، مخلفين وراءهم ما كان معهم من متاع وتجهيزات ، اذ لم يعد يشغل بالهم سوى حياتهم وسلامتهم .

وســـرى خبر هذه النكبة مســـريانا واسعا فى جميع البلاد المجاورة ، كما أن الذين كانوا قد فرحوا بعودة مدينة الرها اليهم أصبحوا الآن يرمضهم الحزن المرير لضياعها ثانية من أيديهم ، ولمقتل النبلاء واندحار الشعب الصليبى .

(١٧)

وفى حوالى هذا الوقت سار فى الطريق الذى لابد ان يسير فيه كل الخلق بطرك بيت المقدس وليم ، صاحب الذكرى الخالدة ، وكان رجلا متواضعا يخاف الله ، وكان موته يوم ٢٧ سبتمبر(من عام ١١٤٥) بعد خمسة عشر عاما من توليه البطركية ، فلما كان الخامس والعشرون من يناير من السنة التالية (١١٤٦) اختير مكانه « فولشر » رئيس أساقفة صور الذى هو الثالث من أسلافنا فيها ..

وحدث فى أحد أيام عيد الغطاس أن أصابت صاعقة كنيسة القبر القائم على جبل صهيون ، وأحدثت بها تلفا جسيما ، فكانت نذيرا ارفضت له قلوب أهل المدينة كلهم ، واعتبرناه طالع شـؤم ونذير سوء ، كما توالى لبضعة أيام ظهور نجم مذنب وسـوى ذلك من العلامات التى لم يعتدها أحد ، وشاعت نبوءات بأحداث كبار قادمة .

* * *

ولما كانت كنيسة صور قد خلت من رئيس يدبر أمورها فقد قام الملك وأمه اللذان يقع على عاتقهما أمر تسـيير دفة المملكة والحكومة كلها ، فاجتمعا فى صـور بالبطرك المعظم الذى كانت شئون كنيستها مناطة به من قبل ، كما اجتمعا بكبار أساقفة نفس الكنيسة ، وكان الهدف من هذا الاجتماع تعيين رئيس أساقفة لصور، وتناقشوا جديا ــ كما ينبغى فى مثل هذه المسائل ــ فى موضـوع اختيار راع لها ، واختلفت وجهات النظر فى ما بين بعضهم والبعض الآخر ، اذ طالب فريق بتعيين « رالف » المستشار الملكى فى هذا المنصب ، وهو رجل لا يستطيع أحد أن يطعن فى علمه ، ولكنه كان

شديد الانغماس فى المسائل الدنيوية ، وكان « رالف » هذا انجليزى المولد ، وكان شديد الوسامة ، اثيرا عند الملك والملكة ، بل ومقبولا عند الجميع ورجال البلاط ، وكان الملك وأمه ممن يؤيدون اقتراح تعيينه ، ويزكونه أشد التزكية ٠

أما الفريق الآخر الذى كان يعارض هذا الاختيار فقد تزعمه « جون » الذى هو من أهل « بيزا » وكان كبير شمامسة صور ، ثم صار فيما بعد كردينال كنيسة رومة ، ولقب بلقب القديسين « سلفستر » و « مارتن » ٠

كذلك عارض هذا الترشيح « برنارد » أسقف صيدا ، ثم « جون » أسقف بيروت ٠ ولما كان هؤلاء الرجال الدينيون العظام يعارضون اختيار « رالف » فقد أصدروا فتوى ضد الرهط الآخر الذى كان يعتمد على ما يمارسه الملك من ضغط لاختيار « رالف » ، وراحوا ــ اعتمادا منهم على البطرك كحام لهم ــ يسعون السعى الحثيث ليهزموا النفر الآخر ٠

لكن أسفر الأمر عن نجاح المستشار « رالف » غصبا فاغتصب كنيسة صور وممتلكاتها ، وظل محتفظا بموقعه هذا مدة عامين حتى انتهى الأمر أخيرا برفع القضية إلى رومة ، فاصدر البابا « يوجين » فى حضور الأطراف المتنازعة قراره ببطلان انتخاب المستشار ، واعتبار الأمر كأن لم يكن ٠ غير أن « رالف » استطاع بفضل تأييد مواطنه البابا « هدريان » الرابع أن يحصل على كنيسة بيت لحم ، فرسم أسقفا لها ٠

* * *

واستقر « بطرس » قيم كنيسة القبر المقدس ــ وهو من برشلونة

فى اسبانيا العليا ـ فى كنيسة صور برضاء الجميع وموافقتهم ، وكان رجلا شديد البساطة شدة نادرة ، دمث الخلق ، يفيض قلبه بالخوف من الله ، وكان يصون نفسه عن كل الشـــرور ، فحظيت ذكراه برحمة الرب وتمجيد الناس ، وكان نبيلا فى فعاله وأنبل من ذلك فى روحه ، وان حياته وأعماله لتستحق دراسة أطول وأدق من هذه الاشارة العابرة ، ولكن واجبنا فى كتابنا هذا التاريخى أن نتجاوز عن التفاصيل الذاتية وتعود لمتابعة المواضيع العامة ٠

(١٨)

حينما سقطت مدينة الرها عم خبر هذه الكارثة المشئومة كل انحاء الغرب ، وقيل ان الترك المارقين لم يكتفوا باجتياحهم المدينة بل زادوا فعاثوا فسادا وتخريبا فى مدن شعبنا وقراه ومواضعه المنيعة ، واكتسحوا الشرق كله دون أن يجدوا أحدا ينهض لصدهم ، وقاسى شعب المسيح محنا بالغة الأذى من جراء المعارك المستمرة والغارات المتكررة عليه ٠

وانطلق الرسل بخبر هذه الأمور الى كل الشعوب والأمم ، ومضوا الى شتى الأصقاع ، حتى لقد زاروا فيما زاروا البلاد التى ظلت حتى الآن لا تعبأ بما يجرى ، والتى دب فيها التراخى بسبب طول سنوات السلام التى مرت بها ، وناشد هؤلاء الرسل رجال تلك البلاد أن يغيثوهم للانتقام من تلك الأهوال الجسام التى نزلت بهم ، والخطوب التى كرثتهم ، كما ساور القلق البابا « يوجين » الثالث المخلص للرب ، فجزع جزع الأب على أبنائه ، وتعاطف معهم تعاطفا تاما ، فأنفذ من ناحيته الى شتى أقطار الغرب رجالا أهل دين ، بلغاء فى الوعظ ، صادقين فى القول والعمل ليخبروا الأمراء والشعوب على اختلاف أجناسها وألســـنتها أنى كانوا بما يكابده اخوانهم فى الشرق من صنوف المحن التى تضـــيق النفس عن

احتمالها ، كما مضوا يحضونهم على الخروج لمحو عار هذه المصائب المفزعة ، وكان من بين هؤلاء المبعـــوثين « برنارد » راعى دير « كليرفو » الخالد الذكر وحبيب الله الذى كانت حياته الطاهرة مثلا يحتذى فى كل ما هو جدير بالاشارة ، ولما اختير كبيرا للســـفارة التى نهضت لأداء هذه الرسالة التى ترضى الرب قام بها خير قيام وعلى أحسن وجه رغم ضعف بنيته بسبب تقدم العمر به وعكوفه على الصوم الذى يكاد يكون مستمرا ، وقلة ما يأكله قلة ملحوظة ، فراح يذرع أرجاء كل مملكة وكل بلد مع رفاقه أحباب الرب ، يبشر فى حماسة وبهمة لا تعرف الكلل بمملكة الرب ، ويصف بدقة متناهية ما ابتليت به شعوب الشرق من المصائب التى كانت تنصب على رءوسها بلا انقطاع ، واوضح للناس فى جلاء أن مدن المؤمنين التى كانت مكرسة للايمان المسيحى أصبحت تعانى الآن أفظع ضروب العبودية فى كنف الذين يضطهدون اسم المسيح ، وذكرهم أن هؤلاء الاخوان الذين أقدم المســـيح على الموت من أجلهم بنفس راضــية يعيشون الآن ما بين مستجد ومقيد ، وساغب أمضه الجوع ، وأنه قد زج بهم فى غياهب السجن المفزعة الملأى بالقاذورات ، كما دعاهم للقيام بتحرير أخوانهم المضطهدين ، فحرك قلوبهم حتى تشوقوا لمحو تلك الاهانات ووعدهم بأن العون ألالهى وحسن المثوبة التى كتبت للمتقين فى انتظار كل مشارك فى هذا العمل المقدس ٠

وثابر « برنارد » مثابرة كريمة فى اشاعة هذه الرسالة بين الشـــعوب وفى أرجاء الأقطار والممالك المختلفة ، فحظى بالعطف العاجل يحبوه به الصغار والكبار على السواء ، وابدى الناس كافة موافقتهم السريعة على ما دعاهم اليه بنفس راضية ، واقســـموا ليزحفن الى بيت المقدس ، ووضعوا شارة الصـــليب على أكتافهم استعدادا للرحلة ، ولم يقتصـــر الفعل لكلماته المثيرة على العامة وحدهم بل تعداهم الى سواهم من كبار حكام العالم ، ومن يشغلون

أعلى المراتب فى الممالك ، وكان ممن استجاب لدعوته وشارك العامة فى هذه الرغبة أقـــوى ملوك الأرض وأعظمهم شـأنا « كونراد » امبراطور الرومان ، ولويس (السابع) ملك الفرنجة وزمرة كبيرة من أمراء المملكتين ، وخاط الجميع على أكتافهم وثيابهم الصليب المنجى والباعث الحياة ، رمزا لأنهم حجاج أيضا ٠

(١٩)

اتخذ العاهلان (كونراد ولويس السابع) كل الترتيبات اللازمة لتسيير حكومتى مملكتيهما ، وضم كل منهما الى جيشه من دفعه الشـــوق الملح لأخذ العهد بخـــلاص روحه ، فلما تمت جميـــع الاستعدادات اللازمة للرحيل على الصورة اللائقة بالعظمة الملوكية خرجوا فى شهر مايو فى رحلة حجهم ارضاء للرب ، لكن لازمهم سوء الطالع وشؤم النذير كما لو كانوا قد بدءوا سفرهم على غير رضى من رب غاضب عليهم ، فعاقبهم على خطايا الانسان ، فلم يتيسر لهم انجاز أى شىء يرضيه طوال رحلة حجهم هذه ، بل انهم زادوا فى شقاء الذين جاءوا لخدمتهم ومد يد الانقاذ لهم ٠

أجمع رأى الملكين على أن يسير كل منهما قدما مستقلا عن الآخر، وأن يقود كل منهما عسكره على حدة وانفراد ، تجنبا لما قد ينجم بين الناس من شقاق وتطاحن ، هذا بالاضافة الى أن اتباع هذه الخطة يتيح لجنود كل فريق توافر مواد العيش الضرورية ، وكذلك الأعلاف التى لابد منها للجياد ودواب الحمل ٠

واجتازوا « باقاريا » وعبروا نهر الدانوب العظيم عند مدينة « راتسبون » ، ثم نزلوا أرض النمسا جاعلين النهر على يسارهم ، فأفضى بهم السفر لدخول المجر التى استقبلهم ملكها أحســـن اســـتقبال ، ورحب بهم أجمل ترحيب ، فلما غادروا بلاده دخلوا

اقليمى : « بانونيا » ، فأوصلهم السير الى بلاد البلغار وهى « مؤاسيا » و « داكيا » البحرية و « داكيا » الوسطى ، فجعلوا الثانية على يسارهم فبلغوا « تراقيا » وساروا عبر مدينتى « فيليبوبولس » و « أدرنة » الشهيرتين حتى انتهوا أخيرا الى المدينة الملوكية(٢١) ، فتلقاهم امبراطورها « مانويل » بالترحاب ، فأقاموا هنا بضعة أيام نعموا فيها بالراحة التى كانت الجيوش فى مسيس الحاجة اليها ، لاسيما بعد المشاق الجسيمة التى صادفوها ، ثم عبروا البسفور الذى تداعب أمواجه شواطىء القسطنطينية التى تعتبر حدا فاصلا بين أوربا وآسيا ، ودخلوا اقليم « بيثينيا » التى هى أول ولاية آسيوية يبلغها المسافر ، فعسكرت الكتائب فى قرية «خلقدونية» التى لم يكن من العسير عليهم أن يروا منها القسطنطينية التى غادروها منذ قريب ، وكان قد عقد فى مدينة خلقدونية القديمة هذه المجمع المقدس الرابع المكون من ستمائة وستة وثلاثين من كبار رجال الكنيسة زمن الامبراطور « مارنيان » والبابا « ليو » لشجب هرطقة الأسقف « أيوتيش » الراهب الذى نادى بالطبيعة الواحدة للمسيح .

كان سلطان قونية قد علم منذ وقت بعيد بزحف هذين الأميرين العظيمين (كونراد ولويس) ، فأفزعه الخبر فزعا حمله على طلب النجدة ، من أقصى نواحى المشرق ، كما أن انشغاله الشديد باستنباط الوسائل التى تمكنه من دفع ما ينجم عن جموع العدو الكثيرة من خطر جسيم حمله على تحصين المدن واعادة ترميم الحصون وطلب النجدة من الأمم المجاورة ، وراح يترقب من يوم لآخر - وهو فى فزع مقيم - وصول أولئك الأعداء الذين قيل انهم كانوا على الأبواب ، كما ساوره الخوف مما توقعه من دمار يحيق بشعبه ، وخراب يلم ببلده ، وطارت الشائعة تقول انه لم يحدث قط أن كان ثم جيش يكافىء هذا الجيش الزاحف فى كثافته

وكثرة رجاله ، حتى قيل ان خيالته وحدها تغطى سطح البلد كله ، ولا تكفيهم مياه أكبر الأنهار للشرب ، ولا تسد جوعهم وتشبع بطونهم أوفر الحقول انتاجا ٠

وعلى الرغم مما تضمنته هذه التقارير من المبالغات الكبيرة الا أن ما كان فيها من الحقائق كان كافيا لبث الفزع فى قلوب كبار الزعماء الذين ليسوا من أتباع العقيدة المسيحية ، فقد كان من المؤكد الذى لا مراء فيه (وذلك بناء على رواية من شاركوا فى هذه الحملة) أن من انخرطوا فى جيش الامبراطور وحده فى هذه الحملة قاربوا سبعين ألف فارس فى دروعهم الحديدية ، هذا الى جانب من كانوا يسيرون على أقدامهم من النساء والأطفال والخيالة الخفيفة التسليح ، كما قدر من كانوا فى جيش ملك فرنسا بسبعين ألف رجل من الشجعان ، عليهم الزرديات ٠ هذا الى جانب المشاة ولو كان الرب راضيا عنهم ومسبغا عليهم رحمته لأخضعوا من غير شك هذا السلطان وجميع بلاد المشرق للعقيدة المسيحية ، لكن مشيئة الرب قضت أن تنبذ ما يقدمونه من الخدمات ، فلم يحظ ما فعلوه برضائه ، لأنهم قدموا ما قدموا بأيد غير طاهرة ٠

(٢٠)

ما كادت جميع الكتائب تتحرك عبر البسفور حتى بادر الامبراطور « كونراد » مع رهط من أتباعه الأشراف الى استئذان الامبراطور (البيزنطى) فى الرحيل وركبوا البسفور ، واذ ذاك صدرت الأوامر أن يزحف الى الأمام كل قائد بكتيبته ، فسار « كونراد » جاعلا « غلاطية » و « بافلاجونيا » وولايتى « بونتس » على يساره ، و « ليديا » وآسيا الصغرى على يمينه ، واخترق اقليم « بيثينيا » الى « نيقوميديا » عاصمة تلك النواحى ، وزحف

جاعلا على يمينه مدينة « نيقية » التى كان قد انعقد فيهــا زمن الامبراطور قسطنطين المجمع(٢٢) الذى ضم ثلاثمائة وثمانية عشر من الآباء الطاهرين ، وكان الغرض من اجتماع هؤلاء هو شــجب العقيدة الفاسدة التى نادى بها « آريوس » اللعين ، ثم خرج الجيش بأكمله ــ من هذه المدينة ــ فى تنظيمه الحربى الرائع سالكا أقصر الطرق الى « ليكونيا » التى عاصمتها قونية ٠

وكان السلطان قد حشد فى هذا الموضــع أعدادا كبيرة من الرجال المسلحين ، وطائفة ضخمة من ترك البلاد المجاورة ، وظل ينتظر الوقت المناسب ويتخير المكان الملائم لمهاجمة الصليبيين حين يحاولون العبور فيحول اذ ذاك بينهم وبين التقدم ، وقد اســتطاع بالرشــاوى والاتفاقيات أن يحرك ضد قواتنا جميع الملوك والقادة والزعماء على اختلاف طبقاتهم فى ولايات المشرق من أدناها الى أقصاها ، ودأب على ارسال المبعوثين اليهم ملتمسا منهم التبصر الى الخطر الملم بهم لو تمكنت هذه الجيوش الضخمة المسلحة من المرور بأرضه دون أن تلقى مقاومة ، فانها حينئذ لابد أن تخضع المشرق كله لسيطرتها بقوة السلاح ، وسرعان ما استجابت لدعوته أمم كثيرة ، وتجمعت لديه حشود كثيفة جاءت من أرمينيا الصغرى وأرمينيا الكبرى و « كبادوكيا » و « ايسوريا » ، وكذلك من «ميديا» و « بارثيا » ، فراوده الأمل أن يتمكن بهذه الجموع من صد الجيش الذى قيل انه أخذ فى الاقتراب منه ، معتمدا فى ذلك على معاونة كل هذه الشعوب له وامدادها اياه بعسكر يكافىء فى كثرته عســكر العدو ٠

* * *

كان « كونراد » حــين غادر القســطنطينية قد التمس من الامبراطور (مانويل البيزنطى) أن يزوده بالمرشدين الملمين بمسالك

الاقليم ، ويمده بأصحاب المعرفة الواسعة بالولايات المجاورة ، غير أن هؤلاء الرجال ما لبثوا أن برهنوا على أنهم ليسوا أهلا للثقة ولا يمكن الاطمئنان اليهم ، فقد كان المعروف أنهم جاءوا ورائدهم الاخلاص فى ارشاد الجيوش المسيحية فلا يباغت العسكر الذين يقتفون خطاهم بخطر لا يتوقعونه ، أو يفاجأون بصعوبة لا ينتظرونها ولا يكابدون نقصا فى الطعام أثناء سيرهم ، لكن ما كاد هؤلاء الأدلاء يخرجون بالجيش ويسيرون به فى أرض العدو حتى أخبروا الزعماء بالتخفف من الطعام الا ما هو ضرورى ويكفيهم لبضعة أيام معدودات ان هم أرادوا الاستفادة من السير فى الطريق الأقصر الذى يخترق أرضا غير محتلة ، ثم وعد هؤلاء الأدلاء العسكر وعدا أكيدا أنهم بالغون فى أيام قلائل مدينة « قونية » الشهيرة فيجدون أنفسهم فى أخصب بقعة من الأرض تفيض بشتى أنواع المؤونة ، فاستجاب لهم الصليبيون وخرجوا بالذخيرة يحملونها على ظهور دواب الحمل وعربات النقل • ثقة منهم بما قاله مرشدهم ، وتبعوهم بايمان ساذج صادق ، وكان ذلك غفلة منهم اذ غرر بهم الاغريق بسبب ما طبعوا عليه من الخيانة والغدر وكراهية للصليبيين ، فتعمدوا قيادة الكتائب الصليبية عبر طريق غير مألوفة أفضت بهم الى نواح أتاحت لعدوهم الفرصة الملائمة لمهاجمة قوم كانت جريرتهم أنهم صدقوا هؤلاء الأدلاء ، مما أدى الى تغلب الترك عليهم ، وربما كان هؤلاء المرشدون مدفوعين فيما فعلوه بأمر مولاهم أو برشوة رشاهم بها الترك •

(٢١)

حين رأى الامبراطور « كونراد » انصرام الأيام المحدودة دون أن تبلغ الحملة الناحية التى كانوا شديدى الحرص على الوصول اليها استدعى الأدلاء الاغريق واستفسر منهم فى حضور نبلائه عما أدى الى أن يستغرق الجيش زمنا جاوز الزمن الذى اتفقوا عليه فى

البداية دون أن يبلغ العسكر غايته ، فعاد المرشدون كدأبهم للكذب اذ راحوا يؤكدون له تأكيدا باتا بأن الجند كلهم لابد واصلون بعون الرب الى « قونية » فى مدى ثلاثة أيام ، وصدقهم الامبراطور فيما زعموه لما طبع عليه من طيب السريرة ، وقال لهم انه سوف يتحمل هذه الأيام الثلاثة هى أيضا ثقة منه بعهودهم له ٠

فلما كانت الليلة التالية ـ والخيام منصوبة كالعادة ، والجند مستسلمون للكرى بعد طول الانهاك ـ اذا بهؤلاء المرشدين الخونة ينسلون لواذا تحت جنح الظلام ويتركون وراءهم ناسا وثقوا بهم واطمأنوا الى رعايتهم ، لكن خلفهم هؤلاء الأدلاء وتركوهم بلا هاد يهديهم طريقهم ، فلما طلع الصباح ودنا موعد مواصلة الزحف تلفت الصليبيون (الألمان) فلم يجدوا أثرا لهؤلاء الاغريق الذين جرت العادة أن يسيروا أمام الجيش ، وجاء الى الامبراطور « كونراد » والى زعماء جيشنا نبأ غدر الهاربين الذين تجلت للجميع خيانتهم، وزاد الطين بلة أن أضاف هؤلاء الأبالسة الى لؤمهم لؤما جديدا زاد من جرمهم حين أسرعوا الى ملك فرنسا الذى جاء الخبر بوجوده فى تلك الناحية ، وزعموا له كاذبين أن الامبراطور « كونراد » الذى سبقه وكانوا له مرشدين وأدلاء قد بلغ غاية النجاح وحاز نصرا رائعا على الأعداء ، واستولى على « قونية » بالسلاح ، ودكها من أساسها دكا ٠

ويبدو لنا فى جلاء أنهم راحوا يؤكدون لملك فرنسا هذا الأمر كى يحملوه على سلوك الطريق ذاته ، فيتردى فى نفس المهالك التى تردى فيها « كونراد » ويجعلوه يصدق ما قالوه من نجاح «كونراد»

حتى يحولوا بينه وبين المبادرة الى نجدة اخوانهم الذين أحدق بهم الخطر ، وربما اخترعوا هذه القصة ليصرفوا العقاب عن أنفسهم لأنهم لو كانوا قد أخبروا « لويس » بهلاك جيش « كونراد » لأمسكهم وعدهم خونة ، اذ ما كان للعسكر التيوتونى أن يندفعوا الى ما فيه دمارهم وضياع أرواحهم لولا خبث طوية هؤلاء الأدلاء ٠

* * *

حين أيقن الامبراطور (كونراد) أن الجيش أصبح من غير أدلاء يسترشد بهم عقد مجلسا من جميع الزعماء للنظر فيما ينبغى عليه اتخاذه ، فاختلفت الآراء فيما بينهم اختلافا بينا ، فبينما تمسك البعض بوجوب رجوعهم الى أوطانهم اذا بالبعض الآخر يصرون على متابعة ماهم فيه ، ولربما صدق فيهم فى هذه الأزمة ما قيل(٢٣)
« يسكب هوانا على رؤساء ، ويضلهم فى تيه بلا طريق » ٠

وبينما كانوا فى هذا الوضع القلق وقد استبد بهم الفزع لجهلهم تلك النواحى وانشغال بالهم بما هم فيه من الحاجة الملحة الى مواد المعيشة لنفاد كل ما كان عندهم من العلف للخيل ولدواب الحمل ، وكل صنوف المأكل اللازم للجيش ، أقول بينما كانوا فى ذلك اذا بالخبر يأتيهم بأن جيش العدو التركى قد صار على مقربة منهم ، ثم ما لبث هذا الخبر أن تأكد بالواقع ، فقد رأى الصليبيون أنفسهم فى فلاة بلقع وقد بعد ما بينهم وبين كل الأماكن الخصبة حيث قادهم مرشدوهم الخونة عن قصد الى هنا كما قلنا من قبل ، مع أن الواجب كان يقتضيهم أن يكون زحفهم عبر « ليكونيا » التى تركوها الى يمينهم ، فلو أنهم كانوا قد ساروا فيها لمروا بأراض ذات زرع وضرع حافلة بكل ما يلزمهم من ضروريات الحياة ، ولوصلوا

الى غايتهم المنشودة فى أقصر وقت ، ولكن الاغريق ساروا بهم يسارا فوجد الجيش نفسه مضـــطرا لدخول فيافى « كبادوكيا » البعيدة عن « قونية » •

وتناقل الناس - وربما كان ذلك حقا - أن هذه المكائد التى تنطوى على الخيانة انما دبرت بعلم الامبراطور البيزنطى وبأمر منه ، وقد كان شديد الحسد على الدوام لتقدم الصليبيين الناجح ، كما كان من المعروف أن الاغريق كانوا - كشأنهم اليوم - لا يطمئنون الى تزايد قوة الشعوب الغربية ، لاسيما الشعب التيوتونى الذى يعدونه منافسا لامبراطوريتهم ، وتخوفوا مما يذهب اليه التيوتون من نعت ملكهم « بامبراطور الرومان » وهو نعت يسلب الكثير من هيبة امبراطورهم (البيزنطى) الذى يطلقون عليه لقب « الحاكم الأعلى » أى الشخص الذى له السلطان الأعلى على الجميع ، وانه بالتالى « امبراطور الرومان » وليس أحد ســواه امبراطورا •

(٢٢)

كان جيش الامبراطور يكابد فى هذه الآونة مرارة الجوع ، ويشقى بالاقليم اذ يجهله ويجهل مســالكه ، ويقاسى العســـرة المستمرة ، الى جانب أهوال الطريق ، كما كان يشكو النقص فى الخيل ، ويضنيه ثقل ما معه من العتاد والمتاع • هذا فى الوقت الذى كان فيه ولاة الترك وعمالهم على اختلاف مراتبهم يدركون هذا الوضع تمام الادراك ، مما دعاهم الى حشد قواتهم وقيامهم بغارة فجائية على المعسكر الصليبى(٢٤) الذى ســادته الفوضى وأطبقت عليه بأجرانها ، فاضطرب عسكره الذين لم يكونوا يتوقعون شيئا من هذا القبيل •

كان الترك يعتمدون فى بأسهم على جيادهم السريعة العدو التى لم تشك نقصا فى العلف ، ويعتمد أصحابها على ما يتسلحون به من الأسلحة الخفيفة والنشاب والسهام ، فأحدقوا بالمعسكر وهم يصرخون صرخات عالية مدوية ، وحطوا بخفتهم المعهودة حطا عنيفا على جنودنا الذين أخذوا يرتدون على أعقابهم بسبب ما عليهم من الأسلحة الثقيلة .

وكان الصليبيون يفوقون خصمهم فى قوتهم واستعمالهم السلاح ، غير أنهم لما كانوا مثقلين بما عليهم من الزرديات والملابس الحديدية والدروع ، فقد عجزوا عن التغلب على الترك أو مطاردتهم مطاردة طويلة تبعدهم عن معسكرهم ، كما أضنى الجوع والسير الطويل جيادهم فلم تعد قادرة على الكر والفر هنا وهناك ، أما الترك فكان الحال فيهم على العكس من هذا ، فهم يهاجمون بكل حشودهم ، ويرمون من بعيد بسهامهم فتسقط كالوابل الهتان فتصيب الجياد وراكبيها ، وتتركهم جميعا ما بين قتيل قد فارقته روحه ، وصريع قد أثخنته جراحه ، وكان الصليبيون أذا ما حاولوا مطاردة الترك فر هؤلاء على خيولهم السريعة العدو فيسلمون من أن يتخطفهم الموت بسيوف خصومهم ، لكن عسكرنا(٢٥) صاروا فى خطر لكثرة ما انهال عليهم من السهام والنشاب التى لا انقطاع لها ، والتى كانت تنوشهم من كل جانب دون أن تتاح لهم فرصة ينزلون بخصمهم مثل الذى أنزله بهم ، أو يلتحمون من قريب ، وكثيرا ما كانوا يحاولون صده فيفر على جياده السريعة ، ويتفرق رجالنا فى شتى الجهات .

على أنه لما عاد الصليبيون الى معسكرهم عاد الترك فنظموا صفوفهم وأحدقوا بقواتنا ، وهاجموها مهاجمة عنيفة تكون أنكى وأشرس من كل هجوم سابق ، وكأنهم فى هجومهم هذا كانوا

يحاصرون احدى المدن . غير أن أهداف الرب الخفية العادلة شاءت أن ينهار فجأة ما تميز به هؤلاء الأمراء الصليبيون العظام من اقدام سهلته عليهم أسلحتهم وقوتهم وشجاعتهم ، وما كانوا عليه من كثرة العدد ، وكان هذا الانهيار الفجائى راجعا الى مناوشات بسيطة حتى انه لم يبق من مجدهم السالف الا أثر واه ، ولم يبق من عسكرهم الكثيف الذى كان قرابة سبعين ألف فارس كمى ومن جموع مشاتهم التى لم يكن يحصيها العد سوى واحد من كل عشرة، شهد بذلك من كانوا فى الحملة ، فقد مات بعضهم سغبا ، وهلك غيرهم بالسيف ، ووقع غير هؤلاء وهؤلاء أسرى فى قبضة العدو ، غير أن الامبراطور استطاع النجاة مع نفر قليل من نبلائه ، ثم قدر له أن ينجح بعد بضعة أيام فى الوصول الى « نيقية » مع البقية الباقية من أتباعه .

على أن الترك الغالبين رجعوا الى حصونهم محملين بالأسلاب وقد فاضت أيديهم بالغنائم التى لا تحصى من الجياد والسلاح الوفير ، ولما كانوا على دراية تامة بالاقليم فقد راحوا يترصدون فى لهفة وصول ملك فرنسا اذ كان خبره قد وصل فعلا الى تلك النواحى وقد شجعهم سحقهم لقوات الامبراطور « كونراد » الغفيرة على التطلع للقضاء فى يسر على جيش ملك فرنسا ، فجاءت الخاتمة كما توقعوا وأملوا .

أما سلطان نيقية فلم يشأ أن يشارك فى هذه المخاطرة الكبرى، ذلك لأن ارادة الله شاءت أن يقوم بهذه المهمة نيابة عنه أمير تركى آخر ، قوى الشكيمة ، اسمه « باراموس » Paramos كان يقود جيش السلطان .

وقد وقع هذا الحادث فى شهر نوفمبر سنة ١١٤٦ من ميلاد المسيح .

كان ملك فرنسا فى هذه الأثناء قد بلغ القسطنطينية على رأس جيشه سالكا على وجه التقريب نفس الطريق ، فأقام بها فترة قصيرة كان له خلالها بضع جلسات على انفراد مع الامبراطور (البيزنطى) الذى بالغ فى الاحتفاء به ، ثم خلع عليه حين غادره الخلع السنية ووصله بالهدايا الرائعة ، وعامل من معه من أشراف حاشيته مثل المعاملة الطيبة التى عامل بها مولاهم ٠

ومضى الملك (لويس السابع) من القسطنطينية الى «بيثينيا» مع كل عسكره ، حتى اذا بلغ موضعا يقع بين المدينة الملوكية وبين البحر الأسود ـ والبعد بينهما ثلاثون ميلا ـ عبر البسفور الذى يبلغ أضيق موضع فيه ميلا فى العرض ، ثم ســـار حول خليج « نيقوميديا » الذى سمى بهذا الاسم نسبة الى المدينة المتاخمة له التى هى عاصمة « بيثينيا » ، وتعتبر هى الأخرى جزءا من البسفور، فلما أدرك الملك قرية « نيقية » التى لا تبعد كثيرا عن المدينة ذاتها ضرب عندها خيامه الى أن يستقر رأيه على الطريق التى يسلكها فى زحفه ، وهنا أجرى استفسارات دقيقة عن امبراطور الرومان (كونراد) الذى كان قد سبقه فى المسير ، فأخبروه أنه فقد جيشه وان نجا هو وقلة من كبار رجاله ، وأنه الآن يهيم على وجهه شريدا هاربا ، فساور الشك فىالبداية الملك فيما سمع وظنه فرية مختلقة ، لكن تأكد لديه بمضى الوقت صـــدق الذى أخبروه به ، اذ ما لبث أن جاء بعد قليل « فردريك دوق سوابيا » وذهب الى جيش الفرنجة قادما من معسكر الامبراطور كونراد ، وحاملا معه التفاصيل الكاملة عن هذه النكبة التى لم تكن حتى هذه اللحظة معروفة الا معرفة مبهمة ، ومن خلال شائعات غير موثوق بها ٠

* * *

كان الدوق « فردريك » شابا رائع الصفات ، اعتلى عرش الامبراطورية الرومانية بعد عمه الامبراطور « كونراد » ، ولازالت مقاليد أمورها فى يده حتى وقتنا الحالى ، واتسم حكمه لها بالنجاح والقوة ٠

كان الدافع لفردريك على الحضور هو دعوة الملك الفرنسى الى حوار مع الامبراطور عن الطريق الذى يجب أن يسلكاه ، ولكن هذا الحوار جاء متأخرا كل التأخر وقد فات أوانه ، فلما سمع العسكر بالمأساة المحزنة التى حاقت باخوانهم وما نزل بهم من المصائب والدمار غضبوا لهم غضبة صدق وتحركت قلوبهم أسى لهم ، وكان لما قرره (فردريك) ورواه أعمق الأثر فى نفس الملك الفرنسى الذى بادر فعقد مجلسا مع رجاله ثم خرج فى ثلة من نبلائه وفى حراسة الدوق ومضى الى الامبراطور (الألمانى) للتشاور معه ، ولم يكن معسكره بعيدا عنهم ٠

وبعد أن تبادل العاهلان التحايا المألوفة وقبلة السلام عقدا اجتماعا أخويا أسفر عن قرارهما باكمال هدفهما وتوحيد قواتهما فى زحفهما ، غير أن الكثيرين من عسكر الجانبين — لاسيما التيوتون — لم يلتزموا بيمين الطاعة التى قطعوها على أنفسهم فكروا راجعين الى القسطنطينية وقد فرغ ما معهم من المال ، وأزعجتهم مشقة الطريق ٠

ولما أنتهى تشاور العاهلين مع قواد الجيش الكبار تخلى الاثنان عن الطريق الواقع الى اليسار والذى كان الامبراطور قد سلكه من قبل ، ويمما وجهيهما شطر آسيا الصغرى ، جاعلين « فريجيا » بشطريها على يمينهما ، و « بيثينيا » من ورائهما ، وزحفت الجيوش تارة عبر الطريق الداخلى وتارة عبر الساحل ، جاعلة « فيلادلفيا » على يسارها ، فكانت « أزمير » أول محطة وصول

بلغوها · واتجه الجميع منها الى « افسوس » قصبة آسيا الصغرى التى ذاعت شهرتها بأن الحوارى الانجيلى «يوحنا » بشر فيها وعاش بها ، حتى اذا مات ضمت جثمانه تحت ثراها ·

ولما بلغوا « افسوس » فرض الامبراطور على من بقى حيا من عسكره الارتداد برا ، أما هو فقد أبحر عائدا الى القسطنطينية ·

ولسنا ندرى الأسباب التى حملته على الذهاب الى القسطنطينية الا اذا كان ما أحسه من شجى ومرارة على الهلكى الكثيرين من جيشه الذين كانوا تحت قيادته ، أو ربما مرجعها ما لقيه من صلف الفرنسيين الذى لا يحتمل · ولقد رحب به امبراطورها ترحيبا فاق ترحيبه به أول مرة ، فظل مقيما بها هو وكبار رجالاته حتى مستهل الربيع التالى ، وكان العاهلان البيزنطى والتيوتونى تربط بينهما رابطة المصاهرة ، فزوجتاهما شقيقتان اذ هما ابنتا(٢٦) « برينجار » الكبير كونت « سولزباخ » أحد الأمراء الأشراف الكبار ، وكان صاحب سطوة نافذة كل النفوذ فى مملكة التيوتون ، وأخذ الامبراطور البيزنطى منذ ذلك الحين فى اظهار عطفه الجميل على « كونراد » واستجاب لرجاء الامبراطور فسخا عليه وعلى من معه من النبلاء أكرم سخاء ، وعمهم جزيل فضله ·

(٢٤)

كان ملك الفرنجة فى هذه الأثناء منهمكا مع نبلائه فى اعداد ترتيبات الزحف ، وكان قد توقف عند « أفسوس » ليتيح لجيشه فرصة يستجم فيها بعد الانهاك الذى حل له ، وحدث اذ ذاك أن توعك « جى كونت بونتييه » وعكة انتهت بوفاته ، وكان مشهورا بمهارته الحربية وشدة بأسه ، فدفنوه فى احتفال مهيب فى ساحة كنيسة « أفسوس » التى رحل الملك منها بعدئذ بصحبة كل جيشه مسرعا ما وسعه الاسراع الى الشرق فاستغرق الزحف منه بضعة

أيام وصل بعدها الى مخاضات نهر « مياندر » الذى تكثر عنده طيور البجع ، وهذا النهر هو الذى عناه شاعرنا « ناسو » فى كتابه المسمى « هيرويد » اذ قال :

« حينما ينادى منادى الموت أن استلق على العشب الرطب ، فان البجعة البيضاء تغنى على مياه مياندر الضحلة » ·

ونصب الملك خيامه وسط المروج الخضراء الواقعة على شاطىء هذا النهر ، وهنا تحققت رغبة الفرنجة الذين كان قد طال شوقهم لرؤية خصمهم ، اذ بينما كان المسيحيون يحاولون الاقتراب من النهر اذا بجموع غفيرة من الترك تظهر على شاطئه المقابل وتحول بينهم وبين ركوبه ، لكنهم تمكنوا أخيرا من العثور على المخاضات واستطاعوا رغم مقاومة العدو أن يشقوا لهم طريقا عبر النهر ، فهاجموا الترك وفتكوا بالكثيرين منهم ، وأسروا أعدادا ضخمة من رجالهم ، مما حمل بقيتهم على الفرار ، وسرعان ما استولى الفرنجة المنتصرون على المعسكر التركى الذى وجدوه زاخرا بكل أنواع الأسلاب وشتى ضروب الغنيمة ، وتمكنوا ببأسهم القوى من السيطرة على الضفة الأخرى من النهر ·

وأمضى الصليبيون ليلة ناعمة هادئة مستبشرين بنصرهم الذى حازوه ، وفرحين بالغنائم النفيسة التى أصابوها ، حتى اذا تنفس الفجر أخذوا يعدون العدة لمواصلة الزحف ، وتقدموا فبلغوا « اللاذقية » احدى مدن ذلك الاقليم فتجهزوا بها ــ كدأبهم ــ بالمؤونة التى تكفيهم عدة أيام ، ثم ساروا جميعهم كتلة واحدة ·

كان هناك جبل شديد الانحدار صعب المرتقى يسد الطريق أمام الجيش الزاحف الذى كانت خطته تفرض عليه أن يتسلقه فى يومه هذا ، وجرت عادتهم فى حملتهم هذه أن يختاروا كل يوم فريقا من الرجال البارزين يلقون اليهم مقاليد القيادة ، فتوكل الطليعة الى بعضهم ، ويكلف غيرهم بأن يكونوا فى المؤخرة لحراســـتها والحفاظ على من لا يحاربون لاسيما العامة الذين يسيرون على أقدامهم · كذلك ألقى على عاتق هؤلاء الرجال مهمة التنسيق مع الزعماء فى اختيار الطريق الذى ينبغى عليهم السير فيه ، فيعرفونهم بمقدار طوله وبالموضع الذى يضربون به خيامهم فى اليوم التالى الذى ما كادوا يصلونه حتى وقع الاختيار على أحدأشراف«أكويتانيا» واسمه « جوفرى دى رانكون » فأقبل يحمـــل راية الملك وارتقى الجبل مع الطليعة التى أصدر اليها أمره أن تعسكر على المرتفعات ، فبلغوا القمة وقد أتلع النهار ومازال باقياً منه وقت طويل ، فعزم « جوفرى » رغم ما تقرر على أن يتقدم قليلا لأنه رأى أن المسافة التى قطعوها فى ذلك اليوم كانت قصيرة جداً ، ثم جاءه الأدلاء فأكدوا له أن هناك موضعا أحسن من هذا الموضع يصلح أن يعسكر الجند فيه ، فتابع سيره انصياعا لأمر هؤلاء الأدلاء ·

ولما كان الظن عند من هم وراء الطليعة أن المعسكر منصوب فوق قمة الجبل فقد اعتقدوا أن زحف يومهم هذا قد بلغ غايته ، ومن ثم راحوا يتلكؤون فى سيرهم ويبطئون فى مشيتهم اذ لم تساورهم ريبة تدعوهم للحذر ، وهكذا انشطر الجيش شطرين ، فتمكن أحدهما من عبور النتوء الجبلى ، على حين كان الثانى لايزال متمهلا فى سيره ولكن فوقه،ولما كان الترك يتربصون فرصة للاغارة عليهم فانهم ســـرعان ما أدركوا حقيقة الموقف لأنهم كانوا فى الواقع يتابعون الجيش فى انتظار هذه اللحظة ، وكانوا يرصدون عن قرب تحركات

الصليبيين رصدا دقيقا ، وكان الطريق شديد الضيق والعسكر مبعثرين في كل ناحية لأن الجانب الأقوى والأكبر من الجيش كان قد سبقهم ، وهنا أدرك الأتراك أن لن يكون من اليسير على هذا الفريق أن يعرف شيئا عن الصفوف الخلفية التى ان وقعت فى مأزق فلن تأتيها النجدة من ذاك الفريق ، فاغتنموا هذه الفرصة السانحة واحتلوا قمة الجبل ليزيدوا من الارتباك فى صفوف مقدمة جيشنا وفى مؤخرته ، ثم رتبوا صفوفهم وأغاروا على قواتنا التى فوجئت بالهجوم عليها قبل أن تنهض لانتضاء السلاح ، ومالبث القتال أن دار بالأقواس والسهام ، ونظرا لأنهم صاروا على مقربة منهم فقد راحوا ينهشون الصليبيين بسيوفهم ، وأفحشوا القتل فيهم وألحقوا بهم البوار ، وتتبعوا من حاول الفرار كأبشع مايكون التتبع ، وقامت الشعاب الضيقة عقبة كأداء فى طريق قواتنا التى أنهك طول السير جيادها ، وأرهقها وعث الطريق ، وبالاضافة الى ذلك كله فقد عاقهم كثرة ما معهم من الأمتعة لكنهم صمدوا كل الصمود فى شجاعة ملحوظة ، وحاربوا دفاعا عن حياتهم وحريتهم وعن رفاقهم الذين زاملوهم الطريق ، واستمروا فى القتال بالسيوف والرماح يشجع بعضهم بعضا بالكلمات ويمتدحون جهودهم فى مواصلة القتال .

أما الترك فقد حاولوا من جانبهم – أملا منهم فى النصر – أن يشد كل منهم أزر أخيه – ومضوا يستعيدون فى أذهانهم كيف استطاعوا منذ أيام قلائل أن يقضوا على جيش أضخم من هذا الجيش دون أن ينالهم هم أنفسهم كثير من العطب ، وتذكروا كيف انتصروا فى سهولة على قواتنا رغم أنها كانت تفوقهم عددا وتشاؤهم بأسا .

وطال القتال بين الجانبين دون أن يتبين أحد نتيجته ، الا أن الغلبة كانت فى النهاية للكفار على قواتنا وذلك بسبب خطايانا ، فلقى كثيرمن الصليبيين مصارعهم ، ووقعت فى الأسر منهم جموع

غفيرة فتضاءل عدد عسكرنا تضاؤلا كبيرا ، وهلك فى هذا اليوم كثيرون من علية القوم وأشرافهم ، كما قتل رهط ممن يشار اليهم بالبنان نظرا لأمجادهم الحربية ، وهم أهل الذكر العاطر ، ومنهم « كونت فارن » وهو الذى كان من السـادة العظـام المبرزين ، و « جوتييه دى مونت جوى » ، و « ايفرارد دى بريتل » و « ايتييه دى منجناك » وكثيرون غيرهم ممن لا تعى الذاكرة أسماءهم ، ولكنا نؤمن بأنهم مخلدون فى الجنان وستبقى ذكراهم حية على الدوام .

* * *

ولقد ضاعت فى هذا اليوم شهرة الفرنجة الرائعة فى خطب كان من أشد الخطوب ، وفى نكبة كانت من أفدح النكبات التى حاقت بالصليبيين ، ذلك أن بسالتهم التى كانت حتى هذه اللحظة مضرب الأمثال عند الشعوب هوت الى الحضيض وأصبحت سخرية فى عيون الأمم النجسة ، بعد أن كانت بالأمس مصدر فزع لها .

فلماذا ياسيدى عيسى المبارك تقضى بالهزيمة على هذا الشعب المخلص لك ، المحب لاقتفاء خطـاك وتقبيل الأماكن الطاهرة التى أكرمتها بوجودك الشخصى فيها ؟

ولماذا قضيت ياسيدى عيسى أن تنزل بشعبك هذه الهزيمة على يد الكارهين لك ؟!

حقا ان أحكامك أشبه ما تكون بهوة سحيقة ما لها من قرار ولا يستطيع أحد ادراكها ، لأنك أنت وحدك أيها السيد القادر على عمل كل شىء ، ولا قدرة لأحد ما على مقاومتها !! .

(٢٦)

فى هذه الأثناء تمكن الملك بالصدفة وليس بمجهوداته أن ينجو رغم هذا الخطر والاضطراب ، فقد اغتنم السكون المخيم على الكون

وقد انتصف الليل وخرج من غير مرشد ، وتسلق منحدر الجبل الذى طالما أشرنا اليه ، واستطاع بنفر قليلين أن يصل الى المعسكر الذى كان قد أقامه على بعد من هنا ، وكانت طليعة الجيش (كما قلنا) فى اثناء تتبعها الراية الملكية قد اجتازت ممرات التل دون أن تجد معارضة ، ولم يكن رجال هذه الطليعة يعلمون بشىء مما جرى للجيش الذى وراءهم ، لكنهم شكوا وتوجسوا خيفة لعدم وصول القوات وتأخرها الطويل ، وساورهم القلق بأن شرا مستطيرا قد حدث ، وتملكهم الاحساس بأن الأمور تجرى على غير ما يحبون . ثم تأكد عندهم وقوع هذا الشر المحزن حين جاء الى معسكرهم من فروا مع الملك ، فساد الغم الجيش كله ، وتملك القلوب جزع عنيف ، وراح كل واحد منهم يفتش وينادى بصوت أبحه الصياح وأنات باكية عن عزيز له ، ثم يتضاعف حزنه حين لا يجده ، ورددت أرجاء المعسكر أصداء البكاء والنحيب واستبد الوجد بالجند ، ولم تخل ناحية من نواحى المعسكر من باك على صديق له ، أو قريب له ، فهذا يبحث عن أبيه ، وآخر يفتش عن مولاه ، وتلك امرأة تنشد ولدها ، وغيرها تلتمس أين يكون زوجها ، ولم تغمض عين فى تلك الليلة لمن آبوا بالفشل فى بحثهم عمن يهمهم أمرهم ، وزاد من شجاهم وضاعف من الهم ماتوقعوه من أمر أشد خطورة ربما أصاب الغائبين .

على أنه وفد فى أثناء هذه الليلة الى المعسكر رهط من كل طائفة استطاعوا بطريق الصدفة (لا الترتيب والاعداد) النجاة من الهلاك ، وذلك بالاستخفاء فى الغابات وبين الصخور أو فى الكهوف والمغارات ، ووجدوا فى الظلام ساترا رحيما بهم .

لقد كان وقوع هذه المحنة فى يناير من سنة ١١٤٨ .

وشهد المعسكر منذ ذلك الحين عجزا فى الخبز وجميع مواد التموين الأخرى ، أضف الى ذلك أنهم ظلوا بضعة أيام طويلة

وليس عندهم سوق لشراء أى شيء ، غير أن النكبة التى كانت أدهى من ذلك كله وأفدح هى أنه لم يكن معهم أدلاء يرشدونهم على المسالك ، ويدلونهم على الدروب ، ومن ثم تشردوا وهاموا على وجوههم هنا وهناك ، اذ لم يكن لهم دراية بالناحية التى هم فيها ، ولم ينقذهم مما هم فيه الا دخولهم أخيرا اقليم « بامفيليا » مجتازين الممرات الجبلية والأودية العميقة،ولاقوا فى ذلك عنتا كبيرا وان لم يصطدموا بالعدو ، حتى قيض لهم النجاح أخيرا فى بلوغ « أضاليا » عاصمة تلك الناحية ٠

وتقع « أضاليا » على ساحل البحر ، وهى تابعة لامبراطورية القسطنطينية ، كما أنها حافلة بالمزارع الخصبة وان كانت غير ذات جدوى لأهلها اذ كان الأعداء يحيطون بهم من كل جانب فيمنعونهم من فلاحتها مما أدى الى بقاء أرضها الخصبة بورا لعدم وجود من يقوم بزراعتها ، ومع ذلك فان زوار هذا المكان لا يعدمون أن يجدوا فيه فوائد جمة ، اذ تكثر به المياه الصحية الصافية ، وتتوافر به أشجار الفاكهة ، كما يأتيه القمح من وراء البحار فى كميات ضخمة، لذلك كان رواد هذا المكان ينعمون بجميع ضروريات الحياة ٠

و « أضاليا » تتاخم مباشرة أرض العدو ، ولما وجدت أنه من المستحيل عليها أن تصمد فى وجه العدو لاستمرار هجماته عليها فقد أذعنت لدفع الجزية له ، مما ترتب عليه استمرار متاجرتها معه فى الأشياء الضرورية ٠

ولما كان جندنا يجهلون اللغة اليونانية فقد حرفوا اسم هذه المدينة الى ستاليا » ، ومن ثم فان كل الجزء من البحر الممتد من نتوء « ليسيدنا » حتى جزيرة قبرص يسمى بالبحر الأتالى ، أما فى اللهجة الدارجة فيعرف بالخليج الساتالى ٠

ولقد كابد ملك الفرنجة وقومه المتاعب وهم فى « أضاليا » بسبب النقص الحاد فى الطعام الوارد الى جانبكثرةأعدادالوافدين الى هناك ، والواقع أن من ظلوا أحياء من العسكر — لاسيما فقراؤه — كادوا أن يهلكوا جوعا ، لذلك ترك الملك وراءه هنا من لا ظهر عندهم يركبونه ، واعتلى هو وأشرافه السفن وأبحروا جاعلين « ايسوريا » وكيليكية على يسارهم ، وجزيرة قبرص على يمينهم ، وكانت رحلة بحرية قصيرة واتتهم فيها الريح طيبة فدخلوا بعدها مصب نهر العاصى الذى يجرى قرب أنطاكية ، ثم أرسوا (يوم ١٩ مارس ١١٤٨)(٢٧) فى الموضع المعروف الآن باسم ميناء القديس سمعان قرب مدينة « سلوقية » القديمة وذلك على بعد عشرة أميال من أنطاكية ٠

(٢٧)

ظل أمير أنطاكية يترقب طويلا فى لهفة وصول ملك الفرنجة ، فلما عرف أنه نزل فى امارته استدعى اليه جميع أشرافها ووجوه أعيان عامتها ، وخرج لاستقباله فى رهط مختار منهم ، وتلقى الملك باحترام عظيم ، وسار به فى أبهة رائعة وموكب مهيب شق به أنطاكية حيث كان فى استقباله رجال الدين والأهالى ٠

والواقع أن «ريموند» ما أن سمع منذ فترة بعيدة بقرب وصول الملك لويس (السابع) حتى خامرته فكرة الاستعانة بمساعدته اياه لتوسيع حدود إمارته انطاكية ، والواقع أن هذه الفكرة كانت فى خاطره حتى قبل أن يشرع الملك الفرنجى رحلة حجه هذه ، ومن ثم فقد أرسل اليه — وهو لايزال فى فرنسا — كمية ضخمة من الهدايا والأشياء الغالية أملا فى كسب مودته ، كما أنه اعتمد كثيرا على

ما كان للملكة (اليانور) من تاثير طيب كبير على جلالة الملك لأنها كانت رفيقته فى حجه ، ثم انها كانت كبرى بنات وليم كونت بواتو شقيق ريموند ٠

لذلك كان اهتمام ريموند كما قلنا عظيما بالملك حين دخوله ، كما اظهر نفس الرعاية لجميع رجال الحاشية الملكية ونبلائها ، وبسط لهم كفه بسطا سخيا ، ومختصر القول انه أبدى كل ما فى وسعه لتقدير كل فرد من الحاشية تقديرا يتكافأ ومكانته ، وأحاطهم جميعا بأعظم أنواع التبجيل ، فقد كان أمله معقوداً فى أن يستطيع بمعونة الملك وقواته له أن يحمل المدن المجاورة له على الخضوع لسلطانه ، وأعنى بهذه المدن حلب وشيزر وغيرهما ، وكان يدرك أنه هيهات أن يذهب هذا الأمل هباء لو أنه استطاع اغـراء الملك وســراة من معه بمشروعه ٠والحق أن مجىء لويس بث الفزع الشديد فى نفوس أعدائنا حتى لقد تســرب اليهم اليأس من قوتهم بل ومن الحياة ذاتها(٢٨) ٠

ولقد فاتح « ريموند » الملك (لويس) على انفراد وفى مرات عديدة عما يجول بخاطره من هذه الخطط ، ثم جاء بعد ذلك أمام حاشية لويس وخاصة أشرافه وراح يشرح لهم شرحا مفصلا دقيقا كيف يكون السبيل لتحقيق مبتغاه ورجائه من غير أدنى صعوبة ، كما بين لهم فى الوقت ذاته ما يعود عليهم من الجدوى وحســن الأحدوثة ٠

أما من ناحية الملك فقد كان شديد اللهفة للذهاب الى القدس لاتمام رحلة حجه ، وكان ذلك منه عزما صادقا لا يثنيه ثان عنالوفاء به ، فلما راى ريموند عجزه عن حمل الملك على تأييد دعواه بدل من اتجاهه نحوه ، ورأى حبوط مشاريعه الطموحة فقد أبدى كراهيته لخطط الملك ، وراح يتآمر ضده جهرا ولا يتورع عن أى وسيلة تؤدى

الى الحاق المضرة به وايذائه ،فعزم على أن يحرمه من زوجته اما قسرا أو بالمؤامرة يدبرها فى الخفاء ، واستجابت الملكة لريموند لما هى عليه من الرعونة والطيش ، وكان سلوكها قبل هذا الحين وبعده كما قلنا سلوكا يفصح لنا عن أنها كانت امرأة أبعد ما تكون عن التصون ، فنهجت نهجا لا يليق أبدا بمكانتها الملكية ، فلم تراع التزاماتها الزوجية ولم تخلص لزوجها ٠

ما كاد الملك يكتشف هذه المؤامرات حتى اتخذ الوســـائل الكفيلة بالحفاظ على حيـــاته وســـلامته واحتاط من خطط الأمير (ريموند) ، وسرعان ما استجاب للرأى الذى أسداه اليه كبار اشرافه ،وبادر بالرحيل عن انطاكية سرا مع قومه ، وهكذا تغيرت روعة مجرى ما كان اعتزمه كل التغيير وخالفت الخاتمة البداية تمام المخالفة ، واذا كان حضوره مصحوبا بالأبهة والتعظيم فان الحظ القلب جعل النهاية مشينة ، واتسم رحيله بالتجاهل ٠

وينسب البعض هذا المصير الى خساسة سلوك الملك ، ويذهبون للقول بأنه لقى ما يستحقه لأنه لم يستجب الى التماس امير كبير جليل القدر عامله وحاشـــيته معاملة طيبة ، واحـــاطهم بالرعاية الكريمة ، وهذا أمر له اعتباره لأن لأصحاب هذا الرأى مصلحة خاصة فيما راحوا يؤكدونه على الدوام من أن لو كان الملك قد كرس نفسه لهذا العمل لسقطت فى سهولة واحدة أو أكثر من واحدة من المدن المشار اليها ٠

(٢٨)

أما الامبراطور « كونراد » فقد أمضى الشـــتاء فى المدينة الملوكية حيث صادف من امبراطور القسطنطينية أحســـن المعاملة اللائقة بأمير كبير فى مثل مقامه ، فلما حان وقت رحيله أغدق

مانويل عليه كثيرا من الهدايا الرائعة ، ثم ابحر هو ومن معه من النبلاء الذين فى حاشيته الى الشرق فى أسطول جهزه لهم جلالة الامبراطور فأرسى بهم فى ميناء عكا ، حيث تابع زحفه الى مدينة القدس فخف لاستقباله وهو لايزال خارجها الملك بلدوين و « فولشر » البطرك الطيب الذكر مع رجال الدين وعامة الشـــعب ، وتلقوه بالأناشيد والأهازيج ، ودخلوا به بيت المقدس ٠

* * *

كما أرسى فى الوقت ذاته (ابريل ١١٤٨) فى ميناء عكا رجل عظيم القدر ، بارز المكانة هو « الفونس كونت تولوز » الابن الأكبر للقائد العظيم كونت ريموند (الصنجيلى) الذى حارب فى الحملة الصليبية الأولى وقام فيها بعبء كبير ، وترجع بعض عظمة الابن الفونس الى مكانته الخاصة ، كما يرجع بعضها الى الذكرى العطرة التى خلفها أبوه ، وبينما كان الفونس فى طريقه الى القدس لأداء واجب الشكر على نجاح رحلة حجه توقف عند مدينة «قيصرية » الساحلية ، لكن لم تنقض أيام قلائل من وصوله اليها حتى داهمه مرض أسلم اثره روحه ، وقالت الشائعة انه مات بسم دسه له البعض فى طعامه وان لم يعرف أحد من ذا الذى دبر هذه الجريمة النكراء فى الوقت الذى كان فيه الناس قاطبة يتلهفون على مجىء هذا الرجل الخالد الذكر ، اذ كان الأمل معقودا عليه فى أن يوفر للمملكة ما أراده لها أبوه من النجاح والثمار الطيبة ٠

(٢٩)

ترددت الأخبار فى هذه الأثناء فى مملكة بيت المقدس بأن ملك الفرنجة (لويس السابع) غادر انطاكية وأصبح على مقربة من طرابلس ، فأجمع العقلاء الرأى فى لحظتهم هذه على أن يبعثوا اليه بالطيب الذكر « فولشر » بطرك بيت المقدس للترحيب به ودعوته

الدعوة اللائقة به لزيارة المملكة ، وكان الحامل لهم على ذلك هو ما تسرب الى نفوسهم من الخوف من أن يتصافى معه أمير انطاكية فيرده اليها ، كما خافوا أن يقوم كونت طرابلس قريب الملك فيعيق سيره فتضيع فى كلتا الحالين رغبات الأهالى فى بيت المقدس ٠

كانت أملاك اللاتين فى الشرق موزعة فى أربع ولايات ، أولاها فى الجنوب وهى مملكة بيت المقدس التى تبدأ من مجرى الماء الواقع بين « جبيل » وبيروت ،وهما المدينتان البحريتان لولاية « فينيقية » ، وتنتهى هذه المملكة عند الصحراء الواقعة وراء الداروم ٠

أما الامارة الثانية فتقع شمال مملكة بيت المقدس ، وهى كونتية طرابلس التى تبدأ من عند ذلك المجرى المائى الذى أشرنا اليه حالا وتمتد الى مجرى مائى آخر يقع بين « مرقية » و « فالينيا » ٠

وأما الثالثة فامارة انطاكية التى تبدأ من النبع الأخير المشار اليه وتمتد غربا الى طرسوس فى كيليكية ٠

وأما الولاية الرابعة فلكانت كونتية الرها التى تبدأ من عند الغابة المسماة بغابة « مريم » وتمتد شرقا الى ماوراء الفرات ٠

* * *

وقد اتضح منذ البداية أن الأمل كان يراود كل واحد من أصحاب هذه الامارات الكبار الأقوياء فى أن يستطيع أن يمد رقعة أملاكه وحدود ولايته بفضل المعاونة المجدية التى يمده بها هذان العاهلان القادمان عليهم ٠٠

وكان لجميع هؤلاء الأمراء أعداء ذوو بأس شديد من أصحاب المدن المتاخمة لأراضيهم وطالما تطلعوا لضمها الى ما فى يدهم ،

وكانوا كلهم فى فزع مابعده فزع على مصالحهم وكل منهم يطمع فى توسيع ممتلكاته ، ومن ثم فقد كان كل منهم يحاول أن يسبق غيره فيرسل للعاهلين الرسل محملين بالهدايا ، ويوجه اليهما الدعوات لزيارته ٠ وكان من الواضح أن تحقيق آمال ملك بيت المقدس ورغبات شعبها اقرب للاستجابة ، لأنه يكون من الطبيعى أن يدفع ما فى قلبى لويس وكونراد من الحب للأماكن الطاهرة والتوقير العظيم للذهاب الى هذه البقاع الشريفة ، هذا بالاضافة الى أن الامبراطور كان الآن معهما ، وكان هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن ملك الفرنجة لابد وأن يعجل هو الآخر بالذهاب الى هناك لأداء مناسك حجه وانجاز صلواته والقيام ببعض الأمور لخدمة المسيحية حسبما يراه الجميع صالحا ٠

وكان الخوف الشديد يتملك زعماء المملكة من أن يبقى الملك (لويس السابع) فى اقليم حلب مدفوعا الى ذلك البقاء بواسطة الأمير (ريموند) الذى يرتبط به بروابط المصاهرة والحب الوثيق وهذا أمر كان يبدو كثير الاحتمال ٠

كذلك خافوا من تدخل الملكة ، ومن ثم ارسلوا البطرك لمقابلته ٠

على أنهم حين علموا بالفجوة التى تفصل بين الأمير ريموند والملك من جراء أمور هى أبعد ما تكون عن الصداقة انتعشت الآمال فى الصدور اكثر من ذى قبل ، وطمعوا أن يبادر الملك الفرنسى فيغادر الناحية ويأتى الى بيت المقدس على جناح السرعة ، غير أن تحسبهم لتقلبات القدر وخوفهم من وقوع أمور ليست فى الحسبان حملاهم على ارسال البطرك الموقر لتوظيف نفوذه مع الملك (لويس) ولم يذهب أملهم هذا بددا ، فقد استطاعت كلمات « فولشر » أن تستميل الملك (الفرنسى) الذى نهض فى الحال الى بيت المقدس

فهب لاستقباله جميع رجال الدين والشعب ، وساروا به الى المدينة يحوطونه بما يليق به من التوقير والاجلال وما فى قلوبهم من الغبطة ثم ساروا به وبمن معه من النبلاء الى الأحرام الطاهرة ، يزفونهم بالأهازيج ، ويرتلون التراتيل الدينية بين أيديهم ·

ولما فرغ الملك من أداء صلواته على ما جرت به العادة نودى فى مدينة عكا نداء عاما لسماع ما أسفر عنه هذا الحج العظيم من النتائج ، وما تمخض عنه من جليل الأعمال ، وزيادة رقعة المملكة ·

ولما جاء اليوم الموعود اجتمعوا فى عكا حسب ما اتفقوا ، وراحوا يتداولون أى الخطط الملائمة التى يجب عليهم اتباعها ، واجتمع معهم اشراف المملكة من الملمين بدقائق الأمور العــالمين بالأماكن المختلفة ·

هنا ينتهى الكتاب السادس عشر

حواشى الكتاب السادس عشر

(١) الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس ، ١٣/١١ ·

(٢) لم يصرح وليم الصورى عن ماهية هذه « الذمة » التى كان يمارسها بلدوين فى صدر شبابه ثم تاب عنها ، وربما كان وليم يقصد ما أشار اليه قبل بضعة أسطر من افساده روابط الزوجية عند البعض ، وممارسته من وسائل اللهو ما يستنكره وليم لاسيما وهو رجل دين ·

(٣) الواقع أن « يوجين » الثالث الذى يشير اليه وليم فى المتن أعلاه كان قد اعتلى كرسى البابوية برومة سنة ١١٤٥م ·

(٤) المزامير ٩٤/٦ ·

(٥) أعمال الرسل ٨/٢٠ ·

(٦) حدد ياقوت فى معجمه موقع « وادى موسى » هذا بأنه فى جنوب القدس بينها وبين الحجاز ، وقال عنه انه غاص بأشجار الزيتون ·

(٧) القلعة المشار اليها فى المتن هى قلعة « دوسر » أو « جعبر » · أما حاكم البلد حينذاك فكان الأمير عز الدين على بن مالك بن سالم ، وأما ما جرى بعد ذلك من أحداث فقد ذكرها ابن القلانسى فى ذيل تاريخه لدمشق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، حيث ذكر أن أحد خدم عماد الدين زنكى واسمه

« بيرتنش » وهو فرنجي الأصل كان يحقد على زنكى لاساءة سبقت منـــه اليه فأسرها فى نفسه ، فلما وجد غفلة منه فى ســـكره دبر الوثوب عليه « ووافقه بعض الخدم من رفقته فاغتالوه » ليلة الأحد سادس ربيع الآخـر سنة ٥٤١هـ ، ويعلق ابن القلانسى على ذلك فيقول « فتفرقت جيوش زنكى أيدى سبأ ، ونهبت أمواله وخزائنه ، وقبر هناك بغير تكفين الى ان نقل ـ كما حكى ـ الى مشهد على بالرقة » •

(٨) الواقع أن هذا الوالى هو « التنتاش » أو « الطنطاش » ويصفه ابن القلانسى فى كتابه ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٩ بأنه غـــلام أمين الدولـة كمشتكين الأتابك •

(٩) صلخد ، وقد يقال لها صرخد ، وهى عند الصليبيين Salchas وتقع فى اقليم حوران قرب بصرى التى هـى Bostra فى الحوليات الصليبية . وتعتبر من اقدم مدن الناحية ، وهى مبنية كلها من الحجـارة السوداء ، ويصف ياقوت صلخد فيقول انها قلعة شديدة الحصانة ، ويقول الدمشقى عن هذه القلعة انها قرب جبل بنى هلال الذى يسمى أيضا بجبل الريـان •

(١٠) « التونتاش » هو المقصود بالعظيـــم الذى ينعته به وليم ، فهو « عظيم » من وجهة نظره لموقفه المستنكر من الجانب الاسلامى •

(١١) لم نقف على قصـة هذا الزواج فى المراجـــع العربية التى بين أيدينا ، هذا على الرغم من أن الترجمة الانجيزية أشارت الى :
Gibb, Damascus Chronicle PP. 275 — 6.

لكنا لم نجد هناك ما يشير الى هذا الأمر •

(١٢) الضمير هنا عائد على « أنـر » •

(١٣) اقليم التراخونيتس Trachonitis هو أقليم « اللجا » من أعمال دمشق فى ولاية حوران ، وكلمة « التراخونيتس » أصلا يقصد بها الاقليم البركـــانى التربة ، ويعرف فى بلاد الشـــام باسم « اللجـا » أو « اللجـة » •

(١٤) لوقا ٢/١ •

(١٥) التونتاش هو المعنى بالنبيل ، واما المدينة فيقصد بها «بانياس» ٠

(١٦) لم نستطع الاستدلال على هذا الوالى الذى يسميه وليم بموريل وما نحسب الخبر الا مختلقا ومن خيال المؤلف ٠

(١٧) مرقص ٧/٣١ ٠

(١٨) يقصد وليم بالقائد هنا ذلك الفارس الذى يبدو وكأنه شبح يظهر للصليبيين فيقودهم فى الطريق الصحيح حتى اذا بلغوا غايتهم اختفى حسبما يذكر المؤلف ذلك حالا ٠

(١٩) لوقا ١٥/٢٤ ٠

(٢٠) أشار ابن القلانسى الى أن التونتاش والى صرخد وهو غلام أمين الدولة كمشتكين حدثته نفسه بمقاومة متولى دمشق معتمدا على مساعدة الافرنج له ، فخرج من ناحية صرخد الى ناحية الافرنج للاستنفار بهم ٠٠٠ ولم يشعر بما نواه معين الدين من ارهاقه بالمعاجلة فحال بينه وبين العود ٠٠٠ ولم تزل المراسلات مترددة من الفرنج الى معين الدين بالتلطف واصلاح الأمر والوعد والوعيد والتهديد ان لم يجب الى المطلوب ٠٠٠٠ ومعين الدين لايعدل عن المغالطة والمدافعة ، وراسل نور الدين يسأله الاتحاد على العدو فأجابه ٠٠٠٠ وتجمع الافرنج ، ثم وصل « التونتاش » بجهله وسخافة عقله الى دمشق من بلاد الافرنج بغير أمان ولا تقرير استئذان توهما منه أنه يكرم بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام ، فاعتقل فى الحال ٠٠٠ فسمل واطلق الى دار له بدمشق فأقام بها ، راجع ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ ٠

(٢١) النص كما جاء فى التثنية ٣٢/٢٥ هو « من خارج السيف يثكل ، ومن داخل الخدور الرعبة » ٠

(٢٢) سبقت الاشارة الى هذا المجمع فى الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، راجع الكتاب الثالث ، الفصل الأول ٠

(٢٣) المزامير ١٠٧/٤٠ ٠

(٢٤) المقصود بالمعسكر الصليبى هنا التيوتون الألمان ٠

(٢٥) المقصود بكلمة « عسكرنا »هنا الجماعات التيوتونية وليس عسكر بيت المقدس ، ويلاحظ استعمال المؤلف وليم الصورى لضمير المتكلم ذلك لأنه يعتبر هذه الجماعات الالمانية والفرنسية القادمة فى هذه الحملة فريقا من الصليبيين الذين فى الشرق بدافع الرابطة الأوربية المسيحية التى تربطهم أصلا بعضا ببعض ٠

(٢٦) كانت برتا السـلزباخية Berta of Sulzbacf أخت زوجة الامبراطور كونراد الثالث ، وقد خطبها الامبراطور يوحنا الثانى فى حياته لولده مانويل الذى أراد توثيق تحالفه وعلاقاته مع ألمانيا فتزوجها ٠ ثـم ان هذا الزواج كان نابعا ـ كما يفسره العالم الروسى استروجورسكى فى كتابـه :
History of The Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford, 1968, P. 381.

عن الرغبة فى توحيد القوتين الألمانية والبيزنطية للوقوف فى وجه النرمنديين، ولما صارت الأميرة « برتا » هذه امبراطورة على الدولة البيزنطية غيروا اسمها الى « ايرين » ٠ وقد تم زواج مانويل بها سنة ١١٤٦ ، انظر فى ذلك :
Chalandon : Les Gomnincs II, P. 210 et seq.

(٢٧) التاريخ الوارد بين الحاصرتين من الترجمـة الانجليزية لكتابنا هذا ٠

(٢٨) من العجيب أن هذه الحملة الصليبية الثانية ذات الأحداث الكبيرة العجيبة فى تاريخ بلاد الشام وفى مسيرة الحركة الصليبية لم تستغرق من عناية ابن القلانسى المؤرخ الشامى سوى بضـعة أسطر ، هذا الى جانـب الاضطراب فى تفسير الصلات بين الأوربيين الألمان والفرنسيين من ناحية وبين البيزنطيين من ناحية أخرى،فكان كل ماقالهعنها« ٠٠وفىهذهالسنةوأصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الافرنج والروم وما والاهـا بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم ألمان والفنش وجماعة من كبارهم فى العـدد الذى لا يحصر ، والعدد التى لاتحزر لقصد بلاد الاسلام بعد أن نادوا فى سائر بلادهم ومعقلهم بالنفير اليها والاسراع نحوها ، خلوا بلادهم وأعمالهم خالية من حماتها والحفظة لها ، واستصحبوا من أموالهم وذخائرهم وعددهم الكثير الذى لايحصى ، بحيث يقال ان عدتهـم ألف ألف عنان من الرجالة والفرسان ، وقيل أكثر من ذلك ، وغلبوا على أعمال القسطنطينية ، واحتاج

ملكها الى مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم ، ولما شاع خبرهـم ، واشتهر أمرهم وشرعت ولاة الاعمال المصاقبة لهم وأطراف الاسلام القريبة منهم فى التأهب للمدافعة لهم ، والاحتشاد على المجـاهدة فيهم ، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم التى تمنعهم من العبور والنفوذ الى بلاد الاسلام وواصلوا شن الغارات على أطرافهم ، واستمر القتال فيهم والفتك بهم الى أن هلك منهم العدد الكثير ، وحل بهم عدم القوت والعلوفات والمير وغـلاء السعر اذا وجد ، وفنى الكثير منهم بموت الجوع والمرض ، ولـم تـزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم الى أواخر سنة ٥٤٢هـ ، بحيث سكنت النفوس بعض السكون ، الى نساد أحوالهم بعض الركون » • انظر ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٩٧ -

فصول الكتــاب السابع عشر

١ ــ عقد مؤتمر عام فى عكا الواقعة قرب الساحل · أسماءمن جضروا هذا الاجتماع ·

٢ ــ المجتمعون يقررون فرض الحصار على مدينة دمشــــق ويزحفون عليها حسب اتفاقهم ·

٣ ــ وصف موقع دمشق ·

٤ ــ الصليبيون يشقون طريقهم بين المزارع ويستولون بالقوة على النهر رغم مجهودات العدو · وصف المعركة العظيمة التى خاضها الامبراطور فاستحق الاعجاب ·

٥ ــ اليأس يدفع الدماشقة للتفكير فى الفــــرار ، فيقومون برشوة بعض القادة الصليبيين الذين يستجيب الجيش لتحريضهم فينتقل الى الجانب الآخر من المدينة ·

٦ ــ نقص المؤونة لدى الجيش وكشف اللثام عن وضاعة الخونة ورفع الحصار ثم عودة رجالنا الى ديارهم ·

٧ ـ اختلاف الرأى حول المسئول عن هذه الخيانة العظمى ، والاقتراح بمحاصرة عسقلان مرة ثانية ولكن الفشل يصيب هذه المحاولة ٠

٨ ـ عودة الامبراطور « كونراد » الى بلاده وبقـــاء ملك الفرنجة فى الشام ٠

٩ ـ نور الدين يهاجم انطاكية فيصده الأمير « ريموند » ووقوع معركة حربية يموت فيها ريموند ٠

١٠ ـ نور الدين يسير فى معاملته للاقليم بأجمعه حســب مشيئته ، واسراع الملك الى هناك لمساعدة الناحية ، وقيام سلطان قونية بمهاجمة كونت الرها ٠

١١ ـ وقوع كونت الرها ـ بعد رحيل الملك ـ فى يد العدو وشناعة ميتته ٠

١٢ ـ الملك وكبار رجالاته يعيدون بناء غزة القــريبة من عسقلان ٠

١٣ ـ نشوب نزاع حاد بين الملك وأمه واتمام تتويجه دون علمها ٠

١٤ ـ تقسيم المملكة بين الأم والابن ، ودخول الملك القدس عنوة ٠ الملك يتغلب على امه ويبقيها اسيرة فى برج داود ، وأخيرا يسود الوئام بين الطرفين ٠

١٥ ـ سلطان قونية يعود مرة ثانية لغزو كونتية الرها فيمضى الى هناك الملك على جناح السرعة ٠

١٦ ـ امبراطور القسطنطينية يبعث جيشا الى امارة انطاكية ويطالب بخضوع الرها لسلطانه ، فيستجاب طلبه وتستسلم القلاع للاغريق فيقود الملك اللاتين الى هناك ٠

١٧ ـ نور الدين زنكي يلتقى فى طريقه بالملك وينجح فى منعه من الخروج • عودة الملك الى أنطاكية بعد شيء من الصعوبة ، أما نور الدين فيهزم الاغريق ويستولى على الاقليم كله •

١٨ ـ الملك يزجى النصيحة الى الأميرة بالزواج من أحد الأمراء ليدبر شئون مملكتها ، لكنها لا تستجيب لنصحه فيمضى الى طرابلس فى طريق عودته الى القدس •

١٩ ـ اللقاء بين الملك وأمه فى طرابلس فى محاولة لاصلاح ذات البين بين الكونت وزوجته ، ولكن المحاولة تبوء بالفشل الحشاشون يغتالون الكونت عند باب المدينة •

٢٠ ـ تقدم جيش تركى ضخم الى القدس للاستيلاء عليها فيخرج الصليبيون لصده وينزلون به الهزيمة الساحقة •

٢١ ـ خروج الملك وبارونات المملكة الى عسقلان لتخريب الأحراج المحيطة بالمدينة ، ولكنهم يطورون خطتهم الأصلية ويحاصرون البلد •

٢٢ ـ وصف موقع المدينة ومزاياها •

٢٣ ـ بدء عمليات الحصار واختيار الضباط لقيادة الأسطول وكذلك للجيش البرى •

٢٤ ـ مجيء جماعة من الحجاج فى الشهر التالى للحصار فيكونون عونا كبيرا للصليبيين فى استمرارهم فى الحصار •

٢٥ ـ وصول الأسطول المصرى الى عسقلان فى الشهر الخامس من الحصار فيبث وصوله الطمأنينة الكبرى فى نفوس المحصورين •

٢٦ ـ كونستانس أميرة انطاكية تتزوج من رينو دى شاتيون ، ومهاجمة نور الدين لملكة دمشق • تنصيب أماريك على كنيسة صـــيدا •

٢٧ ـ المحاصرون يشنون هجوما عاتيا على البلد فيحاول الأهالى اضرام النار فى الآلات الحربية الموجودة خارج الأسوار • سقوط جزء من سور المدينة ، مصرع جماعة من الصليبيين أثناء محاولتهم الدخول ، وجيشنا يفقد الأمل •

٢٨ ـ الطمأنينة تعود الى الصليبيين مرة أخرى مما يشجعهم على مواصلة الحصار وازدياد ضغطهم شدة عن ذى قبل •

٢٩ ـ اليأس يتطرق الى نفوس العسقلانيين فيجمعون الرأى على وجوب الاستسلام •

٣٠ ـ اختيار طائفة من سراة المدينة وارسالهم الى الملك فيأذن للعسقلانيين بالخروج أحرارا بنسائهم وكل ما ملكته ايديهم •• استسلام المدينة •

هنا يبدأ الكتاب السابع عشر

الاستيلاء على عسقلان

بدلا من الحرب الصليبية الثانية

(١)

قد يكون من الأمور الجديرة بالاشارة اليها والتى تتفق وموضوع التاريخ الحالى أن ندون هنا للأجيال القادمة اسماء الأشراف الذين حضروا الاجتماع المشار اليه حالا ، وفيهم رجال وفدوا من بلاد لها قدرها المهم ، ويأتى على رأسهم « كونراد » الشهير ملك التيوتون وامبراطور الرومان ، وكان فى صحبته من كبار أعلام بلاطه الدينيين كل من أخيه « أوتو » أسقف « فرايزنج » الذى كان من رجال الفكر ، و « ستيفن » أسقف «ميتز » ، وهنرى أسقف تول وهو اخو «تيرى » كونت فلاندرز ، و « ثيوفين » أسقف

بورتو التيوتونى المولد ، والنائب البابوى الذى رافق الحملة الامبراطورية بناء على أمر البابا « يوجين » .

أما الأمراء المدنيون فكان منهم « هنرى » دوق النمسا أخو الامبراطور ، والدوق « جلف » أحد النبلاء البارزين الأقوياء ، والأمير فردريك دوق السوابيين والبافاريين العظيم ، وهو ابن أخى الامبراطور الكبير « كونراد » ، وكان شابا سوى الخلق ، تولى الحكم بعد عمه « كونراد » وهو اليوم الرجل الذى يحكم الامبراطورية الرومانية حكما نشيطا فعالا .

كذلك كان هناك « هيرمان » ماركيز « فيرونا » ، و « برتولد » من اقليم « أنخس » وهو الذى صار فيما بعد دوق بافاريا ، وأيضا نسيب الأمير واسمه وليم مركيز مونتفرات ، وجى كونت « بلاندارس » الذى كانت زوجته أخت المركيز المشار اليه حالا .

وكان هذا النبيلان الأخيران من كبار الأمراء البارزين فى اقليم « لمبارديا » .

وكذلك كان من الحاضرين غير هؤلاء جميعا رجال عظام من أصحاب المكانة الرفيعة ، ممن غابت عن ذاكرتنا أسماؤهم وألقابهم .

كما شارك فى الاجتماع (لويس السابع) أتقى ملوك الفرنجة وصاحب الذكرى المجيدة وفى صحبته « جودفرى » أسقف « لانجرز » وأرنولف أسقف « ليزييه » ، و « جى دى فلورانس » الكردينال لكنيسة رومة والملقب « بخريسو جونس » ، وهو مندوب الكرسى البابوى ، و « روبرت دى بيرش » أخو الملك ، وهنرى كونت « تروى » ابن « ثيوبولد » الكبير وزوج ابنة الملك ، وكان شابا دمث الأخلاق .

وكان مع الملك أيضا كل من « تييرى » كونت فلاندرز العظيم نسيب ملك بيت المقدس ، وجميعهم جديرون بالذكر ، الى جانب أمثالهم من أصحاب المراتب الرفيعة · لكن لما كان ذكرهم يتطلب فراغا كبير فقد اضطررت لاغفال أسمائهم ·

* * *

وشارك من أهل بلادنا « بلدوين » ملك بيت المقدس ، وكان شابا يبشر حاضره بمستقبل زاهر ، كما حضرت أمه (مليزند) وهى امرأة حصان عفيفة جريئة القلب ، لا تقل فى ذكائها عن أى أمير من الحاضرين ، وكان فى صحبتهما(١) « فولشر » بطرك بيت المقدس كما جاء « بلدوين رئيس أساقفة قيسرية » و « روبرت » رئيس أساقفة الناصرة ، و « رورجو » أسقف عكا ، « وبرنارد » أسقف صيداء ، و « وليم » أسقف بيروت ، وآدم أسقف « بانياس » ، و « جيرالد » أسقف بيت لحم ، وروبرت رئيس الفرسان الداوية ، و « ريموند » رئيس الفرسان الاسبتارية ·

وكان من بين النبلاء العلمانيين « مناسيس » الكونســتابل الملكى ، وفيليب النابلسى و« اليناندوس » من طبرية ، و « جيرارد » صاحب صيدا ، وولتر صاحب قيصرية ، و « باينس » صاحب الاقليم الواقع وراء الاردن ، و « باليان » الكبير ، وهمفرى صاحب « تورون » ، و « جى » صاحب بيروت ، وكثيرون غيرهم ممن لو ذكرتهم واحدا واحدا لاستغرق ذلك صفحات طويلة ·

* * *

ولقد اجتمع كل هؤلاء الرجال العظام فى مدينة عكا كما قلنا ليقرروا قبل كل شىء أنسب وقت وأحسن مكان ليزيدوا بمشيئة الرب من رقعة المملكة اتساعا ، ويضيفوا مجدا الى المجد المسيحى ·

(٢)

ومن ثم تدبروا الأمر تدبرا عميقا ، فاختلفت الآراء تبعـــا لاختلاف الجماعات ، وتضاربت الحجج مابين مؤيد ومعارض كما هو المألوف فى موضوع عام كهذا الموضوع ، ثم اســـتقر الرأى أخيرا على أن أحسن ما يفعلونه فى مثل هذه الظروف هو محاصرة مدينة دمشق التى كانت تمثل خطرا من أكبر الأخطار التى تهددنا ، فلما وافقوا على هذا القرار نادى المنادى بأن يكون كل أمير على أتم أهبة لقيادة فيلقه فى اليوم المحدد للزحف الى الناحية المعينة ، لذلك احتشدت جميع قوى المملكة الحربية من المشاة والفرســـان والأهالى والحجاج على السواء ، كما جاء العاهلان العظيمان اللذان يحبهما الرب ، وكانت معهما قواتهما ، حتى اذا كان اليوم الخامس والعشرون من مايو ١١٤٨ من مولد المسيح تقدمت الجيوش المتحالفة على الصورة المتفق عليها رافعة أمامها صليب الحياة ، وتقدمت الى مدينة طبرية ، ومن هنا سلك الجيش بأجمعه أقصر الطرق الواقعة على امتداد بحر الجليل ، والمؤدية الى « بانياس » التى هى قيصرية فيليبى ٠ وهنا تباحث القادة مع رهط من الناس العالمين ببواطن الأمور فى دمشق وما جاورها ، وبعد استشارة زعمائهم قرروا أن أحسن السبل لمضايقة دمشق هى البدء بالاستيلاء على البساتين المحيطة بمعظم البلد ، والتى يعزى اليها الكثير من حمايتها ، فان أمكن أخذ هذه البساتين لم يعد شك فى سهولة الاستيلاء على المدينة ذاتها بالتالى ٠

لذلك تابع الصليبيون زحفهم تنفيذا منهم لهذه الخطة ، فعبروا جبل لبنان الواقع بين قيصرية فيليبى ودمشق ، وانحدروا منه الى السهل الموجود عند قرية « داريا » التى تبعد عن المدينة اربعة أميال أو خمسة ، وكان من اليسير عليهم ـ وهم فى هذه البقعة رؤية العاصمة والوادى المحيط بها ٠

(٢)

وتعتبر دمشق أكبر مدن الشام الصغرى المسماة أيضا بفينيقية لبنان ، كما أنها عاصمة تلك المنطقة لأننا نقرأ فى أشعيا (١) أن دمشق «رأس أرام» أى الشام ، والمشتق اسمها من اسم مؤسسها الشهير أحد خدم ابراهيم ، أما تفسيرها فهو المدينة الدموية ، أو المدينة المليئة بالدم ، وهى واقعة فى سهل جاف مجدب الا ما كان منه يسقى من قنوات تجلب الماء اليه من أعلاه · كما أن هناك نهرا ينحدر من جرف جبل مجاور فى الجزء الأعلى من تلك الناحية ، فتتدفق مياهه فى القنوات التى تخترق السهل ثم تنساب فيما تحت ذلك من الأراضى ، فاذا بهذه الأراضى الجدباء تخصب وتخضر ·

واذا كانت المياه هنا شديدة الوفرة فان النهر يروى أيضا ما يقع على جانبيه من بساتين الفاكهة ، ثم يستمر فى جريانه مجاوزا سور المدينة الشرقى ·

* * *

ولما كانت « داريا » شديدة القرب من دمشق فقد صف القواد عساكرهم عندها للقتال وأنزلوا كل كتيبة فى مكانها المخصص لها للزحف ، لأنهم اذا تقدموا من غير خطة مرسومة فلابد أن تشب بينهم المنازعات التى تفسد العمل الذى بين أيديهم ·

ولما كان الأمراء يدركون أن أعرفهم بالاقليم هو ملك بيت المقدس فقد أجمعوا على أن يقدموه عليهم ويجعلوه أمامهم فى الزحف بمن معه من الجند ليفتح الطريق فى وجه الكتائب التى تتلوه ·

اما ملك الفرنجة فقد كان التالى له ، وكان مكانه القلب كى يعين الذين أمامه اذا ما دعت الحاجة الى مثل هذه المعونة ·

واتفقــوا على أن يكون الامبراطور « كونراد » على رأس الفريق الثالث أعنى المؤخرة ، استعدادا لصــد العدو ان هاجم العسكر من الوراء أو على غير توقع منهم ، وبذلك تكون القوات الأمامية فى مأمن من هجمة مباغتة تأتيهم من الخلف ·

فلما تم تنظيم الجيوش الثـلاثة على هذه الصـــورة تقدم عسكرهم وحاولوا الاقتراب من المدينة جهد ما أمكنهم ·

وكانت البساتين تمتد الى الغـــرب عند الناحية التى كان جيشنا آخذا فى الاقتراب منها ، وكذلك الى الشمال مسافة خمسة أميال أو أكثر فى اتجاه لبنان ، وهى أشبه ما تكون بغابة كثيفة تكتنف المدينة من كل جوانبها ، كما أن هذه الاحراج كانت محاطة بأسوار من الطين لبيان حدود كل بستان ، ولصد من تحدثه نفسه باقتحامها والاعتداء عليها ·

وأما استعمالهم الطين فراجع الى ندرة الصخور والحجارة فى تلك الناحية ، وكانت هذه الأسوار تجعل صاحب كل بستان من هذه البساتين عارفا لبستانه ، وجعلوا بين بعضها والبعض الآخر ممرات وطرقا عامة شديدة الضيق ، لا تتسع الا بالقدر الذى يسمح للمزارعين والحراس بالسير عبرها ، مستصحبين الدواب المحملة بالفاكهة الى المدينة ·

وتعمل هذه البساتين على حماية المدينة حماية عظمى ، ذلك أن العدد الضخم من الأشجار المزروع بعضها الى جانب بعض كانت تجعل من الصعب – ان لم يكن من المستحيل – على المرء الاقتراب من دمشق من ذلك الجانب ، لكن على الرغم من هذه الصعوبة فقد صمم قادتنا منذ البداية على الســـير بالجيش عبر هذه الأحراج ليصلوا الى المدينة ، وكان يحملهم على ذلك أمران أولهما هو أن

ضياع معظم الأماكن الحصينة من أيدى الدماشقة (وهى الأماكن التى يبنون عليها الآمال الجسام) سوف ييسر على الصليبيين التغلب على كل ماسواها · وأما ثانيهما فنابع من رغبة قادتنا فى توفير الفاكهة والماء للعسكر ·

لذلك كان ملك بيت المقدس أول من قاد العسكر خلال هذه الدروب الضيقة فى الأحراج رغم ما صادفه الجيش من صـــعوبة بالغة فى التقدم ، اذ كانت هذه المسالك الضيقة تعطل سيره فيها ، كما كانت تزعجه أحيانا أخرى مكائد الأعداء الكامنين فى الأيكات ، مما يحمله رغم أنفه على الاشتباك معهم فى القتال حين يجدهم قد سدوا المسالك فى وجهه واستولوا على الدروب الملتوية ، هذا الى جانب تربص أهل البلد له فى الشعاب فى محاولة منهم لقطع الطريق عليه بالهجمات يشنونها عليه خفية وعلانية ·

أضف الى ذلك أنه كانت ترتفع فى هذه البساتين ذاتها المبانى الشاهقة التى يقوم على حراستها ويتولى الدفاع عنها رجال قد تلاصقت أملاكهم بعضها ببعض ، فتعاهدوا عهدا وثيقا أن يبذلوا النفس والنفيس دفاعا عنها ·

واستفادوا من هذه النقاط فاســـتمروا يقذفون منها وابلا لا ينقطع من السهام وغيرها مما أدى الى حماية البساتين حماية صحيحة ، ومنعت أى أحد من الاقتراب منها بأى حال من الأحوال · كما أن السهام المنطلقة من بعيد جعلت هى الأخرى السير شـــديد الخطورة على من يريد السير هناك ، ولم تكن هذه الاجراءات القوية ضد تقدمنا تأتى من جانب واحد فقط أعنى به تلك الحدائق ، بل كانت هناك أخطار مماثلة لها تلحق بكل عابر لا يأخـــذ حذره ، وأصبح الناس يترقبون الموت يأتيهم من حيث لا يحتسبون ، كما

استخفى رجال على طول السور الداخلى وراحوا يطلون — دون أن يراهم أحد ـ من الفجوات الصغيرة الموجودة بكثرة فى الأسوار فيطعنون المارة بالرماح التى فى أيديهم ، ويقال انه هلك الكثيرون فى هذا اليوم من جراء هذا الأمر شر هلاك ، كما لحقت الأخطار المختلفة من حاولوا اجتياز هذه الطرق الضيقة ٠

(٤)

حين أدرك الصليبيون حقيقة الموقف ضاعفوا من ضغطهم حتى حطموا المتاريس واستولوا على البساتين ، واخذوا كل من وجدوهم فى المخابىء والبيوت أخذ عزيز مقتدر ، فراح القوم ما بين أسير أخذوه ، وقتيل أردوه بسيوفهم ، فلما علم بذلك أهل البلد الذين جاءوا للدفاع عن البساتين انكفئوا وجلين حتى لا يصيبهم نفس الضر ، وهربوا زرافات الى المدينة التى تمكنت قواتنا من دخولها دون أى مقاومة بعد أن دارت الدائرة على الأعداء : هزيمة وقتلا ٠

وأدرك الجميع أن الصليبيين سوف يتقدمون من البســاتين لمحاصرة المدينة ، وحينذاك أسرعت قوات دمشق من الفرسان ومن حلفائهم الذين جاءوا لمساعدتهم وانطلقوا جميعا ناحية النهر الذى يشق المدينة ، طامعين فى أن يتمكنوا بفضل سهامهم ومنجنيقهم أن يحولوا بين العســـكر المنهوكين وبين بلوغ النهر ، ويمنعوهم من اطفاء ظمئهم من مياهه التى يتحرقون لهفة عليهـــا ، فلما سمع الصليبيون أن النهر قريب منهم غاية القرب أسرعوا شطره ليطفئوا ظمأهم ويرووا غلتهم التى زاد من شدتها ما تحملوه من المشاق المضنية ، وما أرهقتهم به سحب التراب التى أثارتها سنابك الخيل وأقدام الرجال ، كما حملهم منظر القوات الكثيرة المتجمعة على شاطىء النهر على أن يتوقفوا قليلا ، لكنهم ســـرعان ما جمعوا

صفوفهم ، وزادهم الموقف جرأة واقداما فبذلوا كثيرا من المحاولات للسيطرة على النهر فلم تجدهم محاولاتهم هذه نفعا ٠

بينما كان الملك وفرسانه يجهدون أنفسهم من غير جدوى تعود عليهم اذا بالامبراطور « كونراد » يتساءل ـ وهو على رأس الكتائب القادمة من ورائه ـ عما حمل الجيش على عدم التقدم ، فأعلموه بخبر استيلاء العدو على النهر ، ومنعه عسكرنا من العبور ، فاستشاط غضبا عند سماعه هذا النبأ ، فانطلق بفرسانه ما أسعفتهم السرعة حتى جاوزوا قوات الملك ووصل الى المقاتلين الذين كانوا يبذلون جهدهم للاستيلاء على النهر ، وحينذاك ترجل الجميع عن جيادهم جريا على عادة التيوتون اذا اشتدت بهم الأزمة واصبحوا عسكرا مشاة ، ومدوا دروعهم أمامهم ، واشتبكوا مع العدو بالأيدى ، وتلاحموا بالسيوف ٠

وصمد الدماشقة فى بادىء الأمر صمود الأبطال ، وحاربوا ببسالة ، لكن سرعان ما تسرب اليهم الوهن فلم يعودوا قادرين على تحمل المقاومة ، وتخلوا عن النهر ، ولاذوا بأذيال الفرار وهربوا سراعا الى المدينة ٠

وقيل ان الامبراطور أظهر فى هذا الاشتباك بطولات مجيدة ، حتى ليقال انه صرع بطريقة عجيبة جدا فارسا تركيا ظل يقاومه ببسالة عنيفة ، لكن « كونراد » تمكن من أن يضربه بسيفه ضربة فصلت رأسه ورقبته عن بقية جسده ، وبقيت الكتف اليسرى وقد تدلى منها الذراع وكذلك جزء من جنبه مما أفزع المواطنين الذين شاهدوا المنظر فهلعت له أفئدتهم وأفئدة من سمعوا الخبر من أفواه الآخرين، فيئس الناس يأسا مطلقا من قدرتهم على المقاومة بل ومن الحياة ذاتها (٢) ٠

(٥)

هكذا سيطر الصليبيون على النهر وخلصت لهم ضفتاه ، وإن ذاك انطلقوا فنصبوا خيامهمحول المدينة ، وتمتعوا بالنهر وبالأحراج التى استولوا عليها بالقوة ، واشتدت الدهشة بأهل البلد لما شاهدوه من كثرة أعداد الصليبيين وعظيم شجاعتهم ، وخامرهم الشك فيما اذا كانت قوتهم كافية للصمود أمامهم ، كذلك حملهم خوفهم من أن يباغتهم خصومهم بالهجوم عليهم على التشاور فيما بينهم ، فاتخذوا من الاجراءات ما يتسم باليأس ، فسدوا جميع شوارع المدينة المؤدية الى معســـكراتنا بجذوع أشجار شديدة الضخامة بالغة الطول ، نظرا لأن أملهم الوحيد كان يتركز فى أن تسعفهم قوتهم بالهرب فى الاتجاه المعاكس مع زوجاتهم وأولادهم فى الوقت الذى يكون فيه الصليبيون منصرفين الى ازالة هذه الحواجز ٠

وبدا واضحا للعيان أن المدينة لابد ساقطة فى أيدى الصليبيين لكن شاءت ارادة(٣) من « فعله المرهب نحو بنى آدم أن يتم عكس الذى توقعوه » ، اذ بينما كانت المدينة فى أشد حالات الكرب والضيق. وقد ران اليأس على نفوس الناس ، وأيقنوا أن قد عدموا القدرة على المغادرة ، وبينما هم يستعدون للخروج من المدينة بكل متاعهم أملا منهم فى النجاة بأنفسهم اذا بالرب يعاقبنا على خطايانا ، فقد أخذ الدماشقة فى استغلال الطمع الذى كان مستحوذا على نفوس بعض رجالنا فحاولوا السيطرة على قلوب من لا يطمعون فى التغلب عليهم بالقهر ، ونجحت محاولاتهم الماكرة فى أن يحملوا نفرا من أشرافنا على رفع الحصار عن البلد بعد أن بذلوا لهم المال الكثير الذى جمعوه لهم حتى قاموا بدور « يهوذا» الخائن ، فسمح هؤلاء الرجال لأنفسهم بالنزول الى الدرك الأسفل من الجريمة بسبب ما جبلوا عليه من الطمع الذى هو رأس كل الشـــرور ، ومن جراء

الرشوة التى أفسدت ضمائرهم والأمانى الكاذبة التى طمعوا فى تحقيقها ٠

لذلك فان عروضهم(٤) الدنيئة حملت الملك والأمراء والحجاج (الذين كانوا يعتمدون على اخلاصهم وايمانهم) على أن يخرجوا من البساتين والأحراج ، وأن ينطلقوا بجيوشهم الى الجانب الآخر من المدينة وتذرعوا بذرائع واهية لاخفاء جرمهم فادعوا أن الجانب الآخر من البلد المطل على الجنوب والشرق خال من الأحراج التى تحميه ، كما أنه لا يوجد به نهر أو خندق يمنعهم من الاقتراب من التحصينات ، وأذاعوا أن السور المنخفض المبنى من اللبن لن يستطيع الصمود أمام أول هجوم عليه ، وأنهم لن يكونوا فى هذا الموضع فى حاجة ماسة الى الآلات الحربية أو بذل مجهودات عنيفة ، لأن السور لابد أن ينهار عند تعرضـه لأول هجمة لهم عليه ، ولن يكون من الصعب أن يشقوا لأنفسهم طريقا الى داخل البلد ، وكان هدفهم الوحيد من تقديم هذه المبررات هو أن يحملوا الجيش على التحول من موضعه الحالى الذين زعموا انه يصعب منه تشـديد الضغط على المدينة ، على حين أنه لا يمكن من الجانب الآخـر الاستمرار فى الحصار لفترة طويلة ٠

فلما سمع ملكا الجيوش المتحدة وجميع قوادها هذا الكلام الكاذب لم يرتابوا فيه ، اذ سرعان ما أخلوا الموضع الذى حصلوا عليه بشق النفس ، وتكبدوا فيه هلاك الرجال ، وهكذا تحولت جميع الكتائب من هذا المكان بتوجيه من الخونة ، وضرب الجند مخيماتهم فى الجانب الآخر من المدينة ٠

لكن سرعان ما اتضح لهم أن هذا الموضع الجديد بعيد كل البعد عن بساتين الفاكهة الكثيرة وعن الماء الوفير ، وأن كل مالديهم

من الطعام آخذ فى النقصان ، وحينذاك أدركوا أن الخيانة آتت أكلها ، وراحوا يهمهمون ــ ولكن بعد فوات الأوان ــ أن قد غرر بهم تغريرا فاحشا ودخلت عليهم الغفلة حين قبلوا الانتقال من موضعهم الذى كانوا فيه لأنه كان أصلح الأمكنة وأجداها عليهم ٠

(٦)

تناقصت المؤونة فى المعسكر الصليبى الذى كان أصحابه قبل زحفهم على ثقة من أن لن يطول الوقت بهم ليتم الاستيلاء على المدينة فلم يحملوا من الزاد الا ما قد يكفيهم أياما قلائل ، وكان ذلك أظهر ما يكون مع الحجاج الذين ما كان لأحد أن يلومهم فقد كانوا يجهلون الاقليم ، فأدخل البعض فى روعهم ماحملهم على الاعتقاد بأنهم سوف يستولون على دمشق فى سهولة ويسر عند أول هجوم يشـــنونه عليها ، وأكدوا لهم فى الوقت ذاته أنهم اذا عدموا كافة أنواع الطعام فان الجيش ــ مهما كانت كثافة عدده ــ قادر على أن يعيش على الفاكهة التى سوف يحصلون عليها بلا ثمن يدفعونه ٠

أدى هذا الوضع المضطرب الطارىء الى أن يساور الشك نفوس الصليبيين فاكثروا من المشاورات فيما بينهم سرا وعلانية يتدبرون فيها أى طريق ينبغى عليهم سلوكه فى هذا الموقف،فأدركوا أن رجوعهم الى الموضع الذى كانوا فيه صار أمرا صعبا بل مستحيلا ، ذلك لأنه ما كاد الصليبيون يرحلون عنه حتى بادر الأعداء ــ وقد أدركوا غايتهم ــ الى دخول المدينة واقاموا تحصينات أقوى من تحصيناتها السابقة ، كما عمدوا الى الطرق التى سبق للصليبيين الدخول منها فسدوها بمتاريس من الكتل الخشبية الضخمة والأحجار الثقيلة ، كما اقاموا هناك طائفة كبرى من رماة النبال ليحولوا دون تمكن العدو من البلد من الناحية التى يعسكرون فيها لعدم وجود الطعام

الكاف بين أيديهم ، كما عمدوا من ناحية أخرى الى ما فيه تعطيل الهجوم عليهم من الموقع الحالى ٠

لذلك شرع الأمراء والحجاج فى التشاور فيما بينهم ، وتجلى لهم بأجلى صورة خيانة من كانوا قد وثقوا فى اخلاصهم فاستأمنوهم على حياتهم ومصالحهم ، فتقززت نفوسهم اشمئزازا من الخيانة التى جازت عليهم ، ولما أيقنوا بأن مشروعهم مقضى عليه بالفشل الذريع فقد صمموا على أن ينفضوا أيديهم منه وأن ينكفئوا عائدين الى ديارهم ، وترتب على آثامنا أن اضطر الملوك والأمراء الذين تجمعوا فى أعداد ضـــخمة الى الارتداد دون أن يحققوا هدفهم المنشود ، فعادوا الى المملكة سالكين نفس الطريق الذى جاءوا منه ، يجللهم الخزى ويسيطر عليهم الخوف ، وأصبحوا منذ ذلك الحين وطوال بقائهم فى الشرق بل وبعد ذلك أيضا ينظرون بعين الشك والريبة الى كل ما يفعله قادتنا ، واعتبروا ـ وحق لهم ذلك ـ أن جميع خطط هؤلاء الكبار انما تنطوى على الخيانة ولم يعودوا يكترثون قيد أنملة بأحـــوال المملكة ، وظلت ذكرى الأهوال التى كابدوها عالقة بأذهانهم حتى بعد رجوعهم الى أوطانهم ، وأصبحوا ينظرون بعين الاشمئزاز الى ما ينطوى عليه مسلك هؤلاء النبلاء من الدناءة ٠ ولم تكن تلك النظرة قاصرة على هؤلاء الحجاج فحسب بل جاوزتهم الى غيرهم حتى من لم يساهموا فى الحملة ، فتضاءل حبهم للمملكة ، وترتب على ذلك أن لم يعد يقوم برحلة الحج بعدئذ الا أفراد قلائل وأقوام وهنت حماستهم ، وبالاضافة الى ذلك فالملاحظ حتى اليوم أن من يجيئون لا يطيلون مكثهم بيننا حتى لا يدخلوا نفس التجربة وتصيبهم نفس المصائب ٠

أشير هنا الى أننى كثيرا ما تحدثت الى رجال ألباء ممن لازالت ذاكرتهم تعى أخبار تلك الأيام ، قاصدا من وراء ذلك أن أدون فى هذا الكتاب الحالى ما أخبرونى به ، وقد حاولت أن أفهم علة هذا الخطأ الفادح الشنيع ، وأن أعرف من كانوا وراء الخيانة ، وكيف تم تنفيذ هذه الجريمة القذرة ، فوجدت تضاربا بينا واختلافا كبيرا بين روايات بعضهم وبعض فيما يتعلق بها ، فمنهم من ينسب ما جرى الى كونت فلاندرز ويعتبره المسئول عنها ويحمله اثم ما حدث ، اذ المعروف أنه كا نمع الجيش فى هذه الحملة ، ويقولون انه لما صارت كتائبنا أمام دمشق واحتلت الغابات والنهر بالقوة وفرضت الحصار على البلد جاء هذا الكونت الى كل واحد من العاهلين واحدا بعد الآخر يلح عليه أن يقطعه مدينة دمشق بعد اتمام فتحها ، ويقال ان العاهلين أبديا استجابة الى ما طلبه الكونت منهما ٠

لكن على الرغم من موافقة بعض لوردات المملكة على ما طلبه كونت « فلاندرز » الا أن هناك آخرين تســـخطوا هذا الخبر عند سماعهم اياه ، واستنكفوا من هذا الأمير العالى القدر الذى تكفيه أملاكه الخاصة كل الكفاية ، والذى كان الظن به أنه يحارب فى سبيل اعلاء مجد الرب وليس سعيا وراء مكافأة ينالها ٠ ولم يكن يخيل لأحد أن يصر على أن يستحوذ لنفسه على قسم كبير من المملكة ، وذلك لأن هؤلاء الأمراء أنفسهم كانوا يطمعون أن تضاف الى المملكة أى رقعة من الأرض مهما كانت مساحتها فيزيدون هم بالتالى مساحة ممتلكاتهم ، ولذلك فقد استفزهم الحنق فدفعهم لسلوك مسلك شائن تمثل فى ايثارهم احتفاظ الدماشقة بمدينتهم بدلا من أن يستردها الصليبيون فتوهب للكونت ، وقالوا انه من الظلم الفادح أن يغفل أمر هؤلاء الذين تحملوا المشاق الجسام ومن بذلوا أرواحهم فى

الحرب فى سبيل المملكة ثم لا يكافأون على ما بذلوا ، فى الوقت الذى يجنى فيه من وفدوا منذ وقت قريب الثمار التى تم الحصول عليها بالجهد المستمر الطويل ٠

* * *

على أن هناك آخرين قالوا ان أمير انطاكية كرس كل جهده ليجعل الفشل من نصيب مشروع الملك لويس (السابع) الذى أثار حنق الأمير اذ فارقه وهو غاضب منه رغم ما قدمه صاحب انطاكية من الاحسانات الكثيرة اليه ، ومن ثم فقد أغرى فريقا من كبار رجال الجيش على تعقيد الأمور تعقيدا حمل الملك الفرنسى على التخلى عن المشروع نهائيا ونفض يديه منه وايثاره الرجوع عنه ، فرجع رجوعا مشينا ٠

وهناك قصص أخرى مفادها أنه لم يحصل شىء من هذا القبيل سوى أن العدو رشا أشخاصا معينين بقدر كبير من المـــال حتى ينتهى الأمر الى هذه الكارثة الفادحة ٠

ومن الأمور العجيبة ما يقال من أنهم تبينوا بعد حين أن كل هذه النقود التى حصلوا عليها بالطرق الخسيسة كانت نقودا مزيفة لا تساوى شيئا ٠

* * *

هكذا اختلفت الآراء اختلافا بينا فى شأن من تقع على عاتقه مسئولية هذا العمل الكريه ، ولقد عجزت (أنا وليم الصورى) عن الوصول الى الخبر اليقين فى هذا الموضوع ٠

وأيا كان الآثمون فلابد من أن سيأتى اليوم الذى يجزون فيه الجزاء المكافىء لما ارتكبوه ، ما لم يسعوا لطلب الغفران من الرب فتشملهم رحمته الواسعة ٠

هكذا رجع قومنا كما ذكرنا لم يجنوا مجدا ، وفرح الدماشقة لرحيلهم ، فقد كان خوفهم من الصليبيين ثقيل الوطأة على نفوسهم ٠ أما أهلنا فكانوا على العكس من ذلك ، اذ يقول لسان حالهم مع القائل(٥) « صار عودى للنوح ، ومزمارى لصوت الباكين » ٠

ولما عاد الملوك الى المملكة عقدوا مجلســـا من النبلاء فى محاولة جديدة منهم للقيام بأى عمل آخر يرفع من ذكرهم فى عيون الخلف ، لكنها كانت محاولة باءت بالفشل ، فقد اقترح بعضـــهم محاصرة عسقلان التى كانت لاتزال فى أيدى الكفار ، وزعموا أنه لما كانت هذه المدينة تقع تقريبا وسط المملكة فقد كان من اليسير نقل كل ما هو ضرورى اليها وستكون مهمة رجالنا ارجاعها الى حظيرة الايمان المسيحى سهلة ٠

كذلك قدمت اقتراحات كثيرة مشابهة لهذا الاقتراح ،ولكنها قوبلت كلها بالرفض كما رفض الاقتراح الأول حتى قبل مناقشته ، اذ يبدو أن غضب الرب عليهم جعل الفشل نصيب كل ما يقدمـــون عليه ويفكرون فيه ٠

(٨)

أيقن الأمير « كونراد » الآن أن الرب قبض عنه رحمته ومنعه عن أن ينعم بالمساهمة فى أى أمر من أمور المملكة ، لذلك أمر باعداد سفنه لتكون على أهبة الرحيل الى مملكته ، ولم تنقض الا أعوام قليلة حتى مات كونراد (سنة ١١٥٢) فى « بامبرج » ودفن فى كنيستها الكبرى فى احتفال عظيم ٠

وكان كونراد جميل الطلعة ، ورعا ، رحيما ، يمتاز عن سواه

بما طبع عليه من روح سامية ، وخبرة واسعة بالأمور الحربية . وكانت حياته وخلقه مثلا أعلى يحتذى ، فخلد ذكره ·

وخلفه على العرش بعد موتـه « فردريـك » دوق ســـوابيا العظيم الذى رافق الامبراطور فى رحلة حجه فلم ينفصل فيها عنه قط ، وكان شابا سرى الخلق ، وهو ابن أخيه الأكبر ، وله الحكم اليوم فى الامبراطورية ، يسوسها بفطنة ، ويحكمها حكما لحمته الشجاعة وسداه النجاح ·

* * *

أما ملك الفرنجة فقد أمضى عاما بيننا ، حتى اذا حل الربيع واحتفل بعيد الفصح فى القدس عاد (سنة ١١٤٩) الى مملكته وفى ركابه زوجته ونبلاؤه · فلما بلغ دياره وتذكر الأضرار التى ألحقتها به زوجته (اليانور) خلال الرحلة وطول رحلة حجه عزم على مفارقتها فراقا لا رجعة فيه ، ففسخ (فى سنة ١١٥٢) ارتباطه بها بحجة المسافدة ، وكان شهوده فى هذا الفسخ أساقفة مملكته ، وسرعان ما قامت الملكة (اليانور) دون أن تتريث ولو قليلا ، بل وحتى قبل عودتها الى « أكويتين » فتزوجت من « هنرى » دوق نرماندى وكونت « أنجو » الذى ما لبث فى أعقاب هذا الزواج أن صار ملك الانجليز خلفا لستيفن الذى مات دون أن يخلف ذكرا ·

ولقد كان ملك الفرنجة هذا أسعد حظا فى اختياره الثانى اذ اقترن بماريا ابنة امبراطور اسبانيا ، وهى آنسة مرضى عنها عند الرب ، ومبجلة كل التبجيل بسبب حياتها الطاهرة وخلقها الكريم ·

(٩)

بدأ وضع اللاتين يتدهور فى الشرق بصورة واضحة للعيان منذ ذلك الحين ، ورأى خصومنا ما آلت اليه جهود أعظم ملوكنا

وقوادنا من الفشل ، وذهاب محاولاتهم ادراج الرياح ، فأخذوا يسخرون من تدهور بأس الذبن يمثلون الركن الركين للمسيحيين ، ويهزأون من مجدهم المنهار ، ويزدرون من كانت أسماؤهم وحدها تبث الفزع فى نفوسهم ، ثم زاد اقدامهم وغرورهم زيادة بلغت الذروة فلم يعودوا يقيمون وزنا للعساكر المسيحيين ، ولا يتأخرون عن مهاجمتهم مهاجمة شرسة لم تعهد فيهم من قبل ·

لم يكد العاهلان (الأوربيان) يرحلان حتى قام نور الدين بن زنكى فجمع جيشا ضخما من كافة أرجاء المشرق ، وراح يعيث فسادا وتخريبا فى كل ما حول أنطاكية فى جراة غير مألوفة ، واذ ادرك أن لم يعد ثم من يمد يد النجدة لبلاد الأمراء اللاتين فقد عزم على تطويق القلعة المعروفة باسم قلعة « انب » ، فلما أيقن ريموند أمير أنطاكية من قيام نور الدين بهذا العمل هب هو لساعته غير منتظر قدوم الفرسان الذين كان قد أمر باستدعائهم ، واندفع فى طيش الى ذلك الموضع مع حفنة صغيرة من الرجال ، وذلك لأنه كان ينطوى على جانب كبير من التسرع الأحمق والاقدام الذى لا يعرف التخاذل مما حمله على ألا يسمح لنفسه بالاسجابة الى نصيحة الناصحين فى أمر من هذا القبيل ·

وخرج فوجد نور الدين لايزال محاصرا القلعة المشار اليها ·

لما سمع نور الدين بأن الأمير «ريموند» قادم لصده تردد وأمسك عن الخروج مخافة أن تكون بصحبته قوات كبيرة ، ثم رفع الحصار وارتد الى موضع آمن ظل به حتى تأتيه الاخبار عن نوع العسكر الذى مع الأمير « ريموند » ، وعما اذا كانت هناك امدادات اضافية فى طريقها اليه ·

انتشى « ريموند » كالعادة بالنجاح المبدئى الذى صادفه دون أن يبذل فيه جهدا ، فانطلق غير متحرز ولا حذر ، وعلى الرغم من وجود قلاع ملك يمينه على مقربة منه يستطيع البقاء فيها آمنا مع اتباعه ثم يعود بهم دون أن تناله مضرة الا انه آثر أن يعسكر فى العراء حتى لا يظن الناس أنه ارتد ــ ولو مؤقتا ــ خوفا من نور الدين ، لذلك فانه آثر المجابهة ولقاء ضراوة الخصم الذى أدرك عدم وصول نجدة لعدوه وأن الأمر ميسر له لمهاجمة «ريموند» ومن معه من العسكر ، فما كاد المساء يحل حتى أحاط بجماعة الأمير وهاجم معسكرهم كما لو كان يهاجم مدينة ·

وأطل الصباح فاذا بريموند يرى نفسه وقد أحاط به عسكر العدو من كل جانب ، فأحس وا أسفاه ــ ولكن بعد فوات الأوان ــ بالشك يخامره فى قوته ، غير أن ذلك لم يمنعه من تنظيم صفوفه للقتال وتهيئة فرسانه لمعركة قريبة ، وهكذا بدأ القتال ، الا أن جنوده كانوا أقل بأسا فلم يستطيعوا الصمود أمام زحوف خصمه الكثيرة ، فولى رجال « ريموند » فرارا ولم يبق سواه فى نفر قليل من عسكره الذين التفوا حوله فحارب بهم فى شجاعة تليق بالمقاتل الباسل ، لكن أجهده استمرار القتال ، ثم جاءته شكة سيف جندلته صريعا فحز الترك رأسه وذراعه اليمنى وحملوهما وتـــركوا بقية جثته المشوهة بين جثث القتلى فى ساحة المعركة ·

وكان ممن لقى حتفه فى هذه المعركة الفارس العظيم القوى الذى تظل بلاده تبكيه وهو « رينو المرعشى » الذى كان كونت الرها قد زوجه من ابنته ، كما هلك الكثيرون غيره من النبلاء الذين لقوا هلاكهم فى نفس البقعة لكن ضاعت أسماؤهم ·

***

لقد كان « ريموند » رجلا عالى الهمة ، متمرسا بالحرب خبيرا بفنها ، يخافه خصومه أشد الخوف ، لكنه كان سيىء الطالع ، وانه لمن الجدير أن يخصص كتاب لأعماله النبيلة وفعاله البطولية الجمة التى نهض بها فى الامارة ، لكن الواجب يحتم علينا أن نسرع الى تلخيص التاريخ العام · ولذلك لا نستطيع التوقف لسرد هذه التفاصيل ، ولا نسمح لقلمنا أن يتوقف عندها أكثر من ذلك ·

وكان مصرعه فى سنة ١١٤٨ ميلادية فى اليوم السابع والعشرين من يونيو الذى وافق يوم عيد المباركين بطرس وبولس ، وكان مقتله فى السنة الثالثة عشرة من حكمه ·

ويعرف المكان الذى قتل فيه باسم « النبع المسور » ، ويقع بين مدينة « أفامية » وقلعة « الروج » ، وقد عثروا على جسده بين القتلى ، وقد دلتهم عليه علامات خاصة وندوب كانت به ، وحملوه الى أنطاكية حيث دفن فى احتفال مهيب وسط قبور أسلافه فى ساحة كنيسة أمير الحواريين ·

(١٠)

قام نور الدين فى محاولة منه لاظهار انتصاره ، وزيادة هيبته ، فأرسل رأس « ريموند » وذراعه اليمنى اللتين كان قد أمر ببترهما الى خليفة بغداد أقوى أمراء المسلمين وحكامهم قاطبة ، دليلا على هلاك واحد من أشد مضطهدى الأمم ، ثم أرسلتا بعدئذ الى جميع الولاة الترك فى كل المشرق ·

حزن أهالى أنطاكية أشد الحزن لحرمانهم من قائدهم العظيم الذى يهتدون بهديه ، وراحوا يستعيدون ذكرى هذا البطل وأعماله العظمى بكلمات حزينة يرثونه بها ، ودموع سخينة يذرفونها عليه ،

ولم يقتصر خبر موته على التياع أفئدة أهالى الناحية وحدهم بل عم الحزن الناس قاصيهم ودانيهم ، كما فاضت قلوب صـــغارهم وكبارهم بالألم الذى راح يعصرها عصرا ويقطع نياطها ٠

***

كان نور الدين كأبيه شديد الاضطهاد لكل ما هو مسيحى اسما وعقيدة ، فلما هلك « ريموند » أمير البلاد ومعظم عسكره فى ساحة الوغى رأى ابن زنكى أن المنطقة بأكملها قد صارت تحت رحمته فبادر فى الحال الى ارسال جنده يجتاحون البلاد ويعيثون فيهـا بصورة عدوانية ، حتى اذا مر هو نفسه قرب أنطاكية أحرق كل ما صادفه فى تلك المنطقة ، ثم يمم وجهه شطر دير للقديس «سيمون» يقع على الجبال الموجودة بين أنطاكية والبحر ، فسار هناك السيرة التى تمليها عليه أهواؤه ، وقسا على الأهالى فى معاملته لهم ، ثم انحدر بعدئذ الى البحر الذى كانت هذه هى أول مرة فى حياته يراه فيها ، وأراد القيـــام بشىء يشـــير الى أنه غزا كل شىء : فسبح فيه على مرآى من جنده ، حتى اذا حان موعد رجـــوعه استولى على قلعة « حارم » التى لا تبعد عن أنطاكية أكثر من عشرة أميال ، ثم زودها بالسلاح وجهزها بالميرة وأمدها بالعسكر لتكون قادرة على الصمود أياما كثيرة ٠

حينذاك تملك الشجن الناس قاطبة ، فقد دانت البلاد لنور الدين وذلت أمامه ، لأن الرب مكنه من القضاء على زمرة الجيش وأمير البلاد معا ولم يعد للامارة من أحد يصد عنها الأخطار التى راحت تهددها ، اذ بقيت « كونستانس » (أرملة ريموند) وحيدة مع ولديها وابنتها لتصرف شئون الحكم والامارة ، ولم يعد هناك من قائد ينهض بما كان ينهض به الأمير من الواجبات ، أو يعمل على رفع الناس مما ترديوا فيه من مذلة ، على أنه ظهر فى تلك اللحظة الحرجة « ايمرى » بطرك أنطاكية ، وكان رجلا واسع الثراء فتقدم

لحماية البلاد التى أمضها الحزن العميق وخرج عن مألوف عادته فبذل المال الكثير لاستئجار الجند · وهكـذا قـــدم فى لحظته هذه ما يحتاجه البلد من ضرورات ملحة عاجلة ·

***

أدى نبأ هلاك « ريموند » وخبر وضـــع أنطاكية المحزن الى استيلاء الفزع على ملك بيت المقدس الذى بادر فى الحال فجمـــع العسكر لنجدة اخوانه فى محنتهم ، وأسرع الى أنطاكية التى كان أهلها قد فت فى عضدهم ما جرى ودب اليأس فى نفوسهم ، فلما علموا بخبر قدوم الملك تنفسوا الصعداء وأظلتهم الطمأنينة ·

وضم الملك الجند الذين معه الى من جمعهم من الاقليم كله ، ونادى فى الناس بالصـــمود والمقاومة ، كما حمـلته رغبته فى مساعدتهم على استرداد شجاعتهم المعهودة على فرض الحصار على حصن « حارم » الذى كان العدو قد استولى عليه منذ قريب كما قلنا ، غير أن شدة مناعة القلعة أرغمت الملك على الانصراف عن محاولته هذه بعد حصاره للحصن عدة أيام لم يصادفه فيها النجاح، ثم انقلب بعدها على عقبيه الى أنطاكية ·

ولما سمع (مسعود بن قلج أرسلان) سلطان قونية بخبر موت الأمير « ريموند » زحف هو الآخر بجيش كبير على بلاد الشام ، واستولى فى طريقه على كثير من مدن ذلك الاقليم وحصونه حتى أفضى به الزحف أخيرا الى حصار « تل باشر » رغم وجود كونت جوسلين وامرأته وأتباعه فيها ، وكان الملك خلال هذه الفترة قد بعث بـ « همفرى » الكونستابل على رأس ستين فارسا لحماية قلعة « أعزاز » والحيلولة دون سقوطها فى يد الترك ، وانتهى الأمر أخيرا بأن أطلق الكونت كل من كانوا فى أسره من رعايا السلطان ، وأضاف الى ذلك بأن خلع عليه اثنتي عشرة حلة حربية ، وانعقد

الصلح بين الطرفين ، ورحل السلطان ، وانطلق الكونت الى «اعزاز» فى نفس اليوم وقد تخلص من الحصار ثم أسرع الى أنطاكية شاكرا الملك على ما أبداه من العطف عليه ، فلما فرغ من زيارته ودعه منكفئا الى امارته مستصحبا معه الحرس القليل الذى كان قد جاء به معه ·

ولقد تحمل الملك (بلدوين الثالث) عبء مسئولية البلد المنكود، وكان هذا ما دعاه الى البقاء فى أنطاكية حتى تستقر الأمور بها حسبما يسمح الوقت والمكان ، فلما رأى الهدوء يعود اليها بعض الشىء انفلت راحلا الى بلاده لينصرف الى معالجة شئونه الخاصة ·

(١١)

كان جوسلين الصغير كونت الرها دون أبيه فى صفاته ، فقد كان شخصا يتسم بالتراخى ، فهو مسلم قياده للملذات الوضيعة الفاسقة حائدا عن الطريق القويم ، لا يعف عن سلوك السبل الدنيئة مع اضماره الكراهية السوداء لأمير أنطاكية الذى كان سقوطه أكبر مايشرح صدره ويثلج قلبه ، لذلك لم يعبأ كثيرا بالمثل القائل « ان شبت النار فى بيت جارك ، فدارك هى الأخرى فى خطر » ·

على أنه استجاب لنداء البطرك فخرج متلفعا بالظلام الى أنطاكية ، غير مستصحب معه سوى شاب يأخذ بعنان فرسه ، تاركا وراءه حرسه ، وانطلق لقضاء حاجته ، فخرج عليه فجاة من احدى الغابات بعض قطاع الطرق الذين لم يدر بهم أحد ممن أمامه ولا ممن خلفه ، ثم أمسكوه وقيدوه بالسلاسل والأغلال وساروا به الى حلب ، فزج به سجن شديد القذارة ، وقد أثقلته سلاسله الحديدية فأصابه مس فى عقله وآلام فى بدنه ، وهكذا جنى ثمار فسقه وخلاعته ، وانتهى به الأمر الى أسوأ نهاية يمكن تصورها ·

ونهض حراسه وقد أتلع الفجر وهم لا يدرون شيئا قط مما جرى لمولاهم ، وانطلقوا يفتشون عنه فى كل ناحية ، فلم يسفر بحثهم عن طائل ، فلما تبينوا ذلك كروا عائدين على أعقابهم يحـــدثون بالكارثة التى ألمت بهم ، فعم الفزع البلد مرة أخرى ، واغتم الناس مما جرى ، واذا كان الناس لم يتعاطفوا مع جيرانهم فيما أصابهم من قبل الا أنهم فى هذه اللحظة ـ وقد مسهم هم أيضا الخطر ـ أدركوا وجوب مشاركتهم الآخرين كوارثهم ٠

ثم جاءت الأخبار تؤكد أن الكونت « جوسلين » الصغير أسير فى حلب(٦) ٠

أما امرأة « جوسلين » الصغير هذا (وكانت امرأة عفيفة حصيفة تخاف الرب ويرعاها الله بعطفه) ، فقد بقيت مع ابن صغيرلها لم يناهز الحلم ، وحاولت جهدها الاستعانة بمعونةكبارالرجال الذين لازالوا باقين فى المملكة أن تحكم الناس بأحسن ما فى قدرتها وبما فوق طاقة أية امرأة ، فصـــرفت همتها الى تقوية البلاد وزيادة تحصينها ، وتزويدها بالرجال والطعام ٠

هكذا كان عقاب الله لنا على خطايانا ، اذ قضى على هاتين الامارتين (أنطاكية والرها) أن تحرمـــا من توجيهات أميريهمـــا ، ولكنهما احتفظتا بكيانهما ـ وان يكن بصـــعوبة ـ تحت حكومة النســـاء ٠

(١٢)

على أنه بعد أمد وجيز من هذه الأحـــداث التى جرت فى أنطاكيـــة تعطفت الرحمة الالهية على المملكة(٧) حين نهض الملك ونبلاؤه من غمرة الأسى والمآسى التى ترددوا فيها والمصائب التى

توالى نزولها فاســتردوا بأسهم ، وقرروا اعادة بناء « غزة » ، مؤملين من وراء ذلك أن يكبحوا جماح أعدائهم العسقلانيين الأشداء وايقاف غاراتهم المدمرة ٠

* * *

وغزة بلد موغل فى القدم كل الايغال ، وهى تقع على مسيرة عشرة أميال جنوب عسقلان وقد صارت الآن أطلالا دارسة هجرها الناس ، لذلك أجمع الملك ونبلاؤه العزم على اعادة بنائها حتى يمكن تطويق عسقلان من الجنوب ومن الشمال والشرق بالحصون التى شيدوها هناك ، كما أنهم يستطيعون شن الغارات المتكررة من هذه الناحية ضد المدينة والقيام بعمليات حربية جريئة عليها من غيرانقطاع فلما كان اليوم المحدد للعمل اجتمع الناس قاطبة فى الموضع المعين لهم ، وأقبلوا على ما كلفوا به ، وقد نسقوا جهودهم فيما بينهم ، وراح كل منهم ينافس الآخر فى المساعدة لاعادة بنائها ٠

* * *

ولقد كانت هذه المدينة القديمة « غزة » احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وقد اشتهرت بمبانيها وكنائسها الكثيرة وبيوتها الفسيحة المبنية بالرخام والأحجار الضخمة ، وان استحالت اليوم الى أطلال دارسة ، ومع ذلك فان هذه الأطلال تشير الى ما كان لغزة من المجد الغابر فى سالف العصور ، اذ لايزال بها كثير من الصــهاريج والعيون الزاخرة بالمياه العذبة ، هذا الى جانب قيام البلد على نجد مرتفع بعض الشىء ، وتضم أسوار المدينة أراضى فســيحة الاتساع ٠

ولقد أدرك الصليبيون أن ليس من الأوفق اعادة بناء المدينة بأجمعها ، فلن تكون قدرتهم حينذاك كافية للنهوض بعمل كهذا العمل، ومن ثم عمدوا الى ناحية من التل حفروا فيها الأساس على عمق

ملائم ، وشيدوا قلعة ذاعت شهرتها بفضل ســـورها وأبراجها ، حتى اذا انجزوا ما كلفوا به من العمل على اكمل صورة بعون الله وفى فترة قصيرة ، واستوى البناء من كل نواحيه اتفقوا على أن يعهدوا به الى رعاية فرسان المعبد ليكون ملك يمينهم على الدوام ، وقد قام الاخوان الشجعان المحاربون الأشداء بالمحافظة على هذه الناحية على أكمل صورة وأحسن وجه حتى يومنا هذا ، وطالما شنوا منها الغارة العنيفة تلو الغارة على عسقلان ، تارة جهرا وتارة من الكمائن ، وترتب على هذه الغارات أن هؤلاء الاعداء الذين كثيرا ما اجتاحوا الاقليم وخربوه ، وكانوا مصدر فزع لمسيحييه أن أصبحوا اليوم يرون انفسهم أسعد ما يكونون ان هم اســتطاعوا (بالتوسلات وبالمال يبذلونه) الحصول على سلام مؤقت يوفر لهم المعيشة الهادئة المطمئنة وراء أسوارهم ٠

وقد برهنت « غزة » على جدواها ليس فقط فى ردع عسقلان التى شيدت لمضايقتها بل انها اصبحت بعد فتح المدينة تستعمل خط دفاع حصين من الناحية الجنوبية وصارت مظلة امان كبرى للاقليم ضد المصريين ٠

فلما كان مطلع الربيع وقد فرغوا بعض الشىء من بناء القلعة عاد الملك والبطرك الى القدس تاركين بغزة فرسان المعبد الذين وكل اليهم الحفاظ على القلعة ، وكانت عادة المصريين ان يبعثوا قوات جديدة ثلاث مرات او اربع على مدار السنة لدعم قوة العسقلانيين ٠

لكن حدث بعد رحيل الملك أن ظهرت هذه القوات بأعداد هائلة أمام حصن غزة وشنت هجوما ضاريا على الناحية ، مما حمل أهل البلاد على الفرار خوفا من العدو ، ومع ذلك فقد رأى قادة هذه القوات بعد أيام عدة بدوها فى الحصـــار أن يرحلـــوا الى

عسقلان ، وظهر للعيان أن بأس العدو قد أخذ منذ ذلك الحين فى الضعف ، وأن خطرهم يتضاءل يوما بعد يوم حتى كفوا أخيرا عن اجتياح الأراضى التى حولهم .

أما الجيش المصرى الذى قلنا انه كثيرا ما أسعف المدينة المنكوبة بالعون فقد شرع فى المجىء عن طريق البحر فحسب لتخوفه من الكمائن تباغته من القلعة الواقعة فى طريقه ، كما أصابه فزع كبير من الفرسان خوف أن يفتكوا به .

(١٣)

كانت أمور المملكة فى المشرق ابان هذا الوقت تسير سيرا مرضيا وقد سادها قدر كبير من الهدوء الذى لم يكن يعكر صفوه غير وقوع كونتية الرها فى قبضة أعدائنا ، وضياعها من أيدينا ، هذا بالاضافة الى تعرض أرض أنطاكية على الدوام للهجمات المعادية ، واذ ذاك نهض الشيطان عدو بنى آدم والمستعد على الدوام لبذر بذور الشر وحسدنا على مانحن فيه من نعيم ، وانطلق يعكر صفو سلامنا فأضرم لهيب المنازعات المدنية ، وتتلخص أصول الشر وما نحن فيه فيما يلى : ألا وهو أن زوج الملكة « مليزند » ذات الذكرى المجيدة والجهد الطيب فى سبيل الرب كان قد رحل عنها تاركا لها طفلين غريرين لم يبلغا مبلغ الرجال ، فأصبحت الوصية الشرعية عليهما ، وآلت اليها عن طريق الارث الصحيح رعاية المملكة وادارة دفة شئونها ، واستطاعت أن تحكم حتى ذلك الوقت كوصية حكما هو فوق قدرة النساء وشجاعتهن ، وذلك بفضل استماعها الى ما ينصحها به بارونا المملكة ، ولقد عاش ابنها الأكبر « بلدوين » الذى نكتب عنه الآن معها فى وفاق تام ، منفذا ما تشير به عليه حتى بعد اعتلائه العرش .

وكان من بين من اعتمدت عليهم الملكة وعلى مســــاعدتهم ومشورتهم قريبها « مناسيس » وكان ذا مرتبة سامية ، وصديقا فى الوقت ذاته حميما لها ، لذلك ما كادت « مليزند » تأخذ مقاليد الحكومة فى يدها حتى نصبته « كونستابلا » وجعلت له قيادة الجيش العليا ، لكن يقال انه استغل عطف الملكة عليه وتأييدها له وسلك مسلكا اتسم بالغطرسة الشديدة ، فتعاظم كأقبح ما يكون التعاظم على كبار رجال المملكة وتعالى عليهم فلم يظهر لهم الاحترام اللائق بهم مما أضرم البغضاء الشديدة نحوه فى قلوب النبلاء الذين ما كان لهم الا أن يترجموا عن كراهيتهم العنيفة له فى عمل ضار ، لولا أن استعملت الملكة سلطتها ٠

* * *

كان « مناسيس » متزوجا من أرملة « بليان » الكبير ، وهى سيدة شريفة وأم للاخوة الثلاثة : « هيج » و « بلدوين » و « بليان » الصغير صاحب الرملة ، واستطاع « مناسيس » بفضل هذا الزواج أن يستحوذ على المال الكثير ، وأن يزيد من رقعة ما بيده من الاقطاع زيادة كبيرة ، وكان الملك بلدوين (الثالث) أشد الماقتين لمناسيس شعورا وفعلا ، وكان يعتقد أن هذا الرجل يعمل على أن يبعده عن عطف الملكة ويعطل كرمها نحوه ٠

كما كان هناك كثيرون يمقتون من « مناسيس » هذا النفوذ ويكرهون أعماله الشريرة ، ومن ثم دأبوا على اذكاء ضرام البغضاء عليه فى قلب الملك ، وراحوا يحثونه دوما على زحزحة أمه من السيطرة على الملكة ، فلما بلغ بلدوين (الثالث) رشده قالوا له انه ليس من الملائم أن تتحكم فيه امرأة وتسيره حسب هواها ، وأن الواجب يقتضيه أن يأخذ فى يده بعضا من تبعات الحكم ٠

وتأثر الملك بهذه الآراء يسمعها من هؤلاء المستشارين وغيرهم ممن على شاكلتهم ،لذلك أجمع العزم على أن يتوج ببيت المقدس يوم عيد الفصح ، فجاءه البطرك وغيره من حكماء المملكة الذين يبغون استتباب السلام بها ، وتوسلوا اليه فى الحاح أن يسمح لأمه (مليزند) أن تشترك فى يوم مجده ، فأظهر الاستجابة لمشيئة هؤلاء الذين ذكرناهم حالا ، لكنه أجل الموعد الذى كان مضروبا للاحتفال حتى لا تتوج أمه معه ، فلما كان اليوم التالى لاجتماعهم طلع بلدوين على الناس علانية وعلى رأسه التاج من غير أن يتوقع أحد شيئا مما جرى ودون استدعاء أمه ٠

(١٤)

ولما فرغوا من مراسم الاحتفال عقد الملك مجلسا من نبلائه كان من بين حاضـــريه « ايفز » كونت « ســواسون » ، و « ولتر القشتالى » قيم سنت « أومير » ، وتوجه بلدوين الى أمه وطلب اليها أن تتقاسم فى الحال المملكة معه ، وتخصص له نصيبا مما ورثه عن أسلافه ، وطال الأخذ والرد بينهما ، ثم انتهى الأمر أخيرا بتقسيم التركة بينهما ، وتركوا للملك أن يختار ما يشاء فاختار المدن الساحلية فى أقليمى صور وعكا بكل ملحقاتها ، أما القدس ونابلس وغيرهما من المدن الملحقة بهما فقد تركت فى يد الملكة ، وهكذا تم الفصل بينهما ، وتمنى الناس – من أجل اقرار السلام – أن يدوم الوفاق الذى توصلوا اليه ، وأن يقنع كل منهما بنصيبه ٠

وعين الملك فى هذا الوقت أيضا أحد نبلائه العظام «كونستابلا» له وقائدا عاما لجيشه ذلك هو « همفرى » صاحب « تورون » الذى كان له ممتلكات فسيحة وكبيرة فى فينيقية بين الجبال الواقعة قرب صـــور ٠

غير أن الرغبة العنيفة فى اضطهاد الملكة لم تخمد فى صدر (ابنها) الملك رغم كل ما جرى بل حدث العكس من ذلك اذ كانت النار تزداد ضراما بسبب أمور تافهة وتنذر بأخطار أشد جسامة من ذى قبل ، ذلك أن الملك راح يستجيب لما يثيره نفس هؤلاء النبلاء الذين اصاخ اليهم السمع فيما مضى ، وشرع يثير القلاقل ضد أمه . ودبر الاستحواذ على شطر المملكة الذى آل اليها من قبل برضاء الطرفين الصادق وكان معنى ذلك حرمانها حرمانا باتا من كل شىء، فلما سمعت الملكة بخطته غادرت نابلس فى رعاية بعض نبلائها المخلصين وأسرعت الى بيت المقدس ·

وقام الملك فى الوقت ذاته فجمع أكثر ما يستطيع جمعه من عسكر حاصر بهم « مناسيس » فى قلعة يسمونها « ميرابل » ، فاضطر « مناسيس » للاستسلام ، وتخلى رغم أنفه عما ملكت يداه (وهو فلسطين) فى هذا الاقليم الواقع على ذلك الجانب من البحر ، وتلا ذلك قيام الملك بالاستيلاء على « نابلس » وزحف منها الى القدس مطاردا لأمه ·

وكان هناك رهط من النبـــلاء ممن تقع ممتلكاتهم فى نطاق أراضى الملكة ، وكانوا قد ارتبطوا بها برباط وفاء اسمى واهى العرى ، فلم يضرهم أن ينكثوا بيمين الاخلاص الذى قطعوه على أنفسهم لها وثاروا عليها ·

أما القلة القليلة من النبلاء الذين وقفوا الى جوارها فقد حافظوا على ولائهم لها ، وكان من بين هؤلاء ابنها « عمورى » كونت يافا ، وكان شابا صغير السن جدا ، وفيليب النابلسى ، و «روهارد» الكبير ، وزمرة قليلة العدد لم نعرف أسماءهم ·

* * *

ولما سمعت الملكة أن ابنها موشك على الاقتراب بجيشه ارتدت الى القلعة مع أهل بيتها واتباعها الأوفياء ، معتمدة على ما بالقلعة من التحصينات ، ولكن البطرك « فولشر » ـ صاحب الذكر الطيب ـ أدرك أن أزمنة البلوى تهدد بقرب حلولها ، فرغب أن يتدخل لتهدئة الأمور وتقديم اقتراحات السلام ، لذلك اصـــطحب معه رهطا من رجال الدين كانوا أهل ورع وتقوى ، ومضى بهم لمقابلة الملك ، مسديا اليه النصح بالكف عن مشروعه الخبيث وطلب اليه الالتزام بشروط الاتفاق ، وأن يترك أمه تعيش في هدوء ، فلما لم تجد هذه التحذيرات استجابة عنده عاد البطرك الى المدينة وهو أشد ما يكون مقتا وازدراء لخطة الملك الذى أبى الا أن ينفذ ما اعتزمه ، ورآه قد نصب معسكره أمام المدينة التى سعى أهلها لتجنب غضب الملك عليهم ففتحوا له أبوابها وأدخلوه هو وجنده تحاشيا لنقمته عليهم ، فبادر الى محاصرة القلعة التى اعتصمت بها الملكة الوالدة ، وهيأ آلاته الحربية للقصف وراح يرمى من فى المدينة بالمنجنيق والسهام ، ويصب عليها وابلا من القذائف حتى دمرها ، وكان وهو يحاربها كأنما يحارب عدوا لدودا · وواصل الملك هجماته عليها فلم يترك لها لحظة يلتقط فيها أهلها انفاسهم ، ومع ذلك فقد قاومه من كانوا بها ما وسعتهم المقاومة ، وجاهدوا فى رد القوة بالقوة ، واستعملوا نفس الأساليب التى تستعملها القوة المحاصرة لهم من الخارج ، ولم يتوقفوا هنيهة عن انزال الأهوال بخصومهم ، فكبدوهم من الدمار مثل الذى كبدوهم اياه ·

واستمر الصراع أياما عدة ، وكان ينطوى على الخطر الجسيم على الجانبين ، وذلك لأنه على الرغم من أن الملك لم يصادف تقدما كبيرا فى الاستيلاء على القلعة الا انه كان لايزال كارها للانسحاب ، عازفا عنه ، لكن حدث فى النهاية أن تقدم رهط من وسطاء الســلام والمحبة واقنعوا الملكة بالاكتفاء بمدينة نابلس وما حولها وبالتخلى

للملك عن بيت المقدس عاصـــمة المملكة ، وتأكد ذلك بتأييد من جانب الملك الذى أقسم اليمين على ألا يعرض بسوء لميليزند فى ملكيتها تلك المدينة ، وهكذا عاد الوئام بين الطرفين ، ورفرف الهدوء من جديد على المملكة والكنيسة ، وكان سلاما أشبه بنجمة الفجر تتلألأ وسط دياجير الظلام ٠

(١٥)

سمع ملك بيت المقدس بالكارثة المفجعة التى أسفرت عن أسر كونت الرها ، كما علم من مصـــادر موثوق بها أن هذه الكونتية أصبحت مجردة تماما ممن يدافع عنها ، وصارت مرمى لشـــرور العدو ، وأن الحكم فيها بأكملها ــ وفى امارة أنطـــاكية ــ غدا موكولا الى النساء يدبرنه كما يرين ، وكان ذلك أمرا أقلق خاطره ، فاستجاب لهذه الحاجة الملحة ونهض مستصحبا معه « همفرى » الكونستابل و « جى » صاحب بيروت ويمم وجهه شطر طرابلس ٠

أما أشراف النواحى التى تملكها الملكة فقد صموا آذانهم عن نداءاته ، ولم يستجب أحد منهم له رغم أنه استدعى كل واحد منهم باسمه على حدة ، لكن انضم اليه فى طرابلس كونتها وفرسانه ، واذ ذاك أغذت هذه القوات جميعها السير الى أنطاكية بأسرع ما يمكن ٠

ولقد قيل فى كل مكان ــ وكان ذلك حقا ــ ان أميرا قويا من أمراء الترك هو سلطان « قونية » قد غزا ذلك الاقليم بحشد كثيف من الفرسان واستولى تقريبا على كل المنطقة الواقعة على تخوم بلاده ، فما كان من السكان ــ وهم عاجزون عن التصدى له ولبطش جنده ــ الا أن أسلموه جميع مدنهم وحصونهم على أن يأذن لهم بالخروج سالمين غير مضارين فى حريمهم ولا أولادهم ، وأن يزودهم

بكتاب أمان الى « تل باشر » الذى كان أحسن تحصيناً من بقية الأماكن الأخرى وأكثرها ازدحاما بالســـكان ، كما كان الكونت (جوسلين) قد اتخذ « تل باشر » دار اقامة دائمة له ، فقد كانت أقل اضطرابا من سواها ·

غير أنه لما تم للسلطان الاستيلاء على كل الاقليم باستثناء بضع قلاع قليلة وجد نفسه مرغما على العودة الى دياره لمواجهة أمور أجل خطرا ، لكن هذه العودة من ناحية السلطان لم تخفف من المتاعب التى كابدتها الولايات ولم تقلل من الاضطراب الذى كان سائدا فى نواحيها ، ويرجع السبب فى هذا الى أن نور الدين ـ أعظم مضطهدى شعبنا ـ وكان أميرا تركيا شديد البطش ـ كان يجتاح حينئذ الاقليم بأكمله ، ولم تتوقف غاراته حتى لم يعد أحد يجرؤ على الظهور خارج الحصون · وقد ظل هذا الشعب المنكوب مطحونا على الدوام بين شقى الرحى ، ولقى من العذاب المرير على يد أميرين عظيمى البأس الشىء الكثير الذى لا يطاق ، هذا فى الوقت الذى هو عاجز فيه عن تحمل بطش أمير واحد ·

(١٦)

علم امبراطور القسطنطينية فى نفس الوقت بوضـــع الرها السيىء فأرسل اليها واحدا من وجوه نبلائه ومعه قدر كبير من الذخيرة ، وطائفة ضخمة من خاصة فرسانه ، وعرض على الكونتيسة أنه سوف يجرى عليها راتبا مجزيا يكفى لمعاشها ومعاش أطفالها ، ويهيىء لهم عيشة رفيعة هنية ان هى قبلت أن تسلمه القلعة التى لازالت فى حوزتها ، وكان الامبراطور يعتقد أنه يستطيع بأمواله الضخمة ـ اذا استسلمت له الامارة ـ أن يحفظها آمنة من غارات الترك ، وأن يعيد الى امبراطوريته من غير مشـــقة الأجزاء التى فقدتها ·

وحين وصل الملك الى أنطاكية وعرف ســر قدوم الرسـل الامبراطوريين (البيزنطيين) الذين كشفوا اللثام عن مهمتهم شجر الشقاق بين نبلاء الامارة فقال بعضهم ان الأوضاع لمتصل بعد الى الحد الذى يضطرهم الى سلوك هذا المسلك ، وخالفهم آخرون تمام المخالفة فقالوا بوجوب قبول ذلك العرض قبل أن تقع البلاد كلها فى يد العدو ٠

وفى وسط هذه الاختلافات رأى الملك أن ليس فى قدرة الامارة الاستمرار طويلا فى وضـــعها الراهن الذى هى فيه ، كما أن مسئوليات مملكته لن تسمح له بالتغيب عنها فترة طويلة من الزمن يقضيها فى أنطاكية ، يضاف الى ذلك أن ليس تحت يده هو نفسه قوات كافية تمكنه من حكم القطرين حكما يتلاءم والصالح العام فى الوقت الذى يبعد فيه الواحد منهما عن الآخر رحلة قدرها خمسة عشر يوما ، ولما كانت أنطاكية – وهى وسط بين البلدين – قد ظلت أعواما طويلة من غير حاكم يرعى شئونها فقد انتهى به الرأى الى أن خير ما ينبغى عليه عمله هو أن ينقل الى يد الاغريق المعاقل التى لازالت موجودة بيد الكونتسة وذلك حسب الشروط المقدمة منهم . هذا على الرغم من أنه كان عديم الثقة فى أن تظل الامارة قادرة على البقاء سليمة تحت حكم القوات الاغريقية ، لكنه آثر أن تضار على يد الاغريق وبواسطة قواتهم فهذا خير من أن يسقط أهلها الذين يواجهون الخطر الآن واذ ذاك تقع على عاتقه مسئولية خراب البلد ٠

وعلى الرغم من أنه لم يكن كبير الثقة فى قدرة العســاكر الاغريق على الحفاظ على الامارة سليمة الا أنـــه فضل أن تدهمها المصيبة وهى فى كنف اليونان من أن ينسب اليه ســقوط شعبها ودماره ٠ ومن ثم أبرمت اتفاقية برضاء الكونتسة وأطفالها ، وقد ارتضاها الطرفان (الصليبى والاغريقى) وهى قائمة على الشروط المذكورة أعلاه ، كما اتفق على تحديد يوم يذهب فيه الملك الى امارة

الرها بكل قواته ليضع جميع القـــلاع فى أيدى رجال الامبراطور ويملكهم اياها ٠

ولما جاء اليوم الذى حدده الاتفاق خرج الملك (بلدوين الثالث) مستصحبا معه كونت طرابلس وسراة القوم من رجال مملكته وامارة انطاكية ، واجتاز أرض كونت الرها الى « تل باشر » حيث كان الرسل الاغريق فى انتظاره ، فوضـــع تحت حمايته الكونتســـة وصغارها وغيرهم من الجنسين ذكورا وأناثا ، لاتينا كانوا أم ارمن ممن أرادوا مغادرة الناحية ، ثم أسلمها للاغريق ، وكانت القلاع والحصون التى ظلت حتى هذه اللحظة فى حوزة الصليبيين هى « تل باشر » و « عينتاب » و « راوندا » و « رانكولات » و « بايب » و « سميساط » وربما كان هناك أماكن أخرى غير هذه كلها أيضا ، فانتقلت كل تلك النواحى الى سيطرة الاغريق ٠

* * *

ثم استعد الملك للسير وكان فى صحبته جمع ممن رغبوا فى الرحيل ومعهم ما يملكون من دواب الحمل وأثقـــال ضـــخمة من الأمتعة ، لأن كل فرد رأى أن يخرج بكل أهل بيته وخدمه وأثاث بيته ، ثم شرع الملك فى الرحيل بكل هذه الحشود الكثيفة ممن لا علم لهم بالقتال وسار محثا الخطى كى يوصلهم الى مكان يكونون فيه سالمين فى أرواحهم آمنين على أنفسهم ٠

(١٧)

بلغت مسامع نور الدين الأخبار القائلة بأن أهل الرها قد يئسوا من الحفاظ على تراب أرضهم فأسلموا حصونهم الى الاغريق اللينين المخنثين ، وأن الملك بلدوين قد سار اليهم ليأخذ النـــاس بعيدا عن تلك الناحية ٠

وقد أدى احساس الصليبيين بالخوف الى تقوية عزيمة نور الدين وزيادة اقدامه ، وتمثل هذا فى حشـــده فى الحال للقوات المسلحة من جميع الأقاليم المجاورة ومباغتته بها نواحى كان يطمع أن يلتقى فيها بالملك وبمن فى صحبته ممن تزعزعت ثقتهم فى قوتهم ، فلو قدر له أن يلقاهم فى هذه الظروف الملمة بهم وقد أثقلهم متاعهم الكثير الذى حملوه معهم لكان ذلك خيرا كبيرا له ٠

وحدث أنه ما كاد الملك يبلغ مدينة جوها (٨) JOHA التى لا تبعد عن تل باشر أكثر من خمسة أو ستة أميال حتى أطلق نور الدين رجاله يجتاحون الناحية بأكملها التى كان على مقربة منها حصن يعرف بحصن عينتاب الذى لابد أن يمر به الصليبيون فى متابعتهم لزحفهم ، فلما أدركوا الخطر المحدق بهم وأرادوا التعجل فى السير رتبوا صفوفهم وأعدوها للقتال اعدادا جيدا تأهبا لأية غارة قد تفاجئهم على غرة بها قوات العدو التى استعدت هى الأخرى من جانبها فنظمت صفوفها فى انتظار اقترابنا منها انتظار المتلهف ، كما لو كانت واثقة من أن ستكون لها الغلبة علينا ، الا أن الأمور جرت على عكس ماتوقعوا ، ذلك أن جيشنا سار بعون الرب حتى ذلك الحصن سالما ، وهنا أذن لمن أنهكهم التعب وللحيوانات المجهدة بالراحة طول هذه الليلة ، أما قوادنا فقد تجمعوا فى هذه الأثناء للتشاور فى خطة سيرهم فى اليوم التالى ٠

وحينذاك طالب فريق من وجوه النبلاء بأن يعهد اليهم بحراسة ذلك الحصن اعتقادا منهم أن قوتهم كافية باذن الله لحفظ المكان من غارات الأتراك ، وكان من بين رجال المملكة المؤيدين لهذه الفكرة « همفرى » صاحب « تورون » الكونستابل الملكى الشجاع المقدام ، كما وافق على هذا الرأى أيضا « روبرت سورديفال » أحد نبلاء انطاكية الأقوياء ٠ على أن الملك كان مقتنعا تمام الاقتناع بأن ليس لأحد من هذين الاثنين من القوة أو البأس ما يكفى للنهوض بهذه المهمة

واتخاذها على الوجه الأكمل ، ومن ثم فقد رفض عرضهما واعتبره غير ذى موضوع ، وأصر على الحفاظ على الاتفاق ، ومن ثم أسلم المكان الى الاغريق ، وصدرت الأوامر للناس بالاستعداد لمتابعـــة الزحـــف ٠

لقد كنت ترى فى هذا الزحف رجالا من أصـــول شريفة ، وسيدات نبيلات ، وعذارى يسمو بهن كرم المحتد ، وأطفالا صغارا وقد تعالى نحيب الجميع وانســـابت الدموع حزنا على مفارقتهم لأوطانهم وأرض أسلافهم وآبائهم ، اذ يهاجرون منها فى حزن الى بلاد غريب عنهم أهلها ، وان أقسى القلوب ــ ولو كانت قد قدت من الحجر ــ لتتفطر أسى من آهات الناس وعويلهم لأنهم ماضون الى المنفى ٠

فلما عاود الصباح اشراقه رتبوا أمتعتهم وواصلوا سيرهم ، كما رتب العدو هو الآخر من جانبه صفوفه وتقدم معهم على جانبيهم وهو مستعد للوثوب عليهم من كل جهة ، فلما رأى المسيحيون الحشد الكبير يسير فى أتم نظام أعادوا ترتيب كتائبهم وفيها الخمسمائة فارس الذين كانوا معهم وهيأوا أماكن للجميع ، وتم الاتفاق على أن يزحف الملك أمامهم كلهم مع الطليعة وأن يوجه تقدم الناس المشاة ، وأن يقوم كونت طرابلس والكونستابل الملكى « همفرى » بحماية الجماعات التى تسير فى الخلف مع استعانتهما بأقوى القوات وأكثرها عددا للتصدى لهجمات العدو والدفاع عن الناس ٠ أما نبلاء أنطاكية فيقفون على يسار الجيش ويمينه ، وبذلك تحيط بالعامة الذين وضعوا بالقلب قوة هائلة من الرجال المغاوير والفرســـان المسلحين ٠

ولقد ظل المسيحيون يتقدمون يومهم هذا بأكمله وهم على هذه الهيئة حتى آذنت الشمس بالأفول ، وان تعرضوا من غير انقطاع الى أخطار لا تكاد تحتمل من هجمات متكررة عليهم وخروج الكمائن

من النواحى القريبة ، وكانت السهام تنهال عليهم كالمطر وكان أكثرها على القوات الأمامية حتى صارت الأمتعة وكأنها القنفذ،وأصاب الناس ارهاق لم يعودوا يحتملونه بسبب ما تعرضوا له من كثرة الغبار وشدة الحر اللذين يصحبان شهر أغسطس ، وزاد الأمر سوءا ما حاق بهم من ظمأ ممض ، حتى اذا أخذت الشمس فى الأفول أعطى الترك الاشارة للارتداد لنفاذ ما معهم من المؤونة وهلاك بعض كبرائهم ، فارتدوا وقد استولى عليهم الدهشة من مثابرة الصليبيين وثباتهم اللذين لم يروا لهما مثيلا ٠

وحمل « همفرى » الكونستابل قوسه وراح يطارد الكفرة فى تقهقرهم ، حتى اذا بعد الجيش برز له من صفوف العدو جندى اقترب منه ثم ألقى بسلاحه وضم كفيه على هذا الجانب مرة وعلى الجانب الآخر مرة أخرى دليلا على التعظيم ، وكان هذا الجندى تابعا أمينا لعظيم تركى قوى ارتبط بالكونستابل بتحالف أخوى وثيق العرى ، ومن ثم أرسل تابعه هذا الى « همفرى » ينبئه بالأوضاع السائدة فى جيش خصمه ، ويخبره أن نور الدين عازم على الرجوع الى بلده بجيشه فى ليلته هذه بسبب نفاد كل أنواع المؤونة من عنده ، وأنه لم يعد قادرا على مطاردة الصليبيين أكثر مما فعل ٠ ثم انفلت الرسول الى جماعته بعد أن فرغ من كلامه ، وعاد « همفرى » هو الآخر الى معسكره ، وأفضى الى الملك بالخبر الذى علمه ٠

ولما كان الليل موشكا أن يرخى سدوله على الكون فقد عسكر الجميع فى مكان يعرف باسم « يوها JOHA » دون أن يصادفوا أية مشقة ، فلما كانت الأيام التالية قاد الملك الناس عبر الغابة المعروفة بغابة « مريم » الى ناحية داخلة فى نطاق المسيحيين ، وعاد أدراجه الى أنطاكية ٠

أما نور الدين فقد اشتد فى التضييق على بلاد الكونت التى لم تعد تجد عونا من اللاتين بعد أن آلت الى أيدى الاغريق الذين

لا يميلون الى القتال ، والذين وجدوا أنفســـهم غير قادرين على الصمود فى وجه الهجمات المتكررة التى يقوم بها نور الدين الذى انتهى الأمر بــه أخيرا الى أن يرسل عسكرا كثيرين لحصـــار المعاقل والحصون ، فأخرج هذا العسكر (الاسلامى) الاغريق عنوة مما فى أيديهم ، واستطاع نور الدين فى مدى عام واحد فقط أن يستولى على الاقليم بأجمعه ٠

ولقد أدت خطايانا الى أن نفقد ولاية شديدة الثراء ، حافلة بالعيون المائية والمراعى ، وأرضا خصبة حافلة بشتى أنواع السلع، كما ضاع من أيدينا ناحية تعيل خمسمائة فارس ، فقد انتقلت كل هذه النواحى الى يد العدو ولازالت حتى اليوم لا تخضع لحكمنا ٠

كما نكبت كنيسة أنطاكية بفقد ثلاثة من رؤساء الأساقفة هم رؤساء أساقفة كنائس الرها و « هيرابوليس » و « كوريتيوم » ، وهى البيع التى لازالت حتى اليوم فى أيدى الكفار حسب خزعبلات « الأمم » ٠

(١٨)

كان جزع بلدوين ملك بيت المقدس فى هذا الوقت على أنطاكية والأراضى المتاخمة لها كأشد ما يكون الجزع مخافة أن تقع فى يد العدو بعد أن حرمت من أمير لها يحميها ويرعاها ، كما خاف الملك أن يكون مصيرها مصير الرها المفجع مما لابد أن ينجم عنه أن تتضاعف متاعب أهلها النصارى وتزداد نكبتهم بخسائر لا طاقة لهم على احتمالها ، ولم يكن هو ذاته قادرا على اطالة مكثه فى أنطاكية لأن مشاكل مملكته كانت تفرض عليه العودة اليها ، لذلك فانه كثيرا ما نصح الأميرة بأن تختار أحد النبلاء ليكون زوجا لها حتى تسترشد حكومة الامارة برأيه وتستفيد من نشاطه ٠

وكان هناك عدد من النبلاء البارزين الموجودين فى بلاط الملك، منهم « ايفز دى نيزل « كونت » سواسون ، وكان رجلا سريا عاقلا رصــــينا كبير النفوذ فى مملكة الفــــرنجة ، ومنهم « وولتر دى فالكنبرج » قيم سنت « أومير » الذى صار فيما بعد أميرا لطبرية ، وهو رجل مهذب الحاشية ، رقيق الطبع ، سديد الرأى فيما يشير به، كما كان باسلا فى القتال ·وكان منهم أيضا « رالف دى ميرل » وهو نبيل عالى المرتبة ، خبير بفن الحرب ، ومعروف باحساسه الطيب ، فكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة قادرا بحق على حماية البلد ، لكن الأميرة كانت تتحاشى الزواج وتعده قيدا ، وتؤثر أن تعيش حياتها الخاصة حرة طليقة ، ولم تكن تكترث بحاجات شعبها، بل كان كل الذى يعنيها هو أن تتمتع بلذائذ الحياة ومباهجها ·

ولما كان الملك يعرف جيدا ما تفضـــله هذه الأميرة فقد عقد مجلسا عاما فى طرابلس ضم نبلاء المملكة والامارة معا ، ودعا اليه بطرك أنطاكية وكبار مساعديه ، كما دعا اليه الأميرة وكبار رجالها ، وحضر هذا الاجتماع أيضا الملكة « مليزند » مع أمراء المملكة ، وبعد مناقشتهم المواضيع ذات الاهتمام العام مناقشـــة دقيقة طرح موضوع زواج الأميرة على بساط البحث الدقيق ، فلم يستطع الملك ولا الكونت ولا أقاربها ولا الملكة ولا كونتسة طرابلس ولا عمتاها أن يحملوها على الرضوخ لما فيه خيرها وخير امارتها ·

وقد لاكت الألسن أنها كانت فى موقفها هذا تأتمر بأمر البطرك الذى كان أمة فى مكره ودهائه ، والذى يقال أنه أيدها فى خطئها حتى تزداد يده انطلاقا فى تصريف شئون حكومة البلد ، وهو الأمر الذى كان يسعى اليه سعيا حثيثا ·

ولما لم يمكن التوصل لانجاز شىء ما فيما يتعلق بهذا الموضوع فقد انفض الاجتماع وعاد كل الى بلده ·

(١٩)

في هذه الأثناء شبت عداوة مبعثها النزاع الذى كان بين كونت طرابلس وزوجته مما حمل أختها الملكـــة « مليزند » على المجىء الى هنا سعيا منها لازالة شوائب الكدر ولتزور أيضا فى الوقت ذاته بنت أختها أميرة أنطاكية ، فلما لم توفق الملكة التوفيق الذى ترجوه لاصلاح ذات البين بينهما عزمت على الرجوع مستصحبةأختها الأميرة ، فغادرتا مدينة طرابلس ، ورافق الكونت الأميرة فى سفرها بعض الطريق ، ثم استأذن بعد قليل فى العودة الى المدينة وهو خالى الذهن تماما من أى أذى يصيبه • اذ أنه بينما كان يجتاز بوابةالمدينة اذا بسيوف الحشاشين تنوشه فتصرعه فيخر عند مدخل البوابة بين الجدار وبين السور ويهلك على أسوأ صورة ، ويقتل معه الشريف السرى الذى ذكرناه من قبل وهو « رالف دى ميرل » وفارس من فرسانه ، شاء القدر أن يكون هو الآخر مع الأمير فى هذه الرحلة •

* * *

كان الملك فى هذه الأثناء خلى البال من كل شىء يشغله فأخذ نفسه بلعب النرد فى المدينة غير عالم بما جرى ، لكن ما كاد خبر اغتيال الأمير يذاع حتى هبت المدينة على بكرة أبيها ثائرة وهب الناس الى سلاحهم يقتلون كل من يصادفونه ، لا يسألون من يكون قتيلهم ، طالما هو يغاير اللاتين لسانا وهنداما ، مؤملين أن يعثروا بهذه الطريقة على الجناة الذين اقترفوا ذلك الجرم الشنيع البشع •

وترامت الى سمع الملك غاغة الناس الفجـــائية فلما عرف بمصرع الأمير اشتد غمه ، وفاض بالحزن قلبه ، ولم يستطع أن يمسك دمعه أو يخفى آهاته ، وأمر باستدعاء أمه وخالته فى الحال فلما عادتا ووورى الجثمان التراب فى احتفال مهيب وسط نحيب

القوم وشجنهم أمر الملك جميع أمراء تلك النواحى بقطع يمين الولاء للكونتسة وأطفالها ، فاستجابوا لأمره ٠

وقد ترك الكونت الراحل وراءه إبنا اسمه « ريموند » كاسمه هو ذاته ، وكان قد قارب الثانية عشرة من عمره ، كما خلف بنتا أصغر منه تدعى « مليزند » ، فلما فرغ الملك من تصريف الأمور فى انطاكية على هذه الصـــورة عاد الى المملكة مستصحبا أمه ونبلاء بلاطه ٠

(٢٠)

لم تمض غير فترة وجيزة على هذا الحادث حتى قام جماعة من الولاة الأتراك الأقويا المعروفين بالأراتقة ، والذين ينزلهم قومهم منزلة التعظيم ، فجمعوا حشدا كثيفا من بنى جلدتهم قاصدين الخروج للاســـتيلاء على القدس التى يعتبرون أنفسهم ورثتها الشـــرعيين ، اذ يقال ان المدينة الطاهرة كانت ملكهم وملك أســـلافهم قبل أن يستخلصها الصليبيون لأنفسهم ، وكانت أمهم شديدة التحمس لهذا الموضوع ، وقد لامت أولادها اذ سمحوا لأنفسهم بأن يظلوا منفيين زمنا طويلا من أملاكهم التى ورثوها بعيدين عنها ٠

تأثر الأبناء بتأنيبات أمهم العجوز التى لم تكن تكف قط عن لومهم ، فزحفوا على رأس طائفة كبيرة من الفرسان ، وقد أجمعوا العزم على تحقيق هدفهم باذن ربهم ، فلما بلغوا دمشق تلبثوا بها قليلا حتى يأخذ عسكرهم قسطا من الراحة ويستعيدوا نشاطهم ، وقد حاول أهل تلك المدينة صرفهم عن مشروعهم الأهوج فلم يفلحوا ورفضوا الاستماع اليهم ، وأعادوا تزويد أنفسهم بالميرة ورتبوا أمتعتهم وتابعوا زحفهم الى القدس وهم مؤمنون بأنهم الغالبون ، واجتازوا بكتائبهم الطويلة الأردن ، وصعدوا فى الاقليم الجبلى الذى

تقع به المدينة المقدسة ، ثم جاءوا الى جبل الزيتون المشرف على القدس والمتاخم لها ، وهنا أتيح لهم أن يروا منظرا فريدا طالعوا فيه الأماكن الطاهرة ، لاسيما الهيكل الذى يوقرونه توقيرا عظيما ، وكانت العين تشاهد من هذا الموضع المدينة بأكملها ٠

وكانت معظم قوات الناحية المسلحة قد نهضت الى مدينة نابلس مخافة أن يهاجمها العدو نظرا لأنها كانت خالية من التحصينات ، فلما رأى من ظلوا بالقدس أن جيش الترك شارع فى التقدم جزعوا أن يبادر بالاغارة عليهم ،فهبوا سراعا الى سلاحهم وطلبوا العون من السماء ، وزحفوا زحف المتحمسين لصد العدو وقتاله ٠

* * *

كان الطريق الواصل من القدس الى « أريحا » ثم الى الاردن وعرا كل الوعورة ، خطرا كل الخطر ، ذلك أن المواضع الكثيرة الشديدة الانحدار تجعل الصعود والنزول أمرا بالغ الشدة والمشقة حتى ولو لم يكن هناك من تحد أو ثم داع للخوف ، وحدث أن كر الصليبيون على العدو حين دخوله هذه الطريق كرة وحشية بالغة ملأت قلوبه فزعا حتى اضطر للفرار وهو فى أشد حالات الكرب ، وسقط الكثيرون من رجاله صرعى دون أن تصيبهم ضربة سيف ، ذلك لأن الصخور والمسالك الشديدة الضيق لم تكن تتيح سبيلا للهاربين ، أما الذين أمكنهم الوصول الى نواح أكثر اتساعا فقد حاولوا مواصلة الفرار ، لكن ما لبثت سيوف الصليبيين أن تلقفتهم وأثخنتهم جراحا مميتة كان فيها حتفهم ، كما أن جيادهم التى أنهكها طول السير لم تعد تحتمل السير فى الشعاب الوعرة ، فحرنت ورفضت أن تنقاد لراكبيها حتى اضطر الترك للترجل عنها وصاروا عسكرا مشاة قد ناءت أكتافهم بما يحملون من الأسلحة ولم يكونوا قد اعتادوا صعابا كهذه الصعاب ، ومن ثم تلقفتهم

سيوف مطارديهم فذبحوا ذبح النعاج ، وجرت مجزرة فظيعة على الرجال والخيل على السواء حتى عاقت زحف الصليبيين الذين لم يلتفتوا الى الغنائم والأسلاب فلم تمتد أيديهم قط اليها لاستمرارهم فيما هم آخذون به أنفسهم من المذابح الوحشية ، ورأوا أن خير ما يثابون عليه هو أن يخوضوا فى دماء الخصم ويسبحوا فيها ٠

* * *

ما كاد المجتمعون فى طرابلس يسمعون بزحف العدو لمهاجمة بيت المقدس حتى هبوا مسرعين هبة رجل واحد واندفعوا الى مخاضات الاردن ليمنعوا الترك من العبور ، فهاجموا من استطاعوا النجاة والافلات من مطارديهم وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، وكان بطش الرب بخصومنا جبارا فى ذلك اليوم وذلك كما قيل(٩) « فضلة القمص أكلها الزحاف ، وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء ، وفضلة الغوغاء أكلها الطيار » ، ذلك أن من نجوا من الوقوع فى أيدى مطارديهم سرعان ما جندلتهم سيوف الصليبيين من الوراء ، كما أن الذين دخلوا الاردن طليعة للصف الرئيسى كانوا يجهلون أين تكون هذه المخاضات فابتلعتهم الأمواج الهادرة وطواهم النهر فى لجته فكانوا من الغرقى ، وهكذا قدر للجيش الذى جاء أول ما جاء بالآلاف المؤلفة وكان مزهوا بقوته ومعتمدا على بطش فرسانه أقول ان هذا الجيش قدر له أن يعودالى دياره مدحورا وقد تضاءل عدده بصورة كبيرة ، وعمته الفوضى وتملكه الفزع حتى ليقال انه هلك منه فى هذا اليوم ما يقرب من خمسة آلاف رجل ٠

وقد جرى ذلك الحادث فى اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١١٥٢ من مولد المسيح وفى السنة التاسعة من حكم الملك بلدوين الثالث رابع ملوك بيت المقدس ٠

أما الصليبيون فقد عادوا الى القدس محملين بالغنائم التى استولوا عليها ، يسوقون أمامهم ـ رمزا لانتصارهم ـ كثيرا من الأسلاب والماشية ٠

لقد عادوا ليقربوا قربانهم الطاهر الى الرب شكرا على ما آتاهم من النصر ٠

(٢١)

ارتفعت معنويات الصليبيين ارتفاعا عظيما بسبب هذا النصر الذى ساقته لهم العناية الالهية ، فلما رأوا أن الرب سدد خطاهم فيما قصدوه أجمعوا العزم كلهم : صغيرهم وكبيرهم على انزال المضرة بالعدو المقيم فى تلك الناحية وأعنى به العسقلانيين الذين كثيرا ما أذاقوهم الويلات الفادحة ٠

وكان من الواضح أن أمثل خطة فى الوقت الراهن هى أن يدمروا الأحراج الموجودة ناحية عسقلان ، وهى الأحراج التى كانت ذات قيمة عظمى للمواطنين هناك ، فان فعلوا ذلك كبدوا العدو الفاجر بعض الخسارة ، لذلك قام عسكر المملكة بقضهم وقضيضهم جاعلين هذا الهدف نصب أعينهم ، وتجمعت أعدادهم الكبيرة أمام المدينة المذكورة ، ورأوا أنه اذا ما كتب لهم النجاح فى خطتهم هذه فحسبهم هذا وكفى ٠

غير الرحمة الالهية شملت الصليبيين المحتشدين أمام هذا البلد بصورة عجيبة ، فاستنفرتهم للقيام بأعمال أجل خطرا وأعظم أثرا ، اذ ما كادت قواتنا تتخذ مواقعها ازاء المدينة حتى استولى الفزع على الأهالى وتملكهم الرعب فانسحبوا فى لحظتهم الى داخل البلد ، ولم تواتِ الجرأة واحدا منهم على الظهور خارج الأسوار

لمواجهة عسكرنا ، فاغتنم الصليبيون هذا الخوف الشـــديد الذى استبد برجال العدو وعزموا - بتوجيه الهى - على محاصــــرة المدينة أيضا ، وانفذوا الرسل فى الحال الى كافة أرجاء المملكة يعلنون خبر ما اعتزموه بتوجيه من الرب ، ويدعون المتخلفين وراءهم فى بيوتهم ألا تفوتهم فرصة هذا اليوم فيحضرون ٠

وسعدت نفوس الذين دعوهم فأســـرعوا للتجمع وقد غمرتهم النشوة وانضموا الى رفاقهم الذين سبقوهم ، ونصبوا خيامهم مع غيرهم حول المدينة ، وحملتهم الرغبة فى استمرار تصميمهم على تنفيذ خطتهم دون أى خاطر يزعزعها لأن يقسم كل واحد قســـما لا حنث فيه ألا يرفعوا الحصار عن المدينة حتى تســـتسلم وتفتح أبوابها لهم ٠

على هذه الصورة كان استدعاء كل قوى المملكة ، وتجمع الناس لتحقيق هدف واحد ٠

وحينذاك مضى الملك والبطـــرك مع بقية زعماء المملكة من علمانيين وروحانيين ومعهم الصليب الواهب الحياة وعسكروا أمام عسقلان وقد غمرتهم السعادة وراودهم الأمل ، وكان ذلك يوم ٢٥ يناير (سنة ١١٥٣) ٠

وكان من بين كبار رجال الكنيسة الحاضرين يومذاك : بطرك بيت المقدس ، وبطرس رئيس أساقفة صور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيصرية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة ، وفردريك أسقف عكا ، وجيرالد أسقف بيت لحم ٠

كما شارك فى الحضور جماعة من رؤساء الأديرة ٠

كذلك حضر « برنارد دى تريميلى » رئيس فرسان المعبد ، وريموند رئيس الاسبتارية ٠

وحضر من الأمراء العلمانيين « هيج » الابلينى ، وفيليب النابلسى ، وهمفرى صاحب تورون ، وسيمون صـــاحب طبرية ، وجيرارد صاحب صيدا ، وجى من بيروت ، وموريس من منتريال و « رينو دى شاتيون » ، وولتر دى سنت « أومير » ، وكان هذان الأخيران من العاملين بالخدمة فى جيش الملك بأجر يجريه عليهما ٠

وتم نصب الخيام لكل حلقة جند ، وخصص لكل نبيل موضع معين ملائم له ، ثم أقبلوا بعدئذ على ما بأيديهم فى نية خالصة ، وصدقوا فى بذل الجهود التى يتطلبها عمل مهم مثل هذا العمل ٠

(٢٢)

وعسقلان واحدة من مدن الفلسطينيين الخمس ، وتقع على ســـاحل البحر على شكل نصـــف دائرة ، ويمتد قطرها بامتداد الشاطىء ، على حين يقع قوس دائرتها على الأرض المطلة نحو الشرق ، وتوجد المدينة كلها فى حوض ينحدر الى البحر ، وتحوطها من شـــتى نواحيها الروابى الصـــناعية التى تنهض عليها الأسوار ذات الأبراج التى تفصل بعضها عن بعض مسافات متساوية وكلها مبنية من الحجر الأصم ، ويربط بعضها ببعض الاسمنت الذى هو أشد صلابة من الحجر ٠ أما أسوارها فعريضة الاتساع ذات سمك لا بأس به وارتفاع كبير ، كما أن المدينة محـــاطة زيادة على ذلك باستحكامات اضافية لها ذات الصلابة وقد أحكم تحصينها ، ولا توجد جداول مائية داخل نطاق الأسوار أو على مقربة منها ، لكن تتوفر داخلها وخارجها الآبار التى تمدها بالمياه العذبة الصالحة للشرب، ولما كان الأهالى أحرص ما يكونون على كل ما فيه خيرهم والحفاظ على حياتهم فقد قاموا ببناء صهاريج داخل المدينة لتجميع مياه الأمطار بها ٠

ويوجد بالسور أربعة أبواب بولغ فى جعلها أقوى ما تكون فى الدفاع ، وذلك بفضل ما زودت به من الأبراج الضخمة الشاهقة التى يواجه أولها الشرق ويعرف بالبوابة الكبرى ، وأيضا بباب القدس لأنه يطل على المدينة المقدسة ، ويوجد أعلاه برجان مرتفعان أشد الارتفاع ويرجع اليهما الفضل فى الدفاع عن المدينة الرابضة تحتها، كما يوجد فى الفصيل الواقع أمام هذه البوابة ثلاثة أبواب أو أربعة أصغر منها ، تفضى بسالكها الى المدخل الرئيسى عبر دروب مختلفة متعرجة ٠

أما البوابة الثانية فتطل على الناحية الغربية ، وتسمى بباب البحر لأن الناس يخرجون منها الى البحر ٠

وأما الثالثة فتطل على الناحية الجنوبية وتواجه الطريق المؤدى الى « غزة » التى أشرنا اليها من قبل ، ولذلك سميت ببوابة « غزة » ٠

وأما البوابة الرابعة فتطل الى الشمال وتسمى ببوابة يافا ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى المدينة المجاورة لها التى تقع على نفس الساحل ٠

على أن بعسقلان من ناحية أخرى عيبا يرجع الى أن موقعها لا يتيح لها أن تكون ميناء أو مرفأ يصلح لرسو السفن ، فشاطؤها رملى جدا ، كما أن الرياح القوية تجعل البحر المحيط بها عاصفا جدا مما يحمل كل مقترب منها على التخوف منها الا اذا كان الجو شديد الهدوء ٠

ويغطى الرمل أغلب الحقول المحيطة بها مما يجعلها غير صالحة لزراعة أى شىء الا الأعشاب وأشجار الفاكهة ، ومع ذلك

فانه توجد فى الناحية الشمالية منها بضعة وديان قلائل تجود على أهلها بقدر لا بأس به من الفواكه والخضروات حين يحسن تسميدها تسميدا جيدا وتعتمد فى ريها على مياه الآبار ٠

والمدينة مكتظة بالسكان الذين يجرى عليهم خليفة مصر من خزانته رواتب يدفعها لهم جميعا ، حتى لأقلهم اعتبارا بل لأطفالهم كما تقول الأخبار ، وكان الخليفة وأمراؤه يبذلون أكرم البذل للحفاظ على عسقلان وحمايتها ، ويحملهم على ذلك ايمانهم بأنه اذا قدر للمدينة أن تسقط فى قبضة الصليبيين فلن يحول حائل حينذاك بين قادتهم وبين غزو مملكة مصر وامتلاكهم اياها عنوة ٠

لذلك اعتبر المصريون مدينة عسقلان حصن أمان لهم وخط الدفاع عنهم ، واعتادوا أن يغدقوا العون لها فى اسراف أربع مرات فى السنة ، وكان المصريون ينعمون بالسلام الذى يتطلعون اليه ما ظلت عسقلان فى مركز يمكنها من مقاومة جهود الصليبيين العنيفة ضدها وردهم عنها دون أن يبلغوا منها أربا ، لذلك كان المصريون يبذلون الأموال الجمة لامداد المدينة بكل ما هى فى حاجة اليه ، ويجهزونها بالسلاح والطعام والعسكر الذى يتحدد فى فترات منتظمة من السنة ، لأنه مادام المسيحيون مشغولين بعسقلان كلما تضاءل خوف المصريين من قوتنا المفزعة ٠

(٢٣)

ظلت عسقلان تقاوم محاولاتنا وتبرهن على أنها منافس خطير لنا طوال خمسين سنة أو أكثر بعد أن وضع الرب بقية أرض الميعاد فى أيدى الشعب المسيحى ، ولذلك فقد انتهت الأمور بالصليبيين أخيرا الى اجماعهم العزم على حصار المدينة ، وكان هذا عملا شاقا بل هو أقرب الى الاستحالة ، وذلك بفضل ما كانت تتمتع به عسقلان

من التحصينات ، وكثرة مابها من الاستحكامات والأبراج والعوائق التى تقف فى وجه مهاجميها ، هذا الى جانب مالا يتصوره العقل من العتاد والسلاح ووفرة المؤونة وكثرة من بها من المدربين أحسن تدريب والقادرين على حمل السلاح واستعماله على أحسن وجه ، والحق أن عدد المدافعين عنها كان ضعف عدد الجيش المحاصر لها منذ بداية التطويق حتى نهايته ٠

* * *

ولقد نصب الملك والبطرك وسلفى بطرس رئيس أساقفة صور وغيرهم من كبار رجال المملكة والأمراء وكبار رجال كنيسة وأهالى كل مدينة من المدن ، أقول نصب كل من هؤلاء معسكره منفصلا عن الآخر ، وفرضوا الحصار على البلد من ناحية البر ، كما أن الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمستعد للابحار قد وضـــع تحت قيادة « جيرارد » الصيداوى وهو أحد كبار رجال المملكة بهدف منع اقتراب أى أحد من ناحية البحر ، وكذلك لاحباط أية محاولة للخروج من المدينة ٠

وكان رجالنا : فرساننا أحيانا ومشاة أحيانا أخرى يقومون كل يوم على وجه التقريب بالاغارة على المدينة ، ومع ذلك فقد قاوم أهلها هذه المحاولات بشكل دل على شجاعتهم ، وما هم عليه من روح عالية لأنهم كانوا يدافعون ذودا عن حريمهم وأبنائهم ، وأهم من هذا كله أنهم كانوا يقاتلون دفاعا عن حريتهم ذاتها ، وكان النصر فى هذه الاشتباكات كالعادة تارة فى جانب الأهالى وتارة فى جانب الصليبيين ، وان كان فى غالب الأحيان من نصيبنا ٠

ولقد قيل ان الطمأنينة كانت تغمر ذلك المعسكر بسبب توفر فرص شراء جميع أنواع المتجر ، مما أتاح للناس وهم فى مخيماتهم أن يعيشوا عيشتهم التى ألفوها فى ديارهم وفى مدنهم المسورة ٠

أما الأهالى فكانوا يبذلون أكرم البذل فى حراسة البلد لاسيما فى الليل ، فكانوا يستخدمون العسس يتناوبون الحراسة فيما بينهم، بل ان كبار زعماء المدينة ساهموا بدورهم فى حراسة الأسوار التى كانوا يقضون الجانب الأكبر من الليل فى تفقدها دون أن تغمض لهم عين .

وكانت توضع على طول الأسوار والأبراج الحصينة مصابيح زجاجية ملأى بالزيت ، ولها أغطية شـــفافة للحفاظ عليها وعلى شعلتها من الانطفاء مما كان يحيل الليل الى نهار ساطع ، كما عاونت هذه المصابيح العسس على قيامهم بدوراتهم المعتادة على الأسوار .

كذلك أقيم فى المعسكر الصليبى طائفة من الحراس لحماية الجند،ولم يكن هذا الرهط من الحراس يكف عن المراقبة لحظة من ليل أو نهار مخافة أن يغتنم الأهالى الفرصة فيهاجموا المعسكر تحت جنح الظلام ، وحتى يدرءوا خطر مبادرة المصريين لنجدة عسقلان ومهاجمة الجيش (الصليبى) ، هذا على الرغم من وضع الكشافة فى كثير من الأماكن التى حول غزة فان رأوا ما ينذر باقتراب العدو بعثوا يحذرون منه قبل فوات الوقت .

(٢٤)

استمر الحصار مضروبا على عسقلان أربعة أشهر دون وقوع أى تغيير ، حتى اذا اقترب عيد الفصح حدث ما جرت العادة به من قدوم أعداد كبيرة من الحجاج الى هناك ، فأرسل الصليبيون ــ بعد التشاور ــ فيما بينهم ــ رسلا من الجيش ينهون جميع الحجاج ــ بأمر الملك ــ عن العودة الى ديارهم ، ويدعونهم للمساعدة فى الحصار ابتغاء مرضاة الرب ، ويعدونهم بدفع أجر لهم لقاء هذا العمل .

كذلك صدرت الأوامر الى جميع السفن ـ صغيرها وكبيرها ـ بالابحار الى عسقلان ، فما انقضت أيام قلائل الا وقد صار أمام المدينة جميع المراكب التى كانت قد جاءت فى هذه المناسبة وأسعفتها الريح فكانت طيبة عليها ، وانضمت الى صفوفنا أعداد كبيرة من الحجاج : فرسانا ومشاة ، وهكذا أخذت قوة الجيش تزداد يوما اثر يوم ، وبلغت فرحة العسكر غايتها ، وكان الأمل فى احراز النصر كبيرا لا حد له ٠

أما موقف العدو فكان على العكس من ذلك اذ عمهم الحزن ، وفشا فيهم الجزع أكثر وأكثر ، وتضاءلت ثقتهم فى قوتهم الذاتية ، لكنهم على الرغم من ذلك ورغم التحـديات الكثيرة التى كانوا يصادفونها كانوا ينهضون للقتال ، وكثيرا ما بعثوا الى خليفة مصر المرة تلو المرة يلتمسون منه اسعافهم بالنجدة على أسرع وجه ، وحذروه أنه ان لم تصلهم النجدة فلا مفر لهم من التسليم ، لذلك اتخذ الخليفة كل الاستعدادات الجادة لمســاعدتهم ، فأمر كبار المسئولين عن هذا العمل بتجهيز الأسطول وجمع العسكر ، وزود السفن الطويلة(١٠) بالأسلحة وشـحنها بالمؤونة وآلات الحرب ، وأخرج من المال كل ما يلزم للنفقة ، وعين القادة ، وحذرهم من التأخير ، وأمرهم بالسرعة فى الخروج ٠

كما أن الصليبيين لم يتوانوا فى هذه الأثناء عن بذل الأموال الطائلة من أجل شراء السفن ، ثم جمعوا عندهم العمال وأمروهم ببناء برج من الخشب يكون مرتفعا ارتفاعا كبيرا جدا ، وغطوه بالجلد والأدم من الداخل والخارج مما يجعله بمنجاة من النار ومن كل ما يضر ، وبذلك يكون المحاربون الذين فى داخل هذا البرج آمنين على أنفسهم أمانا تاما أثناء مهاجمتهم المدينة ، أما المواد الخشبية المتخلفة من السفن فقد استعملت لبناء آلات الرمى التى وضعت اذ ذاك فى وضع استراتيجى لهدم الأسوار ، كذلك أقاموا

سقوفا مغطاة صنعوها من نفس المادة للاحتماء بها حين الاقتراب من أرصفة الميناء والزحف عليها ويكونون تحتها آمنين • وقد تم انجاز كل هذه الاســـتعدادات على أكمل وجه ، كما راعوا الدقة التامة فى صنع القسم الباقى من السور الذى أرادوه لتيسير وضع الآلات به ، فلما تمت تسوية الجزء الأكبر من هذا الرصيف الذى أشرنا اليه من قبل دفعوا الأبراج الى السور وهم يهتفون هتافات عالية ، وكان فى الاستطاعة مشاهدة المدينة بأجمعها من أعلاه ، كما يمكن الاشتباك فى القتال بالأيدى مع المدافعين الموجودين فى الأبراج المجاورة ، ومع ذلك فان أهل البلد أخذوا يرمون فى جرأة ومن غير انقطاع أقواسهم وسهامهم لمضايقة المختفين فى الأبراج المتحركة ، ولكن ذهبت محاولاتهم هذه هباء لعجزهم عن اصابة من يدفعون الآلة الى الأمام ، وحينذاك احتشد جمهور غفير من المدافعين عن تلك الناحية من السور المواجهة للبرج ، وصدرت الأوامر الى أكثرهم اقداما أن يســـتمروا فى قتال المغيرين الموجودين بالبرج المتحرك •

كذلك كان القتال مستمرا فى الوقت ذاته فى جهات متعددة على امتداد الأسوار ، وكان من النادر أن يمر يوم دون حدوث مجزرة ، ولا نقول شيئا عن العدد الكبير من الجرحى الذين تساقطوا من الجانبين •

ولقد ســـمعنا أخبارا عن بطولات خالدة قام بها فى أثناء الحصار أشخاص معينون ، كما تلقفنا روايات عن أمور تميزت بالشجاعة الفائقة قام بها رجال من العدو ومن الصليبيين على السواء ، ولكن لما كنا آخذين أنفسنا بتدوين تاريخ عام فما ينبغى لأحداث من هذا القبيل أن تســـتأثر من انتباهنا الا بقليـــل من الالتفات •

دأب قوادنا على متابعة الحصار على مدى خمسة أشـــهر متتاليات أصيبت قوة العدو فيها بشىء من الوهن الذى اتضـــح معه أن أمر الاستيلاء على المدينة أصبح أقرب مما كان عليه من قبل ، لكن ظهر فجأة الأسطول المصرى أمام المدينة وقد واتته الريح رخاء فدفعته الى هنا ، فما أن شاهده العسقلانيون حتى رفعوا الأكف الى السماء وتعالت أصواتهم هاتفة بأن ليس أمام الصليبيين الا الارتداد حالا أو الهـــلاك على بكرة أبيهم ، فلما رأى « جيرارد الصيداوى » قائد الأسطول الصليبى أن السفن المصرية شارعة فى الاقتراب من المدينة حاول تعطيل اقترابها ، فأمر شوانيه القليلة أن تشرع فى الهجوم عليها ، لكن مالبث الخوف أن تسرب الى نفســه لرؤيته أعدادا كثيرة من العدو فارتد ثانية على عقبيه ، ووجد فى الفرار ما يحفظ على نفسه روحه وأرواح من معه ويضـــمن لهم الســـلامة .

ثم واتت الجرأة قوات العدو فأبحرت قاصدة المدينة حاملة الى المحاصرين النجدة التى جاءتهم وان كان وصولها جاء متأخرا طويلا ، وتقول الأخبار ان الأسطول المصرى كان يتألف من سبعين قرقورة وبعض الشوانى المحملة بأكملها بالرجال والذخيرة والطعام، وكانت هذه السفن من ذات الحجم الكبير وقد أرسلها خليفة مصر المشار اليه غوثا للمدينة .

فلما أحس العدو بالنجدة قوى ساعده وعاود محاولاته العدوانية من جديد وأدى تجدد بأسه الى أن صار أشد جرأة وأقوى عضدا فعاد يتحدانا لجرنا للقتال .

أما سكان البلد أنفسهم الذين كانوا يعرفون تمام المعرفة بأس

رجالنا فقد كانوا حذرين بعض الحذر ، على حين أن القادمين الجدد كانوا يسعون سعيا للمجد ، وراغبين فى البرهنة على اثبات قوتهم وشجاعتهم ، ومن ثم اندفعوا الى المعركة دون أن يأخذوا حذرهم ، فلما جربوا شجاعة الصليبيين الصلبة عرفوا الحذر فى غاراتهم ، واتسم صدهم لهجماتنا بكثير من الاعتدال ٠

(٢٦)

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى المعسكر القائم أمام عسقلان قامت ليدى « كونستانس » أرملة « ريموند » أمير أنطاكية بما تقوم به عـادة النسـاء من رفضهن لكثير من الأشـراف المبـرزين المتقدمين للزواج ، ولكنها اختارت بدلا منهم « رينو دى شاتيون » الذى كان أحد الفرسان الذين كان الملك يستأجرهم واتخذته لها بعلا ، ، ولكنها أبقت زواجهما هذا سرا مكتوما حتى تأخذ مقاليد السلطة فى يدها وتحصل على موافقة ابن خالتها الملك الذى يبسط حمايته على امارتها،لذلك أسرع «رينو» الى الجيش ليفضى لبلدوين بما اعتزمه ، فلما حصل أرناط على موافقة بلدوين عاد أدراجه الى أنطاكية وتزوج الأميرة ، فتملكت الدهشة الكثيرين من أن سيدة جليلة كهذه السيدة ، لها عظمتها وقوتها ، وكانت زوجة لرجل تسنم ذروة الشهرة كيف تنزل من عليائها وتنحدر فتتزوج من فارس من حثالة الفرسان كأرناط هذا ! ٠

* * *

فى هذه الأثناء علم نور الدين ـ وهو رجل بعيد النظر كثير الحيطة ـ بموت حميه(١١) « أنر » ذلك الرجل البارز الذى كان قائدا عاما لجيش دمشق ومنظم شئون الملك والذى كان على الدوام معارضا أشد المعارضة لمشاريع نور الدين ٠

وان كان نور الدين يدرك مدى انشغال بلدوين ملك بيت المقدس وجميع فرسانه بحصار عسقلان منذ حين انشغالا وثق معه أن الملك لن يتخلى عما هو فيه الآن استجابة لنداءات الدماشقة فقد اغتنم هذه الفرصة وزحف على دمشق على رأس جيش كبير ليستولى عنوة عليها ، فتلقاه أهلها بالترحاب واستسلموا له طائعين حيث أزال عن الحكم واليهم الخليع الذى لا يساوى شيئا حتى اضطره الى الهروب الى المشرق لاجئا شريدا على وجهه ·

كان هذا التغيير (الذى أحدثه نور الدين فى دمشق) كارثة لحقت بمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضع الصليبيين فى مواجهة خصم عنيد فى شدته محل رجل كان مسلوب الارادة ، قد جرده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم ، كما أنه ظل حتى هذا الوقت يدفع لهم الجزية سنويا شأنه فى ذلك شأن التابع لهم · أما الخصم الجديد (نور الدين) فكان خطيرا · وكان ذلك مصداقا لقول القائل(١٢) « ان كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » وصدق المخلص اذ قال انه حين تتحد ممالك عدة مع بعضها تكون لها قوة تستمدها الواحدة منها من الأخرى ، فتقف جميعها ضد العدو المشترك ·

لذلك فانه بعد استيلاء نور الدين على دمشق واخضاعه كل ما حولها سعى لمساعدة عسقلان على قدر ما يسمح له بعدها عنه ، فاستغل انشغال الصليبيين بما هم فيه ، وحاصر « بانياس » الواقعة فى أقصى أطراف المملكة ، مؤملا من وراء ذلك أن يرغم قومنا على رفع حصارهم عن عسقلان حين يستنجد بهم أهل «بانياس» المحاصرة، لكن شاءت رحمة الرب التى نسترشد بها الا تحقق آماله الضخمة وألا ينجح مشروعه ، فقد فشل فى حصاره لبانياس ، كما أن الصليبيين نجحوا بعون الله فى ارغام العسقلانيين على التسليم لهم ·

* * *

على أنه مات فى هذه الأثناء « برنارد » أسقف صيداء الطيب الذكر ، وخلفه « أمالريك » الطوبانى الذى كان رئيس أحد الأديرة ومنفذا لقوانين الرهبنة فى دير القديس « حبقوق » أو سنت جوزيف فى « أريماثيا » ، وكان رجلا مخلصا يخشى الله ، طاهر الذيل ، ويقال انه لما رأى عدم السماح لأحد ما بالخروج من المدينة المحاصرة تسلم هدية الترسيم من يد طيب الذكر « بطرس » رئيس أساقفة صور .

(٢٧)

فى هذه الأثناء قام المشاركون فى تلك الحملة بمضاعفة جهودهم ونشاطهم لتنفيذ مشروعهم ، ودأبوا على شن هجماتهم الضارية على المدينة من غير توقف ، وكان هذا على وجه الخصوص حول ما يعرف بالبوابة الكبرى حيث تجددت الهجمات بعضها فى اثر بعض ،وأنزلت أفظع الكوارث بالأهالى ، كما أن الأحجار الضخمة التى تقذف بها آلاف الرمى أدت الى زعزعة الأبراج والأسوار ودكت ما بداخل المدينة من الدور ، وترتب على ذلك حدوث مقتلة شنيعة ، كما ان الجند الذين كانوا بالبرج المتحرك استطاعوا بقسيهم ونبالهم أن ينزلوا الدمار الساحق بالمدافعين الذين كانوا يقاومونهم من فوق الأسوار والأبراج ، كما ألحقوا المضرة بمن أرغمتهم ظروف الحاجة للتجول فى المدينة ، وكانت الأهوال التى نزلت بالناس من هذا البرج أفدح مما نزل بالأهالى فى مناطق أخرى ، لذلك راحوا يتبادلون الرأى مسترشدين على وجه الخصوص بنصائح أهل الخبرة الكبيرة فى مثل هذه الظروف ، فأجمعوا أمرهم على وجوب تدمير الآلة الحربية من غير اكتراث بما يتهددهم من الخطر ان هم أقدموا على هذه المخاطرة ، وكانت

خطتهم تتمثل فى أن يقذفوا فيما بين السور والبرج بالأخشـــاب الملتهبة والمواد التى علقت بها النار فتزيد النار ضراما خفية ويحترق البرج ، وكان الدافع لهم على ذلك أنهم كانوا قد فقدوا الأمل ، كما يئسوا من المقاومة ، واستولى عليهم القنوط المطبق ٠

حينذاك قام رهط من الرجال البواسل الذين عرفوا بما انطبعت عليه نفوســـهم من قوة وبسالة ، والذين آثروا ســلامة اخوانهم المواطنين على سلامتهم هم أنفسهم ، واستجابوا فى الحال لهذا الرأى ، وأعلنوا استعدادهم للقيام بتلك المهمة الخطيرة ، فجىء بالخشـــب الى أقرب جزء من سور للبرج وقذفوا به فى الفراغ الخارجى الواقع بين السور وبين الآلة ، حتى اذا صار الخشب كومة عالية كافية لاشعال النار فى البرج صبوا عليها القار والزيت وغيرهما من السوائل التى تزيد النار ضراما ، كما قذفوا بغير ذلك مما يجعل اللهيب قاتلا ، فما كادت النار تشـــتعل ويزداد لهيبها ضراما حتى أدركتنا الرحمة الالهية ، ذلك أنه على الرغم من زيادة ضرام اللهيب بقوة خارقة الا أنه هبت من ناحية الشرق ريح عاتية حولت اتجاه اللهيب نحو السور الذى استحال رمادا ، واستمرت العاصفة الليل بأكمله تقريبا ، حتى اذا طلع فجر انهار جزء كبير من السور يقع بين البرجين ، محدثا دويا أيقظ الجيش كله ٠

غير أنه حدث عند سقوط هذه الكتلة على البرج أن تناثرت حطاما بعض الأجزاء المهمة من الآلة التى لم تكن النار قد وصلتها ، كما أثر هذا السقوط على الحرس القائمين بالحراسة على القمة فتهاووا الى الأرض ، واستيقظ العســـكر جميعهم على دوى هذا الانهيار ، فانتضوا أسلحتهم واندفعوا الى ذلك المكان متلهفين على اقتحامه فى لحظتهم ، فكان كأنه باب فتحته السماء لهم ٠

لكن كان « برنارد دى ترمبيلى » رئيس الداوية هو واخوانه

أسبق الجميع في الوصول الى هناك قبل غيرهم بوقت طويل ، فاحتل «برنارد» الثغرة ولم يأذن لأحد من غير رجاله باجتيازها ، واتهمه الناس أنه منع الآخرين من عبورها قاصدا من وراء ذلك أن يكون رجاله هم أول الداخلين فتكون لهم الأسلاب والغنائم وأثمنها ، اذ جرت العادة بين الصليبيين (حتى صارت عرفا مألوفا الى اليوم) أن يستولى أى فرد ــ كائنا من كان هذا الفرد حين يدخل البلد ــ على أى شىء يصادفه ويأخذه ان كان هو أول الداخلين ، ويصبح هذا الشىء حقا له ولذريته لا ينازعهم فيه منازع ٠ أما اذا دخل الجميع معا واستولوا على المدينة فان الغنائم توزع عليهم جميعا ٠

لكن قل أن يسفر مشروع سيىء النوايا والمقاصد عن خاتمة طيبة ، وان الكسب الذى يجنيه المرء بطرق دنيئة لا يتمخض الا عن نتائج متدنية ، ولقد رفض هؤلاء الداوية أن يشاركهم رفاقهم فى السلاح فيما استولوا عليه من الأسلاب فمن ثم فانهم (أى الداوية) كانوا هم الذين لاقوا الموت دون سواهم،وترتب على ذلك ان لم يدخل البلد الا قرابة أربعين فقط ، أما من سواهم فلم يدخلوه ٠

كان المواطنون حتى هذه اللحظة أخوف ما يكونون على حياتهم ، واستعدوا لتحمل العواقب الصارمة دون مقاومة ، لكنهم ما ان رأوا ان هذه الجماعة القليلة (الأربعين من الداوية) قد حيل بينهم وبين رفاقهم حتى عاودتهم شجاعتهم ، واستعادوا قوتهم وهاجموا الداوية هجوما عنيفا وأفنوهم قتلا ، ثم جمعوا قواتهم وقاموا كمن ردت عليهم شجاعتهم وحملوا السلاح الذى كانوا قد ألقوه جانبا القاء المغلوبين واندفعوا اندفاع رجل واحد الى الموضع الذى سقط به السور ، واستطاعوا أن يسدوا الثغرة بالأعمدة الضخمة والكتل الخشبية الكبيرة التى جاءوا بها مما كان بالسفن

منه وفرة كبيرة ، وضموا هذه الأعمدة والكتل بعضها الى بعض وبلغت حماستهم ذروتها فصار المكان عزيزا على من يريد اقتحامه ٠

وبعد تدعيم الأبراج المجاورة للناحية المحترقة من كلا الجانبين والتى كانت فظاعة الحريق قد حملت الناس على هجرها تحمسوا مرة أخرى للمعركة وعاودوا القتال من جديد ، وعادوا يتحدوننا للحرب كأنما قد نسوا تماما هزائمهم السالفة ، ولما كان المقاتلون فى البرج يعرفون أن أساسه قد ضعف ووهى ، وأن الجزء الأدنى من هيكله القوى قد أصيب تضعضعت ثقتهم فيه ، فتراخوا فى قتالهم ٠

وحاول العدو اشـــاعة روح الهزيمة فينا فدلى جثث قتلانا بالحبال من فتحات الســـور ، وبالغ فى تهكمه بنا بالقول تارة وبالاشارة تارة أخرى ، وأظهر الشماتة ، لكن سرعان ما حل الحزن الشديد محل البهجة ، وأثبتت الأحداث التى تلت ذلك بأجلى صورة صدق المثل(١٣) القائل « قبل الكسر الكبرياء ، وقبل الســقوط تشامخ الروح » ٠

أما المسيحيون فكان أمرهم عكس أمر هؤلاء ، اذ كانوا مشتتى البال ، جزعين قد تملكهم الأسى وهلعوا ويئسوا من أن تكون لهم الغلبة فى النهاية ٠

(٢٨)

فزع الملك حين سماعه نبأ تلك الكارثة الفادحة ، فجمع اليه الزعماء والتأم عقدهم فى خيمته ، وكان من بين الحاضرين البطرك ورئيس الأساقفة بصور وسواهما من كبار رجال الكنيسة ، فوضع الملك أمامهم الصـــليب الحى وسألهم عما ينبغى عليه عمله فى

الموقف الذى تبدل الحظ فيه هذا التبدل العجيب ، فراحوا يتناقشون والخوف الشديد من الرب يسيطر عليهم ، وتشعبت الآراء فيما بينهم ، وانقسموا الى طائفتين ، فأما احداهما فقد ساور الشك رجالها فى كفاءة قواتهم وقدراتهم على الاستحواذ على المدينة ، وقالوا انهم بددوا وقتا طويلا لم يجنوا منه سوى هلاك العديد من عسكرهم ووقوع الكثيرين من زعمائهم ما بين قتيل وأسير ، كما نضبت مواردهم عن آخرها أمام مدينة حصينة لا تقتحم ، الى جانب ما توفر عند الأهالى من كل شىء يحتاجونه وتجدد قواتهم على الدوام ، على حين بدأت قواتنا فى التناقص ، وأن الرأى الذى ينصحوننا به هو أن نرجع ٠

أما الطائفة الأخرى ـ وكانت أرزن تفكيرا ـ فقد أشارت بوجوب الاستمرار فيما هم فيه ، وأن الأمل معقود برحمة الرب الذى عودهم ألا يتخلى عمن توكلوا عليه ووثقوا به ، وأنه لا يخذل من تحملوا العذاب الطويل من أجله صابرين محتسبين ، وقالوا انه لا جدوى من محاولة تبدأ بداية طيبة مالم تنته الى مثل هذه البداية، كما قالوا : لقد كان حقا أنهم بذلوا وقتا كبيرا ومالا طائلا أملا منهم فى مكافأة أجل مما بذلوا ، وهى مكافأة لابد أن يجازيهم الله بها ولا يحرمهم منها وان تخيلوا أنها تأخرت طويلا ٠ كما أنه لا مشاحة فى سقوط الكثيرين من رجالهم ، ولكن الأمل لايزال باقيا رغم ذلك كله ، وهو أمل يمنيهم ببعث آخر باهر وفاء بما وعد الرب به الصادقين(١٤) اذ قال : « سيتحول حزنكم الى فرح » وقوله أيضا(١٥) « اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا » ، ولما كان العقل فيما قالوه فقد نهوا أصحابهم عن الارتداد وجاهدوا لحمل الصليبيين على أن يثابروا مثابرة أولى العزم فى التمسك بانجاز مهمتهم هذه ٠

ولقد أيد أغلب الأمراء المدنيين رأى الفريق الأول ، كما أظهر الملك ميله اليه ضجرا مما جرت به المقادير من أمور أزعجتهم ،

أما البطرك ورئيس الأساقفة بصور وجميع رجال الكهنوت وكذلك « ريموند » كبير الاسبتارية واخوانه فقد أيدوا الفريق الآخر فى رأيه المعارض لرأى الأولين ٠

وهكذا انقسم المجتمعون على أنفسهم وراح كل واحد يبدى من الرأى ما يناقض رأى الآخر ، ولكن رحمة الله التى كانت معهم على الدوام جعلتهم يأخذون برأى البطرك لجدواه ، ولأنه يعدهم بمجد أبهى ، لذلك صمموا أن يعودوا مرة أخرى الى الرب الذى طلبوا منه العون والتأييد كى يستمروا فى مهمتهم التى اعتزموها حتى يمنحهم النصر ويتحنن رب القدرة على جهودهم ٠

* * *

وهكذا قام الجميع مدفوعين بهدف واحد وامتشقوا أسلحتهم وعادوا الى ما كان بين أيديهم ، وأمروا بدق الطبول لاعطاء الاشارة، وسرعان ما استدعى صوت المنادى المجلجل الشـــعب بأكمله الى المعركة ، فجاءوا وكلهم رغبة ملحة للثأر لاخوانهم المقتـــولين ، واجتمعوا أمام المدينة يتفجرون حماسة غير عادية وتحدوا العدو فى عنف للقتال ، ولو رحنا ننظر الى عسكرنا لبدوا وكأنهم لم يفقدوا أحدا منهم ، أو كأن امدادات جديدة ترادفت عليهم ٠

واجتاحهم غضب مجنون ألح عليهم أن يستأصلوا شأفة العدو فكروا عليه كرة ضارية أذهلته كل الذهـــول حتى لقـــد وقـــف ساكنا لا يستطيع حراكا أمام قوتنا الطاغية وتصميمنا الجازم ٠ ورغم أنه قام بمجهودات كبيرة ليقابل العنف بالعنف ، الا أنه فشل فى مسعاه هذا لعجزه عن الصمود أمام هجمات عسكرنا ولم يتمكن من تجنب سيوفهم ، وشبت المعركة فى ذلك اليوم بين فريقين غير متكافئين ، ومع ذلك فقد حاز الفرسان والمشاة شرف الغلبة فى كل مكان وانتصروا على العدو فى كل موضع التحموا فيه به ٠

وهكذا أستحر القتل فى الأعداء ، ورد الصليبيون الهزيمة التى حاقت بهم منذ ثلاثة أيام بأفدح منها ، ولم يخل بيت ما من البيوت لم يمسس أهله قرح ، وضربت الفوضى بأجرانها على المدينة ، على أن البلايا التى كانت قد نزلت بالناس لم تكن شيئا مذكورا ان هى قيست بالخطر الجاثم الآن ، ولم يحدث قط فى أى وقت من الأوقات ـ منذ أن بدأ الحصار حتى يومهم هذا ـ أن أصيبوا بمثل هذه النكبات التى أخذت فى التساقط عليهم ، ولم يسبق لهم أن منوا بخسائر كالتى لحقتهم الساعة ، ذلك أنه منذ هلاك زهرة شباب مملكتهم ومصرع حكام المدينة لم يعد هناك من أحد يسترشدون به ، ففترت همتهم وتلاشى كل أمل لهم فى الصمود •

لذلك اتفقوا جميعا على ارسال رهط اختاروه من قادتهم الكبار ليكونوا سفراءهم الى الملك يسألونه هدنة مؤقتة لتبادل القتلى ، وحتى تتوفر لكل جانب فرصة القيام بأداء الطقوس الجنائزية الأخيرة لقتلاه حسب شعائره •

ولقى الطلب استحسان الصليبيين ، فتبودلت جثث القتلى ، ودفنت فى احتفالات جنائزية عظيمة •

(٢٩)

حينما رأى أهل عسقلان الدليل البين على هلاك جيشهم ، وعرفوا ضخامة القوة التى وجهها الله ضدهم تجـــدد الحزن فى قلوبهم التى عصرها الألم ، وولت عنهم شجاعتهم لضخامة النكبة التى حاقت بهم ، يضاف الى ذلك مصيبة أصيبوا بها فى يومهم هذا ضاعفت من تعاستهم وزادت شقوتهم حين كان أربعون رجلا من عسكرهم الأشاوس يسحبون كتلة ضخمة الى موضع يقصدونه فاذا بصخرة هائلة تسقط عليهم فتسحقهم وما يسحبون •

فى غمرة هذه الأحداث المفجعة تقدم كبار المدينة بقلوب منكسرة يدعون الناس للاجتماع بهم فاجتمعوا فى وســـط يملؤه النحيب والدموع الهتانة ، وكان فى المجتمعين نسوة يحملن أطفالهن الرضع على صدروهن ، وشيوخ عجزة وهن العظم منهم ويكادون أن يسلموا الروح ، فقام فى جموعهم وبرضائهم نفر من وجوه رجالهم كانوا أهل فطنة وبلاغة فخاطبوهم قائلين لهم :

« يا أهل عسقلان ، يامن تقيمون خلف هذه الأبواب ، إنكم لتعرفون ، وما من أحد أدرى منكم كيف أنا أقمنا على مدى خمسين عاما نثيرها حربا شعواء ضد هذا الشعب الصليبى المخيف ، المصر على موقفه ، وانكم لتعرفون تمام المعرفة بفضل تجربتكم العملية أنهم كثيرا ما قتلوا ساداتنا فى ساحة الحرب فحل الأبناء منا محل الآباء فلاقوا مثل الذى لاقاه أسلافهم ، ولقد كان يشد من عزمنا الأمل فى الحفاظ على هذه الأرض التى خرجنا منها ودرجنا على أديمها ، وكذلك الأمل فى الدفاع عن حريمنا وصغارنا ، وعما هو أعظم من ذلك كله ألا وهو حريتنا ... ان كل ذلك كان ولايزال يشد من عزائمنا »

« ولقد ظل هذا الصراع موصولا على مدى أربع وأربعين سنة ، أى منذ اللحظة التى وفد فيها هؤلاء الأقوام الذين هم مصدر شقاء لنا ، والذين وفدوا علينا من أقصى ربوع الغرب ، واســـتحملوا العنف والقوة فى السيطرة على البلاد من « طرسوس » بكيليكية حتى مصر . لم يشذ عن ذلك سوى هذه المدينة (عسقلان) التى استطاعت بفضل جهود أسلافنا البطولية أن تظل حتى اليوم سليمة ومستقلة بين أعداء ألداء كهؤلاء الأعداء » .

« ومع ذلك فان الأخطار التى كابدناها حتى اليوم تبدو طفيفة ان لم تكن شيئا مذكورا ان هى قيست بالأخطار التى تهددنا اليوم ، وليس فينا حتى الآن الا من هو مصر على المقاومة ، ولكن هاهو ذا الجيش قد هلك ، والمؤونة قد نفدت ، وأصبح عبء الشـــدائد ثقيل الوطأة ثقلا لا يطاق احتماله · كل ذلك وجيش الخصم دائم التربص لنا ، متحفز باستمرار للوثوب علينا ، كما عملت مضايقاتهم التى لا انتهاء لها على وهن قوانا الجثمانية والنفسية على السواء ، وحرمتنا من القدرة على مواجهة النضال ، ومن ثم فقد رأى زعماء عسقلان أن أوفق الأمور ـ ان وافقتم أنتم أيضـــا ـ أن نحـاول التخلص من متاعبنا الحالية ، فهيا بنا نرسل رسلا نيابة عن الشعب كافة الى ذلك الملك القوى الذى يحاصرنا ونحاول أن نحصل منه على شروط مرضية تسمح لنا بالخروج أحرارا بنسائناوأولادناوحواشينا وجوارينا وما ملكت أيدينا ، ازاء موافقتنا على تسليمه المدينة ··· نقول هذا القول والألم يعصر قلوبنا لكى نضع نهاية لهذه الأقدار السوداء » ·

(٣٠)

تلقى الجميع هذه الكلمات بقبول حسن اذ ووفق عليها بصيحات الاستحسان المدوية كما هو الحال فى مثل هذه الظروف ، واختير من بين المجتمعين رجال أهل عقل وفطنة ، وسادة من ذوى المظهر الوقور لينقلوا عنهم الى الملك (بلدوين الثالث) واشرافه الاقتراح الذى صادقوا عليه ،فلما حصل الرسل على عهد أمان يأذن لهم بالتقدم تقدموا عبر البوابة حتى صاروا فى حضرة الملك ·

فلما اجتمع كافة الأمـــراء الصـــليبيين بناء على طلب الرسل عرض عليهم الاقتراح ، وبحثت شروط التسليم بحثا دقيقا ثم طلب من السفراء مغادرة الاجتماع بعض الوقت حتى يناقش الملك

الأمر مع كبار مستشاريه المسئولين ويعمل بما ينصحونه به ، فلم يملك هؤلاء المستشارون أنفســـهم من البكاء فرحا ورفعوا أكفهم ووجوههم الى السماء بالشكر الجزيل لخالقهم اذ أغدق عليهم هذا العطف الجليل الذى لا يستحقونه ·

ثم أعيد استدعاء الرسل فتلقوا الجواب المجمع عليه ألا وهو قبول شروطهم ان هم أخلوا المدينة بأجمعها خـــلال الأيام الثلاثة المقبلة ، فأعلن المبعوثون قبولهم هذا الشرط لكنهم طلبوا تأكيد هذا الاتفاق باليمين فتم قطعها فى خشوع بالغ ، ومد الملك ورهط مختارون من نبلائه أيديهم بنية صـــادقة ونفس مجردة من الشر وأعلنوا موافقتهم على جميع شروط الاتفاق والمحافظة عليها · وحينئذ تسلم الملك الرهائن الذين طلبهم والذين سماهم بالاسم ·

ثم انكفأ الرسل (العسقلانيون) الى ديارهم تغمرهم الفرحة ، وصحبهم طائفة من الفرسان المسيحيين ليرفعوا راية الملك على سارية أعلى برج بالمدينة رمزا لانتصاره ·

أما عسكرنا الذين كانوا يتلهفون لمعرفة ماذا تم فما كادوا يرون البيارق الملكية تخفق من ذروة أعلى برج بالبلد حتى صاحوا صيحة ردد الأفق صداها عاليا ، وتعالى هتافهم بالشـــكر لله ، وترقرقت عيونهم بالدموع ، وبلغ الهتاف عنان الســـماء ، وكان هتافهم : « تبارك رب آبائنا الذى لم يتخل عمن وثقوا به ، وجل اسم جلالته القدوس ، لأننا رأينا اليوم أمورا عجيبة » ·

ومع أن الاتفاق أباح للأهالى ثلاثة أيام متتالية الا أن خوفهم الشديد من مجىء الصليبيين حملهم على انجاز أعمالهم قاطبة فى يومين فقط أصبحوا بعدها على أهبة الرحيل فخرجوا بنســـائهم

وأولادهم وعبيدهم وجواريهم وامائهم وكل متاعهم ، واستجاب الملك لشروط العهد فأمدهم بالمرشدين الذين رافقوهم حتى بلغوا العريش وهى احدى المدن القديمة الواقعة فى الصحراء وارسلوهم فى أمان ٠

* * *

ولما تم الأمر على هذه الصورة نهض الملك والبطرك وفى صحبتهما كل أمراء المملكة وكبار رجال الكنيسة مع كافة رجال الدين والناس قاطبة ، ودخلوا مدينة عسقلان ينشدون التراتيل والأغانى الدينية ، ويحملون أمامهم صليب المسيح الذى وضعوه فى أكبر مساجد الترك بالمدينة ، وهو بناء عظيم الروعة ثم عمدوا فخصصوه لتمجيد الرسول بولص ، ولما فرغوا من اقامة المراسيم الدينية وأدوا صلاة الشكر انسحبوا جميعا الى الأحياء التى خصصت لهم ، وقضوا يوما بهيجا لا يغيب أبدا عن الأذهان ٠

ورتب البطرك كنيسة عسقلان بعد أيام قلائل من دخولهم البلد كما رتب بها عددا معينا من رجال الدين أجرى عليهم الرواتب الثابتة التى عرفت بالمنح ، واختار كاهنا اسمه « ابسالوم » من كنيسة القبر المقدس ليكون أسقفا للبلد على الرغم من شدة احتجاج « جيرالد » أسقف بيت لحم على هذا الاختيار وشجبه اياه ، حتى لقد رفعت القضية من جراء ذلك الى البابا فى رومة الذى خلع الأسقف « ابسالوم » الذى رسمه البطرك ومنح أسقف بيت لحم كنيسة عسقلان بكل ملحقاتها لتكون هى والكنيسة الأخرى حقا لا ينازعه أحد فيهما ٠

* * *

وانصاع الملك الى نصيحة أمه فأخذ يوزع الأملاك والأراضى الموجودة داخل المدينة وخارجها على من يستحقونها بالعدل ، وأقطع

بعضها لآخرين نظير مال قاموا بدفعه ، كما أقطع أخاه الصغير « عمورى » كونت يافا مدينة عسقلان التى كان قد أخذها فى اليوم الثانى عشر من أغسطس سنة ١١٥٣ وهى السنة العاشرة من حكم الملك بلدوين الثالث ٠

* * *

ولقد نزلت كارثة محزنة بأهل عســـقلان المنكوبين وهم فى طريقهم الى مصر حين رحل عنهم الرجال الذين وكل اليهم الملك القيام بحراستهم أثناء خروجهم ، وكلفهم بمنع أى أذى يلحق بهم ٠ اذ ما كاد هؤلاء الرجال يفارقونهم ويعودون فى طريقهم الى القدس حتى هاجمهم تركى اسمه «توكوينوس» Noquanus ، وكان رجلا شديد البأس بفضل كثرة ما لديه من السلاح ، ولكنه كان يسلك فى حياته مسلكا لحمته الشر وسداه الفساد ٠

وكان هذا الرجل قد شاطر القوم متاعبهم ، وحارب معهم جنبا الى جنب زمنا طويلا لقاء أجر ينقدونه اياه ، فلما هموا بالخروج أظهر رغبته فى مرافقتهم فى رحيلهم الى مصر ، فرافقهم ، حتى اذا رأى الحرس (الصليبى) قد غادرهم تخلى عن كل مايفرضـــه الشرف والانسانية ، وهاجمهم بلا رحمة ولا شفقة ، وسلبهم كل ما معهم ، ثم تركهم يهيمون فى العراء والفيافى على وجوههم ٠

هنا ينتهى الكتاب السابع عشر

حواشى الكتاب السابع عشر

(١) اشعيا ٨/٧ ٠

(٢) يلاحظ أن ابن القلانسى الذى كان موجودا حينذاك هناك لم يسمع شيئا عن هذا الحصار ٠

(٣) مزامير ٦٦/٥ ٠

(٤) الضمير هنا عائد على كبار الصليبيين المرتشين ٠

(٥) سفر أيوب ٣٠/٣١ ٠

(٦) لم يستغرق أسر جوسلين فى كتابات ابن القلانسى سوى سطرين قال فيهما « ان عسكر حلب من التركمان ظفروا بابن جوسلين الصـــغير وأصحابه ، وأنه حصل فى قبضة الأسر فى قلعة حلب » ، ثم علق الذيـل على ذلك بقوله « فسر بهذا الفتح كافة الناس » ، ثم أشار بعد ذلك مباشـرة الى ذهاب نور الدين الى « أعزاز » ونزوله عليها ، ومضايقتها ، ومواظبة قتالها الى أن سهل الله تعالى ملكها بالأمان «٠٠٠ ورتب فيها من ثقاته من وثق به ورحل عائدا الى حلب » ٠ وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٥٤٥هـ » ٠ هذا وقد ورد فى وصف « اعزاز » بأنها على غاية من الحصانة والمنعة والرفعة » ــ كمـا أورد Le-Strange : Palestine Under The Moslems, P. 405 ما ذكره عن « اعزاز » كل من ياقوت وابن عبد الحق وأبى الفدا ٠

(٧) المقصود بكلمة « المملكة » فى النص أعلاه امارة الرها . وليس مملكة بيت المقدس أما « الملك » هنا فهو بلدوين الثالث ·

(٨) لم نستطع الاستدلال على المكان الذى يسميه وليم فى المتن JOHA

(٩) يوئيل ١/٤ ·

(١٠) اكتفى وليم فى ذكره لهذه السفن بوصفها بالطويلة ولكنه لم يسمها ، ويلاحظ أن المراكب العربية الطويلة كثيرة فى قائمة أسماء أنواع السفن ، ويمكن الرجوع لمزيد من المعلومات عن هذه السفن وأسمائها المختلفة الى معجم السفن الاسلامية للنخيلى ·

(١١) فيما يتعلق بموت معين الدين أنر نرى ابن القلانسى يذكر فى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٦ ، أنه أمعن فى الأكل فلحقه « انطلاق تمادى به ، وتولد منه المرض المعروف بجوسنطريا ، وعمله فى الكبد وهو مخوف لايكاد يسلم صاحبه » ، وكانت وفاته يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٤٤ هـ ، الموافق لشهر ابريل ، انظر أيضا ·
Gibb : Damascus Chronicle, PP. 294, 295.

(١٢) متى ١٢/٢٥ ·

(١٣) الأمثال ١٦/١٨

(١٤) يوحنا ١٦/٥٠ ·

(١٥) متى ٧/٧ ·

فصول الكتاب الثامن عشر

١ ـ رينو دى شاتيون (أرناط) يتهم البطرك الأنطاكى بما يشينه • البطرك يلجأ الى المملكة • المجاعة الفاحشة تعم البلاد •

٢ ـ انتخاب « هادريان » لكرسى البابوية بعد موت « أناستاسيوس » ، تتويج الامبراطور فردريك فى رومة • اندلاع الكراهية العنيفة بين البابا ووليم ملك صقلية •

٣ ـ الملاحاة بين البطرك والاخوان الاسبتارية حول العشور وحول الاضرار التى ألحقها نظام الفرسان الاسبتارية •

٤ ـ ذكر نشأة الفرسان الاسبتارية وتطورهم •

٥ ـ ذكر استجابة خليفة مصر لالتماس الأمالفيين ، وتخصيص مكان لهم لاقامة كنيسة خاصة بهم •

٦ ـ ذهاب البطرك على رأس معظم أساقفة الشرق الى رومة لزيارة البابا هادريان •

٧ ـ امبراطور القسطنطينية يهاجم « أبوليا » بموافقة البابا ، ووصول البطرك ورهطه الى البلاط البابوى ·

٨ ـ البابا « هادريان » يسرع الى « بنفنتو » كما يسرع اليها البطرك ليشرح له القضية ، لكن الرشاوى والهدايا الجمة تحمل البابا على الوقوف ضد العدالة مما يحمل البطرك على العودة دون تحقيق غرضه ·

٩ ـ وقوع فتنة داخلية فى مصر تؤدى الى هروب السلطان (الوزير ضرغام) فيلقى مصرعه على أيدى الصليبيين ويقع ابنه نصر الدين أسيرا فى أيديهم ·

١٠ ـ استيلاء « أرناط » على جزيرة قبرص عنوة وسلبه سكانها ·

١١ ـ الملك يلقى القبض على طائفة معينة من الترك والعرب فى غابة « بانياس » رغم الاتفاقية التى سبق أن أبرمها معهم ·

١٢ ـ الكونستابل همفرى يقطع الاخوان الاسبتارية نصف مدينة « بانياس » ، ونور الدين يستولى على الامدادات الواصلة اليها ويحاصر المدينة ذاتها ·

١٣ ـ الملك يسرع الى بانياس ويتمكن من رفع الحصار عنها ويتقدم جيشنا فى أثناء رجوعه غير متحرس فيسقط فى كمائن خطيرة ·

١٤ ـ الملك يفر من ساحة القتال ويصل الى قلعة صفد ، والهزيمة تلحق بالجيش ، ويقع معظم قادته فى الأسر ·

١٥ ـ نور الدين يحاصر « بانياس » من غير أن يلقى النجاح لأن الملك يخرج لصده ·

١٦ ـ رسو « تييرى » كونت فلاندرز وارسال السفراء الى القسطنطينية فى طلب زوجة للملك ٠

١٧ ـ الملك يسرع الى أنطاكية بكل عسكر المملكة ويستصحب معه كونت فلاندرز ، ويصاب نور الدين بمرض شديد ٠

١٨ ـ محاصرة شيزر والاستيلاء عليها بالقوة فى فترة وجيزة ٠

١٩ ـ اخو نور الدين يتحرك ضدنا وموت فولشر بطرك القدس وعودة حصن الكهف الواقع فيما وراء الأردن الينا ، ومحاصرة الملك لحصن « حارم » بامارة أنطاكية واستيلاؤه عليه ٠

٢٠ ـ اختيار « أمالريك » بطركا وكان من قبل رئيسا لرجال الدين فى كنيسة القبر المقدس بالقدس فيؤدى انتخابه الى حدوث انشقاق فى صفوف الأساقفة ٠

٢١ ـ نور الدين يحاصر كهفا فى اقليم السواد التابع للصليبيين فيزحف الملك ضده وينجح فى رفع الحصار ويلحق الهزيمة بنور الدين فى محاربته الصليبيين ٠

٢٢ ـ عودة الرسل الذين كانوا قد سافروا الى القسطنطينية بشأن زواج الملك وفى صحبتهم أخت الامبراطور لتزف الى الملك ٠

٢٣ ـ مجىء الامبراطور الى القسطنطينية ٠ ارناط يعتذر له عن أخطائه فى قبرص ٠ الامبراطور يقبل عذره ويعفو عنه ٠

٢٤ ـ الملك يسرع الى امارة أنطاكية ويرحب به الامبراطور ويغدق عليه الهدايا الجمة ٠

٢٥ ـ الامبراطور يدخل أنطاكية ويسخو على أهلها سخاء كبيرا ثم لا يلبث أن يعود الى وطنه ٠

٢٦ ـ حدوث شقاق خطير فى كنيسة رومة عقب موت البابا « هادريان » ٠

٢٧ ـ نور الدين يهاجم بلاد سلطان قونية ويستولى على بعضها بالقوة كما يمضى الملك مخربا أرباض دمشق ٠

٢٨ ـ الترك يأسرون أرناط أمير أنطاكية ويحبسونه فى حلب ٠

٢٩ ـ مجىء أحد كرادلة رومة واسمه « جون » الى الشام كمندوب بابوى فيشب النزاع بين الأساقفة حول استقباله ٠ ولادة ابن لكونت يافا « عمورى » أخى الملك وتسميته باسم عمه بلدوين ٠

٣٠ ـ استدعاء أهل أنطاكية للملك واسراعه الى هناك ووصول مبعوثين امبراطوريين يلتمسون احدى قريبات الملك لتكون زوجة لمولاهم ٠

٣١ ـ الملك يختار العذراء الفاتنة « مليزند » أخت كونت طرابلس لتكون عروسا للامبراطور الذى يقوم بعد سنة فيعلن رفضه للتى اختارها بلدوين ويتزوج من « ماريا » بنت الأمير ريموند ٠

٣٢ ـ الملك يشيد حصنا قرب أنطاكية يسمونه حصن « جسر الحديد » ٠ وفاة أمه الملكة « مليزند » ٠

٣٣ ـ أمير طرابلس يستشيط غيظا لرفض الامبراطور البيزنطى الزواج من أخته ويحاول الاضرار به بأية وسيلة يستطيعها ٠

٣٤ ـ وضع السم للملك وهو فى انطاكية فيمرض مرضه الأخير ويلتمس اعادته الى بلده لكن وعكته تزداد سوءا فى أثناء السفر ويموت فى بيروت ٠

هنا يبدأ الكتاب الثامن عشر

القدس اللاتينية في ذروة قوتها
زمن بلدوين الثالث والتطلع الى مصر

(١)

كان « رينو دى شاتيون » كما قلنا سابقا قد تزوج بأرملة « ريموند » أمير انطاكية ، لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن هذا الزواج لم يقع موقع الرضا والقبول من نفس البطرك الذى ظل مقيما على هذا الرفض مما جعل « أرناط » ينظر بعين الريبة الى كل ما يصدر عن البطرك الذى كان رجلا واسع الثراء ، بالغ السطوة بصور كبيرة ، وكثيرا ما ذهب مذهبا بعيدا فى التعبير عما فى نفسه فى مجالسه الخاصة والعامة تجاه « أرناط » وفعاله ، وكانت هذه الاشارات تصل الى الأمير كما هى العادة بواسطة أشخاص كانوا لا يكفون عن السعى لما يؤدى الى زيادة الكراهية بين الاثنين ، فلا

عجب اذا ما تسعر الغضب وبلغ ذروته فى نفس « أرناط » ضد البطرك ، وحقد عليه حقدا بالغا طاغيا حتى انتهى الأمر بالقائه القبض عليه قبضا زريا مشينا ، واندفع فى حدته اندفاعا وقحا اذ امسكه مسكا مهينا ، وساقه ذليلا الى القلعة المشرفة على أنطاكية ، وزاد فى طغيانه فأرغمه — وهو الشيخ المسن ، وخليفة بطرس كبير الحواريين — على أن يجلس وهو الواهن العظم الذى لا حول له ولا قوة فى حمارة القيظ فى يوم من أيام الصيف القائظة عارى الرأس بعد أن لطخها بالعسل ، فما حركت الرحمة أحدا ما ليقدم له ما يحميه من أشعة الشمس المحرقة أو يهش الذباب عنه ٠

فلما وصلت أنباء هذه المهانة الى سمع ملك بيت المقدس استبدت به الدهشة وتقززت نفسه من هذا المسلك الجنونى الذى سلكه ذلك الأمير الطاغية (ارناط) فأرسل اليه — وهو فزع مما جرى — رسولين موقرين من ناحيته ، هما : « فردريك » أسقف عكا ، و « رالف » المستشار الملكى يحملان رسالة ملكية يلومه فيها (بما له من حق السلطة الملوكية) على مسلكه الشائن ويحذره مغبة ما فعل وينصحه بالاقلاع عن هذه الأساليب الدنيئة ، فلما استمع الأمير الى الرسولين ووقف على كتاب الملك أطلق سراح البطرك بعد أن صب عليه سيلا من الشتائم المقذعة ، وان رد عليه وعلى شعبه جميع ما كان قد اغتصبه منهم ، فغادر البطرك أخيرا أنطاكية وانقلب الى مملكة بيت المقدس حيث تلقاه الملك وأمه الفاضلة لقاء كريما ، وفعل فعلهما بطرك القدس وجميع أساقفة المملكة ، فظل مقيما هنا اقامة امتدت بضع سنوات ٠

* * *

ولما كان العام التالى عمت المجاعة الفظيعة كل الناحية ، فقد غضب الرب علينا غضبا شديدا ادى الى حرماننا من مصدر عيشنا الرئيسى ألا وهو الخبز ، حتى بيعت الوزنة من القمح فى عسقلان بأربع قطع ذهبية ، والحق أنه لولا عثورنا على كميات ضخمة من

الحنطة فى عسقلان بعد وقوعها فى أيدينا لعمت المجاعة الاقليم كله ولأفنت الناس جميعا ، ويرجع السبب(١) فى ذلك الى معاناة الناس ويلات الحرب خمسين عاما ، مما ادى الى أن أصبحت الحقول التى حول عسقلان أرضا قاحلة جرداء ، ولكن حدث فى خلال السنة التالية للاستيلاء على البلد أن صارت الأرض تحظى بعناية الفلاح كما زال كل خوف كان قابعا فى نفوس سكان المنطقة من ناحية العدو، فعادوا أحرارا فى زراعتهم الأرض وفى فلاحتهم اياها ، وتمتعت المملكة كلها منذ ذلك الحين بكميات وفيرة من الانتاج حتى انه ليمكن تسمية السنوات الماضية كلها ـ ان هى قيست بما هو جار الآن ـ بالسنوات العجاف ، فقد انعدمت فيها الفاكهة ، كما حرمت الأرض من المحراث يخرج ما فى بطنها ، وترتب على ذلك أن استجابت الأرض لشدة عناية الفلاح بها وأخرجت ما تدخره وأنتجت من الغلة ضعف ما كانت تغله من قبل ستين مرة

(٢)

خلال هذه الأحداث التى جرت فى بلاد المشرق مات البابا « أناستاسيوس » الرابع فى رومة ، واختير مكانه (سنة ١١٥٤) «هادريان» الرابع الانجليزى المولد ، وهو من أهل قلعة « سـنت ألبانز » ، وكان من قبل رئيس دير رهبان فى كنيسة « سـنت روفوس » قرب مدينة « أفينيون » فى « بروفنس » بأبرشية « آرلس »، وقد استدعاه الطيب الذكر البابا « يوجين » الى كنيسة رومة ونصبه أسقفا لـ « ألبانز » ، وسماه « نيكولا » ثم أرسـله بعد ذلك البابا « أناستاسيوس » خليفة « يوجين » مندوبا عنه فى النروويج التى هى أقصى ولايات الغرب ، فلما عاد من هناك بعد موت هذا البابا تسنى له أن يحضر انتخاب خليفته ، فأجمع رجال الدين والناس قاطبة على اختياره هو بالذات ليكون « البابا » وسمى بهادريان ٠

وحدث فى هذه السنة ذاتها أن قام فردريك ملك التيوتون ــ ولم يكن قد صار بعد امبراطورا ــ بالاغارة على ايطاليا بجيوش كثيفة ، وحاصر « تورتونا » احدى مدن لمبارديا حصارا طال مداه ، حتى اذا استسلم البلد (فى ابريل ١١٥٥) عزم على الشخوص الى رومة ليتوج فيها امبراطورا ٠

كذلك شب فى الوقت ذاته عداء عنيف يرجع الى أسباب متعددة بين البابا « هادريان » الذى كنا نتكلم عنه الآن وبين وليم ملك صقلية ابن روجر الطيب الذكر ، وبلغ النزاع بين الاثنين ذروته ، حتى ان البابا أصدر ضد الملك قرار الحرمان وأعلنها حربا شعواء عليه ٠

غير أن فردريك أصر على عزمه وأسرع فى طريقه الى رومة فبلغها فى أيام قلائل قادما اليها من «المبارديا» فأثار وصوله المباغت الشك فى نفس البابا ورجال الكنيسة الرومانية ، الا أن الأمور استتبت بينهما فى النهاية وتوصلا الى الاتفاق على شروط عادلة بفضل تدخل بعض الوسطاء ، فتم تتويج فردريك فى احتفال رائع بكنيسة القديس بطرس ، ونودى به امبراطورا ، وذلك فى اليوم السادس والعشرين من يونيو ٠

وبعد ثلاثة أيام من هذا التتويج أعنى يوم عيد الرسولين الطاهرين بطرس وبولس وضعت العصابة الامبراطورية على جبين فردريك ، وقام البابا فى مسوحه الكهنوتية البابوية وانضم الى العسكر فى موضع يسمونه « جسر لوكان » قرب مدينة « تيفولى » ، وتابع الاثنان (وعليهما أكاليل الغار) المسيرة وسط فرحة رجال الدين والشعب،فلما انتهى الاحتفال فارق كل واحد منهما الآخر وهما على أتم وفاق ، وأسرع الامبراطور الى « أنكونا » حيث كانت شئون الامبراطورية تستدعى وجوده هناك ، أما البابا فقد تابع سيره الى رومة وان كان قد تريث قليلا فى بعض المدن الجبلية ٠

كان ملك صقلية فى هذه الأثناء قد أصدر أمره الى نبلائه بحصار مدينة « بنفنتو » التى كانت من ممتلكات الكنيسة الرومانية الخاصة ، وأمرهم بتشديد الحصار عليها جهد طاقتهم . فانزعج خاطر البابا من هذا الاجراء أشد الانزعاج ، وأرادا أن يكيل له بنفس الكيل فحاول تأليب نبلائه عليه .

ورافق النجاح جهوده الا أنه استطاع أن يضم اليه « روبرت دى باسافيلا » ابن عمة الملك وأقوى كونتات صقلية ، كما استمال اليه كثيرا من النبلاء ودفعهم للتمرد على مولاهم ، واعدا اياهم بمعونة الكنيسة الرومانية واسدائها المشورة اليهم ، يضاف الى ذلك أن كثيرا من كبار الاشراف الأقوياء (الذين كان وليم وأبوه قد جردوهم من ممتلكاتهم ونفوهم من المملكة ثم عادوا اليها بتوجيه من البابا لهم ليسترجعوا ما اغتصب منهم من أرض كانوا قد ورثوها شرعا ، وكان من بين هؤلاء « روبرت السرنتونى » أمير « كابوا » ، وأندريا كونت « راباكانينا » وغيرهما ، ولقد أكد لهم البابا تأكيدا قاطعا بصفته البابوية أن كنيسة رومة لن تخذلهم أبدا وعلى الرغم من هذا الوعد الا أنه راح يحث كلا من الامبراطور الرومانى وامبراطور القسطنطينية على احتلال مملكة صقلية ، أما حثه لأولهما فكان شفاها ، وأما للثانى فكان عن طريق الرسائل .

(٣)

بينما كانت كنائس ايطاليا تمر بهذه الحالة من عدم الاستقرار وبينما كانت الأمور فى مملكة صقلية تشهد مثل هذه الفوضى كان قسمنا الشرقى لا يخلو هو الآخر من المتاعب ، ففى نفس اللحظة التى تعطفت العناية الالهية فيها على الصليبيين برد مدينة عسقلان اليهم ، وفى الآونة التى كانت المملكة تسير هى الأخرى سيرا مرضيا ، والحبوب متوفرة بكثرة اذا بالشيطان عدو الانسان الكاره لهذا

الهدوء الذى أسبغه الرب علينا يقوم ببذر بذور الشر فنفث فى روح « ريموند » مقدم الاسبتارية ورفاقه فملأها شرا ، اذ أنه على الرغم من أن « ريموند هذا كان رجلا ورعا يخشى الله ، الا أنه قام هو ورفاقه بمضايقة البطرك وغيره من رجال الكنيسة حول موضوع « العشور » وغيرها ، وكان الاسبتارية قد اعتادوا ألا يصدوا عن احتفالاتهم بالعشاء الربانى أى شخص يطرق بابهم أيا كان هذا الشخص ، ولا يفرقون بين واحد والآخر ولا يسألونه من يكون ، وربما كان من طارقى أبوابهم رجال أدانهم أساقفتهم فأصدروا ضدهم قرار الحرمان عقابا لهم على آثام اقترفوها ٠

كذلك رفض هؤلاء الاسبتارية أن يمنعوا من تناول القربان ومن المسح بالزيت نفس هؤلاء الأشخاص عندما يمرضون ، ونددوا بعدم دفنهم ان وافاهم أجلهم ٠

وكان اذا صدر الأمر بفرض الصمت على جميع الكنائس أو على كنائس مدن أو قلاع معينة لما قد يكون قد ارتكب من الجرائم قام الاسبتارية فدقوا أجراسهم ، ونادوا بصوت أعلى من المألوف أولئك المحرومين من رحمة الكنيسة لحضور الخدمات الدينية ، وقد فعلوا ذلك حتى يتمتعوا هم بالذبائح وغيرها من الدخول التى كانت تؤول بالحق للكنائس العظمى ، ونسوا كلمات المبشر(٢) العظيم القائل : « فرحا مع الفرحين ، وبكاء مع الباكين » ٠

يضاف الى ذلك أن الاسبتارية لم يستجيبوا لما تقضى به القوانين القديمة للشرائع المقدسة ، وهى تقديم قسسهم الى أسقف نا حيتهم حتى يحظوا برضاء رؤسائهم فيمنحوهم حق اقامة الشعائر الدينية فى أبرشياتهم ٠

كذلك فانهم كانوا اذا شلحوا قسيسا من أبرشيته ـ ان حقا أو ظلما ـ لم يوافوا الأساقفة بما تم ليكونوا على علم بالأمر ، هذا الى جانب أن هؤلاء الاسبتارية رفضوا رفضا باتا تقديم ما ينبغى عليهم تقديمه من « العشور » التى تحصل عليها كنائسهم الخاصة . أو الدخول التى تؤول اليها بأى وجه من الوجوه .

ولقد تشكى الأساقفة جميعهم من هذه الأمور ، وتعالت شكايات الكنائس الكاتدرائية فى شتى البقاع من الخسائر التى لحقتها من جراء هذا العمل ذاته .

ثم كانت ثالثة الأثافى التى اشمأزت منها نفوس جميع المسيحيين ما أوقعه الاسبتارية ببطرك بيت المقدس وبكنيستها العامة . ذلك أنهم عمدوا فى ازدرائهم البشع لكنيسة القيامة الى تشييد مبنى أمام أبوابها كان أعلى وأغلى ثمنا من هذه الكنيسة التى دشنها دم مخلصنا الغالى الذى رفع على الصليب ، وهى الكنيسة التى ضمت بين جدرانها قبرا له بعد عذابه على الصليب ، وزيادة على ذلك فانه كلما خرج على العادة البطرك المبارك من الموضع الذى رفع فيه مخلص البشر لخلاصنا وافتداء العالم حاول الاسبتارية منعه من أداء مهمته ، تحركهم نواياهم السيئة فيدقون نواقيسهم الهائلة دقا مستمرا فلا يصل صوت البطرك الى أبعد من موضعه فلا يسمع الناس ما يقوله رغم ما يبذله من المحاولات لاسماعهم ، وكثيرا ما اشتكى البطرك للأهالى من سلوك الاسبتارية المثير للسخط ، ولم يكن ذلك خافيا عن أحد ما .

وعلى الرغم من توسل الكثيرين الى الاسبتارية للكف عن ذلك العمل الا أنهم دأبوا على ما هم فيه بصورة لا يرجى معها اصلاح الحال ، بل انهم كثيرا ماهددوا بأنهم سوف يتخذون من الاجراءات

ما هو أشد وأنكى من تلك التى سلفت ، ثم مالبثوا أن نفذوا تهديدهم بما يرضى غرورهم فتطرفوا وأقدموا بروح ملؤها العنف على حمل السلاح واقتحموا كنيسة الرب المحبوبة ودخلوها دخولهم بيت شخص من العامة ، ورموا بالسهام عن أقواسهم كما لو كانوا يهاجمون كمين لصوص ٠

وقد جمعت هذه النبال فيما بعد وحزمت ورأيتها بنفسى كما رآها الكثيرون غيرى مدلاة بحبل أمام جبل الجلجثة حيث موضع الصلب ٠

ان الذين تقصوا هذا الخبر فى دقة وأناة يعتقدون أن الكنيسة الرومانية هى المسئولة قبل غيرها عن هذا الشر المستطير وان لم يكن ذلك عن قصد منها ودون اعتبار كاف لما هو مناط بها ، ذلك لأن الكنيسة هى التى أعفت جماعة الاسبتارية من أن تدين بالتبعية لبطرك بيت المقدس ، وهى تبعية شرعية ، ومن ثم لم يكن عند الاسبتارية خشية من الله أو اهتمام بأى شخص ما لم تكن الجماعة تخافه وتخشى بطشه ٠

اننا نشجب كل شكل من أشكال العجرفة لأننا نعتبرها خطيئة والخطيئة أبغض شىء عند الله ، كما أنها أم جميع الكبائر ، والحق أننا نعتقد أنه من المستحيل فى منظمة ضخمة كهذه المنظمة أن يتبع الجميع نفس النهج دون انحراف فى السلوك ٠

ولكى نشرح فى مؤلفنا التاريخى هذا كيف تطورت هذه الجماعة المؤسسة من جرم صغير تافه الى مؤسسة شديدة البأس ، وكيف أنها طغت ، ولازالت تطغى فى افعالها ضد كنائس الرب فانه ينبغى علينا أن نبدأ القصة من أولها فنرجع الى الوراء قليلا ٠ وسنحاول بعون الرب أن نفعل ذلك دون أن نحيد قيد أنملة عن جادة الحق ٠

(٤)

تقول الأخبار القديمة ان قوة شعب الجزيرة العربية تضخمت زمن الامبراطور الرومانى « هرقل » وصارت خطرا يهدده ، وترتب على خطايانا أن وقعت مملكة بيت المقدس وكل بلاد الشام ومصر وما تاخمهما من الأقطار فى يد أعداء الملة المسيحية والاسم المسيحى وعلى الرغم من أن الأماكن الطاهرة كانت تقع تحت سيطرة الأعداء بين آونة وأخرى الا أنها كانت على الدوام مزارا لطوائف كثيرة من شعوب الغرب ، يقصدونها اما للعبادة أو للعمل أو للاثنين معا ،وكان من بين الذين قدموا من الغرب للمتاجرة طائفة معينة من ايطاليا يعرفون بالأمالفيين ، نسـبة الى مدينتهم (أمالفى) التى قدموا منها ٠

وهذه المدينة واقعة بين البحر والجبال الشاهقة ، كما يوجد على بعد سـبعة أميال منها مدينة « سـالرنو » الرائعة ، والى الغرب منها « سورنتو » و « نابلى » التى هى مدينة « فرجيل » ، كما تقع صقلية جنوبها على بعد مائتى ميل تقريبا عبر البحر التيرانى ٠

وكان الأمالفيون كما يقال أول من حملوا الى الشرق بقصـد الكسب بضائع لم تكن معروفة للشرق ، وقد أدى جلبهم هذه المواد الضرورية التى جاءوا بها الى هنا أن أصبحت لهم امتيازات خاصة بهم منحها لهم رؤساء تلك البلاد ، وأذنوا لهم بالمجىء وقتما يشاؤون، كما انعطف اليهم الأهالى ٠

كان لخليفة مصر فى هذه الأثناء السـيادة على كل المنطقة الساحلية الممتدة من مدينة « جبلة » المطلة على البحر والقريبة من « اللاذقية » فى سورية حتى الاسكندرية التى هى آخر حدود مصر (من الغرب) ، وكان يتولى شئون كل مدينة وال من الولاة يعمل على تثبيت هيبة الخليفة وبثها شرقا وغربا ، ومع ذلك فقد تمتع

الأمالفيون بكامل عطف ملك القدس ونبلائه ، وكان لهم مطلق الحرية فى السفر فى كل أنحاء البلاد كتجار ومتعاملين فى كل ما يحملونه من سلع مفيدة ، ولما كان هؤلاء التجار أوفياء لتقاليد آبائهم وللعمل المسيحى فقد جرت عادتهم على زيارة الأماكن الطاهرة كلما سنحت لهم الفرصة •

ولم يكن لهم نزل خاص بهم فى بيت المقدس ينزلونه ، ويقيمون به بعض الوقت كما كان شأنهم فى المدن الساحلية ، ولما كانت لهم رغبة فى عمل خطة كريمة خامرتهم منذ أمد بعيد فقد حشدوا أكثر من يستطيعون حشده من الأمالفيين أهل مدينتهم وزاروا خليفة مصر واستمالوا اليهم أهل بيته ، ثم رفعوا اليه التماسا مكتوبا ، وكان رده عليهم مشجعا ومتفقا مع رغباتهم •

(٥)

لذلك صدر أمر كتابى الى والى بيت المقدس لتخصيص مساحة كبيرة فيها بالقسم الذى يقطنه المسيحيون استجابة لرجاء الأصدقاء أهل أمالفى الذين يجلبون المواد المهمة ، وأن تخصص هذه المساحة لاقامة مكان لهم يتفق ورغبتهم ، وكانت المدينة مقسمة يومذاك ـ كما هو الحال اليوم ـ الى أربعة أقسام متساوية ، فوقع الاختيار على الربع الذى يوجد به القبر الطاهر ومنح للمسيحيين ليكون موضع خانهم ، أما بقية المدينة فلم يكن يسكنها سوى المسلمين •

وخصص موضع كبير الى حد ما لأهالى « أمالفى » بناء على أوامر الخليفة يكون كافيا للمبنى الذى يلزمهم ، فبادروا الى جمع الهبات المالية من التجار ، وشيدوا أمام باب كنيسة القيامة وعلى رمية حجر منها ديرا تمجيدا لأم السيد المبجلة مريم العذراء ، وألحقت به

مواضع خاصة يستخدمها الرهبان ، وأخرى لاستقبال الضيوف القادمين من مدينتهم أمالفى ٠

ولما فرغوا من تشييده أحضروا من « أمالفى » أحد الديريين وطائفة من الرهبان وأقاموا الدير حسب نظام معين ليكون موضعا لأداء شعائر الدين وممارسة الحياة الطاهرة التى يرضاها المسيح، ولما كان الذين أنشأوا هذا الدير وأعانوه دينيا من اللاتين فقد سمى منذ ذلك الوقت حتى الآن « بدير اللاتين » ٠

وكثيرا ما كان يحدث فى تلك الأيام أن تأتى النساء والأرامل الطاهرات الى بيت المقدس لتقبيل المواضع المكرمة ، ورغم ما طبعن عليه من الحياء الطبيعى الا أنهن كن يواجهن أخطار الطريق التى لا حصر لها دون ما خوف ٠

ولما لم يكن وراء أبواب هذا الدير موضع لايواء هؤلاء الحاجات ايواء يكفل ما ينبغى لهن من التوقير فقد قام نفس الرجال الأتقياء الذين أسسوا دير اللاتين فألحقوا به موضعا ملائما لأولئك النسوة الطاهرات اللائى متى وفدن وجدن المكان الذى ينشدنه للتعبد ، والدار التى يأوين اليها ، وأماكن خاصة بهن على انفراد ، ولذلك أقيم أخيرا دير صغير لهن هناك تمجيدا للخاطئة التائبة مريم المجدلية التقية ، كما نزل به عدد كبير من الأخوات للقيام بخدمة النسوة الحاجات ٠

* * *

كذلك توافدت فى هذه الأثناء الخطيرة جماعات من شعوب أخرى من النبلاء وأهل الطبقة الوسطى على السواء ، ولما لم يكن هناك من طريق للوصول الى المدينة الطاهرة الا عبر البلاد المعادية فقد كان من المعتاد ألا يصل أولئك الحجاج الى بيت المقدس الا وقد فرغت أيديهم

من المال أنفقوه فيما احتاجوا اليه فأصبحوا صفر الأيدى ، وكان يتحتم عليهم حينذاك (وهم حجاج بؤســـاء لا عون لهم وقد وقعوا فريسة الجوع والعطش) أقول أصبح يتحتم عليهم أن يظلوا واقفين أمام أبواب المدينة لا يدخلونها حتى يدفع الواحد منهم القطعة المقرر دفعها فان تسنى له دفعها أذن له بالدخول ٠

كان هؤلاء الحجاج بعد الاذن لهم بالدخول وقضائهم مناسك حجهم وزيارة الأماكن الطاهرة واحدا اثر واحد لا يجدون موضعا يستريحون فيه ويقيمون فيه ولو ليوم واحد اللهم الا ما كان يتعطف به عليهم الاخوان المقيمون بهذا الدير ، يفعلون ذلك بروح أخوية ٠

كان جميع سكان بيت المقدس الآخرون خليطا من الشـــرقيين والكفار باستثناء البطرك ورجال الملة والشعب السريانى المنكود ، وكان هؤلاء الأخيرون مثقلين بالتزاماتهم اليومية الكريهة وشـــتى أعمال السخرة والقيام بأحط الخدمات التى تكاد تزهق أنفاسهم ، ويعيشون فى أدنى درك من الفقر والخوف الدائم من الموت ٠

ولما لم يكن هناك من أحد يتعطف بالمأوى على حجاج ملتنا التعساء الذين بلغت الخصاصة بهم غايتها أخذت الرحمة الرجال الطاهرين النازلين بدير اللاتين فاقتطعوا مما يعيشون عليه ما يسمح لهم المكان الذى هم فيه بقعة شيدوا فيها « بيمارستان » لاغاثة أمثال هؤلاء الحجاج يستقبلونهم فيه على كافة طبقاتهم : مرضى كانوا أو أصحاء حتى لا يظلوا مشردين فى الشوارع فتمتد اليهم يد الاغتيال ٠

وبالاضافة الى توفيرهم المأوى لهم فى هذا البيمارستان ، فانهم اتفقوا فيما بينهم على أن يتنازلوا لهم عما يتبقى من طعـــام رهبان وراهبات الديرين فيكون مادة اعاشـــة تفى بحاجات هؤلاء الناس الحجاج اليومية ٠

كذلك شيدوا فى هذا الموضع مذبحا تمجيداً للقديس « جون المنير » الذى كان من أهل قبرص ، وكان رجلا طاهر الذيل ، أهلا بالثناء عليه من كل جانب ، ثم صيرته فضـــائله فيما بعد بطرك الاسكندرية ، وتقوم شهرته أكثر ما تقوم على أعماله المنطوية على الشفقة ، كما أن جميع كنائس القديسين تشهد له بقوة ايمانه وكثرة احسانه ، فنعتته الآباء الطاهرون(٣) « بالأليمون » • أى الرحيم •

لم يكن هناك دخول ولا ممتلكات لهذه المؤسسة الموقرة التى كانت تمد يد الاحسان لأتباعها من الرجال ، ولكن كان يحدث فى كل عام أن يقوم أهالى « أمالفى » سواء من كان منهم بأمالفى نفسها أم من يتاجرون خارجها بجمع المال من بين أنفسهم تبرعا اختياريا ، ثم يرسلوه الى رئيس الخان (أيا كان هذا الرئيس) على أيدى المسافرين الى القدس ، فيصرف من هذا المال على الطعام والمأوى للاخوان والأخوات ، أما ما يبقى بعد ذلك فيصرف فى مساعدة الحجاج المسيحيين الذين يجيئون الى البيمارستان •

وظل هذا النزل على هذه الصورة أعواما طويلة حتى شاءت ارادة الخالق الأعظم أن يطهر من رجس « الأمم » هذه المدينة التى طهرها بدمه ، ثم جاء أخيرا شعب مسيحى بقيادة زعمائه وبرعاية الرب الذى شاء أن تخضع هذه المملكة لهم •

كانت ادارة أمر دير النساء اذ ذاك فى يد امرأة طاهرة الذيل، مخلصة لله قانتة ، اسمها « أجنس » وهى امرأة شريفة رومانية الأصل انحدرت من أسرة كريمة ، قدمت القدس وعاشت بضع سنوات فيه بعد أن عادت هذه المدينة الى حظيرة الايمان المسيحى(٤) •

وكان يعيش فى المارستان رجل يحيا حياة برة اسمه « جيرالد » قد أوقف خدماته منذ أمد طويل وبتوجيه من رئيس الدير ورهبانه لمعاونة الفقراء فى البلد وقت أن كانت السيادة فيه للعدو •

ثم جاء بعد « جيرارد » شخص اسمه « ريموند » الذى نتكلم عنه حالا •

(٦)

من هذه البداية المتواضعة البسيطة نمت أهمية منظمة هؤلاء الاخوان الاسبتارية نموا ملحوظا فكان أول ما أقدموا عليه هو انسلاخهم من تبعيتهم لرئيس الدير ، فلما تضخمت مواردهم المالية تضخما فاحشا قامت الكنيسة الرومانية فحررتهم من سلطان البطرك وفصلتهم عنه ، فلما أصبحوا يتمتعون بهذا القدر الكبير من الحرية لم يعودوا يابهون بابداء أى احترام لرجال الكنيسة ، كما رفضوا رفضا باتا دفع العشور عن أى مقاطعة من مقاطعاتهم دون أن يراعوا الظروف التى آلت فيها هذه المقاطعات اليهم ، ولقد نهج هذا النهج كثير من الأماكن التى تنعت بالطاهرة ، سواء ما كان منها أديرة أو مارستانات ، وانتهى بها الأمر أخيرا الى شجب ولائها بسبب الأموال الكثيرة التى تراكمت فى يديها ، وكانت الكنيسة أصلا قد أقامت كثيرا من هذه الأماكن من الهبات التى جاءتها بسبب الشفقة التى انطبعت عليها ، فأصبحت هذه الأماكن فى حال من الرخاء تحسد عليه ، لكنهم جميعا هجروا أمهم الحنون التى عالتهم فى البداية ورعتهم رعاية أطفال ترضعهم من ثديها حتى اذا تقدم الزمن واشتد عودهم أمدتهم بالطعام الجاف ، ولذلك حق للكنيسة أن تشكو(٥) قائلة : « ربيت بنين ونشأتهم ، أما هم فعصوا على » •

فليسامحهم الرب ، وليتحنن عليهم فيرجعهم الى محجة الحق والصواب حتى يتعلموا كيف يخدمون أمهم التى هجروها •

وعسى أن يكون الرب أكثر تسامحا معهم كما تسامح مع الرجل الذى طمع فى شاة فقير رغم أنه كان عنده مائة شـــاة ـ فقال له السيد(٦) « هل قتلت وورثت أيضا » ·

فيا شقوة مثل هذا الرجل ، لأنه « رجل قاتل » كما وصفه النبى ·

***

لقد كثرت مطالبات البطرك وغيره من كبار رجال الكنيســـة بحقوقهم من هؤلاء الاخوان الاسبتارية ، ولكن سرعان ما ذهبت هذه المطالبات أدراج الرياح ، فلجأ الجانبان أخيرا كما قلنا الى بلاط البابا فى رومة فسافر الى هناك البطرك رغم أنه كان شيخا مسنا قارب المائة من العمر ، واستصحب معه من كبار رجال الكنيســـة بطرس رئيس أساقفة صور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيصـــرية ، وقسطنطين أسقف اللد ، ورينييه أسقف سميساط ، وهربرت أسقف طبرية ·

ما كاد جو الربيع المنعش يطل من جديد على الدنيا وتبدأ حدة الشتاء فى الانكسار بسبب هبوب الرياح الغربية حتى شرعوا فى سفرهم ، وكانت رحلة موفقة باذن الله ، فقد بلغوا بعدها مدينة « أترانتو » الساحلية فى « ابوليا » سالمين من كل سوء ·

(٧)

فى اللحظة التى أرسى فيها البطرك المعظم وأساقفة الشرق فى « ابوليا » أرسل امبراطور القسطنطينية بعض عظماء دولته بناء على اقتراح من البابا بمبلغ كبير من المال لغزو الناحية حربيا ، وقد تم هذا الأمر برضاء كبار رجال أجهزة النواحى ، ولما وصل البطرك وحاشيته الى « برنديزى » ، بعد مغادرتهم « أترانتو » كان رجال

الامبراطور قد فرغوا من استيلائهم على تلك المدينة ، كما استسلم المكان كله وأهله (باستثناء القلعة) التى لازال باقيا بها رهط قليل من المخلصين للملك ، وزيادة على ذلك فان كونت روبرت المذكور آنفا كان قد استولى بالقوة بمن معه على المدينتين الشهيرتين « تارانتو » و « بارى » وعلى كل الاقليم الساحلى حتى حدود المملكة ، وما كان انضمام الذين انضموا اليه فى هذا الاستيلاء الا بدافع الكراهية منهم للملك أكثر من تعلقهم بشخصه .

واستولى « روبرت » أمير « كابوا » وكونت « أندرياس » وهما من الرجال العظام البارزين على كافة منطقة « كامبانيا » المعروفة بأرض العمل ، وهى التى تمتد حتى « سالرنو » ونابلى وسان جرمانو ، وكانت الفوضى وعدم الاستقرار يعمان فى الواقع كل هذا الاقليم ، ولم يعد أحد من الراغبين فى السير فى تلك الناحية يواجد فى سيره الأمان ولا السلامة .

***

كان فردريك امبراطور الرومان لايزال فى نواحى « أنكونا » بكتائبه ، وان كانت القوات التى اصطحبها معه داخل ايطاليا قد منيت بخسائر فادحة ، فقد هلك معظم كبار أمرائه هلاكا لم يبق معه من جيشه سوى واحد من كل عشرة ، فألح عليه من معه ممن ظلوا على قيد الحياة بالعودة الى ديارهم ، فلما رأى الامبراطور نفسه عاجزا عن استبقائهم أخذ هو الآخر يستعد للرجوع ، وكان فى عمله هذا مغلوبا على ارادته ، لأنه لكان عازفا عن العودة اذ لازال باقيا كثير من الأعمال التى تستلزم وجوده ، وكان من أخطرها جميعا حملته على صقلية .

لذلك أخذ البطرك والمسافرون معه يتدبرون تدبرا عميقا أى الطرق يسلكونها فى هذا البلد المضطرب حتى يصلوا الى البابا ،

آمنين على أنفســــهم ، ســــالمين فى ذاتهم ، اذ كانت الحــــروب والاضطرابات الناشبة فى كل مكان تكاد أن تقطع كل سبيل للوصول اليه ، على أن أقصرها هو الذى كان يمر بمدينة « بنفنتو » ، التى كانت تعانى من حصار « أرسكويناس » مستشار ملك صقلية ، لذلك أرسل البطرك اليه رسلا يسألونه أن يزودهم بطائفة من الحرس ، بيد أن المستشار رفض رفضا باتا أن يسمح لهذه الجماعة بالمرور فى ذلك الاقليم ، واضطر البطرك « فولشر » فى النهاية أن ينزل على نصيحة أهل الحجا بأن يسلك الطريق الساحلى فسلكه ، فأفضى السير فيه به وبمن معه الى الوصول الى « أنكونا » التى أرسل منها بعض أساقفته الى امبراطور الرومان (فردريك) الذى علمنا انه كان موشكا على الرحيل الى بلده ،وكان هؤلاء الأساقفة يحملون اليه تحيات البطرك ويسألونه على لســــانه أن يزودهم برســــائل امبراطورية الى البابا تتعلق بسفارته ، ونجح الرسل فيما كلفوا به على الرغم من أن الامبراطور فى تعجله العودة الى وطنه كان قد جاوز ما وراء مدينتى « سينيجاليا » و « بيسارو » ٠

يمم البطرك وحاشيته بعدئذ وجهه نحو رومة فى ملاحقة منه للبابا الذى كان قد غادر مدينة « نارنى » مما حمل البطرك ومن معه على البقاء بضعة أيام ، فلما جاءه الخبر بتوقف البابا فى «فيرينتينو» أسرع الى هناك مؤملا انجاز الموضوع الذى جاء الى ايطاليا من أجله ٠

وقال البعض ان البابا تعمد عن قصد مقابلة البطرك حتى يرهقه من أمره نصبا ، ويزيد من تكاليف نفقته ، وأكد هذا البعض أن الاسبتارية كانوا قد زاروا البابا قبل ذلك بزمن طويل ، ورشــــوه بالهدايا الكثيرة حتى استمالوه الى جانبهم استمالة كبيرة ٠

وقال غير هؤلاء وهؤلاء ان البابا أغذ الخطى فى سفره الى « بنفنتو » التى كانت تعانى الحصار ، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن البابا وكل رجال بلاطه كانوا قد استقبلوا الاسبتارية استقبالا اتسم بالود العميق ، على حين ان البابا ورجاله ردوا البطرك ومن معه ردا شنيعا ملؤه الغضب منهم والازدراء بهم كما لو كانوا أبناء غير شرعيين لا يستحقون الالتفات ٠

(٨)

ما كاد البطرك يصل الى « فيرينتينو » حتى بادر للمثول بين يدى البابا حسبما يقتضى العرف ، لكنه لم يجد منه ترحيبا كبيرا ، بل كانت المعاملة التى عومل بها أسوأ ما تكون ، فقد عارضه الكرادلة فى معظم الحالات ، وأدرك هو من جو استقباله عند وصوله بما يكشف النقاب عما سيكون عليه اتجــاه البابا نحوه ، لكنه استطاع بفضل ارادته الصلبة ونزوله على رأى مستشاريه أن يخفى شعوره ، فكان يحضر على الدوام فى خدمة البابا ويثابر (وحوله من معه من الأساقفة الموقرين) على حضور الاحتفالات الدينية ، هذا الى جانب أنه كان هناك على الدوام نفر من المحامين المستعدين لبذل جهودهم ومساعيهم كلما دعت الحاجة الى هذا البذل ٠

وأخيرا صدر الاذن بعقد جلسة لاســتماع ما يقوله كل من الطرفين ، وظل الجدل موصولا بضعة أيام دون أن يسفر عن الوصول الى نتيجة ما ، ثم أدرك البطرك فى النهاية أن قضيته خاسرة ، فقد أفهمه ذلك بعض أصدقائه الخلص ، لذلك استأذن فى الرجوع وشرع فى رحلة العودة فى جو من التوتر والخوف ، ورأى أن قد أسىء الى مركزه فتدهور بدلا من أن يتحسن ، اذ لم يكن بين هذا الجيش الكبير من الكرادلة سوى اثنين أو ثلاثة فقط ممن يقتفون خطى المسيح هم

الراغبون بحق فى مساعدة خادم الرب هذا فى تلك القضية ، وكان من بينهم « أوكتافيوس » و « يوحنا » كرديتال « سنت مارتن » الذى كان أحد رؤساء شمامسة البطرك يوم كان البطرك رئيسا لأساقفة صور ، أما من سوى هذين الرجلين فقد أضلتهم الهدايا وحادت بهم عن الطريق السوى فاتبعوا(٧) طريق بلعـــام بن بعــور ، غير أن مشاغل البابا الداخلية اضـــطرته الى عبور « كمبانيا » والرحيل الى « بنفنتو » .

***

وفد فى هذا الوقت على وليم ملك صقلية كثير من الرســل يخبرونه بالاضطرابات الواقعة فى شمال ايطاليا مثل قيام كل من روبرت « كونت باسافيلا » بمعاونة اليونان للاستيلاء على «أبوليا» بقوة السلاح ، وقيام أمير «كابوا» وكونت « أندرياس » بمد سلطانهما فى كمبانيا » طولا وعرضا ، ثم ذهاب البابا الى « بنفنتو » ليمدها بالعسكر ، وتشجيعه جميع الحكام الذين ذكرناهم حالا مما أدى الى قيام وليم (ملك صقلية) بحشد الجند من شتى النواحى بصقلية وقلهورية والزحف فى « أبوليا » على رأس قوة كبيرة جدا ، فبادر كونت روبرت الى الفرار فى لحظته ، واستطاع وليم فى أول معركة له خاضها ضد القوات البيزنطية أن ينزل بها الهزيمة النكراء قرب « برنديزى » ، وأن يأســـر قوادها ويكبلهم بالحديد ، وهـــكذا استطاع بقوة السلاح ومحالفة الحظ له أن يملأ خزائنه بالأموال الكثيرة التى جاء بها الاغريق معهم ، ولما تم استرداد كافة الاقليم الذى كان قد تمرد عليه ورد الناس الى الطاعة مضى فحاصـــر « بنفنتو » حصارا انطوى على الخطر الكبير على البابا وكرادلته بل وعلى المدينة ذاتها ، لأن المؤونة أخذت فى التناقص ، وأصبح الناس كلهم فى جزع شامل على سلامتهم ، الا أن رسل الوفاق المترددين بين الطرفين نجحوا أخيرا فى عقد السلام بين البابا ووليم الملك بشروط ظلت طى الكتمان ، ولم يشمل هذا الوفاق جميع الذين استجابوا من

قبل لغواية البابا لهم فكان نصيبهم المتاعب الجمة والأهوال الجسيمة والتعرض للمهالك ٠

ولما رأى النبلاء أن الأمور جرت عكس ما كانوا يتوقعون ، وأن البابا عقد صلحا منفردا فيه سلامته هو نفسه وسلامة كنيسة روما دون أن يأخذ ضمانات لهم من الملك فقد أدركوا فداحة البلوى التى حاقت بهم ، ولذلك راحوا يفتشون عن طريق يستطيعون من خلاله أن يغادروا المملكة سالمين فى أنفسهم وأرواحهم ٠ لذلك أسرع « روبرت » و « أندرياس » ورهط من النبلاء الى لمبارديا ، ومثلوا بين يدى الامبراطور ، أما أمير « كابوا » فكان أسوأ الجميع حظا فقد أسره من كانوا يحملونه أثناء تأهبه لعبور نهر « جساريليانو » فى أحد القوارب ، وكان قد أرسل أمامه جماعته ووقف هو فى رهط قليل من فرسانه فى انتظار العبور الى الضفة الأخرى من النهر ، فاذا به يجد نفسه مقبوضا عليه وسلموه الى رعايا الملك (وليم) الأوفياء الذين حملوه الى صقلية وبالغوا فى القسوة عليه فسملوا عينيه وألقوا به فى الحبس فظل به حتى حانت منيته ٠ فختمت حياته التعسة ٠

(٩)

كانت مملكة بيت المقدس فى هذه الآونة تنعم برحمة الله ، فقد عمها قدر كبير من الرخاء عكس البلاد المتاخمة لها من كل جانب التى كانت نهبا للاضطرابات الكبيرة بسبب الأحداث الجارية فيها ، فقد اغتيل بمصر خليفتها وحاكم البلاد الذى اعتاد المصريون أن ينزلوه منزلة القداسة ، وكانوا يعتبرونه نائب الله فى الأرض ٠ وكان اغتياله بيد أحد المصريين الأقوياء وكان يشغل منصب الوزارة وله التصرف المطلق فى شئون مولاه الخاصة من غير أن يستأذنه فلم يكن بينهما حجاب ، وقد وثب عليه واغتاله ثم فر ناجيا بنفسه ٠

ويقال انه ارتكب جريمته هذه ليرفع ابنه نصر الدين الى منصب الخلافة فيستطيع فى ظل ولاية هذا الابن أن يستمر فى الهيمنة على شئون البلاد لا يسأله أحد ماذا يفعل ، وكان ظنه أن ستظل جريمته هذه خافية بضعة أيام يتمكن خلالها من السيطرة على معظم القصر ويستحوذ على الخزائن بأجمعها ، وكان يتوقع - ان تم له ذلك - أن يتمكن بالاعتماد على معاونة بعض أتباعه وشركائه الذين جمعهم حوله أن يقاوم من يحاولون قتله جزاء جرمه ، لكن الأمور جرت على غير ما يظن ويشتهى اذ مالبث نبأ جريرته أن ذاع وشاع ، واجتمع جمهور غفير من كبار الناس وصغارهم للوقوف ضده فأحدقوا بالدار التى هرب اليها بعد ارتكابه جريمته ، وطالبوا - دون أن يشذ عنهم أحد - بالسفاك القاتل الذى اغتال سيد البلاد لينزلوا به العقاب على ماجنت يداه ، واستمرت هذه التهديدات حتى رأى ألا سبيل لدفعها الا أن يأمر بنثر الذهب والجواهر وما معه من غال وثمين من النافذة على الرعاع الثائرين ، مؤملا من وراء ذلك أن يفسح لنفسه طريقا للنجاة أثناء انشغالهم بالتقاط تلك الغنائم ٠

فهل ثم مزيد من القول بعد هذا ؟

أجل ٠٠ لقد استطاع رغم حصار الرعاع له أن يفر من المدينة ويخرج منها فى كوكبة من الحرس الكثير من أبنائه وأبناء اخوته ، وأن ييمم وجهه شطر الصحراء متجها الى دمشق كما قيل ، ولكن المنتقمون لم يكفوا عن مطاردته ، باذلين المحاولات العنيفة لمنعه من الهروب ، غير أن أكبر أولاده وبعض أتباعه ورجالا شجعانا فطنين استطاعوا أن يمنعوا خصومه من أخذه ، وباعدوا بينه وبينهم ، وتحملوا هم هجماتهم ٠

كان أنصاره على درجة عالية من الدهاء فكانوا يلقون من وقت الى آخر بجرار ملأى بالذهب وبالثياب الغالية والمنسوجات الحريرية

الثمينة ليغروا بها من يقتفون أثره فيتوقفون ليجمعوا هذه الأشياء فيتقاتلون فيما بينهم للاستحواذ عليها فلما تبين المصريون في النهاية عدم جدوى مطاردتهم هذا الوزير عادوا من حيث جاءوا فاشلين،أما هذا الوزير فتابع سيره؛ اعتقادا منه بأنه صار في مأمن من كل خطر يهدده ، لكنه كان واهما فيما اعتقد ، اذ ما كاد ينجو من هؤلاء حتى كان هناك خطر أفدح منه يترصده ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، اذ ما كاد ينمى الى علم الصليبيين خبر اقترابه حتى نصبوا له كمينا فيه أذاه باعتباره عدوا لهم واستخفوا يترقبونه،فسقط الوزير على غير توقع منه فيما دبر له ، وأصيب في أول اصطدام بهم بجروح قاتلة ، فقد أصابته ضربة سيف أودت بحياته،وكان هذا الوزير المصرى يسمى بعباس ، وقد وقع في أيدى الصليبيين ابنه « نصر » وجميع أهل بيته وما معهم من الأموال الطائلة التي خرجوا بها من مصر ، فكان ذلك غنيمة تقاسموها فيما بينهم ·

وهكذا عاد رجالنا الى ديارهم محملين بأغلى الأسلاب ، وناءت كواهلهم بما حملوا من أشياء لم تعرفها بلادنا ·

* * *

كان ممن ساهموا في هذه العملية أيضا كثير من فرسان الداوية الذين أدت كثرتهم الى استيلائهم على القسم الأكبر من الغنيمة بما في ذلك العبيد ، فلما جاءوا الى تقسيم الأسلاب وتوزيع الغنائم كان من نصيب الداوية فيما آل اليهم عن طريق القرعة « نصر بن عباس » ، وكان رجلا مقداما ، بارعا في الأمور القتالية على غير ما هو جار بين المصريين ، حتى لقد كان اسمه وحده ، كافيا لبث الرهبة في نفوس أهل البلاد ، وكانت قلوبهم ترتجف لمرآه ويتملكها فزع ما بعده فزع · وقد ظل الداوية محتفظين بهذا الرجل أسيرا عندهم زمنا طويلا ثم أظهر الرغبة القوية في التنصر وتعلم اللاتينية والوقوف على أصول الايمان المسيحى ، ثم باعه الداوية بستين الف قطعة ذهبية

الى المصريين الذين ألحوا فى المطالبة به ليقتلوه عقابا له على ما كان منه ، فكبلوا قدميه ويديه بقيود حديدية ثقيلة ، ووضعوه فى داخل قفص من الحديد وحملوه على جمل الى مصر ، فمزقه أهلها اربا بأسنانهم اطفاء لغضبهم الوحشى ٠

(١٠)

وفى خلال العام التالى استجاب « رينو دى شاتيون » أمير أنطاكية لمشورة أهل السوء الذين كان تأثيرهم عليه شديدا ، فقام ثانية بعمل مزر اذ أرسل كتائبه مهاجما جزيرة قبرص القريبة منه واستولى عليها بالقوة والسلاح ، وهى الجزيرة التى كانت على الدوام ذات جدوى للمملكة وصديقة لها ، كما كان يسكنها جمع كبير من المسيحيين ، ويبدو أن الدوافع التى حملته على ذلك الغزو المشين تتلخص فيما يلى :

ذلك أنه كان يقيم فى بلاد « كيليكية » قرب طرسوس واحد من كبار الأرمن المرهوبى الجانب اسمه « توروس » الذى كثيرا ما أدت أعماله المستنكرة وفعاله الغادرة الى سخط الامبراطور (البيزنطى) وغضبه عليه ، فلطالما أغار على سهل « كيليكية » وعاد محمـــلا بالغنائم والأسلاب اعتمادا منه على بعد بلاده عن بلاد الامبراطورية بعدا كبيرا واقامته فى الجبال الشاهقة الارتفاع مما يجعل الوصول اليه أمرا عسيرا لذلك لم يكن يتحرج عن تصيد أية وسيلة للاغارة على أرض الامبراطور وانزال الأهوال الفادحة برعايا الامبراطورية المخلصين دون ما ذنب جنوه ودون أن يراعى هو من جانبه فى ذلك الا ولا ذمة ٠

فلما سمع الامبراطور بهذا الوضع ووقف على فعال « توروس » كتب الى « أرناط » ليرسل الى هناك فرسانه ويدفع « توروس » عن

أراضى الامبراطورية حتى تصبح الممتلكات الامبراطورية فى «كيليكية» بنجوة من أمثال هذه التعديات العدوانية ، وأخبره الامبراطور انه اذا احتاج الى المال لتنفيذ ما كلفه به فسوف يبعث اليه بالقدر الكافى منه من خزانته الخاصة •

واستجاب « أرناط » فى لحظته للأمر الامبراطورى فاستدعى قوة كبيرة من الفرسان وخرج بهم الى « كيليكية » وهاجم « توروس » وكسره ، وأجهز تماما على جيشه ، لكن خيل اليه أن المكافأة العظيمة التى كان يتطلع اليها جزاء قيامه بالعمل المجيد الذى أداه قد أبطأت فى الوصول اليه ، فلم يطق صبرا على انتظارها ، وارتكب الجرم الذى أشرنا اليه آنفا •

نبه المخلصون للقبارصة القبارصة الى الخطر القادم عليهم فشرعوا فى حشد كل قوات جزيرتهم ، ولكن الأمير « أرناط » كان أسرع منهم فزحف فى الحال وهزم عسكرهم ومزقهم شر ممزق حتى لا يجرؤ أحد بعد ذلك على رفع يده ضده ، ثم اكتسح الجزيرة كلها فلم يلق أى مقاومة ، فعاث تدميرا فى كل المدن والحصون التى صادفها ، واقتحم أديرة الرهبان والراهبات على السواء ، واغتصب الراهبات والعذارى الصغيرات اغتصابا مخجلا ، ومع أن الثياب والذهب والفضة التى سلبها وحملها معه كانت كبيرة جدا الا أنها لم تكن شيئا يقاس الى الشراسة التى أوقعها بالفضيلة •

وظلت قواته تواصل نهب الجزيرة كلها أياما عدة ، ولما لم تجد أحدا يصدها أو يتصدى لها فقد تخلت عن الرحمة ولم تراع سنا ولا جنسا ، ثم انطلق عسكره يحملون كميات ضخمة من الأموال والغنائم من كل نوع ، وعادوا الى الساحل ، وركبوا السفن مبحرين

الى أنطاكية ، لكن مالبث كل الذى أصابوه بالخبث ان نهب عن آخره وصدق فيه المثل القائل « لا ينفع المال الحرام » ٠

(١١)

فى هذه الأثناء تجمع فى احدى الغابات القريبة من « بانياس » طائفة كبيرة من العرب والتركمان فى أعداد كبيرة كانت فى كثرتها أكبر مما سبق جمعه من قبل ٠

وكان التركمان كالعرب قد اعتادوا العيش فى الخيام والاعتماد على اللبن فى حياتهم ، وكانت هذه الغابة تعرف عادة باسم « غابة بانياس » نسبة الى المدينة ، لكن ذلك الوضع كان فى القديم بما فيه من النواحى التى تمتد جنوبا وشمالا والقسم الذى يشمل لبنان ذاته يعرف بغابة لبنان ، وهى التى جاء فى الأخبار ان سليمانا بنى فيها قصرا عظيما عرف بقصر غابة لبنان(٨) ٠

وبعد أن تم للناس الذين أشرنا اليهم الحصول على اذن من الملك بالاقامة هنا وأبرموا اتفاق سلام معه جاءوا بعدد كبير من حيواناتهم لاسيما الخيل وتركوها ترعى فى هذه الغابة لوفرة المراعى الخصيبة بها ٠

على أن طائفة من أولاد ابليس الشريرين الذين لا يخافون الله جاءوا الى الملك ونجحوا بسهولة فى اغرائه على أن يشاركهم خططهم الخبيثة ، اذ أقترحوا عليه (دون مراعاة منه للعهد الذى قطعه على نفسه لهؤلاء البدو) أن يباغتهم فى غفلة منهم بالهجوم عليهم بعد أن يكونوا قد ساقوا الى السرح قطعانهم ومواشيهم لترعى، فيأخذها الملك غنيمة باردة لرجاله ، ووافقهم الملك على هذه الخطة

بلا تريث لأنه كان مثقلا بالديون ، وكانت عليه التزامات جمة ليس في قدرته الوفاء بها ، ومن ثم كان من السهل الحصول على موافقته على كل ما اقترحوه عليه ، وعلى كل خطة تخفف من الضغط عليه ٠

واستمع الملك الى هؤلاء المشيرين الأوغاد واستجاب الى اقتراحاتهم ، فأضلته مشورتهم واستدعى فرسانه وشن هجمة خاطفة مباغتا بها أولئك الناس فوجدهم غير متأهبين لصد هجومه اذ لم يكن ببالهم قط أى هجوم عليهم ولكنه هاجمهم كما لو كانوا من أشد الأعداء لددا ، ثم أسلمهم بعدئذ الى جشع أتباعه ٠

غير أن بعض هؤلاء المعاهدين البدو استطاعوا بفضل سرعة جيادهم انقاذ أنفسهم ، كما اضطر بعضهم الآخر الى الاستخفاء فى الغابات ، أما البقية الباقية منهم فقد راحوا ما بين قتيـــل جندله السيف ، وأسير يرسف فى فظاظة الرق الوحشى ٠

ويقال انه لم يسبق قط أن وجد فى بلادنا مثل هذا العدد الكبير من الأسرى ، ومثل هذه الكمية الضخمة من الأسلاب ، كما وزع عدد كبير من الجياد بالقرعة فلم يبق فرد (حتى من أدنى القوم مكانة) الا وكان له نصيبه ، ومع ذلك فان هذا العمل لم يكن عملا صالحا ولم يحظ بالثناء من ناحة شعبنا ، لأن رجالنا شجبوا اتفاقا سلميا وأساءوا السيرة مع قوم لم يكونوا موضع ريبة عندنا ، فقد اطمأن رجالهم الى حسن ايمان الملك ووثقوا به ، ولم يكن عندهم وسائل للمقاومة ، ولكن الرب المنتقم الذى يجازى الخطاة بما يستحقون لم يأذن لنا أن ننعم طويلا بثمرة خطيئتنا ، والحق أنه سرعان ما أظهر فى جلاء أنه ينبغى الحفاظ على العهد والوفاء به حتى ولو كان مع الكفار ، ولقد عاقبنا الرب على جرمنا فصب انتقامه علينا لســـوء صنيعنا ولخطايانا الكثيرة ، فضاعف عقابنا وأشاع فينا الاضطراب ، كما سيتضح ذلك فى الصفحات التالية ٠

حوالى هذا الوقت ذاته أخذ « همفرى » صـــاحب تورون الكونستابل الملكى يضيق ذرعا بالمسئوليات الجسام التى لا انتهـــاء لها الواقعة على كاهله ، وما يتكبده من النفقات الجمة للحفاظ على مدينة « بانياس » التى ورثها ، ولما لم يعد قادرا على أن يحكمها بالصورة المرجوة وأن يحافظ عليها من غير مساعدة تأتيه فقد عزم على أن يشاركه الاسبتارية الأمر فيها مناصفة بينهما ، ووافقه الملك على عزمه هذا ، وكانت الشروط التى اتفق عليها تنص على أن تكون ملكية المدينة وما يتبعها مناصفة بينه وبين الاخوان الاســبتارية ، فيتكفلون بدفع نصف النفقات اللازمة ، وعليهم مسئولية حكم نصف المدينة •

* * *

وتقع مدينة « بانياس » على تخوم بلاد العدو وهى أقرب ما تكون اليها حتى انه لم يكن أحد بقادر على الاقتراب منها أو مغادرتها من غير أن يتعرض للخطر ، اللهم الا أن يكون فى عصبة قوية ، أو أن يسلك طرقا سرية ، وقد أراد الاخوان(٩) أن يجعلوا هذا القسم الذى آل اليهم من المدينة قادرا تماما على الدفاع عن نفسه ، فجمعوا لذلك أكداسا من الذخيرة والسلاح ، وجهزوا فرقة من العسكر ، حتى اذا كان يوم محدد من الأيام أخذوا طريقهم الى « بانياس » فى قافلة كبيرة من الجمال وغيرها من دواب الحمل وعليها الامدادات فى حراسة طائفة من الفرسان الذين كانت عليهم مهمة قيادة الحملة الى المدينة واللجوء الى القوة ان دعت الضرورة الى استعمال القوة ، وكان الغرض من ذلك الخروج هو امداد الموضع بكل ما يلزمه من احتياجاته لمدة طويلة ، فلما أصبحوا على مقربة من « بانياس » كانت أخبارهم قد بلغت مسامع الترك الكفار فطلعوا عليهم (يوم ٢٦ ابريل

١١٥٧) وأخذوهم أخذا شديدا(١٠) بسيوفهم وبددوا قافلة الصليبيين وفتكوا بالكثيرين منهم ، ثم نهبوا ما معهم من متاع ، فهرب من بقى حيا حفاظا على حياته(١١) ٠ أما الذين حالت الهجمة الشرسة بينهم وبين النجاة فقد راحوا ما بين قتيل بالسيف وأسير ، وهكذا وقعت جميع الامدادات (التى كانت قد جمعت لتموين المدينة) فى أيدى الكفار لتستعمل فى غير الغرض الذى أرسلت من أجله ، وخاف الاخوان الاسبتارية بعد هذه النكبة من فداحة الاتفاق الذى أبرموه مع الكونستابل فانسحبوا منه وردوا على « همفرى » بانياس بكل التزاماتها ودخولها ٠

ازدهى هذا النصر « نور الدين » فعزم على اغتنام الفرصة فى الحال فطوق « بانياس » التى أجبرتها النكبة على أن تخر على ركبتيها ، فاستدعى فرسانه وحرك آلاته الحربية اليها ، وباغت المدينة بالظهور فجأة أمامها وطوقها بقواته وبدأت عمليات الحصار ٠ وكان فى احدى ضواحى « بانياس » مجهزة بالسلاح ومزودة بالرجال وبكميات وفيرة من الطعام وان لم تكن تكفى الا فترة قصيرة من الوقت وكانت هذه القلعة ملاذا للأهالى لو سقط البلد ذاته ، ولكن السكان كانوا كبيرى الثقة فى تحصيناتها لاسيما وقد جربوا الكثير من هذه الهجمات من قبل ، لذلك أجمعوا عزمهم على الدفاع عنها لعل النصر يكون من نصيبهم ، غير أن مبالغتهم فى ثقتهم بأنفسهم التى بلغت حد الغرور حملتهم على الا يتخذوا الحيطة ، الكافية فكان الفشل رفيقهم ٠

أما نور الدين فقد هاجمها بآلاته الحربية وراح يرميها بسيل هتان من السهام رميا موصولا غير مقطوع مما لم يسمح للمحاصرين داخلها بلحظة يلتقطون فيها أنفاسهم ، بعد أن لم يعد أمامهم مفر من القتال ليلا ونهارا بلا توقف حتى بلغ الانهاك منهم مبلغه فأغمى

عليهم ، كما لم يبق للدفاع غير شرذمة ضئيلين بسبب مصرع اغلب المدافعين عنها ، واصـــابة غيرهم بالجراح المميتة ، ولولا قيام الكونستابل وابنه الذى ماثله فى شجاعته بمواصلة القتال فى غيرة ملحوظة دفاعا عن أملاكهم الموروثة،فكانا مثلين يشحذان همم الآخرين ويحملانهم على الصمود ، أقول انه لولا هذان الرجلان لما كان ثم شك فى أن يستسلم الأهالى امام قوة عدوهم الطاغية بعد أن أرهقتهم اعماله البطولية ، ولكن حضور ساداتهم منعهم من ذلك ، كما نجحت شجاعة هؤلاء السادة التى لم يتسرب اليها الوهن فى اثارة حميتهم وردت عليهم ما تلاشى من بأسهم وأمدتهم بطاقة جديدة من المقاومة ٠

❊ ❊ ❊

وحدث فى أحد الأيام ــ وقد ضاعف العدو ضـــغطه على المحاصرين بصورة لم تعهد من قبل ــ أن قام الأهالى ففتحوا أبواب المدينة وكروا على خصمهم وهو وراء الأسوار كرة عنيفة ، لكنهم فى كرتهم هذه لم يأخذوا حذرهم حين اقتحموا ساحة القتال ، فقد أثاروا جمعا غفيرا من الأعداء ضدهم ، فاندفع الترك عليهم اندفاعا اعجزهم عن الحفاظ على موضعهم ، فحاولوا مضطرين الانسحاب الى داخل المدينة ، وفاتهم ان يغلقوا البوابة خلفهم لتزاحم جموعهم على الدخول، ومن ثم اختلط العدو بأهل البلد ودخلت اعداد كثيرة من رجاله أدت الى سقوط المدينة قسرا فى يده ، مما ارغم الصليبيين على ركوب مخاطرة جسيمة أودت بحياة الكثيرين منهم ، وأما من سلم فقد ارتد الى القلعة ٠

وترامى الخبر الى بلدوين الثالث فى هذه الأثناء بما تعانيه « بانياس » من كرب عنيف على يد نور الدين ، وأنها موشكة على الوقوع فى يده ، فأسرع ما اسعفته السرعة الى حشد كل من امكن حشده من العسكر ، وعجل بالزحف على « بانياس » ، وصمم على

أحد أمرين : اما أن يرفع الحصار عنها ، أو أن تكون معركة فاصلة بينه وبين نور الدين ٠

(١٣)

ما كاد نور الدين يعلم أن الملك فى طريقه اليه وأنه عازم على ذلك عزما لا رجعة فيه حتى رفع الحصار لأنه كان عازفا عن الاشتباك فى معركة ليست خاتمتها مؤكدة على وجه اليقين ، لكنه دمرها قبل أن يغادرها ، فأشعل النيران فيها بعد استيلائه عليها ، وقد هداه ثاقب فكره وبعد نظره الى عدم الاذن للقوات التى كان قد حشدها بالتفرق ، ثم زاد فاستدعى المزيد منها ، وأكمن كمينا فى الغـــابة المجاورة فى انتظار ما تسفر عنه الأحداث ٠

لقد كان وصول الملك (بلدوين الثالث) الى « بانياس » غوثا للمحصورين الذين كانوا يتلهفون الى مجيئه ، فوعدهم بالبقاء الى جانبهم حتى يتم استرداد الأماكن التى ســقطت واعادة ترميمها واصلاح ما خرب من أسوارها ، ويعود للبلد وضعه الذى كان عليه من قبل ، لذلك استدعى البنائين وكل ذى خبرة بفن البناء من شتى المدن المجاورة ومن كافة أرجاء الاقليم المتاخم له ، فتم ترميم الأبراج والأسوار على أحسن وجه ، وجددت التحصينات ، وأعيد تشييد المساكن الواقعة داخل نطاق الأسوار ، ورجعت المبانى العامة الى وضعها الأصلى ، لأن نور الدين كان قد صرف همته أثناء احتلاله المدينة الى تخريب كل هذه المبانى تخريبا تاما ٠

فلما فرغ البناؤون من هذه الأمور أحس الملك ونبلاؤه أن لم تعد ثم حاجة لاطالة المكث بين الأهالى ، لاسيما وقد أعاد كل شىء الى سابق عهده،وجهزت القلاع بما تحتاجه من السلاح والمؤونة والرجال، ومن ثم سرح مشاته ، وعزم على العودة الى طبرية ولا يصحبه سوى

عصائل الفرسان ، فلما خرج من « بانياس » يمم خطاه نحو الجنوب ونصب خيامه الى جوار بحيرة يسمونها « بحيرة ميخائيل » حيث استراح الجيش تلك الليلة ، لكنه لم يتخذ الاحتياطات الكافية ولم يراع القواعد اللازمة لنزول العسكر مما تفرضه ضرورات التنظيم الحربى ٠

وكثيرا ما يحدث أن يتراخى الناس بعض الشيء حين تســير الأمور سيرا حسنا يسر الناظرين ، أما فى الظروف المزعجة فانهم يصبحون عادة أشد حرصا فى ادارة أعمالهم ، ويترجم عن هذا الرأى القائل(١٢) « يسقط عن جانبك ألف وعشرة آلاف عن يمينك» ٠

وهناك ظروف تبدو موفقة تندفع فيها الأغلبية مزهوة بنجاحها فتعمل يد التخريب ، على حين يجري العكس من ذلك عند من أضرت بهم النكبات اذ يكون الخطر الذي يصادفونه مرشدا اياهم للسير في حكمة وتعقل ٠

واعتمادا من الملك على ما حدث من ارغامه هذا الأمير(١٣) العظيم على الانسحاب من « بانياس » فقد ظن ظنا لا يخامره الشـك فيه أن هذا الأمير قد أصبح بقواته بعيدا عنه وانه لن يعود قادرا على جمع أمم كثيرة ضده ، ومن ثم راح يتهاون بعض الشيء كما قلنا ، وأصبح يستمع الى نزغات بعض الناس ، وسرعان ماجاءت الأنباء الى العدو الذى كان مشغولا ينصب أحد الكمائن تفيد بأن الملك سرح مشاته ، وأن بقية جنده قد استناموا للتراخى وللفوضى من غير حراسة قرب بحيرة ميخائيل ٠

كذلك جاء الخبر أيضــا بأن بعض القادة كفيليب النابلسي وكثيرين غيره قد غادروا المعسكر بكتائبهم ، واذ ذاك أدرك هو ومن معه أن الأمور تغيرت الى مافيه فائدتهم فبادروا الىتحريكمعسكرهم، وهب قائدهم الحصيف مغتنما هذه الفرصة الملائمة له وأســرع

بالزحف الى تلك الناحية ، وسرعان ما بلغوا الأردن الواقع بين الجيشين وعبروه وكمنوا فى بقعة تعرف باسم « مخاضة يعقوب » على هذا الجانب من الأردن الذى كان لابد لجيش الملك أن يجتازه فى غده ٠

ولما طلع اليوم التالى تابع الصليبيون سيرهم وهم لا يعلمون بخبر الكمين الذى نصب لهم فى الليلة السابقة ، ولا بخطط العدو التى أعدها سرا لهم ، وواصلوا زحفهم تغشاهم الطمأنينة الكاذبة ولا يتوقعون شرا ، فاذا بالكمين الخفى الذى أعده نور الدين يطلع عليهم وهم فى غفلة ساهون ، وباغتهم من حيث لا يحتسبون ، وذلك أنهم تقدموا وهم خليو البال من أى سوء يحيق بهم فاذا بهم يرون أنفسهم وقد أشرعت فى وجوههم سيوف خصم آلى على نفسه الا أن يتركهم ما بين قتيل أو جريح قد ارتثت عليه جراحه ، فانتبهوا ـ ولكن لات ساعة التفات ـ الى هذا الخطر ، وأدركوا أن لابد من حدوث معركة ضارية ، فأمسكوا عما هم فيه من جدل عقيم ، وانطلقوا الى جيادهم فأسرجوها وامتطوها ، غير أن صفوفهم مالبثت أن تصدعت قبل أن يستطيعوا تنظيم أنفسهم للقتال وللدفاع ، ذلك لأن العدو أغار عليهم بسيوفه غارة شعواء حتى بات من المستحيل على رجالنا أن يلموا شملهم فى أية ناحية الا ما يكون من مجموعات صغيرة جدا ٠

(١٤)

ظل الملك حيث هو فى رهط قليل من الفرسان الذين لازالوا متمسكين بالوقوف الى جانبه ، بيد أنه أدرك انفراط عقد صفوفه وأن الفوضى سادتها وأصبح من معه أنى كانوا عرضة لغضبة العدو الذى كانت قوته ـ من جانب آخر ـ تزداد على الدوام ، على حين أن قواتنا أخذت ـ منذ البداية فى الفرار على وجهها ، ومن ثم أملت

عليه الضرورة أن ينسحب ليضمن لنفسه النجاة الى تل قريب منه استطاع عنده بفضل جواده الذى تحته أن يتجنب العدو الذى يناوره من اليمين تارة ومن اليسار أخرى ، وقد نجح الملك بعد لأى فى الوصول الى قلعة « صفد » الواقعة على نفس التل ٠

لكن وقع فى الأسر يومذاك طائفة كبيرة من زعمائنا وان كان القتل جرى على قلة منهم ، كما استسلم من غير مقـاومة وكأحط العبيد المحاربين الذين عرفوا بحسن تدبيرهم وخبرتهم بالقتال ، كما استسلم مثلهم تماما المحاربون العاديون فلم يتميز واحد من الفريقين عن الآخر ، وذلك سعيا منهم جميعا للابقاء على أرواحهم الشقية ، ولم يأبهوا قط برق الأسر المذل ولا بالعار الذى يظل عالقا الى الأبد بأسمائهم ٠

وكان من بين الأسرى النبيل السرى « هيج دى ابلين » و « ايود دى سنت أماند » مارشال الملك ، و « جون جوتمانوس » و « روهارد» اليافاوى وأخوه « بليان » ورينارد صاحب « بلانكفـورت » رئيس فرسان المعبد ، وكان رجلا ورعا تقيا ، وكثيرون غيرهم ممن لم نقف على أسمائهم ٠

لقد جازانا الرب على فعالنا الشريرة ، فقد سخرنا بسـنن الانسانية وضللنا السبيل السوى فظلمنا البرىء ومن وثقوا فى صدق ايماننا ، فضوعف لنا الجزاء ، وكان من جراء خطايانا أن عاقب الرب زعماءنا وجعلهم سخرية للعدو ، فقد ظلمنا « الأمم » وسخرنا بها سخرية « تجعلنا مثلا بين الشعوب لانغاض الرأى بين الأمم »(١٤)

على أن الرب ــ حتى فى غضبته ــ لم يمسك عنا كل رحمته ، اذ كتب السلامة للملك الذى لو قدر له أن يقع فى يد الأعداء يومئذ

لما كان هناك شك فى سقوط المملكة هى الأخرى فى هوة الدمار السحيق ، لا قدر الله ٠

ان ضياع فارس واحد – مهما كات عظمة هذا الفارس – انما هو ضياع لشخصه هو وحده ، أماسقوط الملك فمعناه سقوط المملكة كلها ، لذلك فان المخلص « داود » حين اشتد به الكرب على ملكه صاح « ليحفظ الرب الملك » ٠

ولقد ترتب على الشائعات المتضاربة حول سلامة الملك حدوث فزع شديد فى كل أرجاء المملكة ، فقد زعمت بعض هذه الشائعات أنه لقى حتفه بالسيف ، وقالت أخرى أن الأعداء أخذوه أسيرا فيمن أخذوا من الأسرى دون أن يعرفوه ، كذلك أشيع أن العناية الالهية لاحظته عيونها ففر من ساحة المعركة سليما لم ينل منه خصمه ، وهكذا استبد الخوف بالناس على مليكهم وجزعوا عليه جزع الأم على وحيدها ، ولما لم يكونوا عالمين بما آل اليه مصيره فقد ذهب بهم الخيال أسوأ ما يمكن الذهاب اليه ، وحملهم حبهم له أن يكون قدره هو الذى تخيلوه ٠

أما الملك فانه لم يكد يرى نفسه بعيدا عن يد العدو حتى أسرع الى « عكا » هو والقلة الذين كانوا قد تبعوه الى « صفد » وسواهم ممن قدرت لهم النجاة من أخطار اليوم السابق ، فرحب به الناس ، وخرجوا يهتفون به هتافات عالية ملؤها الغبطة به ، كما لو ان كان قد مات ثم بعث وردت اليه الحياة ٠

وقد جرت هذه الأحداث فى العام الرابع عشر من حكم بلدوين(١٥) ، وفى اليوم التاسع عشر من شهر يونيو (سنة ١١٥٧) ٠

كان نور الدين محاربا لا يعتريه الكلل ولايناله النصب ، وكان شديد الحرص على أن تتوالى انتصاراته بعضها فى أثر بعض ومن ثم اجتاح الاقليم بأجمعه وامتلأت يداه بالغنائم يأخذها من هنا وهناك ، واستدعى اليه كتائبه وأمر بتعبئة قوات اكبر راح يجمعها من دمشق ومن غيرها من النواحى الخاضعة لسلطانه ، ذلك لأنه كان قد أجمع العزم على محاصرة « بانياس » للمرة الثانية ، وكان أبعد شىء يخطر على باله أن يتمكن الملك (بلدوين الثالث) ورجاله الذين أنزل بهم الهزيمة النكراء من النهوض ثانية لنجدة البلد المحاصر ، لذلك سعى لمتابعة خطته بفرض الحصار مرة أخرى على « بانياس » ، ووضع آلاته الحربية العديدة فى مراكز استراتيجية ، فأدت القذائف الحجرية الى زعزعة الأبراج وتخلخل الأسوار ، كما أخذت السهام والنبال تتساقط كالوابل الهتان فمنعت من بداخل الأبراج من المقاومة،ومعذلك فان أهل « بانياس » ادركوا عدم جدوى جهودهم الصادقة فى تخليص المدينة من هذا الحصار فارتدوا كلهم الى القلعة بمحض ارادتهم حتى لا ينكبوا من جديد نكبتهم فى المرة السالفة ٠

* * *

لما تخلى الكونستابل عن المدينة (بانياس) للالتفات الى غيرها من الشئون الأخرى اختار للقيادة العليا رجلا من أقاربه اسمه «جى» الاسكندرونى ، وكان رجلا واسع التجربة والخبرة بالحرب ، ولكنه مغموز فى أمانته ولا يخشى الله ، أما همفرى وقد حملته رغبته فى استرضاء من عهد اليه بالحكم واعتمادا منه على شهرته هو ذاته ، وسعيا منه حتى لا يتوارى مجد صيته الذى اكسبته اياه بسالته الحربية فانه حاول ــ قولا وعملا ــ أن يحمل الآخرين على المقاومة ، مؤكدا لهم أن النجدة واصلة اليهم عن قريب ، وأن مجدا رائعالاتبلى

جدته على مر الزمن فى انتظار من هم أهل له ، ونجم عن هذا أن حارب الجميع كما لو كانوا يحاربون من أجل منفعتهم الشخصية ، حتى ان قدرتهم على تحمل الأهوال الطويلة والشدائد المســـتمرة جعلتهم لا تغمض لهم عين ، مما أثار دهشة عدوهم واعجابه بهم ، الا أن ذلك لم يمنع الترك من العزم عزما أكيدا على أن يحاربوا بكل قوتهم خصما قاومهم هو الآخر بنفس العزيمة ، وأن يكبدوا المدافعين خسائر لا حصر لها ، وكان الترك أكثر منهم عددا وأقدر على تجديد قواهم بمدد بعد مدد ، أما الصليبيون فكانوا على العكس من ذلك ليس لديهم احتياطى يجددون به بأسهم ، كما أن الضغوط اليومية غالبا ما كانت تؤدى بهم الى الاستسلام ·

وجاءت الأخبار الى الملك فى هذه الأثناء بأن « بانياس » تعانى شدة ما بعدها شدة ، وهى حقيقة لم تكن خافية عن نبلاء المملكة الذين لازالوا أحياء ، فجاءت الرسل الى أمير أنطاكية والى كونت طرابلس لحثهما على عدم التوانى عن نجدة المدينة ، كما بعث الملك بالمنادين لاستدعاء الفرسان القلائل الذين تخلفوا فى المملكة ، وشاء فضل الله أن يتمكن هذان الأميران البارزان (أمير طرابلس وكونت طرابلس) وأتباعهما الأفاضل من الوصول الى المعسكر الملكى فى وقت قصير وأسرع مما كان متوقعا وكان تجمعهم بجوار الحصن الجديد(١٦) وفى موضع يعرف « بالحارس الأسود » ، وكان مكانا تستطيع العين المجردة أن ترى منه المدينة المحاصرة أقرب ما تكون اليها ·

سرعان ما علم نور الدين بانضمام هذين القائدين الى الملك وشروعهم جميعا فى الزحف الى « بانياس » ، غير أن المحصورين فقدوا كل أمل لهم فى الصمود أمام نور الدين لما هو معروف عنه من بعد النظر وسداد الرأى فى ادارة دفة الشئون وتعدد مرات نجاحه فى فتح الحصون ، لذلك رأى الملك أن الخير فى الا يجرب تقلبات

القتال وما ينجم عنها من أخطار وأمور ليست فى الحسبان فتخلى عن الحصار وانسحب الى ناحية قاصية من مملكته ٠

(١٦)

بينما كان كثير من الأحداث المتباينة كل التباين تجرى فى المملكة ، وبينما كانت الغالبية العظمى من قوادنا فى الأسر كانت البلاد تعانى احباطا شـــديدا ، لكن حدث فى هذا الوقت بالذات وبتوجيه من الارادة الالهية أن أرسى « تييرى » كونت فلاندرز فى ميناء بيروت ومعه زوجته «سبيلا» أخت الملك من أبيه، وكثيرا ما عادت علينا زيارة هذا الرجل السرى الشهير بالفائدة كما رحب الناس قاطبة به وهزتهم الغبطة ، فقد بث وصوله مع أتباعه الأمل فى نفوس الناس بقرب انجلاء الغمة السوداء التى حاقت بالمملكة ، فتجددت الآمال القوية فى صدور الذين طال ترقبهم للسلام يعم المملكة ، اذ ما كاد الكونت يصلها حتى كان هذا الوصول أشبه بملاك النصح الطيب فقد أخذ على عاتقه تدبير شئونهم وسار الى ما فيه خير المملكة واعلاء مجد العقيدة المسيحية ، كما سنشير الى ذلك فى موضع آخر فيما بعد ٠

***

وفى حوالى هذا الوقت أخذت فكرة بقاء الملك عزبا رغم بلوغه طور الرجولة تبرز وتشغل بال أمراء المملكة سواء منهم من كان من العلمانيين أو من الدينيين ، وكان أهم ما يسيطر على الخواطر أن يكون له ولد من صلبه عساه يخلفه ويكون وريثه الشرعى فى المملكة، ولذلك اجتمعوا للتشاور فى أمر زواج مولاهم الذى مازال بلا ولد ، وبعد طول البحث اتفقت آراؤهم على التشـــاور مع الامبراطور (البيزنطى) حول هذا الموضوع ، فقد كان فى قصره كثير من العذارى النبيلات من قريباته ، يضاف الى ذلك أنه أصبح فى مقدوره

ـ وهو أقوى ملوك العالم وأغناهم ـ أن يسعف بالمال مملكتنا فيفيض عليها سخاؤه ببعض ما تملك يداه فينشلها من هوة البؤس الذى ترددت فيها ، ويحيل متربتنا الى الرخاء الوفير ، لذلك صح العزم على ايفاد رسل الى القسطنطينية ، تحمل هذا المشروع بمعونة الرب ٠

واختاروا لهذه المهمة كلا من « أثارد » رئيس أساقفة الناصرة ، والكونستابل الملكى « همفرى » صاحب « تورون » اللذين أبحرا بعد ترتيبهما لأمورهما وارسيا على الشاطىء هناك ٠

(١٧)

كان الرأى الذى أطبق عليه الجميع هو أن وصول أمير خطير كهذا الأمير العظيم(١٧) وزهطه الكبير من النبلاء والأبطال لا يمكن أن يمر من غير الاستفادة به أو يسفر عن لا شىء ، لذلك صمم القوم وبرضاء الجميع وبتاييد الرب أن يمضوا كلهم الى انطاكية مع القوات المحاربة المتضامنة ، ونقلوا هذا الغرض الى مسمع أمير البلاد والى كونت طرابلس حيث وجهت اليهما الدعوة مخلصة لأن تكون قواتهما متاهبة فى يوم محدد لمهاجمة بلاد الخصـــم ، ومن ثم اجتمع كافة الصليبيين من شتى النواحى ترعاهم العناية الربانية فى موضـــع يعرف بالبقاع من ارض طرابلس قاصدين مهاجمة بلاد العدو ، فلم يصادفهم النجاح فى بادىء الأمر فى هجمتهم الشعواء على الحصن المعروف بقشتال الروج ، فلم تتمخض عن شىء ، واذا كان « الحظ الحسن يأتى فى أعقاب البداية السيئة » فأن الأمراء المجتمعين تحركوا بناء على اقتراح « أرناط » أمير انطاكية ونزولا على الحاحه وتقدموا فى رعاية الله نحو أرض انطاكية ، وتلبثوا هناك بعض الوقت لرسم أمثل خطة فى هذه الظروف التى يمرون بها ، واذ ذاك وصل رسول الى الملك والى كبار رجاله يحمل أطيب الأنباء ويؤكد لهم أن نورالدين ـ أقوى خصومنا ـ الذى كان يعسكر بجيش ضخم قرب قلعة « أنب »

قد مات أو أنه مريض مرضاً لا يرجى له الشفاء منه ، وأراد المبعوث أن يبرهن على صدق مايقوله فقرر أنه شاهد بعينى رأسه فى اليوم السابق اضطرابا كبيرا فى معسكر نور الدين ، وكان من الواضح الجلى أن عبيده بل وأقرب الناس اليه قد تخلوا عنه ، وأن كل أمتعته الخاصة قد أصبحت نهبا مشاعا لكل من يريد منها شيئا دون زاجر . وزاد هذا الرسول فقرر أن عسكر نور الدين قد تفرقوا يبكونه وأن الفوضى ضاربة بأجرانها(١٨) عليهم .

وقد أثبت الواقع صدق ما جاء به الرسول اذ كان نور الدين يعانى وعكة كأشد ما تكون الوعكة ، وساد الاضطراب صفوف جيشه ، وحدث بين عسكره ما يحدث عادة لأمثالهم حين يموت كبيرهم ، وشاع النهب ، واجتاح العنف الذى لا يقيده قيد . والواقع هو أن المرض كان قد أوهن نور الدين حتى أقعده وأعجزه تماما ، فنقله مرافقوه الأوفياء فى محفة الى حلب .

حينذاك أدرك الصليبيون أن الأمور تجرى بما يبشر بنجاح خطتهم، لذلك اتفقوا جميعا على انفاذ الرسل الى « توروس » الأمير الأرمنى القوى يلتمسون منه أن يحسن اليهم فينضم بمن عنده لهم فى حملتهم التى يتوقعون لها النجاح التام ، وعهدوا الى أولئك الرسل أن يصطنعوا كل وسيلة حتى يتخلى عن كل المعاذير وينضم بامداداته الى عسكر الحلفاء الموجود فى أنطاكية ، فتلقى « توروس » هذه الدعوة بالغبطة ، ولما كان رجلا ذا خلق قويم وطبيعة نشيطة فقد نهض فى لحظته فجمع شيئا كبيرا وأسرع به الى أنطاكية ، فهب الصليبيون الى لقائه وهم أشد ما يكونون فرحا به ، وسار العسكر فى الحال من المدينة واتجهوا شطر « شيزر » .

وتقع مدينة شيزر على نهر العاص الذى يجرى الى أنطاكية ويسميها البعض بقيصرية ويعدها هذا البعض كبرى بلاد « كبادوكيا » التى رأسها ذات مرة المعلم الكبير القديس « فاسيل » ، ولكن الذين يأخذون بهذا القول واهمون فيما يذهبون اليه ومخطئون خطأ شنيعا لأن « قيصرية » تقع على بعد خمسة عشر يوما أو أكثر من أنطاكية ، أما مدينة « شيزر » فتقع فى اقليم البقاع ، ويفصلها عن « كبادوكيا » كثير من البلاد ، كما ان الاسم الصحيح هو « قيصـرة » وليس « قيصرية » ، وهى احدى المدن الكبرى التابعة لبطركية أنطاكية ، كما أنها ذات موقع طيب ، ويمتد القسم الأدنى منها على طول السهل، على حين توجد القلعة على مرتفعات القسم الأعلى ، وهى ذات طول كبير ولكنها تميل للضيق ، واذا خلينا جانبا مناعتها الطبيعية فانها شديدة الحصـانة ، لأن النهر يحميها من أحد جانبيها ، كما أن وقوعها على الجانب الآخر منه يجعل اقتحامها أمرا غير ممكن .

تقدم الصليبيون بعساكرهم المرتبة وفق النظام الحربى، وما كادوا يبلغون المدينة حتى بادر القادة الكثيرون الى ترتيب جنودهم أحسن ترتيب وحاصروا المكان ، أما الأهالى فقد دفعهم ما اعتراهم من الخوف من العدو الى الانسحاب الى ما وراء الأسوار حالما بدأ الحصار ، وسرعان ما نصب الملك والمعسكرون فى الخارج مكاحلهم وآلاتهم الحربية ولم يكفوا عن الرمى لحظة واحدة ، بل بذلوا كل ما فى قدرتهم حتى يستنفد الضرر الذى يلحقونه بالمدافعين كل ما لديهم من بأس لذلك حرص كل قائد أن يبذل غاية جهده فى القسم الذى عين له منذ البداية ، وراح يشجع رجاله بالكلمة ، ويعدهم المكافأة لتزداد جهودهم فعالية ، وود كل واحد من هؤلاء القادة أن يكون أول من يقتحم المدينة ، كما حاول كل منهم أن يحوز الفخر لنفســه

بأن يكون أول من يدخلها ، مما أسفر عن الحاقهم كلهم بها من الدمار الشامل ما بدا معه الموت يكتنف البلد من كل صوب وناحية ٠

أما معرفة السكان باستعمال السلاح فكانت ضئيلة لانصرافهم كليا الى المتاجرة ، وكانوا على جهل تام بالخطب الذى ألم بهم منذ قريب ، اذ لم يبد عليهم أدنى خوف من الحصار ، ومرجع ذلك ثقتهم بوسائل الدفاع عن مدينتهم من جهة ، وفى قوة أميرهم الذى كانوا يظنونه ناعما بالعافية ، ومن ثم فانهم لم يكونوا قادرين على تحمل مثل هذه الشدائد ولا الصمود فى وجه هذه الهجمات والمناوشات المتصلة ، لذلك لم تكد تنقضى أيام قلائل من الهجوم المستمر عليهم حتى نفضوا أيديهم من كل شىء واستسلموا ، فتحكم الصليبيون فى استحكامات المدينة واندفعوا حتى صاروا فى وسطها واستولوا عليها عنوة ، فارتد الناس على أعقابهم الى القلعة ، وأخلوا كل ما بقى من أسفل المدينة ، وصار كل شىء نهبا مستباحا للعدو ، وظل الصليبيون يستعملون دور الناس بضعة أيام بكل ما حوته ويتصرفون فيها حسبما يشاؤون ٠

على أنه فى اللحظة التى بات فيها من المؤكد أن القلعة موشكة على السقوط هى وجميع من فروا اليها بسبب الضغط المستمر اذا بنزاع تافه يشب بين قوادنا ، ثم لا يلبث هذا النزاع أن يزداد ضراما ، ذلك أن الملك ــ وهو الحريص على كل ما فيه خير بلادنا ــ قرر منذ البداية أن يقطع مدينة « شيزر » الى كونت فلاندرز ، لعلمه بأنه أقدر الرجال على حمايتها من بطش الترك ومكائدهم ، ويرجع ذلك الى كثرة ما لديه من الفرسان وما عنده من الأموال الطائلة ، لذلك عزم على شن غارة أكثر ضراوة على القلعة حتى يضعها هى والمدينة تحت حماية الكونت لتكون الاثنتان ملكا شـــرعيا له الى الأبد ٠ فاستصوب كافة القواد هذا الترتيب ورأوه صحيحا ووافقوا عليه

بالاجماع ٠ غير ان كونت « أرناط » شذ عن أجماعهم ، فأثار المشكلات حين أعلن أن « شيزر » وملحقاتها كانت منذ البداية جزءا من ارث أمير أنطاكية ، ومن ثم فلابد لمن يأخذها اقطاعا أن يقسم يمين الولاء والتبعية له هو ذاته باعتباره صاحب الأمر ٠

وعلى الرغم من أن كونت « تييرى » كان مستعدا لقطع اليمين للملك لاقطاعه « شيزر » الا أنه رفض رفضا باتا أن يقسم اليمين لأمير أنطاكية ، سواء أكان ذلك هو الأمير « أرناط » الذى يدير شئون الامارة الآن ، أم كان « بوهيموند » الصغير الذى كان الأمل معقودا على أن يتسلم السلطة كلها فى يده بعد قليل ، وقال كونت « فلاندرز » انه لن يعلن تبعيته الا لمن يكون ملكا ٠

على هذه الصورة نشب الخلاف اذ ذاك بين قوادنا حول هذه المشكلة(١٩) ، وكان نشـــوبه عقابا لنا على خطايانا ، واذ كان المشروع(٢٠) بالغ الأهمية وكان على وشك التمام الا أنهم تخلوا عنه ، مما ترتب عليه أن عاد الصليبيون الى أنطاكية بكتائبهم مكتفين بالغنائم والأسلاب التى يحملونها والتى بلغت حد الكظة ٠

(١٩)

فى حوالى هذا الوقت علم « نصرت الدين » ـ أخو نور الدين ـ بسوء حال شقيقه واعتقد أنه مات ، فقدم الى حلب التى سرعان ما أسلمه الأهالى اياها دون أية صعوبة ، لكن بينما كان يوالى القلعة بالقصف الشديد ليرغمها على الاستسلام هى الأخرى اذا بالخبر يصله بأن أخاه لايزال حيا ، فلم يكن منه الا أن بادر فسرح عسكره ورحل(٢١) ٠

* * *

كذلك حدث فى الوقت ذاته أن مات ، فولشر » ثامن بطاركة بيت المقدس اللاتين ، وكان رجلا ورعا تقيا يخاف الله ، وكانت وفاته فى السنة الثانية عشرة من شغله كرسى البطركية ، وفى اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١١٥٧ ٠

كذلك استرد الصليبيون فى هذه الفترة ايضا أحد المعاقل القائمة على الجانب الآخر من الأردن فى اقليم «جلعاد»،وكان ملاذا منيعا ، لكن تراخى قواتنا فى الدفاع عنه أدى الى وقوعه قبل ذلك ببضع سنوات فى يد العدو بحيلة ماكرة احتالها فملكه ، على أن استرداده اليوم يرجع أكثر ما يرجع الى المحاولات الجدية التى بذلتها الملكة « مليزند » ، والى الجهد الشاق من جانب أولئك الذين تخلفوا فى المملكة ، لاسيما ما بذله « بلدوين دى ليل » على وجه الخصوص من الاهتمام والنشاط ، وهو بلدوين الذى كان الملك قد عهد اليه بالقيام بمسئولية أمور المملكة أثناء غيابه عنها ، وجاءت اخبار هذا النجاح الى الملك فأدخلت الفرحة الكبرى على نفوس الجيش كله ٠ كما كانت مبعث سعادة طافحة للجميع ٠

كان القادة الصليبيون فى هذه الأثناء لايزالون متلكئين فى انطاكية ، وعلى الرغم مما كان بينهم من بعض الاختلاف وهم أمام أنطاكية الا أنهم وصلوا الآن برحمة من الله الى توفيق جماعى ، اذ صمموا على القيام بعمل كبير مجيد من أجل السلام ، فاتفقوا قلبا وقالبا على محاصرة أحد الحصون الواقعة على بعد اثنى عشر ميلا من أنطاكية ، وكان هذا الحصن يتحكم تحكما تاما فى القرى المعروفة باسم « كازاليا » كما أنه كان مصدر ازعاج كبير للمدينة ذاتها ، فلما كان يوم مولد السيد المسيح مضى الجيش كله كتلة واحدة الى ذلك الموضع وضرب معسكره أمامه ٠

كان نور الدين فى هذه الأثناء لايزال رهن المرض الذى هاجمه من قبل بشدة اضطرت القوم أن يستدعوا له أحسن المطببين من كافة بلاد الشرق ، لكن وعكته كانت تزداد لحظة بعد أخرى ولم تستجب للعلاج الذى وصفوه له ، حتى لقد يئس الأطباء من برئه وحياته ، فاستبشر الصليبيون خيرا ، وعدوا حالته هذه نعمة الهية خصتهم بها السماء ، كى تنجح حملتهم ، ذلك لأنه طالما كان نور الدين متمتعا بعافيته وبأسه كعادته كان من الصعب على جيشنا أن يتمكن من العمل بحرية فى تلك الناحية الخاضعة له ٠

غير أن الملك ومن صحبه فى هذه الحملة استطاعوا استغلال هذا الوضع المهم لصالحهم ، ذلك أن معرفتهم الجازمة بعجز هذا المحارب العظيم عن المساهمة بنصيب فى أمور دولته دعتهم لمضاعفة الحصار كأشد ما يكون الحصار عنفا وضراوة ، فأحدقوا بالحصن من شتى نواحيه ، ونصـــبوا آلاتهم ، وأعدوا كل ما جرت عادتهم باعداده في حصارهم أية قلعة ٠

✻ ✻ ✻

كان الحصن(٢٢) الذى نتحدث عنه يقع على تل منخفض يوحى منظره كأنه بناء صناعى ، لذلك قام أحكم الرجال فى جيشنا بتكريس أنفسهم لعمل ممرات سرية يختفى داخلها الجند الموكول اليهم تقويض الحصن ويكونون بها فى مأمن على أنفسهم . وخيل اليهم - وكان حقا ما تخيلوه - أنهم اذا حفروا فى التل ممرات خفية انهار جزء من المبانى القائمة عليه ، ولذلك أسرعوا الى ترتيب كل شىء من عمل سلالم خشبية من خشب الصفصاف ذات ارتفاع متوسط الى غير ذلك من الآلات التى يحتاجها مثل هذا العمل ، فلما جهز قادة كتائب الفرسان والمشاة كل شىء بعناية فائقة ووفق ما يرومون نودى على هذه الكتائب علانية وسرا الا يكفوا عن الهجوم ، وخصصوا لكل قائد موضعا لا يشاركه فيه أحد سواه ، وأن يقوم هو ومن معه

بالعمل الجاد كما لو كان النجاح كل النجاح متوقفا على هذا القائد وحده دون غيره ، لذلك كان كل قائد منهم حريصا على أن يكون هو ومن معه أحسن الجميع ، وهكذا استطاعوا بهجماتهم الموصولة ومناوشاتهم اليومية أن يستمر العمل استمرارا كان من جرائه أن الأمر الذى كان يتطلب ردحا طويلا من الزمن أصبح ينجز فى عناية دقيقة فى مدى شهرين ·

وحدث فى ذات يوم أن آلة الرمى التى كانت لا تكف عن رمى القلعة ليلا ولا نهارا أن قذفت حجرا بالغ الضخامة أصاب قائد القلعة القائم بعبء الدفاع كله فسحقه الحجر فتفرق الناس بعد مصرعه تفرق الماشية قتل راعيها وأصبحوا مشـــردين ، وتوقفت مقاومتهم العنيدة التى كانوا يظهرونها ·

ما كاد الصليبيون يتحققون مما جرى حتى ضاعفوا الجهد وتسرب اليأس الى المحصورين فوهى صـــمودهم ، ولم يلبثوا غير بضعة أيام قلائل الا وأرسلوا نفرا الى الملك يعرضون عليه استعدادهم لمغادرة المكان شريطة أن يسمح لهم بالخروج أحرارا الى ديارهم بكل ما يملكون ، كما سألوه أن يمدهم بمرشدين لحمايتهم من أى هجوم قد يتعرضون له ، ويسيروا بهم حتى يبلغوهم مأمنهم المنشود سالمين ·

بهذه الصورة تم الاستيلاء على القلعة فتسلمها أمير أنطاكية الذى كانت القلعة تابعة له رسميا من قبل ، وعاد القادة الى أنطاكية بعد أن تكللت حملتهم بالنجاح ·

وبعد تبادل كلمات الوداع غادرهم الملك الى مملكته وفى صحبته « كونت فلاندرز » الأفخم ، وكان فى وداعهما كونت طرابلس ·

(٢٠)

نجم عن وفاة طيب الذكر « فولشر » أن لم يعد لكنيسة بيت المقدس بطرك ، لذلك اجتمع كبار رجالها فى المدينة الطاهرة ليتدبروا أمر اختيار الرجل العفيف الكفء لهذه الكنيســـة المهمة بما يتفق والقواعد الكنسية ، ويقال ان الاختيار تم بطريقة غير نظامية بسبب تدخل امرأتين : احداهما هى أخت للملكة « مليزند »(٢٣) والأخرى هى الكونتيسة « سبيلا » أخت الملك وزوجة كونت فلاندرز ، وأسفر الأمر عن اختيار « أمالريك » الذى كان قيم لكنيسة القبر المقــدس فصار البطرك ٠

كان « أمالريك » فرنجى الأصل من بلدة « نيزل » فى أسقفية « نويون » ، وكان على جانب كبير من الثقافة العميقة ولكنه كان شديد السذاجة قليل النفع للكنيسة ، وقد اختير لهذه الوظيفة على غير رغبة كل من « هيرنيسيوس » رئيس أساقفة قيصرية » ، ورالف أسقف بيت لحم فقد عارضا قرار تعيينه ٠ على أن « أماالريك » مالبث أن وضع المسألة ــ بعد توليه الكنيسة ــ فى يد « فردريك » أسقف عكا الذى مضى الى كنيسة رومة التى يتولاها « هدريان » ، واستطاع كما يقولون بفضل عطاياه التى أغدقها على رجال الحاشية البابوية من أن يحصل لأمالريك ــ فى غياب خصـــومه ــ على تأييد البابا الرومانى ، ثم قفل راجعا من لدنه ومعه مســـوح الكهنوتية ، مع الاعتراف الكامل بحق « أمالريك » فى منصب البطركية ٠

(٢١)

لكن حدث فى هذه الأثناء أن أبل نور الدين من وعكته بفضل العلاج الدقيق الذى والاه به مطببوه،وكان الملك قد عاد هو الآخرالى مملكته ، فرجع الأمير التركى(٢٤) معافى الى دمشق فلما كان صيف

العام التالى كره « نور الدين » أن يمضى وقته ساكنا مخافة أن يظن الناس ان الوهن تسرب الى نشاطه المعهود ، لذلك استدعى جيشه وحشد جمعا كثيفا من الاحتياطى وباغت احدى قلاعنا على غير توقع منا ، وكانت هذه القلعة واقعة فى اقليم يسمى « بالسواد » فى جانب تل عال شديد الانحدار ، وليس هناك من منفذ الى هذا المكان من أعلاه ولا من أسفله ، بل من جانب واحد فقط يمر عبر طريق ضيق خطر يشرف على هاوية ، وكان بداخل هذه القلعة غرف ومنامات مما يحتاجه الموجودون بها ، كما كان يوجد هناك أيضا نبع ماء صاف لا تنضب مياهه أبدا ، وهكذا كانت هذه القلعة ـ بقدر ما تسمح به ظروف المكان الضيقة جيدة التجهيز نافعة للاقليم ٠

ثم تأكد تأكيدا باتا عند الملك خبر هذا الحصار ، وسرعان ما جمع فى الحال قوات المملكة وأسرع الى هناك مستصحبا معه كونت فلاندرز ، وكان من بداخل القلعة ، ـ وقد عجزوا عن تحمل مشاق الحصار ـ قد اتفقوا تحت وطأة ما يفرضه عليهم وضعهم أن يسلموا المكان ان لم تصلهم النجدة خلال عشرة أيام ، فلما علم الملك بهذا القرار أسرع الى نجدتهم وعسكر بجيشه قرب « طبرية » عند الجسر الذى يفصل مابين أكواخ الأردن ومياه بحيرة «جينيسارت »٠

لكن ما كاد نور الدين يعلم بأن الملك قريب منهم حتى استمع الى نصيحة قائده « شيركوه » وكان رجلا شديد البطش كبير الثقة فى نفسه ، فرفع الحصار وزحف بجيشه لضرب الصليبيين ٠

واذ عرف الملك بعزم نور الدين على مهاجمته فقد استدعى كبار رجاله للحضور الى معسكره مع أولى طلائع الفجر ، فأدوا الاحترام الواجب للصليب الذى كان يحمله سلفنا الطيب الذكر « بطرس » رئيس أساقفة صور ، واتفقوا عن طيب خاطر على الحرب ، ورتبت الصفوف للزحف فخرجوا وقد قوى عزمهم وكأنما وثقوا من النصر ،

وزحفوا الى الناحية التى قيل ان عسكر نور الدين موجود فيها ، فلما دنت الكتائب الصليبية منها اســـتعدت للقتال وهى فى كامل سلاحها من الرأس الى أخمص القدمين ، وانقضت كلها على الترك وقاتلتهم بالسيف أشرس قتال حتى كان يخيل لرائيها أنها تسعى الى الموت فى قتالها ، ولكن ذلك لم يرهب الأتراك الذين تحملوا وطأة المعركة دون أن يضطربوا ، فهاجمونا بسيوفهم وحاولوا بمقاومتهم الباسلة صد هجوم أعدائهم عليهم .

وكان الحظ تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء ، ثم انتهى الأمر اخيرا بأن كتبت السماء النصر لنا ، وتكبد الأعداء خسائر هائلة ، ووقف الملك فى ساحة المعركة منتصـــرا ، وكانت هذه الوقعة عند بزاعة(٢٥)فى الرابع عشر من يوليو سنة ١١٥٥ وفى السنةالخامسة عشرة من حكم الملك بلدوين .

ولما رأى بلدوين أن الوقت مسعفه بالزحف على القلعة التى كانت محاصرة تقدم فرمم ما تهدم منها ، واهتم غاية الاهتمام بامدادها بالسلاح والطعام وتجهيزها بالرجال الأشداء ، حتى اذا فرغ من ذلك سرح عسكره وبعث بهم الى ديارهم ، وعاد هو الى مملكته بعد حملة أحرز فيها النصر .

(٢٢)

كان المبعوثون قد ذهبوا الى القسطنطينية لترتيب أمر زواج الملك ، وكان من بينهم « أتارد »(٢٦) رئيس أساقفة الناصرة لكنه مات بها فرد زملاؤه جثمانه الى كنيسته لاهتمامهم العظيم به،ثمخلفه « لينارد » كبير رجال الكهنوت بنفس الكنيسة ، وكان كبير الرحمة سمحا ، وقد ظل فى وظيفته هذه ثلاثا وعشرين سنة ، أما المبعوثون الذين ظلوا على قيد الحياة وهم «همفرى» الكونستابل ، وجوسلين

« بيسيلوس » و « وليم دى بارى » الذين كانوا من علية القوم وذوى الخبرة بالأمور العلمانية فقد تابعوا مهمتهم التى كلفوا بها على خير وجه ، وعرضوها أحسن العرض فى البلاط الامبراطورى ، وبعد كثير من التوقفات والمراوغات والأخذ والرد ومداورات فى الكلام ، وهى أمور يتقنها الاغريق ويميلون اليها واعتادوها ، وقع الاختيار على أميرة عذراء درجت منذ نعومة أظفارها فى أبهاء القصر الامبراطورى ، وهى ابنة اسحق أخى الامبراطور الأكبر ، واسمها « تيودورا » وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، وهى ذات فتنة طاغية فى الجسم والطلعة ، تشد الناظر اليها ٠

وكان صداقها مائة ألف قطعة ذهبية من الوزن المعتاد ، بالاضافة الى عشرة آلاف قطعة من نفس العملة يتكرم بها الامبراطور للصرف على نفقات الزواج ٠

أما جهاز العروس فكان من الذهب والجواهر والثياب واللآلىء والطنافس والأقمشة الحريرية ، الى جانب الأوعية الغالية الثمن ، وتقدير ذلك كله مبلغ اضافى هو أربعة عشر ألف قطعة من تلك العملة البيزنطية ٠

وأرسل الملك الى الامبراطور تأكيدا بخطه يعلن فيه قبوله شخصيا جميع ما يوافق عليه مبعوثوه الذين قطعوا العهد الأكيد نيابة عن الملك انه اذا مات مولاهم فسيكون من حق الملكة « تيودورا » بمقتضى هذا الزواج الاحتفاظ بنصيب يضمن لها دخلا مدى الحياة لا يعارضها فيه معارض ، ولا يجادلها فيه مجادل ٠

أما هذا النصيب فيكون مدينة « عكا » بكل ملحقاتها ، وبذلك أمضى الطرفان العقد برضائهما التام ، واختير رهط من أعلى الناس مقاما فى الامبراطورية لمرافقة العروس فى سفرها الى الملك ٠ ومن ثم مضت الى زوجها بالشام فى حراسة الرسل ٠

وارست السفينة بالأميرة سالمة هى وكل حاشيتها فى صور فى شهر سبتمبر التالى ، وتم زفافها بعد أيام قلائل فى القدس على مألوف عادة المملكة ، وتوجت بالتاج الملكى ، فلما فرغ القوم من مراسيم الزواج الرائعة أدخلت الى زوجها ٠

ولما لم يكن قد تم حتى هذه اللحظة ترسيم بطرك القدس المنتخب نظرا لأن المبعوثين الذين مضوا الى البابا فى شأن قضيته لم يكونوا قد عادوا بعد،أقول انه لما لم يكن قد تم ترسيم البطرك الجديدفقدصدر التوجيه الملكى باستدعاء « ايمرى » بطرك انطاكية ، وفوض اليه أن يمسح الملكة بالزيت المقدس وأن يمضى مراسيم الزواج المعتادة ٠

على أن الملك منذ زواجه نبذ ظهريا جميع ما كان يتسم به من رعونة طائشة لم يكن يتورع — كما قيل — عن التظاهر بها من قبل ، ومن ثم حق لهم أن يقولوا مع الرسول(٢٧) « لما كنت طفلا ، كطفل كنت أتكلم ، وكطفل كنت أفطن ، وكطفل كنت أفتكر ، لكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل » ٠

ويقال انه ظل يحبو زوجته على الدوام بالمحبة الجديرة بالثناء والمعتقد أنه ظل وفيا لها حتى آخر عمره ، فتخلى عن كل ما يشينه ، وصار رجلا غير الذى كانه من قبل ، وتفرغ للأعمال المجيدة ، وشغل نفسه بالأمور الجدية ٠

(٢٣)

فى خلال هذه السنة ذاتها عزم امبراطور القسطنطينية على المضى الى سورية فحشد الحشود من كافة أرجاء مملكته بما يتلاءم وعظمته الامبراطورية ، وخرج على رأس هذا الجيش الكثيف الذى جمعه من شتى القبائل والشعوب وعلى اختلاف الألسن والأمم ، وعبر البسفور وأسرع فاجتاز الاقليم المجاور ، حتى اذا كان مستهل ديسمبر

ظهر فجأة بعسكره فى « كيليكية » ظهورا لم يكن يتوقعه أحد ، ويتلخص السبب المباشر لهذا الزحف السريع فى أنه كان هناك أمير قوى اسمه « توروس » الذى أشرنا اليه من قبل ، وكان « توروس » هذا قد احتل بالقوة سائر بلاد « كيليكية » المجاورة للجبال التى له فيها عدة قلاع شديدة المنعة ولم ينج من بطشه أى بلد مهما كان محاطا بالأسوار ، كما لم تسلم منه القرى حتى البعيدة ، وترتب على ذلك أن سقطت فى يده « طرسوس » عاصمة « كيليكية » الكبرى ، و « عين زربة » قصبة « كيليكية » الصغرى ، كما سقط فى يده غيرهما من المدن التى كان من بينها « المصيصة » و « أدنة » و « سيس »(٢٨) فأخرج عن جميعها حكامها الموكلين بادارة شـــئونها الامبراطورية ، وحينذاك أسرع الامبراطور فى زحفه ولم يصـــرح بوجهته كى يأخذ الأرمنى على غرة ٠

* * *

على أنه كان لرحلته هذه هدف آخر غير هذا الهدف ، ذلك أنه كان قد تأثر بالوضع السيىء الذى صار فيه القبارصة الذين كانوا يستحقون عن حق عطفه عليهم والذين كانوا كما قلنا قد أذلهم طغيان أمير انطاكية وجبروته حتى عاملهم كأنهم أعداء الملته أو كأنهم مجرمون أثمة ٠

هكذا كان مجيء الجيوش الامبراطورية على غير انتظار حتى ان « توروس » الذى كان مقيما اذ ذاك فى « طرسوس » لم يسعفه الوقت بالفرار الى الجبال المجاورة قبل أن تنتشر الكتائب ورؤساء الجيش فى السهل الفسيح ٠

فلما سمع أرناط أمير أنطاكية بهذا النبأ ساوره الفزع اذ أحس بجرمه ، وأنبه ضميره لما كان قد فعله قبل قليل من قدوم الامبراطور (مانويل) من صب غضبه وبطشه بالقبارصة الأبرياء ، وما أذاقهم

هم ونساءهم وأبناؤهم من الأهوال الفاحشة التى يكرهها الله ويمقتها الناس ، لذلك جزع من مجىء الامبراطور مخافة أن تحركه الشكايات المتتالية من جانب هذا الشعب المنكوب فيثأر له لما نزل به من الكوارث لذلك أخذ « أرناط » يتدبر الموقف تارة بينه وبين نفسه وتارة مع ثقات أصحابه الذين استدعاهم اليه عساهم يرشدونه الى السبيل الذى ينبغى عليه سلوكه ، وماذا يفعل لارضاء عظمته الامبراطورية ليسكت عن تلك الجريمة النكراء التى جنتها يداه ، وبلغ من شدة انزعاجه من مجىء الامبراطور أنه لم يطق صبرا فينتظر وصول ملك بيت المقدس الذى كان على وشك الوصول ، رغم أنه كان يعرف انه مستطيع الحصول على شروط أحسن لو تدخل بلدوين لما له من نفوذ ملموس عند الامبراطور وبفضل تحالفه معه ·

لكنه (أى أرناط) أصاخ السمع الى نصيحة جماعته فاختار من بينهم رهطا معينا من النبلاء لمصاحبته ، وانطلق الى « كيليكية » حيث كان الامبراطور بها مع قواده ورافقه فى هذه السفرة «جيرارد» أسقف اللاذقية المبجل ، واستطاع « أرناط » فى بادىء الأمر أن يكتسب الى جانبه تأييد بعض رجال من حاشية الامبراطور اذ قبلوا أن يتشفعوا له عند مولاهم ، فلما اطمأن الى ذلك تابع سيره الى مدينة المصيصة ·

وبعد أن قدم للمسيحيين كثيرا من التبريرات الفجة وأبدى ندمه وما يحسه من العار عاد لينعم بعطف جلالته الامبراطورية ، ويقال انه ظهر على مرأى من الكتائب المتجمعة وأمام الامبراطور حافى القدمين ، وعليه قميص خشن من الصوف قصير الأكمام يصل الى مرفقيه ، وجعل حول عنقه حبلا من مسد ، وأمسك بيده ذباب سيفه الذى استله من غمده وقدمه الى الامبراطور مانويل ، ثم طرح نفسه أرضا عند موطىء قدميه

معفرا وجهه فى التراب ، فاشمئز الجميع مما فعل، وكسف مجد اللاتين الذى استحال بفعلته هذه معرة ونقيصة ٠

وكان « أرناط » رجـــلا مطبوعا على الاندفاع فى خطاياه اندفاعه فى توبته على السواء ٠

(٢٤)

حين علم الملك بوصـــول الامبراطور مضى الى أنطـاكية مستصحبا معيته وفيها أخوه (عمورى) وحوله رهط اصطفاهم من أعظم نبلاء مملكته ، ولم يستثن منهم غير كونت فلاندرز الذى كان قد تخلف عن مصاحبة الملك لعزمه على العودة الى دياره فى الرحلة البحرية التالية ، وكان الملك قد بعث حين وصوله سفارة من قبله الى الامبراطور تتألف من « جوفرى » رئيس رهبان دير فرســـان المعبد ، وكان « جوفرى » هذا يتقن اللسان اليونانى اتقانا عظيما ، كما بعث معه بجوســـلين « بيسيلوس » ، وكلفهما أن ينقلا الى الامبراطور فى لهجة ودية التحيات التى تليق بمقامه الســـامى ، ويستفسرا منه عما اذا كان يسمح بمجىء الملك الى حضرته ، فرد الامبراطور عليهما بأنه يرحب غاية الترحيب بحضور (بلدوين) فى الحال ، وأضاف الى ذلك أنه مرسل مســـتشاره الكبير ومعه آخرون من قبله هو ذاته ، ومكلفا اياهم أن يستعجلوا الملك باعتباره ابنا محبوبا للامبراطور ٠

فلما كان اليوم المحدد ذهب الملك (بلدوين الثالث) فى نخبة مختارة من أعظم رجاله الى هناك ، فقوبل بأعظم مظاهر التشريف اذ كان الامبراطور قد أصدر أمره أن يخرج لاستقباله اثنان من أعظم رجال قصـــره الســـامى مكانة وأعلاهم منزلة هما « جون البروتوسيباستوس » و « الكسيوس » حاجب حجاب ديوانه ، وهما

شـــقيقان من أم واحدة ، كما أنهما من أبناء أخوة الامبراطور (مانويل) ذاته ، وكان فى صحبتهما طائفة من النبلاء ، فساروا جميعا بالملك الى مدخل الخيمة التى أعدت لاقامة الامبراطور مؤقتا هو وكبار رجال دولته ٠

وقوبل الملك استقبالا رائعا وبالغ الامبراطور فى الترحيب به ، وقبله قبلة السلام ، ثم أجلسه الى جواره فى مقعد الشرف وان كان أوطأ من كرسيه الخاص ، ثم حيا بطانة الملك بما يليق بهم من الاحترام ، ومنحهم هم أيضا قبلة السلام ، وراح يستفسر من الملك وحاشيته عن أحوالهم الصحية استفسارا دقيقا ، ونمت أسارير وجهه وأفصحت كلماته العذبة ومظهره العام عن مدى غبطته وعظيم ســـروره لقدوم الملك (بلدوين) ومن معه ، كما لم يخف فرحته الكبرى لوجود ملك عظيم كهذا الملك وحاشية مبجلة كهذه الحاشية عنده ، وظل بلدوين (الثالث) مقيما مع الامبراطور عشرة أيام ، سعد خلالها كل منهما بهذا اللقاء الرائع ، وجرت الأحاديث الودية بينهما على انفراد تارة وبحضور حاشية الملك تارة أخرى ، وكان بلدوين يبدو خلال هذه الفترة طيب المزاج رضيه ، كما اكتسب عطف الامبراطور ورجاله ، والحق أنه حتى بعد هذا اللقاء بل وطول حياته ظلوا يؤثرونه ايثارهم ابنا لهم ، كما لم يمسكوا عن ذكره بالكلام الحسن حتى بعد موته ٠

***

كان بلدوين رجلاً جم النشاط ثاقب النظرة فى الأمور الدنيوية لذلك أراد أن تثمر اقامته عند الامبراطور أطيب الثمار ، فقد لاحظ أن الامبراطور كان قد أمر قواده بالتجمع فى معسكر خارج المدينة بهدف ارسال حملة ضد « توروس » الذى كان شديد الكراهية له ، لكن بلدوين استطاع بعد استئذانه أن يصل لأول مرة(٢٩) الى تفاهم طيب بين كل من مانويل وهذا الأرمنى الكبير ، فاستدعى الملك اليه

الأمير « توروس » ثم اتفق معه على أن يعيد الى الامبراطور الحصن الذى كان يطالب به ، فاستجاب له « توروس » فحظى بعطفه عليه كما أن وساطة الملك أدت الى قيام توروس – قبل رجوعه الى دياره – بقطع يمين الولاء والتبعية للامبراطور .

وأخيرا عاد الملك ومن معه الى انطاكية مشيعين بالاعجاب وحب الجميع ومحملين بالهدايا الجمة التى أغدقها الامبراطور عليهم لاظهار عظمته الامبراطورية .

* * *

لقد علمت من أناس معينين(٣٠) موثوق بشهادتهم كل الثقة ان الهدايا التى أسرف (مانويل) الامبراطور فى اغداقها على اتباع الملك والتى لا حصر لها وبلغت الأموال التى أعطاها الملك وحده اثنين وعشرين ألف دينار ذهبى ، وثلاثة آلاف مارك فضى من الوزن الخاص ، كما كان من بين الهدايا التى أتحفهم بها ثياب وأقمشة حريرية ومزهريات غالية .

وحين بلغ الملك انطاكية وجد بها أخاه عمورى كونت يافا وعسقلان، ومعه « هيج دى ابلين » الذى أطلق سراحه منذ قريب من أسر العدو فرجع ليستعيد مركزه السالف ، ولما كان هذان يرغبان هما أيضا فى زيارة الامبراطور فانهما سرعان ما انطلقا الى هناك حيث استقبلهما جلالته الامبراطورية استقبالا فخما ، واحاطهما بكل آيات الشرف العظيم حسب التقاليد الامبراطورية ، فلما أوشكت زيارتهما على الانتهاء وصلهما بالمنح الغالية وردهما الى المملكة مكرمين .

أحيا الامبراطور عيد الفصح المقدس فى «كيليكية» ، وأمضى هناك بضعة أيام ، فلما فرغ من ذلك زحف بجيشه الى مدينة أنطاكية ووقف أمام أبوابهـــا ، فأفزعت كثرة جنـده نفوس الناس وخف لاستقباله البطرك حاملا الأناجيل وحوله رجال الدين فى أبهة كهنوتية رائعة ، وشارك فى هذا الموكب الحافل الفخم عامة الناس أيضا ، ثم تقدم الملك الى الامبراطور محييا اياه وكان بصحبته أمير أنطاكية وكونت عسقلان ومن ورائهم جميع سراة المملكة وكبار الأنطاكيين ، وساروا به حتى دخل المدينة بين دق الطبول ونفخ الأبواق الحربية وكان مرتديا العباءة الامبراطورية وعلى رأسه التاج الامبراطورى ، وساروا به أولا الى الكاتدرائية ، أعنى الى كنيسة كبير الرسل ، ثم الى القصر ، يحرسه نفس كبار رجال المدينة وأهلها ٠

وقضى الامبراطور بضعة أيام فى صور متنعما بلذة الاستحمام وغير ذلك من وسائل البلهنية ، ومغدقا خلالها الهدايا فى اسراف على المدينة حسب العادة المتبعة ، فلما انقضى ذلك كله عزم على القيام برحلة صيد تزجية للوقت فخرج ومعه الملك ، ومضوا الى ناحية تصلح للطراد والقنص ، وبينما كانوا فى الغابة على صهوات جيادهم يفعلون ما يفعله الصيادون فى ممارستهم هذه الرياضة وقع لهم حادث ، وكان ذلك يوم الاحتفال بصعود سيدنا ، اذ بينما كان الملك ممتطيا حصانه الخفيف الحركة ويخب به فوق أرض غير معبدة تكسوها الأعشاب القصيرة وأشجار العوسج اذا به يسقط من فوق دابته فينكسر ذراعه ، فلم يكد الامبراطور يعلم بذلك حتى اندفع فى حنان بالغ وقام بما يقوم به الجراحون حيث ركع الى جــوار الملك وخصه بعناية لا يظنه من يراه وهو يفعل مايفعل الا شخصا عاديا ، فانعقدت ألسنة كبار رجاله وأقاربه دهشة لما يطالعونه ، ورأوا أن الامبراطور وقد طرح جانبا (بما فعل) كل مظاهر العظمة

الامبراطورية ، وتنازل تنازلا كبيرا عن مكانته الرفيعة ، كما أدهشهم اهتمامه بالملك هذا الاهتمام الودى البالغ ، وعدوا ذلك أمرا لا يليق به ، ولما عادوا الى أنطاكية بسبب هذا الحادث لميكن يمر يوم دون أن يزور الامبراطور الملك ويبدل له بنفسه ضماداته بأخرى ويضع له المراهم الشافية ، ثم يضمد جراحاته فى عناية فائقة ، والحق أنه ما كان يفعل أكثر من ذلك فيما لو كان بلدوين ولده من صلبه ·

فلما استرد بلدوين عافيته وشفى من وعكته أمر الامبراطور المنادين أن ينادوا فى قادة كتائبه أن يبعثوا أمامهم آلاتهم الحربية ، وأن يسيروا بالجيش الى حلب فى يوم حدده لهم ، وخرج هو وراءهم وقد صحبه الملك وحكام المملكتين ، ثم رحل عن أنطاكية والطبول تقرع حوله وحول من معه ، والأبواق يتعالى نفخها ، حتى اذا بلغ موضعا تسميه العامة بلسانها بمخاضة « البلانة » توقف الجيش كله وأرسل الامبراطور من موضعه هذا الرسل الى نور الدين الذى شاءت الظروف بأن يكون حينئذ فى حلب ، وتم على يد هؤلاء الرسل اطلاق سراح واحد اسمه « برترام » الذى كان ابنا غير شرعى لكونت سنت جيل ، كما أطلق معه سراح بضعة أسرى آخرين ، ثم عاد الامبراطور بعد قليل الى مملكته حيث تطلبت أحداث البلد ضرورة تواجده ، فلما سافر عاد الملك هو الآخر الى بلده ، مصحوبا بمن كانوا فى رفقته ·

(٢٦)

مات فى هذه الأثناء البابا « هدريان » بمرض الخناق فى « أنانى » بأقليم « كمبانيا » ، وحمل القوم جسده الى رومة وواروه القبر فى احتفال مهيب بكنيسة القديس بطرس كبير الحواريين ، وحينذاك اجتمع الكرادلة لمناقشة موضوع اختيار خلف له ، وحدث

كما يحدث غالبا فى مثل هذه الأحوال أن اختلفت وجهات النظر وتباينت الآراء ، فاختارت طائفة من القوم « رولاند » كردينال نفس كنيسة القديس بطرس والمنعوت بالقديس مرقص وراعى الكنيسة المقدســـة ووضـــعوا أيديهم عليه وأعلنوا أنه البابا وسموه بالبابا « اسكندر » ٠

أما الفريق الآخر فقد اختار « أوكتافيوس » وهو من الأشراف ، وكان هو الآخر كردينال الكنيسة الملقبة بكنيسة « سنت سيسيليا » الواقعة وراء التايبر ، وتم ترسيمه هو الآخر بنفس الطريقة ونصب بابا ، ولقب « بفكتور » ٠

كان هذا الانشقاق بســـبب خطايانا ، وقد أدى الى حدوث انقسام وبينونة لا رجعة فيها فى الكنيسة اللاتينية كلها ، كما أن أعظم نبلاء البلاد أصبحوا شيعا ربطت كل واحدة منها نفسها بواحد من الاثنين ٠ وقد استمر هذا الوضع قرابة تسع عشرة سنة حتى قام فى النهاية امبراطور الرومان « فردريك » المناصر لحزب فكتور والمؤيد له باعادة الوحدة للكنيسة وباتفاقه التام مع البابا اسكندر ، وهكذا عاد الوفاق من جديد وتلاشت سحب الشقاق وأشرق السلام فكان كنجمة الصباح ٠

(٢٧)

أحس نور الدين بالفرحة الكبرى تملأ جوانحه لرحيل هذا الامبراطور ذى البأس الشديد الذى كان وصوله سببا فى اشاعة الخوف الكبير فى نفسه ، كما أن رحلته فى البلاد كانت ذات وقع سبب له قلقا عظيما ٠

فلما رحل الامبراطور اطمأن خـــاطر نور الدين من ناحية « مانويل » فهو صاحب الحول المفزع الذى زادت مغادرته الناحية

من يقين نور الدين أن قد جاءته الفرصة التى طال انتظاره لها ، لذلك استدعى عسكره من شتى أرجاء دولته ، وأنفذ حملة ضد سلطان « قونية » الواقعة على تخوم بلاده ، فسقطت فى يده مدينة « مرعش » وقلعتا « كيسوم » و « بهسنا » المحصينتان وذلك لوجود السلطان بعيدا عنها ، ولم يكن من اليسير عليه ارسال النجدة الى هذه الأماكن ، وقد وضع نور الدين فى ذهنه هذه الأمور فخاطر فهاجم « قونية » وكان صاحبها أقوى منه هو ذاته .

وجاء خبر هذه الحملة الى الملك الذى كان لايزال معوقا حيث هو على رأس قواته ، ولكن دله ادراكه على أن دمشق — وقد خلت من قوتها الحربية — قد أصبحت فريسة سهلة لمطامع كل متربص لها ، لذلك صمم على الاستفادة من هذا الوضع فجمع العسكر مهاجما دمشق ولم يجد أحدا يصده فاضرم النار فى كل ما صادفه ، وعاث فى كل نواحيها افسادا حسبما أملت عليه أهواؤه ، واستباح لجنده الناحية كلها امتدادا من « بصرى » مدينة بلاد العرب الشهيرة حتى دمشق فراحوا يحرقونها ويدمرونها كيفما شاءوا .

وكان يوجد فى دمشق رجل من علية القوم اسمه «نجم الدين» أدرك نور الدين فيه خبرته التامة بالشئون الدنيوية فعهد اليه بادارة أموره الخاصة ورعاية المدينة بكل ملحقاتها ، تاركا له حرية التصرف فى الحكم بها ، فلما عرف نجم الدين انشغال مولاه بأمور مهمة فى أماكن أخرى غير هذه النواحى ، على حين أن ليس تحت يده هو ذاته سوى قوة ضئيلة هى التى يمكنه بها أن يقاوم الملك (بلدوين) فقد راح يتدبر الوسائل التى تجنبه الأخطار التى تكتنفه ، فقدم للملك أربعة آلاف قطعة من الذهب ورد عليه ستة فرسان من الفرسان العاديين كانوا فى أسره ، وجعل ذلك كله ثمنا لهدنة أمدها ثلاثة أشهر ، وقد استطاع نجم الدين بفطنته هذه أن يستخدم المال لرشوة

الكثيرين حتى يتشفعوا له عند الملك الذى استجاب لما يرجوه ، ونجح نجم الدين بهذه الاجـــراءات الحازمة أن يخلص البلد من جيش الملك .

* * *

مرضت الملكة « مليزند » فى هذه الأثناء ، وكانت امرأة ذات عقل راجح وفطنة نادرة ، ولم يكن ثم أمل فى أن يزايلها المرض الا أن تموت ، وقامت على رعايتها فى وعكتها خير قيام أختاها كونتسة طرابلس ، و « ايفيتا » رئيسة دير راهبات سنت لازار فى « بيثانى » ، وقد جيء لها بأمهر المطببين الموجودين هناك ، وعولجت بأحســن الأدوية التى اقترحوها .

ولقد حكمت الملكة « مليزند » المملكة ثلاثين عاما أو تزيد خلال فترة حياة زوجها وبعده فى أثناء حكم ولدها (بلدوين الثالث) وكانت قوية فى حكمها حتى لقد فاقت فى القوة كل امرأة سواها ، كما اتسم حكمها بالحصـــافة والعقل ، ثم لازمت الفراش منهوكة الجسد ، وكانت تعتريها أحيانا نوبات من الذهول وفقدان الذاكرة والوعى ، وظلت طريحة فراشها زمنا طويلا وهى شبه ميتة وما هى بالميتة ، ولم يكن يسمح برؤيتها الا للقليلين جدا .

* * *

وانتهى فى هذه الأثناء أمد الهدنة التى كان نجم الدين حاكم دمشق قد اتفق عليها مع الملك ، وكان انصرامها قبل أن يفزع نور الدين من حملته مما ترتب عليه ضـــرورة بقائه فى تلك النواحى المذكورة آنفا ، لذلك اقتحم الملك (بلدوين الثالث) أرض العدو بقوة السلاح وراح يخرب الاقليم كما يهوى ، فساق الماشية والأسرى ، وأحرق ما صادفه ، وأفسد الناحية دون أن يجد أحدا يتصدى لدفعه ،

حتى اذا فرغ من تدمير البلد والحقول المحيطة به واسترقاق السكان عاد الى مملكته سالما ٠

(٢٨)

مالبث « أرناط » أمير أنطاكية أن علم منكشافته أن فى الناحية التى كانت من قبل من أملاك كونت الرها ، وهى المنطقة الواقعة بين مرعش ودلوك ، قطعانا كثيرة من البقر والأغنام ، ولما كانت هذه الناحية خالية من أى قوات تحرسها ، ولم يتعود أهلها استعمال السلاح ، فقد كانت ميسرة للنهب ، وأصاخ « أرناط » الأحمق الى هذا الخبر بأذن واعية فجمع فى الحال عسكرا كثيرين وزحف بهم على تلك الناحية والشر يملأ جوانحه ، فوجد صدق ماسمع وما نقل اليه ، اذ كان المكان فى الواقع زاخرا بعدد كبير من القطعان والدواب ، ولكن أصحابها كانوا نصارى ، وليس فى الأقليم كله أحد من الترك الذين اقتصر وجودهم على القلاع فحسب ، بل ان هؤلاء الترك كانوا قلة قليلة وما كان وجودهم هناك الا لغرض حمـــاية الحصون وجمع الجزية من الأهالى والحفاظ عليها حتى يتسلمها الكبار الذين كانوا هم وكلاء لهم ، كما أن المزارع المحيطة بهم كانت فى أيدى السريان والأرمن المسيحيين الذين يقومون بفلاحة الأرض ولا يمارسون شيئا سوى الزراعة ٠

ولقد تمكن « أرناط » وقواته من نهب تلك النواحى كلها دون أن يصادفوا أدنى مقاومة ، وبينما كانوا عائدين الى دورهم آمنين ناعمى البال بالغنائم وشتى أنواع المتاع والمتجر الذى نهبوه اذا بمجد الدين حاكم حلب (وهو صديق نور الدين الحميم وحليفـه المخلص) يطلع عليهم حين ترامى الى سمعه أن « أرناط » عائد من غزاة له ، فبادر الى الخروج ضده بكل من فى هذه الناحية من

الفرسان المسلحين بالأسلحة الخفيفة ، وكان قصـــده أن يفاجىء الصليبيين فى بعض الممرات الضيقة ويبيدهم وهم يحملون الأثقال والغنيمة ، أو يرغمهم على الأقل على ترك ما معهم من الغنائم ٠ ولقد نفذ الترك خطة الحاكم السديدة فزحفوا على أرناط مسترشدين ببعض الأدلاء الذين كانوا قد جاءوهم بالأخبار ، وأصبحوا الآن فى المكان الذى سموه لهم ، والذى كان الأمير أرناط معسكرا عنده بكل أسلابه وغنائمه ٠

فلما علم « أرناط » أن العدو قد صار قاب قوسين أو أدنى منه أخذ فى مشاورة من معه فيما ينبغى عليه عمله فى هذه الظروف وكانت الخطة المثلى هى التخفف مما معهم ، وترك ما بيدهم من الغنيمة حتى لا تعرقل هذه الأثقال سرعة عودتهم الى ديارهم ، لكن حدث النقيض من ذلك فقد آثروا الاحتفاظ بما نهبوه ، بل والقتال العنيف ان دعت الحاجة الى القتال ، فلما كان الصباح التالى وقد تقدموا فى سيرهم بعض الشىء اذا بالقوات المعادية تلقاهم مقاتلة وراحت ترميهم عن أقواسها ، وتنوشهم بسيوفها ، وتحاربهم أضرى حرب ، وحاول الصليبيون فى بادىء الأمر الصمود القوى لكنهم اضطروا أخيرا للفرار تحت وطأة الضغط عليهم ، فهربوا تاركين وراءهم كل ما معهم من الأسلاب ، وكفر الأمير «أرناط » عن جميع أخطائه وجرائمه التى اقترفها ، فقد وقع فى أسر العدو الذى كبله بالقيود وسار به الى حلب على أقبح صـــورة ليكون هو ورفاقه الأسرى تسلية للكفار ٠

ولقد حدثت هذه الكارثة يوم ٢٣ نوفمبر فى السنة الثامنة عشرة من حكم بلدوين (الثالث) بين « كيسوم » و « مرعش » فى موضع يعرف باسم « كومى » ٠

أرسـت فى هذا الوقت ذاته طائفة من الجنوية فى « جبيل » وبصحبتهم كردينال من كنيسة رومة اسـمه « يوحنا » أوفده البابا « اسكندر » نائبا عنه الى أقطار المشرق ، وقد سعى « يوحنا » هذا للحصول من الملك وأمراء المملكة المدنيين والعلمانيين على الاذن له بدخوله المملكة بصفته مندوبا بابويا، ذلك لأن الناس كانوا كما أشرنا فى شقاق ، وقد انقسموا فريقين أحدهما يؤيد البابا اسكندر ، والآخر يقف الى جانب الحزب المعارض له ، ودار حوار ونقاش طويلان حول هذه المشكلة ، ثم اقترحوا على المندوب أن يظل بعض الوقت بجبيل حيث هو ، والا يدخل المملكة حتى يفرغ كبار أمرائها ورجال الكنيسة من بحث الموضوع البحث الجديد به ثم يخبرونه بما يقر عليهقرارهم ٠

لذلك بعثوا فى استقدام البطرك وغيره من رجال الكنيسة الى الناصرة حيث عقد اجتماع مع الملك وبعض البارونات للتشاور فى الطريق الذى يسلكونه فى هذا الموقف الحرج ، اذا كان جميع كبار رجال المشرق فى البطريركيتين يقفون موقفا محايدا لم يكتموه بصفتهم الشخصية ، الا كانوا منقسمين سرا فيما بينهم ، ما بين مؤيـد لهذا الفريق أو ذاك ، لذلك لم يستطيعوا الوصول الى رأى بات فيما بينهم كما هى الحال فى مثل هذه الظروف ، فقد صرح بعضهم ممن كان الأمر فى أيديهم بوجوب استقبال مندوب البابا « اسكندر » لأنه صاحب الأمر ، وكان على رأس هذا الفريق سـلفنا الخالد الذكر « بطرس » كبير أساقفة صور ، بينما عارضه آخرون آثروا جانب « فكتور » ، على أساس انه كان على الدوام صديقا للمملكة والدافع عنها ، وكان هذا الفريق يرفض استقبال المندوب البابوى رفضا باتا أيا كانت الظروف ٠

أما الملك فقد محضهم النصح بوجوب اتباع طريق وسط ، فنهاهم عن استقبال أحد ما من الجانبين ، وأيده فى هذا الرأى نفر من البارونات ورجال الكنيسة ، وكان الحامل للملك على اتخاذ هذا الرأى هو خوفه من حدوث انقسام بين الأساقفة يؤدى الى شقاق فى الكنيسة، وقال انه ان خلى المندوب البابوى جانبا دعوى حقـــوقه ومـكانته الرسمية وأراد المجىء كحاج الى الأراضى المقدسة للصلاة والعبادة فله مايريد ، ويكون له مطلق الحرية فى البقاء بالمملكة ماشاء حتى يحين موعد الرحلة البحرية التالية فيعود الى بلاده ، وبرر الملك رأيه هذا بما يلى : « بأن الانشقاق حديث الظهور ، ولا يعرف الناس أى الفريقين أرجح حجة ، ومن ثم فانه من الخطر فى مثل هذه المسألة التى لاتزال موضع جدل اعتناق فكرة مستقلة فتكون تأييدا مقدما لقرار عام فى الوقت الذى لازالت فيه الخاتمة غير واضحة ، يضاف الى هذا انه ليست هناك ضرورة لوجود نائب بابوى فى المملكة يرهق الكنائس والأديرة فيها ويحملها أعباء الانفاق عليه ، ويكلفها عســـرا بما يأخذه منها » ٠

كان هذا هو رأى الملك الذى بدا صائبا كل الصواب لكنهم أخذوا برأى الفريق المؤيد لوجوب استقبال المندوب البابوى ، ومن ثم فانهم استدعوه لدخول المملكة ، وقد ثبت بعدئذ انه كان عبئا ثقيلا على الكثيرين الذين أيدوا فكرة الاذن له بالدخول ٠

* * *

وحدث فى هذه الأثناء تقريبا أن ولد ولد لعمورى كونت يافا وزوجته « أجنس » التى هى ابنة كونت الرها ، فالتمس أبوه من الملك أن يحضر حفل تعميده ، وأن يأذن لهم بتسميته باسمه فقبل ، فلما سألوه مازحين ماذا هو خالع على الوليد وهو شـــاهده فى جرن المعمودية الطاهر رد عليهم قائلا بما جبل عليه من الدعابة « مملكة بيت المقدس » ٠

لقد تركت هذه العبارة العـــابرة أثرا عميقا فى نفوس بعض العقلاء الذين سمعوها ، لأنها بدت لهم وكأنها نذير شؤم بأن الملك رغم أنه كان يزال شابا وكذلك زوجته سوف يموت دون أن ينجب ، وقد تحققت هذه النبوءة .

(٣٠)

أدى أسر أمير أنطاكية الى حرمان الامارة من معاونة قائد لها ، ومن ثم استحوذ الخوف والقلق من جديد على الأهالى الذين راحوا يتوقعون بين يوم وآخر وفى فزع بالغ خراب بلدهم ان لم تتداركهم رحمة ربهم فتحميهم ، وانتهى بهم الأمر أخيرا للرجوع الى مصدر غوثهم يسألونه أن يخلصهم من الشرور التى تهددهم ، ويلتمسون منه ما التمسوه كثيرا منه فلم يخيب لهم رجاءً قط ، ذلك أنهم بعثوا من جانبهم سفارة الى ملك بيت المقدس تتوسل اليه ضارعة باكية أن يسرع فى لحظته لنجدة شعب يائس قد أصبح على شفا جرف هار من الهلاك فيكتسب بما يفعل الشرف والمجد فى عيون الناس ، ويكون له الجزاء الأوفى من الرب .

حين علم الملك بالوضع المتردى فى أنطاكية تحركت مشاعره اشفاقا على شعبها مما يقاسيه من البلوى فنهج نهج أسلافه وحمل العبء عن طيب خاطر وأســـرع الى أنطاكية مستصحبا رهطا من النبلاء الفرسان ، فتلقاهم أهلها : صغارهم وكبارهم على السواء بالفرحة الغامرة والسرور الطاغى ،وأقام الملك بها ما تطلبته ظروف الوقت والمكان ، وراح يبذل أقصى همته للعناية بشئون الامارة بذلا كما لو كانت هى شئونه الخاصة ، ثم عهد بتصريف أمور حكومتها مؤقتا الى البطرك حتى يعود هو نفسه اليها ، ولما فرغ من ترتيب مساعدة الأميرة مساعدة تتفق وأوضاعها رجع الى مملكته حيث كانت شئونه الخاصة تقضى بوجوده .

* * *

بعد عودة الملك جاءته سـفارة عالية المقـام من امبراطور القسطنطينية تحمل اليه كتابا مختوما بالخاتم الذهبى ورسالة خاصة . وكان على رأس هذه السافرة العظيمة الشأن «كونت ستيفانوس» أحد أقارب الامبراطور ، وأما رفيقه فكان كبير مترجمى القصر واسمه « ثيوفلاكت » وهو رجل حاد الذكاء ، شديد الغيرة على المصالح الامبراطورية ، وكان هذا المبعوثان كما قلنا يحملان رسائل سامية تتضمن التالى :

« لتعلم أيهاالعزيز الغالى ، يا أحب أهل امبراطوريتنا لنا ، أن زوجتنا الجليلة ايرين العظيمة ذات الذكر المجيد قد انقضت أيامها المقدرة لها على هذه الأرض وجاورت أرواح الطوبانيين المرضى عنهم ، بعد أن خلفت لنا ابنة واحدة هى الوريثة لهذه الامبراطورية ، ولما لم يكن لنا ولد ذكر فاننا مشغولون كل الانشغال بأمر من يخلفنا ، وكثيرا ما عقدنا اجتماعات هامة مع أبرز رجال البلاط للتشاور فى عقد زواج ثان ، فأيدوه بالاجمـاع ووافقوم جميع أمرائنا على وجوب عقد قراننا الملكى على أميرة من بيتكم ومن ذوى قرباكم نظرا لما لكم من عظيم الحب فى نفسنا ، وهى محبة نحوطكم بها من بين كافة أهل الامبراطورية ، وان التى سوف تختارونها لنا من تربياتكم ـ سواء أكانت أخت كونت طرابلس الأمجد أو صغرى أخوات أمير انطاكية المعظم فاننا سوف نتخذها بكل ثقة زوجة لنا ، وسـتكون بعـون الله زوجتنـا الامبراطورية ورفيقتنا فى المملكة ، ثقة منا فى صـدق ولائكم وحسن اختياركم » .

فلما أفضت السفارة الى الملك بعزم الامبراطور شفاها وكتابة ، وعد هو من جانبه بالاستجابة والمساعدة فيما طلبه منه ، وأفصح

عن صادق شكره لعظمته الامبراطورية أولا لأنه رأى أن يربط نفسه ـ وهو ذو المكانة السامية ـ بواحدة من قريبات الملك ، وثانيا لأنه عهد الى الملك دون سواه باختيار عروسه المقبلة وزوجته اعتمادا منه على وفاء بلدوين واخلاصه ٠

(٣١)

بعد أن تباحث الملك مع مستشاريه بشأن هذا الزواج الذى سيكون أحسن ما يرتجى لمصالحه الشخصية ومصـالح صـاحب العظمة الامبراطورية بعث فى طلب رسـولى الامبراطور ، وراح يحدثهما حديثا مقنعا بأن تكون « مليزند » (احدى أخوات كونت طرابلس » هى الزوجة لمولاهما ، وكانت « مليزند » هذه فتاة ذات خلق سام وكفاءة رائعة ، فأخذ المندوبان اقتراح الملك بما هو جدير به من الاحترام ووافقاه عليه ، ولكنهما التمسا منه أن يعلم الامبراطور بهذا القرار على يد رسل يبعثهم اليه وبالكتب ينفذها اليه ٠

وتمت فى هذه الأثناء الاستعدادات الضـخمة التى فاقت الاستعدادات الملوكية ذاتها والتى تكلفت مبالغ باهظة أنفقتها كل من أم العذراء وخالتها من أجلها ٠ لاسيما وقد وقع عليها الاختيار لتشغل هذه المكانة السامية ٠ كما أنفق أخوها وأصدقاؤها المال الكثير لشراء الأساور والحلقان ودبابيس ملابس الرأس والشلاخيل والخواتم والعقود والعصائب المصنوعة من الذهب الخالص ، كما جهزت الأدوات الفضية الثقيلة الوزن والمختلفة الأحجـام اللازمة للاستعمال فى المطبخ وأدوات المائدة والحمام ، الى جانب اللجم والسروج ٠ وبالاختصار فانهم لم يتركوا شيئا الا جهزوها به ، وانفقوا على ذلك المبالغ الطائلة انفاقا فاحشا ، وكانت أجرة صياغتها وحدها شاهدا على تجاوز كل الأثمان الباهظة حتى فاقت اسراف الملوك ٠

وكان الاغريق فى الوقت ذاته يتقصون كل دقيقة وصغيرة عن حياة الأميرة ومسلكها ، بل لقد زادوا فأوغلوا فى البحث فى أدق صفاتها الجثمانية مما يعتبر ســـرا ، وكانوا على اتصـــال دائم بالامبراطور ينتظرون الاذن لهم بالعودة لاسيما وقد طالت اقامتهم حتى استدار الحول ٠

وأثار البطء فى الاجابة غضب الملك ورجال بلاطه وأقارب الأميرة وأصدقائهما ، وبلغ الغضب ذروته فاســـتدعوا ســـفيرى الامبراطور علانية وخيروهما بين أن يفضوا هذا الزواج الذى طال أمد اتمامه ، وطال الأخذ والرد بشأنه ، أو يرد الأموال التى انفقت ، وأن يتوقفا عن سوق الأسباب الغامضة للتسويف ويعقد العقد وفقا للشروط التى اتفق عليها فى الأصل ، ذلك لأن أخاها كونت طرابلس كان قد أنفق أموالا طائلة ، اذ أمر ببناء اثنتى عشرة سفينة جهزها بكل شىء ، لأنه كان مجمعا العزم على اصطحاب أخته الى زوجها ، وبالاضافة الى ذلك فقد جاء الى طرابلس كل سراة المملكة والامارة ليصحبوا الأميرة « مليزند » فى رحلتها القـــادمة ، وكان الكونت يتكفل بدفع نفقاتهم جميعا من جيبه الخاص ٠

كان الرسولان الاغريقيان (كالعهد بالاغريق) يسوفان فى الرد جهد ما أمكنهما التسويف ، فعمد الملك الى وقف أساليبهم الماكرة فأرسل « أوتو ديزبيرج » مبعوثا خاصا الى القسطنطينية ، وفوضه فى مطالبة القوم هناك بالافصاح له شخصيا ـ باعتباره ممثل الملك الشخصى ـ عن حقيقة نوايا الامبراطور دون مراوغة ، فعاد رسوله اليه بأسرع مما كان متوقعا ومعه كتاب من الامبراطور ورسائل تبين أن كل ما اتخذ بشأن هذا الزواج لم يقع أبدا موقع القبول والرضا من نفس عظمة الامبراطور ٠

فلما علم الملك بهذا النبأ تسحب من المفاوضات فقد رأى فيها اهانة كبرى لحقت بذاته ، وتذمر الملك من أن ينتهى الى لا شىء كل ما ساهم هو فى الاعداد له وسار فيه قدما ، وكان يعده بعض واجبه ٠

وخاف الرســـولان الامبراطوريان أن يمسهما أذى من جراء غضب كونت طرابلس فبادرا الى الرحيل مسرعين الى قبرص فى مركب صغير شاء حسن طالعهما أن يجداه على أهبة الابحار ٠

***

ما كاد النبلاء المجتمعون فى طرابلس يرحلون حتى مضى الملك الى أنطاكية استجابة منه لالتماسات أهلها الملحة بأن يأخذ فى يده مقاليد الامارة ، فلما وصلها صادف نفس رسولى الامبراطور اللذين كان المفروض أنهما عائدان الى ديارهما بعد مغادرتهما طرابلس ، ووجدهما يعقدان اجتماعات ودية يومية مع الأميرة صاحبتها بشأن ابنتها الصغرى مارية ، يضاف الى ذلك أنه كان فى أيديهما رسائل من الامبراطور ، مختومة بخاتمه الذهبى،يؤكد فيهاموافقتهالتامةعلى كل اتفاق يبرمه رسولاه مع الأميرة وأصدقائها بشأن موضـــوع الزواج ، وقد أفضى القوم الى الملك لحظة وصــوله بخبر هذه المفاوضات ، فأحس بجرح عميق فى نفسه ، واهانة بالغة لشخصه من جراء هذه المسألة ، التى رأى الصواب فيها أن يرفض أنيكونطرفا مع الامبراطور فى موضوع الزواج ، غير أن عطفه على قريبته اليتيمة التى لم يكن لها من أب يحميها حمله على التفكير فى الأمر طويلا ، وانتهى تفكيره الى أن يكون هو كفيلها ، ونجح فى عقد الزواج ٠

ما كادوا يفرغون من هذا الموضوع حتى كانت السفن معدة فى المكان المعروف بميناء القديس سمعان ، عند مصب نهر العاص ،

حيث استقبل الرسل الفتاة وفى صحبتها حاشية كبيرة العدد من أعظم رجال البلد الذين عهد اليهم بمرافقتها الى حيث يقيم زوجها ، وأبحرت هى معهم ٠

(٣٢)

ولقد شاء الملك أن يعود مقامه بأنطاكية بالخير عليها ، فأعاد أثناء وجوده بها ترميم حصنها الذى كان يقع فى القديم عند جسر على نهر العاص يعرف عادة باسم « جسر الحديد » ، وهى حصن يبعد عن أنطاكية خمسة أو ستة أميال ، وكان ذا نفع كبير فى صد هجمات المغيرين عليها ، كما كان يقوم فى الوقت ذاته عقبة كأداء فى وجه العصابات المتسللة اليها ٠

وبينما كان الملك منصرفا للاهتمام بشئون الامارة اذا بأمه المؤمنة التقية ـ وقد أنهكها المرض الذى لم تشف منه ـ تمضى فى الطريق التى لابد لكل ابن أنثى من أن يسير فيها ، فلفظت أنفاسها فى الحادى عشر من سبتمبر (سنة ١١٦١)(٣١) ، فشق عليه موتها حين نعوها اليه وأسلم نفسه للحزن ، ولم يخف لوعة فجيعته فيها ، مما أظهر للعيان مدى ما كان ينطوى عليه قلبه من الحب العميق لها . والواقع أنه ظل عدة أيام بعد رحيلها تتساقط نفسه حسرة ، وجزع جزعا شديدا لم يستطع أحد ازاءه الاقتراب منه لعزائه ٠

لقد راحت الملكة « مليزند » ذات الذكرى المجيدة لتعيش مع الملائكة ، ودفنت فى وداى « يهوشافاط » على يمين النازل الى قبر العذراء المباركة الطاهرة مريم البتول أم مخلصنا ، وسجى جثمانها فى قبو حجرى تحت الكنيسة ذى أبواب حديدية ، والى جواره مذبح يقام فيه القداس اليومى ترحما على روحها وأرواح جميع المسيحيين الذين ماتوا من أجل السيد ٠

كانت نياط قلب كونت طرابلس فى هذه الأثناء تتقطع ألما وغيظا اذ سخر به الامبراطور فكلفه نفقات باهظة لاعداد أخته للزواج منه ، ثم عاد فرفضها دون أن يبين الحامل على هذا الرفض ، فنبذها كما لو كانت هذه الفتاة بنت رجل من الرعاع · وأسلم الكونت نفسه للحزن المحرق ، وراح يفكر تفكيرا عميقا كيف يجازى الامبراطور مجازاة تكافىء ما فعله به ، وكيف يرد الضربة بمثلها ، وعلى الرغم من أنه كان فى غمرة هذه الأشجان يدرك أن الامبراطور يعتبر أقوى ملوك الأرض قاطبة وأن قوته(٣٢) هو ذاته لن تجديه أبدا فى انزال أى عقاب به ، الا أن نقمته عليه حركته للعمل ضده ، وحتى لا يظهر للملأ أنه غير عابىء بما لحقه من الاهانة أو ساكت عليها فقد أمر بتسليح السفن(٣٣) التى كان قد أعدها لغير هذا الغرض ، واستدعى جماعة من القراصنة والعيارين وأرباب أبشع الجرائم وعهد اليهم بهذه السفن ، وكلفهم بالعيث فســـادا فى أراضى الامبراطور وألا تأخذهم فى ذلك رعاية لشىء أو رحمة بأحد ، وأمرهم باضرام النار فى كل من يصادفونه ، غير مبالين بعمر أو جنس أو وضع ، وألا يستثنوا من بطشهم كنيسة ولا ديرا ، وأن ينطلقوا ينهبون ويسلبون ويدمرون كل مكان ، قرب هذا المكان أو بعد، مبينا لهم أنهم يستعملون السلاح والبطش لاحقاق العدالة التامة ·

أطاع هؤلاء الرجال الكونت وأبحروا وانساحوا فى كل ممتلكات الامبراطور ينفذون أوامر الكونت على مجال واسع فى كل ناحية : جزيرة كانت أو أرضا تجاور بحرا ، وساروا سيرة خرقاء : سداها النهب والحرق ولحمتها الفتك بكل من يصادفونه ، فلم يبالوا أن يدنسوا الكنائس ، ولم يتورعوا عن اقتحام الأديرة ، ولم يوقروا مكانا ما من الأماكن الطاهرة ، ولم يعفوا عن نهب أموال الحجاج

المخصصة لسفرهم وهم فى طريقهم الى الأماكن المقدسة أو فى رجوعهم ، وسقوهم كأس الموت دهاقا ، وقضوا عليهم أن يبقوا فقراء عراة ، ولم يرحموا ذا حاجة ولا عريان الا وزادوا فى بلواه ، كما استولوا على أمتعة التجار المسافرين الذين يستبضعون ويتاجرون لكسب عيشهم وعيش نسائهم وأولادهم ، وأرغموهم على الرجوع الى ديارهم صفر الأيدى ، قد خسروا أموالهم وما يربحون ٠

(٣٤)

فى الوقت الذى كان فيه كونت طرابلس منصرفا لتحقيق رغبته فى الثأر كان الملك موجودا فى انطاكية ٠

ورغبة من الملك فى تناول مسهل قبل دخول الشتاء كما جرت عادته فقد حصل من « باراك » مطبب الكونت على حبوب معينة كان من المفروض أن يتناول القليل منها فى لحظته ، أما البقية فبعد مرور فترة معينة من الوقت ٠

واذ كان أمراؤنا الشرقيون واقعين تحت تأثير زوجاتهم فانهم كانوا يحتقرون الأطبـــاء اللاتين ولا يثقون فى مقدرتهم ، ويؤمنون بكفاءة اليهود والسامريين والسريان والمسلمين فقط ، ولذلك فان أمراءنا هؤلاء أسلموا أنفسهم لأيدى أولئك الممارسين للعـــلاج ، واستأمنوا على أرواحهم قوما جهلاء بالطب ٠

ولقد أشيع أن هذه الحبوب (التى استعملها الملك) كانت سامة وهو قول ربما لم تجاوز الاشاعة فيه الواقع ، ذلك أن القوم عمدوا بعدئذ ــ وهم فى طرابلس ــ الى وضع بقية الدواء فى رغيف قدموه لكلب ليروا أثره فيه فمات الحيوان بعد بضعة أيام قلائل ٠

أما الملك فما كاد يتناول هذه الحبـــوب حتى اعترته حمى ، وأصابه اسهال استحال الى مرض السل الذى لم يبرأ منه أبدا ، ولما اشتدت به آلامه ، وتزايد وجعه لحظة بعد أخرى ، طلب ممن حوله أن يغادر أنطاكية فغادرها الى طرابلس حيث ظل بها طريح الفراش بضعة أشهر وهو يرجو الشفاء مما هو فيه يوما بعد يوم ، فلما تبين له فى النهاية أن وعكته تضاعفت ، وأن الشفاء بات أمرا ميئوسا منه ، أمر أن يحملوه الى بيروت واستدعوا له كبار رجالاتها وأساقفتها ونبلاء المملكة على جناح السرعة ، فاستجابوا لما طلبه ، فلما وافوه صارحهم بايمانه الصادق بالرحمة والاخلاص ، كما اعترف للقسس بنفس خالصة ملؤها الندم بكل آثامه ، وحينذاك بارحت روحه سجنها وانطلقت من هيكلها البشرى وصعدت الى السماء لتنعم برحمة الرب فى صحبة الأخيار ، ولتتوج بالتاج الذى لايفنى أبدا ٠

***

وكانت وفاة الملك بلدوين فى الثالث عشر من فبراير سنة ١١٦٢ من مولد سيدنا ، وذلك فى السنة العشرين من حكمه ، وكان عمره يوم موته ثلاثا وثلاثين سنة ، ولما لم يكن قد أنجب فقد آل العرش شرعا الى أخيه عمورى ٠

وقد حمل جثمان بلدوين الى بيت المقدس فى موكب باك مهيب واحتفال ملوكى ٠ ووقف رجال الدين والناس قاطبة فى الطـــريق يشيعون جنازته ، وساروا الى كنيسة القيامة حيث دفن فى توقير مع أسلافه ، أمام مكان الجلجثة ، حيث صلب الســـيد من أجل خلاصـــنا ٠

***

ولا يعرف التاريخ كما لا يذكر أحد من الأحياء أن الناس قد أحسوا بمثل الذى أحسوه تجاه بلدوين من الحزن العميق والألم

الممض عند موت أى شـــخص آخر من أمتنا أو غيرها من الأمم ، وبالاضـــافة الى ما أبداه أهل المدن التى مر بها موكبه الجنائزى الملوكى من الحزن والبكاء ، فقد جاء من الجبال جمع كثيف من الكفار الذين تتبعوا جثمان الراحل وهم ينتحبون ·

ولقد ظل البكاء موصولا والحزن متجددا عليه ساعة بعد أخرى طوال الأيام الثمانية التى استغرقها انتقال موكب جنازته من بيروت الى بيت المقدس ، بل انه ليقال ان أعداءه أنفسهم أحزنهم رحيله ، كما يقال ان البعض اقترحوا على نور الدين أن يغتنم فرصة موته وانشغال أعدائه بتشييع الجنازة فيغير على بلادهم ، فأجابهم « بل يجب علينا أن نشاطرهم حزنهم ، وأن ندعهم وما هم فيه فلا نزيدهم بلوى على بلواهم لأنهم فقدوا أمـــيرا ليس له فى الدنيا شبيه » ·

* * *

ولما كنا قد وصلنا الى نهاية هذا الكتاب فى تسجيلنا لأعمال هذا الملك فاننا نسأل بحق أرواح القديســـين المجتبين أن تنعم روحه بالراحة الكبرى ·

آمين ··

هنا ينتهى الكتاب الثامن عشر

حواشي الكتاب الثامن عشـــر

(١) اذا كان هذا هو السبب فى هذه المجاعة عند وليم الصورى فـان ابن القلانسى يشير فى ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٥ ، الى ارتفاع الأسعار بدمشق فى ذى القعدة سنة ٤٤٨هـ ، وذلك بسبب عدم الواصلين « اليهـا بالغلات من بلاد الشمال حيث بلغ سعر الغرارة من الحنطة ٢٥ دينارا ، وزاد على ذلك » ٠

(٢) رومية ١٢/١٥ ٠

(٣) راجع الكتاب الأول من هذه الترجمة العربية ٠

(٤) أشارت الترجمة الانجليزية فى تعليـــق لها على « أجنس » هذه فقالت انها من الشخصيات شبه الأسطورية ، وكذلك الحال مع جيرالد ، ونحيل القارىء الى الجزء الثانى من هذه الترجمة العربية ، ص ٦٩ ، والى الفهرس الأبجدى الملحق باخر الجزء الرابع من ترجمتنا هذه ٠

(٥) اشعيا ١/٢ ٠

(٦) الملوك أول ١٩/٢١ ٠

(٧)فيما يتعلق ببلعام راجع القصة فى العهد القديم ، العدد ، ٢١ ــ ٢٣ ٠

(٨) ورد هذا المكان باسم « بيت وعر لبنان » فى التوراة ، فقد جاء فى الملوك أول ١٠/١٧ ، » وعمل الملك سليمان بيتى ترس من ذهب وجعلها فى بيت وعر لبنان » ، كذلك وردت الاشارة اليه أيضا فى سفر الأيام (ثانى) ٩/٢٠ ٠

(٩) « الاخوان » الذين اجملهم هنا وليم الصورى فسرهم ذيل تاريخ دمشق ، صفحة ٣٣٩ ، بأن عدتهم كانت سبعمائة فارس من أبطال الاسبتارية والسرجندية والداوية ٠

(١٠) كان خروجهم بامر نصرة الدين امير ميران من راس العبد التى يقول « لى سترانج » عنها ان أبحاث سير ولسون افضت به الى اعتبارها هى « كفر سلام » التى وردت فى سفر الاعمال ٢٣/٣١ باسم « أنتيبياتريس » فى قوله « فالعسكر أخذوا بولص كما أمر داود وذهبوا به ليلا الى انتيبيا تريس » ٠

(١١) ذكر الذيل ، ص ٣٤٠ ، أن نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات كان قبل السابع من ربيع الآخر عام ٥٥٢هـ ، أما فتحها فكان عندما « تناهى النقب واطلاق النار فيه » ٠ وجاء فى نفس المرجع وصف مذلة الفرنجة وقد وصلت الأسرى ورؤوس القتلى الى دمشق وقد زينوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم والمقدمون منهم وولاة المعاقل ، كل واحد منهم على فرس وعليه الزرد والخوذة ، وفى يده راية ، والرجالة من السرجندية والدركبوليه كل ثلاثة وأربعة واقل واكثر فى حبل » ومما قيل من الشعر فى وصف ذلك :

مثل يوم الفرنج حين علتهم	ذلة الاسر والبلا والشقاء
وبراياتهم على العيس زفوا	بين ذل وحسرة وعناء
بعد عز لهم وهيبة ذكر	فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا ، هكذا ، هلاك الأعادى	عند شن الاغارة الشعواء
لا حمى الله شملهم من شتات	بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر	وجزاء الشكور خير الجزاء

(١٢) المزامير ٩١/٧ ٠

(١٣) المقصود بالأمير العظيم هنا السلطان نور الدين محمود بـــن عماد الدين زنكى ٠

(١٤) المزامير ١٤/٤٤ ٠

(١٥) كان الداعى لهذه الحرب هو نقض الصليبيين لمعاهدتهم مع نور الدين واغاراتهم على الجشارات ومواشى المسالمين والفلاحين المضطرين الى الرعى فى الصــراء لسكونهم الى الأمن بالمهادنة والموادعة » (راجـــع ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٩) ، وقد نزل الصليبيون على الملاحـــة من طبرية وبانياس فنهض لهم نور الدين فتمكن من فرسانهم قتلا وأسرا « ولمْ يفلَت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر ٠٠٠٠ ، وقيل ان ملكهم فيهم ، وقيل انه فى جملة القتلى ، ولم يعرف له خبر » ٠ انظر الذيـــل لابن القلانسى ص ٣٤١ وراجع الحاشية أعلاه رقم ١١ ٠

(١٦) أورد وليم الصورى هذا الحصن باسم Chastel Neuf اما موضعه فسماه باسم Noire Garde

(١٧) أى تيبرى كونت فلاندرز ٠

(١٨) فيما يتعلق بخبر مرض نور الدين وما كان له من ذيول وأحداث فى الجانب الاسلامى نعود الى ابن القلانسى فنجده يذكر فى ذيلـه لتاريخ دمشق أنه فى رمضان سنة ٥٥٢هـ عرض لنور الدين مرض حاد خاف منـه على نفسه حتى انه استدعى اليه أخاه نصرة الدين ميرميران وأسد الدين شيركوه وأعيان الأمراء والمقدمين ، ثم قرر بحضرتهم أن يكون أخوه نصرة الدين فى الحكم من بعده على أن يكون مقيما بحلب ، ويكون أسد الدين فىَ دمشق ، ثم زادت العلة به فنقلوه فى محفة الى حلب ثم جاءت الأخبار مرجفة بما أزعج خاطر الناس عن نور الدين حتى لقد « طمع الافرنج فقصدوا مدينة شيزر ، وأفحشوا القتل فى أهلها والنوب ، ولكن تصدى لهم الاسماعيلية فأخرجوهم من شيزر » ٠ ثم يتكلم ابن القلانسى عما حدث بحلب من أن والى قلعتها واسمه مجد الدين منع نصرة الدين من دخولها ، فثار الأهالى ضد مجد الدين وكسروا الباب وأدخلوا نصرة الدين ، وكان موقف والى القلعة ناجما عن أنه كان يعلم أن نور الدين لايزال حيا ، وصعد الى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقولَ وما يقال » ، ولقد صفحَ نور الدين عما كان من العامة وقال : « ماطلبوا الا صلاح حال أخى وولى عهدى من بعدى »

أما نصرة الدين فقد انصرف الى مدينة حران التى كان قد وليها • ويلاحظ أن ابن القلانسى كان شاهد عيان لهذه الأحداث ولشفاء السلطان الملك العادل، فنظم هذه الأبيات :

لقد حسنت صفاتك يا زمانى	وفزت بما رجوت من الأمانى
فكم أصبحت مرعوبا مخوفا	فبدلت المخافة بالأمان
وجاءتنا أراجيف بملك	عظيم الشأن مسعود الزمان
فروعت القلوب من البرايا	وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة يخشى أذاها	على الاسلام من قاص ودان
ووالى بعد ذاك بشير صدق	بعافية المليك مع التهانى
فولى الخوف مهدوم المبانى	وعاد الأمن معمور المغانى

(١٩) يعنى مسألة لمن يكون قطع يمين الولاء والتبعية حسبما تقضى الأنظمة الاقطاعية •

(٢٠) المقصود « بالمشروع » هنا هو الاستيلاء على شيزر واقطاعها لتيرى كونت فلا ندرز •

(٢١) راجع فى دخول « مير ميران » حلب ثم سرعة انسحابه منها الحاشية رقم ١٨ •

(٢٢) كان الحصن الذى يشير اليه وليم فى المتن أعلاه هو حصن حارم المجاور لأنطاكية ، وقد سبق التعريف بهذا الحصن المعروف عند الصليبيين باسم Harenc

(٢٣) ترجح الترجمة الانجليزية أن هذه الأخت هى « ايفيتا » IVETA أصغر شقيقات الملكة مليزند ، وكانت « ايفيتا » هذه حينذاك رئيسة للدير الذى أسسته الملكة ، وتبنى الترجمة الانجليزية هذا الترجيح على ماجاء فى :
Chronique De Robert de Torigni, abbe du monte-Saint-Michel, (ed. Par Delisle,) t. I, P. 325.

(٢٤) المقصود بالأمير التركى هنا نور الدين محمود •

(٢٥) أوردها وليم فى المتن برسم Puthala وقال جب فى Damascus Chronicle انها « بزاعة » •

(٢٦) كانت هذه السفارة التى فيها أتارد فى أواخر سنة ١١٥٧م ، ولكن اشارة وليم الى وفاة هذا الاسقف التى وقعت سنة ١١٨١ تبين أنـه كتب هذا الخبر فى تلك السنة أو التى بعدها ، أى قبل ثلاث سـنوات من « القائه القلم » ، راجع مقدمتنا العربية للجزء الأول من هذه الترجمة لكتاب وليم الصورى ، الحروب الصليبية ٠

(٢٧) كورنثوس الأول ١٢/١١ ٠

(٢٨) فيما يتعلق بسيس التى يقول عنها أبو الفدا انها احدى مـدن أرمينيا الكبرى راجع ما أورده عنها Le-Strange : Op. Cit. P. 538 من أقوال الجغرافيين والمؤرخين العرب ٠

(٢٩) يستفاد مما هو وارد فى :
Chalandon : Les Comnénes II, PP. 448 — 450.

أن المفاوضات مع توروس قد تمت بينه كطرف أول وبين الملك بلدوين والداوية كطرف ثان ٠

(٣٠) ترجح الترجمة الانجليزية لكتاب وليم هذا أنه لا يستبعد أن يكون وليم قد حصل على هذه المعلومات من « عمورى » أخى بلدوين الثالـث نفسـه ٠

(٣١) أشارت الترجمة الانجليزية (ج٢ ص ٢٩١ ، حاشية رقم ٨٨) الى صحة هذا التاريخ الذى أكدته أبحاث :
R. Rohricht : Geschichte des Konigreiche Jersualem, 1100 — 1291, P. 307

(٣٢) الضمير هنا عائد على كونت طرابلس ٠

(٣٣) أى السفن التى كانت مهيأة لسفر أخته وكبـار المدعوين الى القسطنطينية ٠

صدر فى هذه السلسلة

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ١
توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمـال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ٢
توفيق الطويل

٢٤ ـ الصحافـة الوفديـة
د. نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى والغرب
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٩ ـ مصر فى عهد الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د. حلمى احمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب جـ ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوسف
تاليف : د. سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبو العصور
محمد شفيق غربال

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد عفيفى

٤٥ ـ الحروب الصليبية جـ ١
ترجمة : أ.د. حسن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تأليف : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : أ.د. لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفلاح المصرى
تأليف : د. زبيدة عطا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : أ.د. عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د. سهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
اعداد : د. عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر
تأليف : د. الهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ أربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك
د. محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى
تأليف الدكتور محمد عفيفى

٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ ٢
ترجمة وتحقيق : د. حسن حبشى

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د. حلمى احمد شلبى

٥٧ ـ مصر الاسلامية وأهل الذمة
د. سيدة اسماعيل كاشف

٥٨ ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د. ابراهيم عبد الله المسلمى

٥٩ ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر
د. عبد السلام عبد الحليم عامر

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى

٦١ ـ تاريخ الاســــكندرية
أ٠د٠ عبد العظيم رمضان

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٣
لمـعى المطيعى

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
اعداد ـ د٠ عبد العظيم رمضان ٠

٦٤ ـ مصر وحقوق الانسان
د٠ محمد نعمان جلال

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د٠ سهام نصار

٦٦ ـ المراة فى مصر فى العصر الفاطمى
د ٠ نريمان عبد الكريم أحمد

٦٧ ـ الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الاسرائيلية
أ ٠ د ٠ عبد العظيم رمضان

الفهـــرس

الصفحة

هذا هو الجزء الثالث من الترجمة العربية لكتاب وليم الصورى عن الحروب الصليبية لفترة تستمد أهميتها من أن المؤلف شاهد بعض أحداثها ، وشارك فيها ، كما اطلع على ملفاتها ووثائقها فى دور المحفوظات بالقسطنطينية والقدس وكنيسة روما ذاتها .

ولقد كانت امنية اساتذة تاريخ الحروب الصليبية والعصور الوسطى أن يجدوا هذا الكتاب فى العربية ، لكن كانت ضخامته تحول دون تحقيق هذه الأمنية حتى اضطلع لها استاذ فاضل ومؤرخ كبير ترجم إلى العربية العديد من وثائق تلك العصور من اللاتينية والفرنسية القديمة . ذلك هو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، وقد خرجت ترجمته العربية وتعليقاته شاهدة على المعيته ودقته وسعة اطلاعه ، كل ذلك فى أسلوب عربى فصيح ، وبيان مشرق الديباجة لا يحس فيه قارئه شبهة الترجمة .

ويسر هيئة الكتاب أن تقدم لقرائها وطلاب الثقافة العميقة الجادة فى العالم العربى هذا الكتاب .

Bibliotheca Alexandrina
0397049

٥٧٥ قرشا